أثر العامل الديني
في توجيه الحركة الصليبية

أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية

الدكتور محمد صالح منصور
أستاذ العلاقات بين الشرق والغرب
وتاريخ العصور الوسطى الأوربية المساعد
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة قاريونس
بنغازي - الجماهيرية العظمى

ط ١ ١٩٩٦م

منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي

مكتبة الجامعة الأردنية
٢٦ تموز ١٩٩٨
رقم التسلسل ٤٨٧٥٦٢
رقم التصنيف
٩٥٦,٠٥٤٥

رقم الايداع 95 / 2077
دار الكتب الوطنية - بنغازي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الاولى 1996 م .

لايجوز طبع أو استنساخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
الا بعد الحصول على الموافقة الكتابية من الناشر

منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾

[الأنفال: 19]

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[آل عمران: 138 ـ 140]

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

[الأنعام : 67]

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

الإهـــداء

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: 103].

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الأحقاف: 12].

﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: 194 ـ 195].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: 3].

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: 37].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [طه: 113].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الشورى: 7].

﴿ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: 28].

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: 3].

* * *

قال النبي العربي محمد ﷺ:

«أحب العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي».

قال الشاعر علي محمود طه:

وما هي إلاّ أمةٌ عربيةٌ موحدة في فكرةٍ ولسانِ

وقال الشاعر أحمد شوقي:

وطني لو شُغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وقال الشاعر الفارس أسامة بن منقذ الشيزري:

أَبى اللّهُ إلاّ أن يكونَ لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العَصْرُ

وقال الشاعر العربي الفارس أبو فراس الحمداني:

ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وقال الشاعر العربي أحمد الشارف:

رضينا بحتف النفوس رضينا ولم نرض أن يعرف الضيم فينا
ولا نرضى بالعيش إلا عزيزاً ولا نتقي الشر بل يتقينا

قال الشاعر علي محمود طه:

همُ العربُ الصيدُ لا تحسبن بهم صنعةً أو ضنى أو كلالا
نماهُم على البأس آباؤهم قساورةً وسيوفاً صِقالا
بُناةُ حضارةٍ من المشرقين ذُرىً يخشعُ الغربُ منها إجلالا

إلى العروبة أمتي

التي تتحدى الفناء والعدم والتي لا تخضع ولا تركع لأحد إلا لله الواحد الأحد.

إلى العروبة أمتي

التي رفضت بالإرادة المستحيل وبالإرادة جعلت ما كان مستحيلاً ممكناً والممكن واقعاً لا خيالاً وسراباً.

إلى الإرادة العربية إرادة البقاء والخلود والمجد، التي تواجه تحديات ضخمة، الإرادة المتفجرة من ضمير الملايين من أبناء أمتنا العربية، النابعة من ماضي الأمة وتراثها وتقاليدها الجهادية والثقافية الطامحة لمستقبل مشرق سعيد.

إلى العروبة أمتي

التي هي كحبات الندى التي لامست هذه الأرض الطيبة الحبيبة الغالية منذ أول فجر وخيط ضوء.. عرفته البشرية وعرفته أرضنا المعطاة الصَمُودْ.

إلى العروبة أمتي

فهي حية في كل حبة رملٍ من صحارينا، ماثلة في كل عودٍ أخضرٍ من روابينا، شاخصةٌ تنبض بالحياة في كل شبرٍ من شواطئنا من بحر العرب وخليجهم والمتوسط وحتى بحر الظلمات...

إلى العروبة أمتي

التي ولد فيها الأمل وتصلب عوده حتى أصبح صواناً، بعد النكبات فمن وسط الحرائق والدخان والركام والأنين ومن على رؤوس الجماجم التي تكدست في مذابح الغزاة ومن اليأس ولد الأمل المارد العربي.

إلى العروبة أمتي

التي نشرت الخير والنماء والحضارة ـ لها ولمن حولها من بني الإنسان ـ التي بنيت على التوحيد والإيمان والقسطاس المستقيم وانتصرت للمظلومين والمضطهدين والمستضعفين.

إلى الجيل العربي الأمل المستقبل إلى جيل الوحدة والتحرير الذي سيهبط على العدو كما هبط أجداده هبوط الصقور الحرة على العدو والذين نحتوا بأرواحهم ملاحم المجد والشرف في ذي قار وبدر الكبرى وأجنادين واليرموك والقادسية ونهاوند وذات الصوارى والزلاقة وحطين وعين جالوت ومعارك البحر المتوسط ومعارك جنوب وشمال الألب ومعارك جامع القيشاوة ومسجد القصبة والحراش ولْسين والقرضابية والهانىء والبركة ومعارك الجبل الأخضر وكريتر وبنزرت وبور سعيد ومعركة الكرامة والعرقوب وملاحم جنوب لبنان الصامد.

إلى أبناء العروبة أمتي

الأشاوس المغاوير الذين استهانوا وسخروا من التجزئة وأكذوبة الحدود ولم يعشقوا ويعترفوا إلا بوطن للعروبة عربي واحد من الخليج إلى المحيط.

يسرني كعربي مؤمن بعروبتي حتى النخاع وأقولها بفخر وشموخ وبصوت مجلجل يلامس أعناق السماء يسرني أن أهدي كتابي هذا للأمة العربية من الخليج إلى المحيط.

إلى هذه الأمة التي ينطبق عليها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . .﴾ [آل عمران: 110].

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور: 35].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: 74].

أقدم هذا العمل العلمي الذي يكشف وجه الغرب الصليبي وتكالبه على وطن العروبة وديار الإسلام ويقدم الدليل على رسوخ قدم الأمة العربية تاريخياً وجغرافياً وعقيدة ودماً، متمنياً أن يكون زاداً لشبابنا لا ينفد ومعيناً للباحثين لا ينضب، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21].

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 70].

شكر وتقدير

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 283].

يسرني أن أتقدم بالشكر إلى كل من قدم يد عون في إنجاز هذا الكتاب؛ ومن هؤلاء العاملين بجامعة قاريونس، وبالتحديد المكتبة المركزية وأخص بالذكر قسم الإعارة وعلى رأسهم الأخوة الأساتذة عمران الشكماك ومحمد الظريف وأبو بكر الشريف وقسم الوسائل التعليمية وعلى رأسهم الأخ الأستاذ أدريس شمبش. وقسم المراجع وعلى رأسهم الأخت الأستاذة حليمة الضراط وقسم الدوريات وعلى رأسهم الأخ الأستاذ محمد الفيتوري، كما أشكر الأخ الأستاذ سالم زقزوق والأخ عبدالسلام الفرجاني وأشكر العاملين بمكتبة المبيعات وعلى رأسهم الأخت فوزية السكران وأشكر الأخ الأستاذ عبدالرحيم البكوش والعاملين بمكتب المدينة للطباعة والتصوير كما أشكر الأخوة العاملين بالإدارة العامة لجامعة قاريونس وأخص بالشكر إدارة الدراسات العليا وشؤون أعضاء هيئة التدريس وأشكر العاملين بكلية الآداب والتربية ويسرني أن أشكر الأخ الأستاذ الصديق عبدالرحمن الشريدي لجهوده في طباعة ونشر هذا الكتاب. والشكر للعاملين بدار الكتب ببنغازي.

وأتوجه أيضاً بالشكر إلى العاملين بجامعة القاهرة وبخاصة في المكتبة المركزية وبالتحديد قسم الإعارة وعلى رأسهم الأخ الأستاذ جمال متولي الذي بذل الكثير من الجهد الصادق في المساعدة من أجل استكمال هذا الكتاب وكذلك أتوجه بالشكر لقسم النسخ والتصوير وعلى رأسه الأخ الأستاذ

مجدي شارد وقسم الرسائل وعلى رأسه الأخ الأستاذ حمدي الخولي وكذلك العاملين بشبكة المعلومات بجامعة القاهرة والشبكة القومية بالقاهرة. وكذلك أتوجه بالشكر إلى العاملين بالمجلس الأعلى للجامعات بمصر العربية والعاملين بكلية الآداب وخاصة قسم الدراسات العليا. وأتوجه بالشكر إلى العاملين بقسم التاريخ.

وأتوجه بالشكر إلى العاملين بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وبخاصة أقسام الإعارة والتصوير والدوريات وكذلك الشكر للعاملين بمركز الثقافة البريطاني بالقاهرة. ومكتبة الكونجرس الأمريكية بوشنطن.

ولا يفوتني أن أشكر الأخ الأستاذ الدكتور حجاجي إبراهيم محمد، على ما قدمه من آراء لإخراج هذا الكتاب وكذلك الشكر للأخ الأستاذ الدكتور محمد زينهم لما قدمه من مشورة. والشكر للأستاذ الدكتور محمد الجهيني لما قدمه من مشورة. وكذلك الشكر للأساتذة سمير ومحمد الأمير وسيف النصر وناصر الجزائري لجهودهم في بعض من الترجمة.

والشكر والتقدير للأخ الأستاذ نهاد الجمل على عمله الدؤوب بدون كلل من أجل طباعة رسالة الدكتوراه.

ولا بدّ لي أن أتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور محمد صفي الدين أبو العز الذي قدم الكثير من النصائح البناءة.

وفي الختام، يسرني ويطيب ليّ أن أتوجه بالشكر والتقدير والعرفان لأستاذ الجيل المعاصر من المؤرخين ودارسي التاريخ الأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ـ رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ـ الذي شملني برعايته وتوجيهاته فضلاً عن جهوده في إنجاز رسالة الدكتوراه منذ أن كانت مجرد فكرة حتى غدت حقيقة فله مني الاحترام والتقدير والامتنان ومن الله أطلب له الصحة وطول العمر.

كذلك أتوجه بالشكر إلى الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع نائب رئيس جامعة القاهرة لما قدمه لي من مساعدات وبخاصة عندما ساهم في

إتمام إجراءات القبول عندما كان عميداً لكلية الآداب بجامعة القاهرة وكذلك نصائحه وملاحظاته القيمة التي أبداها أثناء مناقشة رسالة الدكتوراه، وأتوجه كذلك بالشكر والامتنان إلى الأستاذة الدكتورة عليه عبد السميع الجنزوري رئيس قسم التاريخ بجامعة عين شمس وأستاذ العصور الوسطى لما قدمته من ملاحظات قيّمة أثناء مناقشة الرسالة.

والتحية والتقدير لجميع الأخوة الأصدقاء العرب من الجماهيرية العظمى ومن مصر العربية ومن كافة الساحات العربية على الدعم العاطفي المتميز الذي شملوني به أثناء الكتابة والمناقشة والذي كان له دوراً مهماً في شحذ الهمم. وأخيراً الشكر والتقدير لجميع الأخوة الأساتذة العاملين بمكتب المتابعة العربي الليبي بالقاهرة. وأشكر الأستاذ الدكتور محمد الدناع والأستاذ سعيد الشريف للقراءة اللغوية للملاحق.

ومسك الختام أشكر الله سبحانه وتعالى الذي وفقني إلى ذلك وأشكر أسرتي بكامل أفرادها الذين شملوني بالحنان والدعاء. وأشكر المجتمع العربي الليبي الذي هيأ ليّ فرصة إتمام دراستي في مصر العربية خاصة في وقت اشتد الحال على بلدي ليبيا العربية الحبيبة بسبب الحصار الاستعماري الغربي الظالم، لكن الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى شامخة كالطَّوْد أو شامخة شموخ جبالها الأخضر والغربي. تردد قول شاعر العروبة أبو القاسم الشابي:

سأَعيش رغمَ الداءِ والأَعداء ... كالنَّسر فوق القِمَّةِ الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة، هازئاً ... بالسحْب، والأمطارِ والأنواء...

إلى أن يقول (على لسانها):

أما أنا فأجيبكم من فوقكم ... والشمسُ والشفق الجميل إزائي:
من جاش بالوحي المقدَّس قلبُه ... لم يحتفِلْ بحجارة الفلتاء

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: 64].

ويقول الحق:

﴿ . . . كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64].

ويقول:

﴿ . . . وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13ـ 14].

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: 150].

ويقول وقوله الحق:

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: 160].

«صدق الله العظيم»

الدكتور / محمد صالح منصور

بنغازي ـ الجماهيرية العظمى

الفاتح من شهر الفاتح 1424 م 1995 إفرنجي

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	23
الفصل الأول: الأوضاع الدينية في غرب أوربا حتى قيام الحركة الصليبية	37
أ ـ الكنيسة الغربية ونفوذها الزمني	44
ب ـ البابوية وهيمنتها على المجتمع المسيحي الغربي	52
جـ ـ العلاقة بين الكنيسة والدولة	65
د ـ صحوة الكنيسة وحركة الإصلاح الديني في غرب أوربا في القرن الحادي عشر	74
الفصل الثاني: موقف الكنيسة من حركة الفتوح الإسلامية في حوض البحر المتوسط	81
أ ـ الفتوح الإسلامية وصداها في العالم المسيحي	84
ب ـ أثر الفتوحات الإسلامية في بلاد حوض البحر المتوسط	100
جـ ـ ضعف الكنيسة والعالم المسيحي الغربي في الشطر الأول من العصور الوسطى وترقب الفرص لتحول ميزان القوى في صالح الجانب المسيحي ضد المسلمين	114
الفصل الثالث: الطابع الديني لصحوة الدولة البيزنطية في القرن العاشر	117
أ ـ صحوة الدولة البيزنطية في القرن العاشر	120
ب ـ الدولة البيزنطية ومهاجمة المسلمين في القرن العاشر	132

الموضوع — رقم الصفحة

جـ ـ الطابع الديني لحملات نقفور فوقاس وحنا تزمسكيس ضد John Tzimisces ضد المسلمين في أواخر القرن العاشر 145

د ـ ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث وتزعمهم حركة الجهاد الديني ضد الصليبيين 152

الفصل الرابع: البابوية تتزعم مسيرة الحروب الصليبية 163

أ ـ استنجاد أباطرة الدولة البيزنطية بالغرب الأوربي بعد الكوارث التي حلت بهم على أيدي السلاجقة 166

ـ مبالغة الأباطرة البيزنطيين في تصوير سوء أوضاع المسيحيين والحجاج الغربيين تحت حكم المسلمين 175

ب ـ دعوة البابا أوربان الثاني للحروب الصليبية ضد المسلمين في مجمع كلير مونت سنة 1095 185

ـ دراسة تحليلية لخطاب البابا وما يحويه من اتجاهات لاستثارة المشاعر الدينية ضد المسلمين في غرب أوربا 191

جـ ـ حرص البابوية على الإشراف على الحركة الصليبية 194

ـ إيفاد مندوب بابوي (ادهمار) مع الحملة الصليبية الأولى ... 195

ـ بطارقة بيت المقدس الكاثوليك ومحاولة إقامة حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة ومكانة رجال الكنيسة في ظل الحكم الصليبي في الإمارات الصليبية ببلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر 197

الفصل الخامس: ملامح ذبول العامل الديني قبل وبعد إجلاء الصليبيين من بلاد الشام 203

أ ـ فتور العامل الديني في الغرب الأوربي أواخر العصور الوسطى 205

ـ بداية التحول نحو عالم جديد يستهدف التحرر من الدين ورجاله 212

ب ـ ازدياد أهمية العامل الاقتصادي وتغلبه على العالم الديني .. 214

الموضوع — رقم الصفحة

جـ ـ انهيار البناء الصليبي في بلاد الشام يصيب المجتمع الغربي بخيبة أمل 218

ـ انحراف الحركة الصليبية ـ الحملة الرابعة سنة 1204 م 227

د ـ فشل بعض المتدينين من حكام الغرب الأوربي في إحياء الروح الصليبية 231

ـ مشاريع الدعاة وعدم إمكانية تنفيذها عملياً 234

هـ ـ اشتداد التيار الصليبي ضد المسلمين في الأندلس وشمال إفريقية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر 239

ـ ذيول الحروب الصليبية 234

ـ التيار الديني في حركة الكشوف الجغرافية 248

الخاتمة 253

الملاحق: 261

ـ ملحق رقم (1) خطاب البابا أوربان الثاني 263

ـ ملحق رقم (2) موقعة مانزكرت (26 أغسطس 1071 م) 266

ـ ملحق رقم (3) الكنيسة الكاثوليكية 269

ـ ملحق رقم (4) تشكيلات مملكة القدس اللاتينية.......... 274

ـ ملحق رقم (5) كشاف أبجدي بأسماء المدن والأماكن 282

ـ ملحق رقم (6) بدايات حياة الرهبنة 296

ـ ملحق رقم (7) نظرية هنري بيرين والرد عليها.......... 298

ـ ملحق رقم (8) استمرار التيار الديني 302

الجداول: 421

جدول رقم (1) بطارقة بيت المقدس اللاتين 423

جدول رقم (2) الفاطميون 425

جدول رقم (3) الأيوبيون في مصر 426

جدول رقم (4) المماليك البحرية................ 427

جدول رقم (5) سلاجقة إيران والعراق 429

الموضوع رقم الصفحة

جدول رقم (6) الحمدانيون في حلب 430

جدول رقم (7) ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية 431

جدول رقم (8) أ ـ أتابكة الموصل 433

ب ـ أتابكة الشام 433

جـ ـ أتابكة سنجار 434

جدول رقم (9) أماكن العبادة 435

جدول رقم (10) الحصون والقلاع الحربية 436

جدول رقم (11) المجامع المسكونية 438

الخرائط :

خريطة رقم (1) فلسطين في عصر الحروب الصليبية 440

خريطة رقم (2) الإمارات الصليبية ببلاد الشام 441

خريطة رقم (3) الإمارات الصليبية بعد الحرب الصليبية الأولى 442

خريطة رقم (4) الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام 443

خريطة رقم (5) الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية 444

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية 445

تقـــديـم

للأستاذ الدكتور / حسن حبشي

يسعدني أن أقدم هذا الكتـاب الذي كان في الأصل رسالة وضعها الدكتور/ محمد صالح منصور لدرجة الدكتوراه في التاريخ الوسيط بإشراف الزميل الأستاذ الدكتور/ سعيد عاشور، وحسب هذه الرسالة أن يتوفر لها هذا الكاتب وذلك المشرف لتحتل مكانتها اللائقة بها بين المؤلفات التاريخية المهمة.

ولقد خرجت من قراءة هذه الرسالة بانطباعات عدة لعل من أهمها أن الباحث لم يقيد نفسه بالأحداث فيسردها سرداً وإنما استطاع بألمعيته وحاسته التاريخية الصادقة أن يتخذها وسيلة لاستنباط آراء قد نختلف معه في بعضها وقد نتفق في البعض الآخر، ولكن الاختلاف والاتفاق يؤديان إلى «التفكير» في هذا الحدث من جوانب شتى متعددة وبذلك يصبح التاريخ «كائناً حياً»، له وقع ونبض.

ثم انطباع آخر أحسست به بعد مطالعتي هذه الرسالة هو أن المؤلف كان «حيادياً» إلى أقصى حدود الحياد الصحيح في عرض مختلف القضايا التاريخية سواء منها ما سبق ومهد للحروب الصليبية أو ما تمخض عنها ولعل أهم النتائج التي توصل إليها الدكتور محمد صالح هو ما ترتب على هذه الحروب من حدوث انقلاب في مجريات الأمور مما أحدث هزة عنيفة في التفكير الديني والاقتصادي والسياسي في الغرب، وما كان لذلك من أثر في الشرق الغربي من إفريقية، ثم محاولة دعاة الحروب إلى نقل محاولات

الصراع إلى بلاد الأندلس والشمال الإفريقي الغربي.

ولسنا هنا في هذه الكلمات بصدور بيان ما حوته الرسالة من صور كثيرة ولكني أترك للقارىء مهمة استخراج ما يشاء منها، وكل ما يخرج به نافع لإثراء التفكير التاريخي.

ولا يسعني في الختام إلا أن أهنىء الدكتور محمد صالح منصور على هذا العمل العلمي الجاد الذي كان ثمرة جهد يده، فأكرم ـ إن شاء الله ـ بغيره في هذا الميدان.

حسن حبشي

أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي والوسيط

بجامعة عين شمس القاهرة في 1995/8/7 م

المقـــدمـــة

يشكل موضوع هذا الكتاب ركناً هاماً في دراسة الحركة الصليبية والتي تكوّن بدورها حلقة لها أبعادها في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، في العصور الوسطى. وعلى هذا، فإن موضوع هذا الكتاب يعالج ظاهرة واسعة الأفق، بعيدة الأهداف، تركت آثارها العميقة في شعوب المشرق والمغرب الإسلاميين فضلاً عن العديد من البلاد الأوربية.

وفي مقدمة كتابه عن الحركة الصليبية يقول الأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور أحد كبار الأساتذة المتخصصين: «وترجع أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا أنها تشكل تجربة في تاريخ العروبة والإسلام جميعاً سواء في الشرق أو الغرب. وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج، وإنما هي تجربة كبرى خطيرة مليئة بالدروس والعظات، مما يتطلب منا أن نتأملها ونبحثها في كل الأوقات ـ الآن وفي المستقبل ـ لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، وبذلك نحفظ للعرب حقوقهم وللعروبة كيانها، ونضمن لأبنائها حياة حرة كريمة في وطننا العزيز»[1].

ومثل هذه الحركة الضخمة لا بد وإن كان وراءها بواعث وعوامل حركتها ووجّهتها وأثّرت في مسيرتها، وكما يبدو من الاسم الذي لصق بهذه الحركة منذ مولدها، فإن العامل الديني يبدو في مقدمة العوامل الكامنة وراء الحركة الصليبية من بدايتها حتى نهايتها. وليس معنى هذا أننا نقلل من قيمة

(1) الحركة الصليبية، جـ 1، طـ 3، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975، ص 7.

البواعث الأخرى التي أسهمت في توجيه الحركة الصليبية، وهي بواعث عديدة ما بين اقتصادية واجتماعية وسياسية، ولكننا مع اعترافنا بأهمية هذه البواعث المتباينة، نضع العامل الديني على رأسها. وحسب الحركة الصليبية أنها تعبر عن صدام مباشر طويل الأمد بين أتباع أكبر ديانتين سماويتين عرفهما العالم وهما الإسلام والمسيحية، كذلك حسب الحروب الصليبية أن شرارتها الأولى انطلقت من مجمع ديني كنسي كبير وأن الذي أشعل هذه الشرارة كان البابا رأس الكنيسة الغربية وأخيراً حسب الحركة الصليبية أن أولى صفحاتها افتتحها رجال اختاروا أن يخيطوا الصليب على أكتاف أرديتهم إشارة إلى الهدف الذي خرجوا من أجل تحقيقه[1].

على أن العامل الديني لم يلبث أن اعتراه الفتور كقوة رئيسية محركة للحروب الصليبية وذلك عندما أخذ المجتمع في غرب أوربا يتحرر تدريجياً من سيطرة الكنيسة ورجالها وذلك في مرحلة أدرك الكثيرون أن المكاسب التي حققتها الحروب الصليبية لا تتناسب إطلاقاً مع ما بذل فيها من إمكانيات. وصحب ذلك انفتاح الغرب حضارياً واقتصادياً على الشرق مما جعل العامل الاقتصادي يتبوء مكانة الصدارة. كقوة مؤثرة في مسيرة الحركة الصليبية التي ظلت تتخذ من الدين ستاراً لها. وهكذا يبدو العامل الديني في صورة قوة لها وزنها المتأرجح في توجيه أحداث الحركة الصليبية، وقد أدركنا أن هذا العامل جدير بدراسة عميقة متفتحة داخل إطار الأوضاع الفكرية التي سادت الشرق والغرب في العصور الوسطى، لذا اخترت العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية موضوعاً لهذا الكتاب الذي عالجته على أساس تقسيمه إلى خمسة فصول هي:

الفصل الأول: ـ الأوضاع الدينية في غرب أوربا حتى قيام الحركة الصليبية.

أ ـ الكنيسة الغربية ونفوذها الزمني.

ب ـ البابوية وهيمنتها على المجتمع المسيحي الغربي.

(1) الحركة الصليبية، جـ 1، طـ 3، ص 28 ـ 42.

ج ـ العلاقة بين الكنيسة والدولة.

د ـ صحوة الكنيسة وحركة الإصلاح الديني في غرب أوربا في القرن الحادي عشر.

الفصل الثاني: ـ موقف الكنيسة من حركة الفتوح الإسلامية في حوض البحر المتوسط.

أ ـ الفتوحات الإسلامية وصداها في العالم المسيحي.

ب ـ أثر الفتوح الإسلامية في بلاد حوض البحر المتوسط.

ج ـ ضعف الكنيسة والعالم المسيحي الغربي في الشطر الأول من العصور الوسطى وترقب الفرص لتحول ميزان القوى في صالح الجانب المسيحي ضد المسلمين.

٤٨٧٥٦٧

الفصل الثالث: ـ الطابع الديني لصحوة الدولة البيزنطية في القرن العاشر.

أ ـ صحوة الدولة البيزنطية في القرن العاشر.

مظاهرها ـ أسبابها ـ أهدافها.

ب ـ الدولة البيزنطية تستغل هذه الصحوة في محاربة المسلمين في الجبهة الشرقية.

ج ـ الطابع الديني لحملات نقفور فوقاس وحنا تزمسكيس ضد المسلمين في القرن العاشر.

د ـ ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث وتزعمهم حركة الجهاد الديني ضد البيزنطيين.

الفصل الرابع: ـ البابوية تتزعم مسيرة الحروب الصليبية.

أ ـ استنجاد الدولة البيزنطية بالغرب الأوربي بعد الكوارث التي حلّت بهم على أيدي السلاجقة.

ـ مبالغة الأباطرة البيزنطيين في تصوير وضع المسيحيين والحجاج الغربيين تحت حكم المسلمين.

ب ـ دعوة البابا أوربان الثاني للحروب الصليبية ضد المسلمين في مجمع كليرمونت سنة 1095 ـ عمل دراسة تحليلية لخطاب البابا وما يحويه من اتجاهات لاستثارة المشاعر الدينية ضد المسلمين في غرب أوربا.

ج ـ حرص البابوية على الإشراف على الحركة الصليبية ـ وتعيين مندوب بابوي (ادهمار) مرافقاً للحرب الصليبية الأولى ـ بطارقة بيت المقدس الكاثوليك ومحاولة إقامة حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة ـ مكانة رجال الكنيسة في ظل الحكم الصليبي في الإمارات الصليبية ببلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

الفصل الخامس: ـ ملامح ذبول العامل الديني قبل وبعد إجلاء الصليبيين من بلاد الشام.

أ ـ فتور العامل الديني في الغرب الأوربي أواخر العصور الوسطى ـ بداية التحول إلى عالم جديد يستهدف التحرر من سيطرة رجال الدين ويمهد فيما بعد لنشأة الدول القومية الحديثة والانطلاق للكشف عن أرجاء العالم المجهول.

ب ـ ازدياد أهمية العامل الاقتصادي على حساب العامل الديني تدريجياً حتى بدا الدين في كثير من الحالات مجرد ستار لإخفاء أهداف اقتصادية.

ج ـ انهيار البناء الصليبي في بلاد الشام يصيب المجتمع الغربي بخيبة أمل.

د ـ فشل بعض المتدينين من حكام الغرب الأوربي في إحياء الروح الصليبية ـ مشاريع الدعاة وعدم إمكانية تحقيقها عملياً.

هـ ـ اشتداد التيار الصليبي ضد المسلمين في الأندلس وشمال افريقية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

* * *

بعض الدراسات السابقة:

أ ـ رسائل أو أطروحات سجلت لنيل درجات علمية.

ولا أدعي أنني أول من تعرض بالدراسة لموضوع العامل الديني وأثره

في توجيه الحركة الصليبية، فهناك من مسّ هذا الموضوع من قريب أو بعيد. ولكن يكفي أن أشير إلى أن هذه أول دراسة ركّزت ثقلها على العامل الديني بالذات فيما يختص بالحركة الصليبية. ومن الدراسات التي تعرضت لجوانب أخرى من الحركة الصليبية بوجه عام، منها بعض الرسائل أو الأطروحات التي قدمت للجامعات، والتي أكتفي بالإشارة السريعة إلى عناوينها فقط:

1 ـ آسيا الصغرى والحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي.

إبراهيم محمد شفيق محمد. إشراف. أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور 1/27 / 1990.

2 ـ الأمبراطور الكسيوس كومنين والحملة الصليبية الأولى (1081ـ1118) في ضوء كتاب الألكسياد.

أحمد شوقي السيد عثمان. إشراف. أ. د. حسنين ربيع 1990/1/27.

ب ـ رسائل أو أطروحات أجيزت:

1 ـ إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي.

ليلى محمد القاسمي. إشراف. أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد محمد أمين 1986 (د).

2 ـ إمارة أنطاكية الصليبية (1098 ـ 1268).

كمال أمين محمد حسب الله. إشراف. أ. د. حسنين ربيع 1990 (م).

3 ـ إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر.

عبد العزيز محمود عبد الدائم. إشراف. أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور 1971(م).

4 ـ بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

عبد الناصر جبار. إشراف. أ. د. حامد زيان 1990 (م).

5 ـ الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

عبد الحفيظ محمد علي ،إشراف .أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور 1975(م).

6 ـ السلاجقة والصليبيون من موقعة ملاذكرت 465 هـ/ 1071 م حتى سقوط الرها 539 هـ/ 1144 م.

عبد الغني إبراهيم أحمد رمضان ،إشراف .أ. د. مصطفى زيادة 1957 (د).

7 ـ العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية 490 ـ 609 هـ/ 1096 ـ 1261 م.

حامد زيان غانم. إشراف. أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور 1973 (د).

8 ـ العلاقات بين الدولة البيزنطية والقوى الإسلامية في شرق البحر المتوسط في القرنين العاشر والحادي عشر.

أحمد عبد الكريم سليمان. إشراف. أ. د. محمد محمد أمين 1980 (د).

9 ـ علاقات القوى الصليبية في غرب البحر المتوسط بالمغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع للهجرة (517 ـ 716 هـ/ 1223 ـ 1316) م.

مصطفى محمد عبد الخالق منصور. إشراف. أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور وعصام الدين عبد الرؤوف 1987 (د).

10 ـ فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

نبيلة إبراهيم مقامي ،إشراف .أ. د. حسنين محمد ربيع 1975 (م).

11 ـ المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.

علي السيد علي محمود ،إشراف .أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور 1979(م).

تحليل لبعض مصادر ومراجع الدراسة:

وفي مسيرتي لإنجاز هذا الكتاب، اطلعت على العديد من المصادر والمراجع، وهي تنتمي إلى أصول مختلفة أوربية قديمة وحديثة وعربية

ومترجمة قديمة وحديثة، حيث إن الحركة الصليبية لفتت الأنظار إليها بحكم ما لها من آفاق وأبعاد، مما أغرى الكثيرين على دراستها والكتابة فيها، وقد استرعى انتباهي قلة المصادر العربية المتخصصة وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن الحروب الصليبية اتخذت طابع المفاجأة بالنسبة للعالم الإسلامي حيث كانت كتابة التاريخ تتسم غالباً بنسق الحوليات مما جعل أحداث تلك الحروب تأتي في كثير من الأحيان في صورة ملاحظات عابرة.

أما المصادر اللاتينية فإن الكثير منها جاء يتسم بروح التحيز والمبالغة والثناء على اللاتين، وربما يرجع السبب في ذلك أن الكثير ممن كتبوا عن تلك الحروب جاءوا إلى الشرق برفقة ملوك أو أمراء إقطاع أو رجال دين فتشبعوا بالدعاية سواء ضد البيزنطيين أو المسلمين.

وثمة ملاحظة رئيسية هي أن الكثير من مصادر تاريخ الحركة الصليبية ينبع من أصول فرنسية أو ألمانية، وربما يرجع السبب في ذلك أن الكثير من المشاركين في هذه الحركة كانوا من تلك الشعوب، مما أدى إلى اهتمام الفرنسيين والألمان بصفة خاصة بجمع وتدوين أخبار تلك الحركة، وهي الظاهرة التي بدت بوضوح منذ بداية القرن التاسع عشر[1].

وفي علاج مثل هذا الموضوع الذي تدور حوله هذه الدراسة، لا بد للباحث من أن يتسلح بالصبر والوعي والتجرد من الأهواء والميول، حيث إن هذه الفترة مليئة بالصراعات السياسية والدينية فضلاً عن الأطماع الشخصية.

أما المحاور الرئيسية التي تندرج تحتها المصادر والمراجع فإن المحور الأول يدور حول التاريخ الأوربي في العصور الوسطى وعلاقته بالعالم الإسلامي وبيزنطة. ويأتي بعد ذلك المحور الثاني ليدور حول تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وعلاقتها بالقوى الأوربية والقوى الإسلامية، هذا في

(1) خصصت الأكاديمية الفرنسية سنة 1806 جائزة لأحسن من يكتب في تأثيرالحروب الصليبية وفي سنة 1808 كتب كل من المؤرخين Heeren الألماني وشواسول الفرنسي بحثين عن الحروب الصليبية.

حين يدور المحور الثالث حول تاريخ العالم الإسلامي في الشرق الأدنى في مرحلة التاريخ الوسيط.

أولاً: المصادر اللاتينية:

ونبدأ بالإشارة إلى المصادر اللاتينية نظراً لوفرتها أولاً، ثم لأن الكثير من مؤلفيها كانوا شهود عيان بسبب اشتراكهم في الحملات الصليبية أو الإعداد لها أو نقلهم عن شهود عيان لتلك الحملات أو سفراء أو قناصل ومن بينها ـ كأمثلة ـ مؤلف المؤرِّخ المجهول «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس». ترجمة حسن حبشي. القاهرة، 1958، وهو من المصادر المهمة فيما يتعلق بالعلاقات الصليبية البيزنطية أثناء الحملة الصليبية الأولى حيث أن المؤرِّخ المجهول شاهد عيان لتلك الأحداث.

أما «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس» لريموند داجيل فقد جاء ذكره في «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية»، ويعتبر صاحب الكتاب شاهداً للأحداث التي رواها نظراً لمرافقته كونت تولوز في الحملة الصليبية الأولى. وهناك مجموعة أخرى من المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه الفترة منهم وليم الصوري في كتابه «تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار» وفوشيه دي شارتر وغيرهما.

وفي سياق العلاقات البيزنطية الصليبية والتأكيد على الأهداف الشخصية للحملات الصليبية، لا بدّ من الإشارة إلى خطاب الكونت ستيفن اتين كونت بلوا وشارتر لزوجته أديل في عام 1097 م في أوربا الذي جاء ذكره في الملحق الرابع من كتاب «العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية» جوزيف نسيم.

وهناك العديد من المؤرخين اللاحقين نذكر منهم أمبروز Ambroise وجوانفيل Joinville وروتلان Rothelin ومتى الباريسي Mathaew Paris وهؤلاء جميعاً لهم أهمية فيما يتعلق بالحروب الصليبية الأولى وجاء ذكرهم في مؤلف «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية».

وفي صدد الحديث عن المصادر اللاتينية لا بدّ من الإشارة إلى «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية» وهي المجموعة التي ضمت كتابات المعاصرين من مؤرخي الحروب الصليبية المعاصرين وبذلك صارت هذه الكتابات في متناول الباحثين.

ومن المصادر اللاتينية المهمة التي عاصر أصحابها حوادث الحقبة الصليبية في بلاد الشام كتاب تاريخ الصليبين الذي كتبه وليم الصوري. وكان وليم هذا قد ولد في الشرق الصليبي قبل عام 1130 م والراجح أنه تعلم العربية منذ طفولته. ثم رحل إلى فرنسا ليتم تعليمه وعاد إلى مملكة بيت المقدس عام 1160 م فتولى أسقفية «صور» وشرع في تدوين حولياته. وتبدأ هذه الحوليات بمولد الحركة الصليبية عام 1095 م وتنتهي بحوادث عام 1183 م. وحتى عام 1100 م اعتمد وليم الصوري في حولياته على ما كتبه «البرت دي إكس» و«ريموند دي أجيل» ومؤرخ صليبي آخر مجهول هو صاحب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس «Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum»، وثلاثتهم جاءوا إلى الشرق مع قادة الحملة الصليبية المعروفة بالأولى. ومنذ عام 1100 م اعتمد وليم الصوري على المؤرخ الصليبي «فوشيه دي شارتر» «Foucher de Chartres» صاحب كتاب «أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس» الذي ينتهي تاريخه عام 1127 م ومن ثم اعتمد وليم على سجلات مملكة بيت المقدس حتى 1160 م. أما حولياته بعد ذلك فشخصية جديرة بالثقة فيما يتعلق بحوادث جنوب الشام ووسطه، وهو يعتبر من مؤرخي العصور الوسطى الكبار فقد عُرف باتساع الأفق وتفهمه للحوادث[1].

هذه أهم المصادر اللاتينية المعاصرة التي رجعت إليها في هذا الكتاب

(1) عبد الغني إبراهيم رمضان: السلاجقة والصليبيون من موقعة ملاذكرت حتى سقوط الرها، (رسالة، جامعة القاهرة 1957) ص.ز ـ ح. للمزيد الإطلاع على: جوزيف نسيم: العرب والرم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط 3، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص 7.

بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أما بقية المصادر فسأشير إليها في القائمة الخاصة بالمصادر في ختام الكتاب.

ثانياً ـ المصادر البيزنطية:

أما المصادر البيزنطية فتمدنا بالكثير من المعلومات وبخاصة عن اتجاهات الحركة الصليبية وعن المطامع الشخصية وطبيعة العلاقات بين الغرب والشرق وتداخل هذه العلاقات:

أ ـ ومن هذه المصادر خطاب الكسيوس كومنين الإمبراطور البيزنطي (1081 ـ 1118) م الذي يطلب فيه العون من غرب أوربا ضد المسلمين والأتراك السلاجقة. وقد جاء هذا الخطاب في صورة الملحق الأول لكتاب «العرب والروم واللاتين» تأليف أ.د. جوزيف نسيم.

ب ـ كتاب الألكسياد تأليف الأميرة البيزنطية «آنا كومنين» ابنة الإمبراطور الكسيوس كومنين، التي ولدت عام 1083 م وتوفيت عام 1148 م ويشمل كتابها المسمى «الألكسياد» The Alexiad الفترة الممتدة من 1068 ـ 1118 م وقد قسمته إلى خمسة عشر فصلاً أو كتيباً وبصورة عامة فإن الكتاب يعتبر تاريخاً للإمبراطورية وعلاقاتها بالسلاجقة وإلنورمان وأحداث الحملة الصليبية الأولى؛ وقد جاء كملحق في كتاب العرب والروم واللاتين، أ.د. جوزيف نسيم وكتاب الحروب الصليبية، سهيل زكار.

جـ ـ مجموعة Corpus التي تحوي كل مصادر التاريخ البيزنطي. والتي طبعت في بون عام 1828 م ومعظمها باللغة اليونانية وقد جمعت ونشرت وترجمت إلى اللغات الأوربية الحديثة.

ثالثاً ـ المصادر العربية:

ويلاحظ أن الكثير من المصادر العربية تتصف بالأهمية لأنها تعبر في المقام الأول عن وجهة نظر المسلمين. ومن أهم هذه المصادر كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ويعتبر هذا الكتاب من الكتب المهمة في هذه الدراسة، وذلك لأن ابن الأثير الجزري «555 ـ 630 هـ/ 1160 ـ 1232 م» نشأ في كنف البيت الزنكي وعاصر محاولات الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين

كما أنه تنقل بين المدن الإسلامية كالموصل وبغداد ودمشق والقدس، طلباً للعلم والمعرفة وسفيراً، واستعان بالكثير من المصادر التاريخية في تدوين الجزء الذي سبق عصره، وتعتبر كتابات ابن الأثير عن صلاح الدين الأيوبي من المصادر المهمة لتاريخ تلك الفترة المهمة.

وثمة مجموعة أخرى عالجت التاريخ المعاصر في شكل سِيَر مثل ابن شداد في النوادر السلطانية وابن واصل في «مفرج الكروب» أما ابن جبير (540 ـ 614 هـ/ 1145 ـ 1217 م) فقد تحدث في رحلته عن أحوال جزيرة صقلية واستعدادات الصليبيين للاستيلاء على بيزنطة. وأما كتاب الروضتين لأبي شامة فقد تعرض فيه للأسرة الزنكية في أواخر أيامها وهذا الكتاب يجمع عدة روايات عن الحادثة الواحدة زيادة في التوثيق.

ومن الكتب المهمة في هذا السياق كتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي المتوفى سنة (555 هـ/ 1160 م) وله أهمية كبيرة في دراسة الفترة الواقعة بين الغزو السلجوقي لبلاد الشام وبين عصر صلاح الدين، كما أشار إلى أهم ما أنشأه الصليبيون من حصون وغيرها من أحداث تلك الفترة المبكرة. ويعتبر تاريخ ابن القلانسي الأساس الذي اعتمد عليه إلى حد كبير في التأريخ لبلاد الشام في ذلك العصر كل من ابن الأثير وسبط بن الجوزي وأبو شامة وغيرهم من المؤرخين الذين جاءوا من بعده.

وبالإضافة إلى هؤلاء، كان هناك مجموعة أخرى من المؤرخين العرب أسهموا في ملء أكثر الثغرات التاريخية التي أغفلها الغربيون أو اتصفوا فيها بالتحيز، وهي كتب عامة لتواريخ الدول والمماليك والأسر، ومن هذه المجموعة ابن خلكان المتوفى سنة (681 هـ/ 1282 م) وهو صاحب كتاب «وفيات الأعيان» وابن تغرى بردى صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» وأسامة بن منقذ (488 ـ 584 هـ/ 1095 ـ 1118 م) صاحب كتاب «الإعتبار» ومن الرحالة ابن بطوطة، وأبو عبد الله محمد بن حامد الشهير بعماد الدين الكاتب الأصفهاني (519 ـ 597 هـ/ 1125 ـ 1200 م) صاحب كتاب الفتح القسي وصاحب كتاب تاريخ دولة آل سلجوق، فيكفي أنه قابل صلاح الدين في حمص مارس 1175 م، وفي

كتابه يتكلم باسم صلاح الدين، وقد حضر معركة حطين، ضمن الفترة من 583 ـ 589 هـ حتى وفاة صلاح الدين، وهي الفترة التي يعالجها الكتاب المذكور. ومن المؤرخين اللاحقين ابن أيبك (ت 1201م)، ولا جدال في أن كنز الدرر وجامع الغرر والذي حقق الجزء السابع منه أ.د. سعيد عاشور قد أضاف مادة علمية وفيرة، وبخاصة عن الوضع في مصر قبل صلاح الدين والوضع في الشرق بعد وفاته، ومحاولات العادل إعادة الوئام في الدولة كما تعرض للوضع السياسي بعد وفاة العادل من اتحاد وتفرقة. وكذلك اعتمدنا على كتاب ابن أبي الفدا (ت 1331 م) المسمى «المختصر في أخبار البشر» وابن الوردي (ت 1349 م) في كتابه «تتمة المختصر في أخبار البشر» المعروف بتاريخ ابن الوردي، وفيه ألقى الضوء على جوانب عدة، منها مفاوضات الملك الكامل محمد مع الصليبيين أثناء الحملة الصليبية السادسة واتفاقية يافا سنة 1229 م وقد نقل كثيراً من مادته عن المصادر السابقة له. والمقريزي (ت 1442 م) «السلوك لمعرفة دول الملوك». ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأصول العربية تتمم ما جاء في المصادر الأجنبية، وتعطينا صورة صادقة عن تاريخ المشرق الإسلامي خلال تلك الفترة من الزمن. وإذا كانت المصادر الأجنبية تعبر عن شق واحد من أصول البحث، فإن المصادر العربية تعبّر بدورها عن الشق الآخر. ولذلك فإن مصادر الحركة الصليبية، بشقيها، تعبر عن وجهتي النظر حيال الأحداث التي كان الوطن العربي الإسلامي مسرحاً لها أبان الحروب الصليبية، والقوة المختلفة المتصارعة التي أدت دورها فوقه، والسياسات والمواقف التي اتخذها كل طرف حيال الأطراف الأخرى، ومدى ما طرأ عليها من تغير بسبب المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على العالم الأوربي المسيحي والوطن العربي الإسلامي وقتذاك[1] وأكتفي بذلك لأترك للقارىء الاطلاع على قائمة المصادر في نهاية الكتاب.

(1) جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية 1986، ص 150 ـ 151.

المراجع العربية والمعربة الأوربية:

هذه المراجع كثيرة نظراً لزيادة الاهتمام بدراسة العلاقات بين الشرق والغرب وتأثير الحركة الصليبية على أحوال كلتا المنطقتين والنتائج السياسية والاقتصادية والثقافية التي ترتبت على الحركة الصليبية، وفيما يلي مجموعة من المراجع:

أ ـ المراجع العربية:

كتاب «الحركة الصليبية» للأستاذ الدكتور سعيد عاشور، وهو كتاب شامل يتحدث عن أحوال الشرق والغرب والأسباب العامة لهذه الحركة، ويتناول الحملات الصليبية بشيء من التفصيل العلمي الدقيق، ويحوي الكثير من الملاحق المميزة والمفيدة. وكذلك قبرس والحروب الصليبية وكتابه العلاقات بين الشرق والغرب.

وكتب «العرب والروم واللاتين» و«العدوان الصليبي على مصر» و«العدوان الصليبي على الشام»، وهي سلسلة سميت بمكتبة الحروب الصليبية تأليف الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم وهي ذات مادة جيدة تشير إلى العلاقات البيزنطية العربية واللاتينية والحديث كذلك عن الحملة الصليبية الأولى وحملات لويس على الشام ومصر.

وهناك مجموعة أخرى منها كتاب «الشرق الأوسط والحروب الصليبية» للأستاذ الدكتور الباز العريني، وكتاب «مملكة بيت المقدس الصليبية» للأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق، وكتاب «الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي» للأستاذ الدكتور نظير حسان سعداوي، وكتاب «حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة» للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة، وكتاب «الحرب الصليبية الأولى» للأستاذ الدكتور حسن حبشي، وكتاب «دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية» للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع، وكتاب «تاريخ الحروب الصليبية» للأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران، وغير ذلك من المؤلفات العديدة في تاريخ الأندلس والمغرب والشام والشرق

العربي، وقد أشرت إلى هذه المراجع وغيرها مما هو وارد في قائمة المصادر والمراجع في ختام الكتاب.

ب ـ المراجع المعربة:

وهذه المراجع متعددة وسوف نثبت ذلك في قائمة المراجع ولكننا سنكتفي بالإشارة إلى بعضها، ومنها كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» لاستيفن رنسيمان وهو كتاب يتألف من ثلاثة أجزاء، يتناول الحركة الصليبية بتفصيل دقيق منذ كانت فكرة حتى نهاية الحملات، وكذلك يتحدث عن العلاقات الكنسية، وهو مؤلف لا بدّ من الاطلاع عليه، ويأتي في مقدمة المراجع الأوربية فيما يتعلق بأبعاد وأسباب ونتائج الحركة الصليبية.

وكذلك «تاريخ الحروب الصليبية»، لأرنست باركر وهو كتاب يتناول تاريخ الحركة الصليبية بروح علمية بعيدة عن التحيز في أغلب فصوله وقبل الخوض في هذه الحملات فإنه يشير إلى أن أحوال الشرق من تفكك وحروب واختلافات سياسية ومذهبية هي السبب في نجاح الحملات الصليبية ثم يعرض للحملات الصليبية الثماني ويختم ذلك بالحروب المتأخرة والتي يسميها طيف الحروب الصليبية.

وكذلك تاريخ أوربا العصور الوسطى، لفشر وهو مرجع شامل ومفيد ويتسم بالإختصار في ذكر أحداث المرحلة.

ومجموعة من المراجع منها: «القوى البحرية في حوض البحر المتوسط». تأليف أرشيبالد. ر. لويس وكتاب «عالم العصور الوسطى» تأليف كولتون. ومجموعات أخرى من المؤلفين تحدثوا عن المجال الكنسي مثل «أومان» و«توت»، والمجال السياسي مثل «ستيفنسون»، ومجموعة أخرى تناولوا أحوال الإمبراطورية البيزنطية وعلاقاتها، مثل «فازيليف» و«بينز» و«موس» و«ديل» ومجموعة ميشو وجروسية وسيتون وغيرهم.

ونكتفي بذلك القدر، وسوف نذكر بقية المصادر والمراجع في القائمة المعدة لذلك في نهاية الكتاب.

الفصل الأول

الأوضاع الدينية في غرب أوربا حتى قيام الحركة الصليبية

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا * لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾

[النساء الآيتان: 171ـ 172]

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

[التوبة: 31].

﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[المائدة: 73].

أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوربا على أيدي الجرمان في أواخر القرن الخامس سنة 476 م فترة قاتمة امتدت حتى القرن الحادي عشر، وأطلق بعض المؤرخين على تلك الفترة في التاريخ الأوربي اسم «العصور المظلمة»[1]. وكانت أوربا في ذلك الدور مرتعاً خصيباً للفوضى والضعف والفساد والاضطرابات. وبؤرة للأمراض والأوبئة، نتيجة للقحط والجوع، ومن بينها المجاعة التي عرفتها أوربا سنة 1033 م وساعد على سوء الأحوال أن أساليب الزراعة كانت عندئذ لا تزال وقتذاك بدائية، كما كانت الطرق والمسالك قليلة ووعرة، مما أتاح المجال لظهور العصابات الكثيرة من قطاع الطرق. فدأبوا على شن الغارات على الفلاحين، ومهاجمة الكنائس والأديرة، للنهب والسلب[2]. ولم تقتصر مظاهر التأخر والإنحلال التي أصابت المجتمع الأوربي في تلك الفترة على الإنحلال السياسي، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. وإذا كان غرب أوربا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام شارلمان في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر في الوقت الذي أخذت جموع الفيكنج[3] Vikings تنزح من الشمال لتغير على مواطن

(1) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، جـ 1، ط 3، ص 19.

(2) M. Jullian: Histoire De la France et Des Francais, Tome II, larousse, Plon, 1970, p 27.

(3) الفيكنج: العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة اسكندناوه وشبه جزيرة الدنمرك وغزت أوربا في القرن التاسع وهم سكان الفيوردات والخلجان ويرجعون إلى الأصل التيتوني الجرماني.
فشر: تاريخ أوربا ط 6 القسم الأول، ترجمة محمد زيادة والباز العريني، دار المعارف، القاهرة 1976، ص 115 ـ 136؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ط 1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1972، ص 218 ـ 247.

الحضارة وتدمرها في غرب أوربا، في الوقت الذي أوغل الهنغاريون في وسط القارة حتى شرق ألمانيا، يخربون ويفسدون. وفي وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوربي بالنظام الإقطاعي للحصول على قدر من الأمان والحماية، فانحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع، واضطر الأباطرة والملوك إلى التناول عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع[1] Feudalism. ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد نجحوا في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالياً في ظل نظام اعتمد في فلاحة الأرض على الأقنان وعبيد الأرض وقام على أساس تحكم القوى في الضعيف.

ولم يكن في استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأي جهد لتعديل تلك الأوضاع، لأن الكنيسة نفسها ـ التي ظلت منذ سقوط الإمبراطورية في أواخر القرن الخامس تمثل أكبر قوة في المجتمع الغربي ـ تعرضت هي الأخرى لموجة جارفة من الإنحلال والذبول في القرنين التاسع والعاشر، فجرف التيار الإقطاعي رجال الدين وتصدع سلطان البابوية، وانحط المستوى الخلقي لبعض رجال الكنيسة[2]. ومنذ أواخر القرن العاشر الميلادي، اهتمت المجال الدينية، التي انعقدت في مقاطعات فرنسا بسن تشريعات، ووضع قواعد للأمن، من أجل المحافظة على سلام الله وهدنة الله[3]. ففي كل مقاطعة ظهر تشريع، يقضي بتعزيز قواعد السلام، وتألفت

(1) انظر: عبد القادر أحمد اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 1967، ص 117 ـ 138.

(2) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، جـ 2، ط 4 مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1982، ص 19 ـ 20.
سعيد عبدالفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ 1، ط 5، ص 339،
M. Jullian: op.cit.II, p. 28.
وانظر كذلك ج. و. كوبلاندو ب. فينوجرادوف: الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا، ط 3، ترجمة محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1958.

(3) وهي أوقات معلومة يحرم فيها القتال: =

هيئة تنفيذية للمحافظة على السلام، وتنفيذ القرارات الخاصة بذلك. غير أنه اتضح أنه لا بدّ من توجيه النزعة نحو حب المقاتلة توجيهاً سليماً، فاتجهوا نحو ممارسة الفروسية، وإن كانت الكنيسة قد سبق وأن حاولت قمعها، لأغراض مثالية ورغبات نبيلة. وضمن هذا الإطار، يصح اعتبار الحروب الصليبية، مرحلة من مراحل الإصلاح الديني للمقاتلين من العلمانيين[1].

والواقع أنه قبيل بداية الحروب الصليبية كانت أوربا ساحة لحروب داخلية عديدة، إذ لا تكاد حرب تضع أوزارها حتى تنطلق أخرى، حيناً بين دولة وأخرى، وأحياناً بين مقاطعة وأخرى، أو بين أسرة وغيرها من الأسر، وساعد ذلك ذبول نفوذ السلطة المركزية بعد أن صار لكل أمير ودوق جيش يحميه ويأتمر بأمره. وكانت المقارعة بالأسلحة هي الوسيلة الوحيدة للتعامل بين هؤلاء الأمراء، وغالباً ما كانت تلك الحروب تشتعل لأبسط الأسباب، وتمتد بين العائلات لأكثر من جيل، وهكذا غدت أوربا في تلك العصور بؤرة للفوضى والإنقسام والخلاف في ظل ضعف القوانين والحكومات. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن سياسة الكنيسة أخذت تتصف في بعض أعمالها بالتجاوزات بحيث غدت المصالح أساس ولاية المناصب فيها في ظل الصراعات الداخلية.

أما من الناحية الاجتماعية فقد عم البؤس والفقر والجهل في ظل النظام الإقطاعي الذي شمل السيطرة على الأرض والإنسان معاً. هذه بعض المعطيات والحقائق التي كانت تعيشها أوربا قبيل بداية الحروب الصليبية،

= سلام الله Pax Dei: فرضت لحماية رجال الدين وممتلكات الكنيسة والفقراء من القتال.
هدنة الله Treuga Dei: الامتناع عن القتال ابتداء من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين والمناسبات والأعياد المقدسة.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت 1967، ص 12.

(1) أرنست باركر: الحروف الصليبية، ص 11 ـ 12.

وقد حدث ذلك في الوقت الذي اتسعت فيه الدولة الإسلامية وازدهرت حضارتها، ووقع الكثير من البلاد التي كانت تدين بالمسيحية مثل الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقية في أيدي العرب المسلمين[1].

وقد حدث قبل مجمع كلير مونت ـ الذي انعقد في نوفمبر 1095 م ـ أن حاولت الكنيسة جمع الشمل المسيحي لمحاربة المسلمين فكان أول نداء من أجل تحقيق ذلك في القرن التاسع، وذلك بعد أن تمكن المسلمون من غزو صقلية الإيطالية، مما أنذر بتهديد روما نفسها. من ذلك أن البابا ليو الرابع (847 ـ 855 م) ثم البابا حنّا الثامن (872 ـ 882 م) وجها نداءات إلى ملوك الغرب والمشرق المسيحيين لمحاربة المسلمين بل إنهما عرضا على المتطوعين امتيازات مغرية، وأعلنا أن الذين يشاركون في تلك الحروب سيدخلون الجنة، ومنذ ذلك الحين أضيفت على الحرب مع المسلمين صفة القداسة، وتبدو هذه النظرة للحرب مهمة في وقتها، لأنها جاءت لتقارع النظرة البيزنطية، والتي لم تعتبر الأموات في تلك الحروب شهداء. على أن اهتمام الكنيسة خمد لفترة ما وخاصة بعد أن استطاع البابا جريجوري السابع (1073 ـ 1085 م) حماية روما من التهديدات الإسلامية، وقد عمل هذا البابا على توحيد شطري الكنيسة الغربية اللاتينية والشرقية اليونانية من أجل التغلب على المسلمين، بل إنه عمل على تحريض المسيحيين في إفريقية ضد المسلمين[2].

وفي تلك المرحلة انتشرت الأفكار التي تدور حول نهاية العالم بعد الألف الأولى من معاناة المسيح على الصليب، والأفكار التي تتعلق بالعالم الآخر، مما ساعد على إنعاش الفكرة الصليبية، فشاعت في أوربا الغربية قرب نهاية القرن العاشر الميلادي وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي

(1) M. Michaud: Histoire Des Croisades,Tome I, A.J. Ducollet, Librairie . Editeur, Paris, 1838, p.100.
M. Jullian: Histoire De la France, Tome II, p. 28.

(2) F. Chaladon: Histoire De la Premiére Croisade, Auguste Pisard, Éditeur, Paris, 1925. p.11.

أفكار، وحكايات، وقصص، وأساطير تتحدث عن قرب نهاية العالم مع اكتمال الألف الأولى بعد المسيح (حوالي سنة 1033 ميلادية). وقد ظهر في عدة أماكن في أوربا الغربية ظواهر فلكية وطبيعية اعتبرها الناس دليلاً على اقتراب نهاية العالم. وكان مفهوم الأوربيين آنذاك مثقلاً بالأفكار الغيبية إذ كانت العقيدة الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية لا تزال بعيدة عن تحديد إطارها بشكل متكامل، ولم يكن الأساقفة والقساوسة، غالباً، في المستوى اللائق الذي يؤهلهم للنهوض بمهام وظائفهم، سواء من حيث مستواهم الفكري أو من حيث سلوكهم وأخلاقهم، كما أن الغرب الأوربي ظل حتى ذلك الحين ريفي الطابع، وكان الدين بالنسبة لسكانه ـ وهم أغلبية سكان أوربا آنذاك ـ مزيجاً من الخرافة، وطقوس عبادة الطبيعة، وبعض تعاليم[أ] المسيحية. وفي ظل هذا الجو النفسي والتخلف الفكري اللذين سادا أوربا الكاثوليكية في القرن الحادي عشر الميلادي، كان طبيعياً أن ترد الظواهر الطبيعية إلى قوى غيبية من ناحية، وأن يتم ربطها باقتراب نهاية العالم والأفكار الألفية والأخروية من جهة أخرى. وكان الناس الذين سيطرت على وجدانهم آنذاك هذه المشاعر تواقين لضمان الخلاص، حتى تحولت مشاعرهم هذه إلى التأكيد على ضرورة الرحلة إلى بيت المقدس وقد انعكس ذلك في ظهور عدد الرحلات التي قام بها الحجاج من غرب أوربا صوب القدس في السنوات القليلة التي سبقت وتلت الألف الأولى بعد ميلاد المسيح[2].

أما طبقة الأقنان ورقيق الأرض، وهي التي كانت تئن تحت عبء الإلتزامات والقيود الثقيلة المفروضة عليها، فقد وجدت في تلك الدعوة المنفذ للإفلات من أغلال الإقطاع[3]. في ظل هذه الظروف حاولت الكنيسة

(1) قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 1993، ص 18 ـ 20.

(2) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص20.

(3) جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين، ص 77.

أن تنهض من كبوتها وسعت إلى إيقاف الحروب الداخلية في أوربا، وكذلك إجراء بعض الإصلاحات داخل الكنيسة حتى تستعيد وتجدد دماءها من خلال تعيين بعض رجالات الدين الشباب. وبعد ذلك وجهت أنظارها إلى وضع المسيحية في المشرق وكذلك محاولة إيقاف التهديدات التي تتعرض لها الإمبراطورية البيزنطية المسيحية، فبدأت تخطط لحرب أرادت لها أن تكون حرباً بابوية محاطة بهالة من القدسية الدينية، ورأت فيها جبهة جديدة تستعرض فيها نفوذها، واعتبرتها متنفساً جديداً لصراعها المستمر مع السلطة الزمنية[1] وهكذا وجدت الجماهير في أوربا في تلك الدعوة المنفذ المحقق للإفلات من أغلال الإقطاع، تحميها في ذلك الكنيسة والبابوية تحقيقاً للأهداف الرئيسية والجوهرية للفكرة الصليبية[2].

أ ـ الكنيسة الغربية ونفوذها الزمني

استطاعت كنيسة روما، بوصفها الكنيسة البابوية الوحيدة في النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية، أن تتدخل مع السلطات الزمنية لصالح الكنائس الأخرى ولا سيما وقد جمعت إلى جانب الموقع الجغرافي ثروات طائلة ساعدت بها الكنائس الفقيرة. والواقع أن التقدير والاحترام الذي حصلت عليه الكنيسة الرومانية بهذه الطريقة، لا يحتاج إلى تعزيز الأمر الذي مكنها إلى أن تحقق هيبتها الدينية. يضاف إلى ما سبق أنها الكنيسة التي تُنسب إلى أعظم اثنين من الحواريين هما بطرس وبولس[3]. وحتى أواخر القرن الثاني للميلاد اعتبر أسقف روما الأسقف الوحيد في إيطاليا وهكذا

(1) M. Michaud: Histoire Des Croisades, Tome I, p. 101.

(2) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 177.

(3) G. Barraclough: The Medieval Papacy, Harcourt, Brace and World, INC, 2 ed-Britain, 1972, p. 14, 18
محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت 1986، ص 154.
E, Gibbon: The Decline and Fall of The Roman Empire, vol. I, W-S press, New York, 1960. p. 380.

غدت كنيسة روما الكنيسة الرسولية الوحيدة في الغرب كله، مما جعل أسقفها في منزلة تعادل ما لأساقفة الكنائس الشرقية القديمة من مكانة. ومن المعروف أنه كان رأسَ الكنيسة في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس خمسةُ بطارقة في روما والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية، ولكن بطريق روما استطاع أن يحقق لنفسه نوعاً من الأولوية من خلال التطورات التي حدثت طوال القرنين الرابع والخامس[1].

كان من أسباب قوة الكنيسة أن كل رجل دين ينتمي إلى كنيسة كان لا يجوز له تركها إلا بأمر كتابي من الأسقف، ومن الناحية النظرية كان الأساقفة يتم انتخابهم عن طريق رجال الدين في كنيستهم، ويتم الانتخاب في الكاتدرائية تحت رئاسة المطران أو الأسقف التابع للمقاطعة، وفي الحال يحصل الشخص الذي تم انتخابه على كرسي الأسقفية[2]. لقد كانت قوة الأسقف كبيرة، فكانت الوظائف الدينية كلها تحت رعايته، وكان عدد معين من رجال الدين يعيشون في منزل الأسقف الملحق بمبنى الكنيسة إقامة دائمة، والأسقف هو المسؤول عن إرادة الكنيسة وممتلكاتها.

من ناحية أخرى فإن كل الممتلكات التي تحصل عليها الكنيسة كانت غير قابلة للتحويل أو التنازل، فبالإضافة إلى ملكيات الأراضي كانت الكنيسة تتلقى من الملوك والحكام امتيازات مالية معينة مثل الإعفاءات من دفع الضرائب، وغالباً كان الملك يعطي الكنيسة الحق في فرض الضرائب في مناطق معينة. ويلاحظ أن الكثير من الامتيازات التي حصلت عليها الكنيسة كانت في العصر الميروفنجي (500 ـ 753) وهو أكثر العصور التي تحصلت فيه الكنيسة الغربية على الامتيازات والهبات والعطايا المختلفة[3]. كذلك فإننا نجد أن الإمبراطور قسطنطين (306 ـ 337) منح لكنيسة روما من خزينة

(1) G. Borraclough: The Medieval Papacy, p. 18.
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ 1، ص 63.

(2) J.B. Bury (The Cambridge Medieval History), Vol. II, Cambridge University press, London, 1980, p. 142.

(3) j.B. Bury: Cam. Med. Hist, vol. II, p. 144.

الدولة الكثير من الأموال مما أدى إلى تكديس الكثير من الثروات بهذه الكنيسة وكذلك هناك مصادر أخرى لثروة الكنيسة التي تأتي من دخل الممتلكات والهبات التي يمنحها الأباطرة والأفراد الأثرياء[1].

لقد حازت الكنيسة الغربية على العديد من الامتيازات من الحكومة خاصة فقد كان لها الحق في استلام الميراث وإعفاء الكهنة من الضرائب، هذا فضلاً عن أن رجال الدين كانوا يقضون في حل المنازعات بين المسيحيين ويتخطون المحكمة الإمبراطورية خاصة في الفترة الأولى من تاريخ المسيحية عندما كانت تعاني من الاضطهاد. وبعد الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية في أواخر القرن الرابع (392 م) سمح القانون للأساقفة بأن يعملوا كقضاة ويفصلوا في كل المنازعات الدينية التي يكون المسيحيون طرفاً فيها[2]. ولم يلبث أن ازداد نفوذ الأساقفة تدريجياً في دوائر نشاطهم بفضل مكانتهم الدينية من جهة، وما جمعوه من صدقات وهبات من جهة أخرى، لا سيما وأن الصدقات التي جاد بها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء والمحتاجين عن طريق الأسقف نفسه، مما أوجد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين[3].

نتيجة لانقسام الدولة الرومانية في أواخر القرن الرابع إلى قسمين شرقي وغربي ظهر التباين واضحاً بين الدولتين الرومانية الشرقية والغربية، حتى انتهى الأمر في أواخر القرن الخامس بسقوط الدولة الغربية، في حين برزت الدولة الشرقية ـ وعاصمتها القسطنطينية ـ في صورة القوة العظمى للدولة المسيحية، وقد انعكس ذلك على وضع الكنيسة في كل من الجانبين، ففي

(1) G. Barraclough: The Med. Papacy, p.20.
(2) B. Tierney: Western Europe in The Middle Ages, 3rb, ed: Alfred A. Knopf, New York, 1978, p. 29.
سعيد عاشور: أوربا الوسطى جـ 1، ص 63.
(3) سعيد عاشور: أوربا الوسطى جـ 1، ص 63.
برتراندراسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة 1956، ص 43.

الغرب كان على الكنيسة أن تقف على قدميها ليس فقط كهيئة دينية، ولكن كحارس للحضارة الرومانية، وفي كثير من الأماكن كمؤسسة سياسية وعسكرية، حيث كان الرهبان يحكمون المدن والأحياء، ويشرفون على العدالة، ويوزعون الطعام على المساكين، ويرأسون الجيوش المحلية. والواقع أن المؤرخ الذي يحاول ـ بالرغم من الضباب الذي يخيم على العصر ـ أن يلتمس طريقة للوصول إلى نشأة الكنيسة الرومانية لن يصادف سوى جزءاً ضئيلاً من الحقيقة وقدراً كبيراً من الخيال[1]. هنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة في شؤون السلطة الزمنية أخذ يستفحل بازدياد ضعف الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها، حتى انتهى الأمر بأن حلّت الكنيسة محل الإمبراطورية عندما غربت شمس الأخيرة في غرب أوربا. ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك أنها حذت حذو الإمبراطورية الرومانية في تنظيمها، حتى أصبح الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الإداري في أقاليم الإمبراطورية، فضلاً عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسي على أن التيار الذي انساقت فيه الكنيسة، ومحاكاتها لنظم الحكومة الإمبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها، كما كان للإمبراطورية إمبراطور يتزعمها، وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربية ضالتها في شخص أسقف روما الذي تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة في مختلف بلدان العالم الغربي[2]. وإذا كانت الكنيسة هي الوريثة الشرعية للإمبراطورية الرومانية في الغرب، فإن لهذا القول مغزاه ودلالته، ذلك أن تلك الكنيسة قامت برعاية أتباعها في فترة القلق والاضطراب التي صاحبت غزوات البرابرة على الإمبراطورية، وكان رجال الذين أنفسهم هم المحتكرون للعلم والتعليم والتوعية، بالإضافة إلى إصدار الأوامر والتشريعات، ولا شك في أن هذه الامتيازات عززت نفوذ الكنيسة وجعلتها

(1) A.J.C. Kerr: The Crusades, New York, 1966, p. 13.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 65 ـ 66.
(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 62، 65 ـ 66.

تحمل لواء القيادة في غرب أوربا[1]. هذا بالإضافة إلى أن الكنيسة كانت تتمتع بقوة معنوية كبيرة، حيث إنها الجهة التي تقوم بعملية التعميد. كذلك كان للكنيسة الحق في توقيع العقوبات في كافة المخالفات المهمة كالربا وممارسة السحر والشعوذة يضاف إلى ذلك قيام رجال الدين بإجراءات الزواج والإستماع إلى وصية المحتضر وكذلك الصلوات على الموتى[2].

من أسباب قوة الكنيسة في غرب أوربا في تلك العصور سيطرتها على منح رخص للحجاج لزيارة الأماكن المقدسة، حيث إن الذي يشرع في القيام بهذه الرحلة بدون الإذن من كنيسة روما، كان يخاطر بفقدان العديد من المنافع التي كفلتها الكنيسة للحجاج مثل حماية منزله وممتلكاته لمدة ثلاث سنوات، مع إيقاف ما يكون قد تعرض له من قضايا مدنية وجنائية لحين عودته. ويحصل قبل سفره على خطاب من راهب الأسقفية التابع لها بحسن ضيافته وإكرامه في كل البيوت الدينية التي تقع في طريقه إلى الأماكن المقدسة[3].

كانت الكنيسة تشرف على إنشاء الطرق وصيانتها، حتى أعلنت أن رعاية الطرق تعتبر من أعمال البر والتقوى التي يجازى صاحبها عليها بحسن الثواب والغفران، بالضبط كالإحسان والحج. لذلك وجدت من بين المنظمات الدينية في غرب أوربا في العصور الوسطى منظمة عرفت باسم «إخوان الجسر»، الغرض منها المساهمة في بناء الجسور على الأنهار وصيانتها[4].

(1) La Grande Encyclopédie: 4 Lip (Larousse, paris, 1972), p. 2416.
ل.م هارتمان: الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة د. جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، بيروت 1981. ص23.
عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنيسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني، ط 1، دار دمشق 1980، ص 99 ـ 100.

(2) ج.ج كولتون: عالم العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص 101.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 99 ـ 100.

(3) K.M. Setton: Ahist. of The Crusades, vol, 4, UNiv, of Wisconsin press. 1977. p. 38. 39.

(4) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1976. ص 319.

على الرغم من ازدهار القانون الكنسي ابتداءاً من القرن الثاني عشر بوصفه نظاماً شرعياً، إلا أنه لا يمكننا القول أن الكنيسة كانت تعيش بدون قانون حتى ذلك الوقت، حيث كان رجال الكنيسة في غرب أوربا ينظمون أمورهم ويديرون شؤونهم على أساس القواعد والأحكام المشتقة من مصادر دينية مختلفة، منها الكتاب المقدس، ورسائل البابوات، وقوانين المجالس الكنيسية، هذا بالإضافة إلى القانون الروماني وتقاليد الكنائس المحلية، وكتابات الآباء المقدسين الأوائل[1]، وهم الذين كانوا على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية ـ لا سيما أعلام الأفلاطونية الحديثة ـ فأفادوا منها في تبرير آرائهم والتدليل عليها وتقديم العقائد المسيحية في صورة علمية مقنعة يتقبلها المثقفون، مما أدى إلى بروز الكنيسة في الغرب وازدياد قوتها نتيجة لهذه القواعد التي ساعدتها على إدارة شؤونها، وتقديم العون لمن يلجأ إليها سواء كان فرداً أو مؤسسة دينية[2].

هكذا صارت الكنيسة ـ بفضل كل ذلك ـ في غرب أوربا في العصور الوسطى سلطة قوية تدعو إلى الوحدة[3]. وقد ظهر في تلك العصور رأي ينادي بقيام سلطة عالمية واحدة تضم ليس مواطني بلد واحد فحسب، وإنما

(1) هم:
1 ـ القديس كلمنت السكندري القرن الثالث.
2 ـ أوريجن 185 ـ 254 م.
3 ـ جيروم 331 ـ 420 تقريباً.
4 ـ أمبروز 340 ـ 397 Ambrose.
5 ـ أوغسطين 354 ـ 430 Augustin.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 65.
عبد القادر اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، ص 60 ـ 69.

(2) N.Z. acour: An Introduction To Medieval Institutions, 2ED. St. M press, New York, 1976, p.136 .
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 1، ص 65.

(3) س. ورن هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1988، ص 225.

كافة شعوب الغرب، الأمر الذي هدد نفوذ السلطة العلمانية، حيث غدت سلطة الحاكم مقيدة داخل حدود إقليمية ضيقة. أما الكنيسة فقد ازداد مركزها قوة ومتانة بعد أن تعددت وظائفها الروحية بحيث لا يستطيع أي فرد آخر ممارستها[1].

كان المسيحيون الغربيون يعتقدون أن كنيسة روما انفردت دون غيرها من سائر الكنائس، بأن منشئها ـ هو بطرس الرسول ـ أعلى الرسل مكانة في نظر المسيح وأتباعه[2]. حيث جاء في إنجيل متى الإصحاح 16 فقرة نصها «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي[3]». وهكذا غدت الكنيسة قوة عظيمة في غرب أوربا في تلك القرون، حتى أن كل من كان يخالف تعاليمها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب، واستغلت الكنيسة تلك السلطة في مواجهة معارضيها وبخاصة في ميدان السياسة. كذلك تحكمت الكنيسة بحكم الظروف التي أحاطت بنشأتها ـ في أواخر العصور القديمة وأوائل العصر الوسيط ـ في مقدرات الأفراد وفي حياتهم الخاصة والعامة، فكان بيدها الأمر والنهي وعليهم السمع والطاعة[4].

بالإضافة إلى الجانب الديني، فإن علينا أن نلاحظ أن الكنيسة الغربية ورثت تراث الحضارة الرومانية، حتى أصبحت أعظم أداة حضارية في غرب أوربا في العصور الوسطى، بفضل إشراف البابوية التي أخذت تكتسب طابعاً عالمياً واضحاً، منذ عهد البابا جريجوري العظيم (590 ـ 604)، وبفضل مساعدة الميروفنجيين والكارولنجيين من بعدهم. هذا عدا جهود ذلك الجيش

(1) ل.م. هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص 120.
(2) توفيق الطويل: قصة الإضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1991، ص 56.
(3) إنجيل متى: إصحاح 16. (8)؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 67.
(4) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 41.
هارتمان: الدولة والأمبراطورية، ص 48 ـ 61.
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 1، ص 160 ـ 168.

الضخم من رهبان الأديرة ورجال البعثات الدينية التبشيرية، الذين كافحوا في سبيل نشر المسيحية الكاثوليكية. على أن أثر الكنيسة لم يقتصر على نشر المسيحية والحضارة الرومانية حتى نهر الألب واستكلندا فحسب، ولكنها أسهمت أيضاً بجهودها الفعالة في تنظيم الحياتين الاقتصادية والاجتماعية في غرب أوربا، وإليها يرجع الفضل في إقرار السلام والأمن، والقضاء على كثير من مظاهر الفوضى التي غرقت فيها أوربا غداة سقوط الإمبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس. ومن ذلك أن الكنيسة حاربت مبدأ الأخذ بالثأر وعملت على إنشاء المستشفيات والملاجىء، كما عملت على حماية المرأة والمحافظة على حقوقها الحيوية. كل ذلك بالإضافة إلى نشر الحضارة والتعليم بين المجتمعات المختلفة بين سكان غرب أوربا، وذلك عن طريق المؤسسات الدينية العديدة كالأديرة والكاتدرائيات[1]. لقد كان لتعاليم الكنيسة الفضل في تحويل نسبة كبيرة من حروب الحدود إلى حروب صليبية تستهدف نشر المسيحية والقضاء على غير المسيحيين أو الدفاع عن أماكن مقدسة[2]. وتعتبر الكنيسة الغربية القوة الأساسية التي استوعبت ملتمس الإمبراطور الكسيوس كومنين (1081 ـ 1118 م)، واستجابت لطلب المساعدة للقيام بحرب مقدسة ضد المسلمين واسترداد الأرض المقدسة منهم، وبذلك كانت الكنيسة الغربية هي القوة التي تزعمت الحرب الصليبية[3].

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 2، ص 11 ـ 12.
حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط 2 الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993، ص 12.
(2) هـ.و. ديفز: أوربا في العصور الوسطى ط 1، ترجمة عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، الإسكندرية 1911، ص 183.
(3) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 20 ـ 21.

ب ـ البابوية[1] وهيمنتها على المجتمع المسيحي الغربي

إن الاتجاه الذي سارت فيه الكنيسة، لمحاكاة أسلوب ونظم الحكومة الإمبراطورية، في حاجة إلى شخصية قوية على رأسها، مثلما كان للإمبراطورية إمبراطور. ويمكن لنا أن نلاحظ اختلافاً بيناً بين الشرق والغرب، حيث في الشرق خضعت الكنيسة للأباطرة الذين عظم تدخلهم في الشؤون الكنيسية، وظهر ذلك فيما بين القرنين السادس والثامن، بحيث أخذوا يتدخلون في شؤون الكنيسة المختلفة. وهكذا أصبح من الاستحالة الحد من تدخل الإمبراطور البيزنطي في شؤون الكنيسة الشرقية، الأمر الذي جعل الإمبراطور يمثل نوعاً من القيصرية. ولقد وضع أساس هذه السياسة الإمبراطور قسطنطين الكبير (306 ـ 337)، منذ الإعتراف بالديانة المسيحية كدين من بين الأديان في الإمبراطورية سنة (313 م)، ولقد سار على نفس المنوال خلفاء قسطنطين. واتضحت هذه السياسة عندما أخذ الأباطرة على عاتقهم دعوة المجامع الدينية لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالديانة المسيحية. أما في الشق الغربي، فإن العلاقة بين الدولة والكنيسة اختلفت عن السياق الشرقي كثيراً، إذ إن ضعف الدولة لم تستطع معه فرض السيطرة على الدولة والكنيسة معاً، كما هو في الشق الشرقي من العالم المسيحي، وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربية ضالتها في شخص أسقف روما، الذي تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة في مختلف بلدان العالم الغربي[2].

كانت العقبة أمام ظهور السلطة البابوية، هي موقف الحكومة الإمبراطورية تجاه الكنيسة، وهو موقف اتسم بالعداء، حتى بعد أن تخلى الإمبراطور عن اللقب الوثني «الكاهن الأعظم»، وذلك عام 379[3] م، ولم

(1) انظر: ملحق رقم (3).

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 65 ـ 66.
G. Barraclough: The Medieval, p. 20 - 22.

(3) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 55. G. Barraclough: The Medieval, p. 22.

تكن هذه العقبة الوحيدة التي واجهت الكنيسة والمسيحية، وبالتالي البابوية، بل يلاحظ أنه منذ القرن الأول للميلاد تعرضت المسيحية لحملة واسعة من الاضطهاد، ولم تصدر هذه الحملة عن أباطرة عاديين فحسب، بل الكثير من هؤلاء الأباطرة كانوا من المصلحين، حيث إن الإمبراطورية تخوفت من الاجتماعات السرية التي دأب المسيحيون على عقدها بين حين وآخر. هذا فضلاً عن معارضة المسيحية لتأليه الإمبراطور، في حين ظهرت المسيحية ممثلة صورة المساند للفقراء، مما جعل منها ثورة اجتماعية، ولكن يلاحظ من خلال دراسة مرحلة الاضطهاد أن هذا الاضطهاد لم يوقف تيار المسيحية، بل حدث العكس، إذ ازدادت المسيحية والكنيسة ـ وبالتالي البابوية ـ انتشاراً وقوة[1].

والواقع أن البابوية كانت أعظم القوى التي ساهمت في تشكيل أوربا في العصور الوسطى، وطبقاً لمذهب الكنيسة الكاثوليكية الذي تم تعريفه وتحديده في «مجلس الفاتيكان» في سنة 1870 م، فإن البابوية تدين بهيئتها وإطارها للقديس بطرس وخليفته الحبر الأعظم بابا روما، الذي ورث عنه السلطة العظمى التي منحه إياها المسيح. على أن ممارسة هذه السلطة، كما أوضحها أحد مشرعي القانون الكاثوليكي في القرن التاسع عشر، كانت خاضعة دائماً لظروف الزمان والمكان، حتى أن تاريخ الأسقفية البابوية يوضح أنها تأسست ببطء، وأنها مرت بمراحل أليمة من القمع والاضطهاد، فكان لا بد من أن تمر عدة قرون على مولدها النظري منذ أيام «البابا ليو الأول» (440 ـ 461 م)، قبل أن تترجم النظرية البابوية إلى صورة عملية[2]. وعندما نقول إن البابوية هي التي كيفت وجه أوربا العصور الوسطى، فإننا

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 50 ـ 52؛ توفيق الطويل: قصة الإضطهاد، ص 47 ـ 78. E. Gibbon: The Declin, and Fall, Vol. 1, p. 355.
نورمان. ف. كانتور: العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 1993، ص 61 ـ 62.

(2) G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 9, 26.

نعني أنها كانت في تلك العصور تشق طريقها في التطور من بدايات مظلمة، لأن الكنيسة كانت عندئذ تمثل مجتمعاً صغيراً مضطهداً في عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وحتى قبل القرن السادس، كان الغرب يطلق لقب بابا ليعبر عن ذلك الرجل ذي الرعاية الأبوية الذي يتمثل في كل أسقف. ولكن لم يلبث أن استرد أسقف روما هذا اللقب وحده حتى أنه في سنة 1075 م كان من الضروري بالنسبة لجريجوري السابع أن يؤكد أن العالم له بابا واحد فقط، كما حدث كثير من التطورات التي ساهمت في رفع مكانة البابوية، وليس من الواقع في شيء أن نتصور أن البابوات المتعاقبين اتبعوا سياسة ثابتة مترابطة الحلقات استهدفت هدفاً واحداً واضحاً يمكن تصوره، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة لا تحط من قدر البابوية. فعلى مدى ستة قرون أو أكثر ظلت البابوية قوة عظيمة هائلة شكلت مصير أوربا[1].

إن لفظة البابا (Papa) لاتينية الأصل وتعني الأب، ويمكن إطلاقها على أي فرد من رجال الكنيسة، ولكن الغرب الأوربي وجد ضالته في شخص أسقف روما الذي تحول كرسيه إلى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة في مختلف بلدان العالم الغربي[2]. والواقع أن هناك عوامل عديدة هيأت لأسقف روما هذه الأهمية والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب في تلك المرحلة، ذلك أنه من المعروف أن أهمية الأسقف تتناسب عادة والأهمية السياسية والاقتصادية للمدينة التي يقوم فيها كرسيه الأسقفي[3] ومن بين أساقفة الغرب برز أسقف روما، ليحظى بمكانة خاصة ممتازة مستمدة لا من مكانة مدينة روما فحسب، وإنما أيضاً بوصفه خليفة بطرس الذي كرمه

(1) G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 9,10.

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 68.

G.Barraclough: The Medieval Papacy, p. 7, 13.

(3) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، هامش ص 68.
نورمان كانتور: العصور الوسطى، ص 60 ـ 62.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 55.

المسيح تكريماً لم يحظ به غيره من الرسل[1]. وهذا معناه أن كنيسة روما التي أسسها القديس بطرس، لم يكن لها مثيل في الغرب الأوربي، وهكذا استطاعت كنيسة روما أن تتدخل مع السلطات الزمنية لصالح الكنائس الأخرى، كما استطاعت بفضل موقعها الجغرافي أن تجمع ثروة طائلة ساعدت بها الكنائس الفقيرة. ولا شك في أن التقدير والاحترام اللذين حصلت عليهما الكنيسة الرومانية جعلها تقف دون منافس، ومن ذلك الوقت بدأت تأخذ وضعها وهيبتها الدينية[2].

والواقع أننا لا نعرف عن أساقفة روما في القرنين الأول والثاني أكثر من أسمائهم، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بعد عهد قسطنطين (306 ـ 337 م)، عندما أخذت المراجع تشير إلى بعض البابوات الذين لعبوا دوراً فعالاً في توجيه سياسة الكنيسة. ومن هؤلاء البابا داماسوس الأول (336 ـ 384 م)، الذي كتب مؤلفاً استعرض فيه مكانة كرسي روما الأسقفي، وأكد سيادة البابوية وسموّها. كذلك عهد هذا البابا إلى جيروم (331 ـ 420 تقريباً) بترجمة الإنجيل إلى اللاتينية. أما خليفته البابا سيركيوس (384 ـ 399 م)، فترجع إليه أولى المواسيم البابوية التي وصلتنا، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها، وبعد ذلك اشتهر البابا ليو الأول أو العظيم (440 ـ 461 م) الذي تم في عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية في الغرب، وفي سنة 455 م أصدر الإمبراطور فالنشيان الثالث (425 ـ 455) إمبراطور الغرب مرسوماً يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا. وهنا نشير إلى وجود

(1) N. Zacour: An Introduction, p. 172-173.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 67.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 154.

(2) G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 14-18.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 68 ـ 69.
نورمان كانتور: العصور الوسطى، ص 61.
ج.ج كولتون: عالم العصور الوسطى، ص 108.

عوامل أخرى ثانوية ساعدت على تحقيق سيادة البابوية، منها ازدياد الإلتجاء إلى أساقفة روما، لاستئناف الأحكام القضائية التي أصدرتها المجامع الإقليمية أو صغار الأساقفة، مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحكم الأكبر والسيد الأعلى، ومن هذه العوامل أيضاً عظم ثروة أسقفية روما. وتعاقب عدد من ذوي الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفي مثل ليو الأول (440 ـ 461 م)، وجريجوري الأول (590 ـ 604 م)، وهذا فضلاً عن سقوط الإمبراطورية في الغرب سنة 476 م، ترك البابا وحيداً لا ينافسه سيد سياسي في الغرب، في الوقت الذي كان بعيداً عن سلطان إمبراطور القسطنطينية ونفوذه في الشرق[1]. وفي تتبعنا لمسيرة البابوية في ذلك الدور الأول، نجد أن البابا جلاسيوس الأول (492 ـ 496 م) لا يعدّ بالمعنى الدقيق من آباء الكنيسة، وإن كان من حقه المطالبة بمكان له بينهم، حيث أنه قام بعدة أعمال منها إيجاد أسلوب قانوني لصياغة العلاقة بين البابوات والحكام العلمانيين في إطار مسيحي واحد، وكذلك قام هذا البابا برعاية الكنيسة والمسيحيين في روما أثناء فترات غزو البرابرة[2].

الواقع أن البابوية اتخذت صبغتها العالمية القوية التي ميزتها طوال العصور الوسطى في عهد البابا جريجوري الأول (590 ـ 604 م)، ففي غاليا كانت رغبات جريجوري الأول تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة، حتى أصبح لهذا البابا كلمة مسموعة في جميع أنحاء غاليا، حقيقة أن جريجوري لم يتردد في طلب معونة الإمبراطورية البيزنطية لإخضاع أساقفة اليريا، أو تأديب هراطقة الدوناتيين[3] في شمال إفريقيـة، ولكن بلغ بهذا

(1) سعيد عاشور: أوربا، جـ 1، ص 68 ـ 69.
نورمان كانتور؛ العصور الوسطى المبكرة، ص 91.
G. Barraclough: The Medieval Papacy, p.26.

(2) E.A. Synan: The Popes and The Jews in The Middle Ages, New York, 1965, p. 31.
Cambridge Medieval History, vol. 5, p-7, 1979.

(3) الدوناتية: ظهرت في شمال أفريقية في أواخر القرن الثالث واشتد أمرها في القرن الرابع. نسبة إلى دوناتوس وجوهرها الصراع بين الأرستقراطية الحاكمة والمحكومين =

البابا أنه في الوقت الذي كان أحوج ما يكون إلى مساعدة الإمبراطورية البيزنطية، لم يتراجع في تهديد الإمبراطور موريس (582 ـ 602 م)، عندما لجأ الأخير إلى تقييد نفوذ الأديرة وتحريم دخولها على الرجال القادرين على الخدمة العسكرية. وهكذا استطاع جريجوري، بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهيبتها، أن يضرب مثـلاً عالياً احتذاه خلفاؤه من البابوات، ويكفي أنه ترك لخلفائه بناءً بابوياً شامخاً ونفوذاً روحياً واسعاً وسلطة زمنية قوية، كما حقق للمنصب البابوي قسطاً من السمو لم يسبق أن حظيت به البابوية من قبل[1].

في أواخر القرن السادس شهدت إيطاليا مرحلة من الصراع بين ثلاث قوى ممثلة في: البيزنطيين واللمبارديين والبابوية. وكانت البابوية تنمو في تلك الفترة تدريجياً لتبدو في صورة قوة سياسية ودينية في إيطاليا حتى أصبحت الكنيسة البابوية أكبر مالك للأراضي في إيطاليا في تلك المرحلة، وتم ذلك نتيجة الحق الذي تمتعت به الكنيسة منذ عهد قسطنطين الكبير في حيازة الممتلكات، وتزايدت هذه الممتلكات عبر السنين بعد أن دأب بعض الأغنياء على أن يوصوا لها بالأموال، وما كان يهبه لها أشراف روما، فضلاً عن اتجاه صغار الملاك إلى وضع أنفسهم تحت حماية البابوية، وهكذا أخذت البابوية توسع نفوذها المادي والأدبي في إيطاليا[2]. وكان أن بدأ أسقف روما مشواره الطويل لتحقيق ثلاثة أهداف كبرى: أولها تأكيد سمو البابوية وسلطتها العالمية وفق النظرية البطرسية، ثانيها تنظيم الكنيسة المسيحية، وثالثها فرض الثقافة المسيحية اللاتينية على الممالك الجرمانية في الغرب الأوربي[3].

= واتخذت الكفاح الطبقي واستمرت ثورتهم ثلاثة قرون.
عبد القادر اليوسف: الأمبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت 1966، ص 25.

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 161 و164.
G.Barraclough: the Medieval Papacy, p-26.

(2) عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 95 ـ 96.
توفيق الطويل: قصة الإضطهاد الديني، ص 91 ـ 92؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 154 ـ 160.

(3) هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص 25 ـ 26. =

وهكذا غدا البابا الجالس على الكرسي الرسولي بروما، هو الرئيس الديني الأعلى لكافة المسيحيين في الغرب. وكان البابا يساند أي ملك من الملوك ينهض للدفاع عن المسيحية. ولا شك في أن البابوية كانت تنظر إلى التقدم الإسلامي في أوربا الغربية نظرة تخوف وألم، وإشفاق على مصير المسيحيين، حتى إذا كانت معركة بلاط الشهداء سنة (114 هـ/ 732 م)، وهي المعركة التي أوقف فيها شارل مارتل تقدم المسلمين في جنوب فرنسا، عندئذ انتعشت البابوية واهتزت أوربا النصرانية فرحاً، وأضفت على شارل مارتل (714 ـ 741 م) مختلف نعوت الإجلال والبطولة، واعتبرته الكنيسة الكاثوليكية حامياً للنصرانية ومنقذاً لها من الإنهيار. ومنذ ذلك الوقت تقريباً اكتسبت الحرب ضد المسلمين صفة الحروب المقدسة، ولما خلف شارل مارتل ابنه بيبن القصير (741 ـ 768 م) على زعامة الإفرنج، تم الاتصال سراً في أوائل سنة 753 م بين البابا ستيفن الثاني (752 ـ 757 م) وبيبن القصير، وترتب على ذلك أن تم اللقاء بينهما في غاليا. وفي يوليو 754 م أعاد البابا تتويج بيبن بيده، فحارب بيبن اللمبارد من أجل البابوية ومنح الأراضي التي افتكّها منهم للبابوية[1].

ومن الثابت أنه بإحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية في مستهل القرن التاسع وتتويج شارلمان (771 ـ 814 م) في سنة 800 م إمبراطوراً، كانت البابوية في روما قد ثبتت دعائمها، لا سيما وأنها بهذا العمل قطعت الرباط

= عادل زيتون؛ العلاقات السياسية، ص 101.

(1) هـ. ا. ل فشر: تاريخ أوربا ط 6، ترجمة محمد زيادة، دار المعارف بمصر، القاهرة 1976، ص 68 ـ 69؛ محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية، تونس 1954، ص 138.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 168 ـ 170، 193 ـ 194.
حسن مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ص 149 ـ 150.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 102.
حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957، ص 246 ـ 247.

الواهي الذي كان يربطها بالإمبراطورية البيزنطية، في الوقت نفسه قوت الرباط الذي كان يربطها بمملكة الفرنجة وأكسبت هذا الرباط طابعاً دينياً مقدساً. هذا فضلاً عن أن الطريقة التي تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الإمبراطوري يبدو في صورة منحة من البابا، وهي العقيدة التي أصبح لها شأن كبير في النزاع بين الإمبراطورية والبابوية فيما بعد، ولم يبق أمام البابوات إلا مواصلة الجهود التي كان قد بدأها جريجوري العظيم[1]. وفي نفس الوقت الذي كانت البابوية تنفذ سياستها الاستقلالية عن الدولة البيزنطية، كانت تواصل العمل على تحقيق الشق الثاني في سياستها، وهو العمل على فرض نفوذها الديني والدنيوي على الغرب المسيحي بأكمله، حتى غدت مع مرور الوقت قوة دينية ودنيوية هائلة، بحيث أمكنها أن تسيطر على مقدرات الأفراد الخاصة والعامة، وغدا لها الأمر والنهي وعلى الجميع لها السمع والطاعة، ومن يحاول الخروج عليها يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب من حرمان ونقمة ولعنة وقطع[2].

ولا شك في أن انهيار الإمبراطورية الكارولنجية في القرن التاسع قد شجع على تحقيق أهداف البابوية في السيادة، وهكذا أصر البابوات على أن الكنيسة في روما هي الكنيسة الأولى، وأن رأسها وهو البابا هو نائب القديس بطرس، والمنبع الرئيسي للقانون الكنيسي، وقد أكد البابا نيقولا الأول (858 ـ 867 م) أن روما ليست فقط زعيمة الكنائس المسيحية كلها، ولكنها أيضاً لها السيادة على الأرض والدنيا كلها، وأن البابا هو سيد الأرض كلها ويعمل نيابة عن الرب، وبذلك لم يبق للحكام الدنيويين إلا مجالاً ضيقاً يتحركون فيه، فيعملون كحماة للكنيسة، خاضعين لقوانينها. وكانت ادعاءات

(1) هارتمان: الدولة والإمبراطورية ص 47 ، 59.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 207.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 194.
(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 160 ـ 168، 334 ـ 339.
هارتمان؛ الدولة والإمبراطورية، ص 48،
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 41.

نيقولا الأول تستمد قوتها من مجموعة المستندات التي ظهرت في القرن التاسع، وهي عبارة عن مجموعة رسائل بابوية وبعض القرارات التي صدرت عن مجالس سابقة بعضها أصلي والآخر مزوّر، وهي تمجد المنصب البابوي وتؤكد سلطة البابوية على روما والمناطق المحيطة بها زمن البابا حنّا العاشر (914 ـ 928 م)[1]. وقد وصف البابا بأنه خادم الرب، ومعنى ذلك أن البابوات حرصوا على نشر السلام، وهو ما عرف باسم «سلام الرب Peace of God»، كما تصدى البابوات لمنع إيذاء الكهنة والرهبان والراهبات، ثم أضيف إلى هذه القائمة الرعاة وأطفال المدارس والتجار والمسافرون، وحُرّم دخول الملاجىء والأديرة على الرجال المسلحين، وكذلك الأراضي المحيطة بأبراج الكنائس لمسافة من 30 إلى 60 خطوة، وفي أيام الآحاد كان كل الناس يذهبون إلى الكنائس ويعودون منها آمنين[2].

ولم يلبث البابا ليو التاسع (1048 ـ 1054 م) ـ ومن جاء بعده ـ أن أضفوا على البابوية ومنصبها هالة من القوة والنفوذ تتصف بالعنف. ذلك أنه جعل من نفسه الحاكم المطلق الذي يعتبر الدنيا كلها وطناً واحداً. ونظر ليو إلى البابوية، لا كما نظر إليها أسلافه، مجرد منصب محدود بوظيفة أو بمكان، وإنما اعتبرها مؤسسة عالمية ذات سلطان مطلق، وسموّ غير محدّد واستقلالٍ تامّ، وتفويضٍ إلهيّ بالرقابة الروحية والإصلاح والتوجيه إلى الخير، وبوحيٍ من هذه العقيدة عين الكرادلة من الأجانب غير الإيطاليين، وعقد المجامع الدينية في فرنسا وألمانيا، وحالف النورمان في جنوب إيطاليا، وأنفذ القصاد البابويين في بعثات تأديبية إلى أنحاء أوربا. ثم حذا خلفاؤه حذوه في السير على مقتضى مذهب السموّ البابوي المطلق[3].

حقيقة أن الكنائس المحلية في مختلف بلاد غرب أوربا ظلت تنظر إلى

(1) N. Zacour: An Introduction to Medieval, p. 177-179.
هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص 54 ـ 60.

(2) H. Lamb: The Crusades: Iron men and Saints, Gardn City, New York, 1930, p. 29-32.

(3) هـ. أ. ل. فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 145 ـ 146.

البابا على أنه زعيمها الروحي، ولكن نفوذ البابوية على هذه الكنائس لم يعد أن يكون اسمياً. فكثير من البابوات في الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والحادي عشر أهملوا توجيه الكنائس ورجالها توجيهاً فعلياً رشيداً، ولم يفكروا في دعوة مجامع دينية عامة، وتركوا مهمة هذا التوجيه ودعوة المجامع إلى الملوك في كل بلد من البلدان، حسب مقدرة هؤلاء الملوك ومقدار سيطرتهم على الكنيسة في بلادهم، مما أدى إلى تفكك الكنيسة وعدم وجود رابطة تربطها في غرب أوربا. ومن الواضح أن سيطرة الحكام العلمانيين على الكنيسة لم تؤد فقط إلى تفكك الكنيسة في تلك الحقبة، وإنما أدت أيضاً إلى انحطاط سلوك بعض رجال الدين، لأن الحكام العلمانيين لم يهتموا عند ملء الوظائف الدينية باختيار مرشحين على خلق سليم، مما أدى إلى وصول بعض ضعاف النفوس إلى أرفع المناصب الكنسية[1]. وقبل بداية مرحلة الإصلاح البابوية في منتصف القرن الحادي عشر، كانت هناك فجوة بين تصور البابوية للمجتمع المسيحي وواقع الكنيسة المعاصرة، وكانت سلطة البابوية على الكنيسة قد تزايدت إلى أبعد حد، وانكب الغيورون على محاولة الكشف عن أدلة جديدة لصالح القضية البابوية[2]. كذلك عمل البابا نيقولا الثاني (1059 ـ 1061 م) على دعم الكنيسة إذ ذاك فعقد مجمعاً دينياً في روما سنة 1059 م لوضع القواعد اللازمة لاختيار البابوات، ومن هذه القواعد أن يتم اختيار البابا من بين رجال الدين في كنيسة روما نفسها، ويمكن اختيار البابا من كنيسة أخرى في حالة عدم تواجد الشخص المناسب في كنيسة روما. وأن يتم اختيار البابا عن طرق كرادلة روما وضواحيها السبع[3]، ثم يجتمع هؤلاء الكرادلة مع بقية الكرادلة والأساقفة لإقرار الانتخاب وجاء في هذه القواعد أيضاً ما يقطع خط الرجعة على المتدخلين في شئون الكنيسة، فقد ورد بها أنه

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 338 ـ 339.

(2) س. ورن هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ص 179 ـ 191.

(3) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 710 ـ 712. نصوص وثائق رقم (6) مرسوم البابا نيقولا الثاني لتحديد طريقة انتخاب البابوات.

إذا تم اختيار بابا بغير الطريقة القانونية فإنه يجب طرد مثل هذا البابا ومن ساعدوه من رحمة الكنيسة[1]. وفي سنة 1059 م عقد البابا مع النورمان معاهدة تحالف تعهد فيها النورمان بمساعدة البابوية إذا تعرضت لخطر أو هاجم البعض أملاكها[2].

وهكذا بلغت الكنيسة مرحلة حاسمة في تاريخها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وهو العصر الذي يعرف بعصر البابا جريجوري السابع، أعظم بابوات العصور الوسطى، ذلك أن جريجوري السابع وقف من الإمبراطورية موقفاً عنيداً لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية، وبأن البابوية هي مصدر جميع السلطات السياسية والدينية[3]. ومنذئذ سارت السياسة العليا في الدوائر الكنسية مرهونة بعبقرية راهب قمىء دميم الوجه، بدأ حياته فلاحاً خشناً في توسكانيا وما زال يتقلب في المراتب الدينية. ويدل على توقده سعة حيلته حتى عرفه التاريخ كردينالاً باسم «هيلد براند» أي «الشعلة المضيئة»، ثم عرف باسم جريجوري السابع حين تم انتخابه للكرسي البابوي (1073 ـ 1085 م)، ولا مغالاة في القول بأن التطورات السياسية الخطيرة التي شهدتها أوربا منذ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، ترجع في معظمها إلى تأثير ذلك الرجل الصارم الذي لم يتزحزح عن رأيه مرة قيد أنملة، ونادى بصوت ملؤه الشجاعة، أن العالم بأسره دولة مسيحية واحدة، يسيطر عليها بابا، له العصمة، وله القدرة، لا يحده قانون، ولا يزعه وازع، وهو الذي يخلع المسيئين من الملوك، ويشل عروشهم ويقطعهم من رحمة الكنيسة، ويحل رعيتهم من طاعتهم. وطالب أن تكون الكنيسة مستقلة في شؤونها تمام

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 344 ـ 345.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 293.
فشر: تاريخ أوربا، ص 144 ـ 145.
(2) عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 104.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 277.
(3) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 217.

الاستقلال أي تصبح دولة داخل الدولة وأخيراً في سنة 1075 م أثناء انعقاد المجمع الديني طالب بأنه ليس من حق الحاكم العلماني كائناً من كان، أن يقلد أحداً من رجال الكنيسة مهام منصبه الديني. وحاول استمالة النورمان إلى جانبه في صراعه مع الإمبراطورية[1]. وفي عام 1074 م قبيل الحروب الصليبية، صمم البابا جريجوري السابع على أن يقود حملة نحو الشرق، لنجدة الإمبراطورية البيزنطية ضد هجمات السلاجقة المسلمين[2]. وفي نفس العام عقد البابا جريجوري مجمعاً دينياً في روما وأصدر عدة قرارات لإصلاح حال الكنيسة[3]. وإذا كان جريجوري السابع قد عاد مع مرور الزمن إلى المغالاة في تفسير ما ورد في كتاب «مدينة الله»[4] فقد طالب كحقيقة واضحة تعلن عن نفسها، بأن تكون الدولة التي أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التي أسسها «قابيل»[5] وهكذا يكون باستطاعة البابا تعيين الأمراء

(1) فشر: تاريخ أوربا، ص 146 ـ 147؛ هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص49.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 277.
Cam. Med. Hist, Vol. 5, p. 51-57; B. Tierney: Western Europe, p. 209, E.A. Synan: The Popes and The Jews, p. 67.
(2) هانس أبرهادماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس 1990، ص 13.
(3) محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 201.
(4) كتاب «مدينة الله» ألفه القديس أوغسطين، بدأ في الكتابة 413 ـ 426 وهو رد على الرأي القائل بأن المسيحية سبب نكبة روما القديمة على يد القوط الغربيين عام 410 م.
(5) قابيل: هو القاتل الأول، الذي ورد عنه في التوراة أنه مؤسس أول مدينة.. وردت الإشارة إلى الحادثة في القرآن الكريم:
﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: 30].
ويقول المؤرخ ياقوت الحموي: معجم البلدان، بالمجلد الثاني، ص 464: «... فحسد قابيل أخاه هابيل فأراد قتله، فأخذ حجراً وجعل يضرب به رأسه فقتله، على جبل قاسيون...».
انظر: عبد الوهاب زيتون: الحروب الصليبية هل انتهت؟ دار المعرفة، دمشق =

وعزلهم[1]. أما خير ما يلخص آراء البابا جريجوري الخاصة بعظمة الوظيفة البابوية وسموها وسلطانها الروحي العالمي فهي المجموعة التي تنسب إلى ذلك البابا والتي جمعت بعد وفاته بقليل حوالى سنة 1087 م وتعرف هذه المجموعة باسم الإرادة البابوية أو الأوامر البابوية[2].

كذلك اشتهر أوربان (1088 ـ 1099 م) بقدرته في الإدارة والتنظيم ونجح في أن يخضع لسيادته وإشرافه كل النظام الكنسي في فرنسا، موطنه الأصلي. أما في اسبانيا فكان لنفوذه السيادة العليا، وأخذت البلاد النائية في أوربا تعترف رويداً رويداً بسلطته الروحية، وقد أصر أوربان على ما التمسه جريجوري السابع من الدعاوى من أجل السيادة السياسية وفي سنة 1095 م أضحى أوربان الثاني السيد الروحي للعالم المسيحي في الغرب[3].

ولما كان تنفيذ سياسة البابوية الواسعة المدى يتطلب وجود جهاز إداري مركزي دقيق، فإن الديوان البابوي سرعان ما أصبح أعظم جهاز إداري عرفه الغرب الأوربي في العصور الوسطى، ذلك أن الحكومة البابوية أخذت تتطور تطوراً بطيئاً تدريجياً حتى ظهر نوع من التخصص في وظائف البلاط البابوي، بمعنى قيام هيئات وجماعات من الموظفين اختص كل منهم بعمل إداري معين، وقد وجدت بالبلاط البابوي إدارة مالية قائمة بذاتها للنظر في شؤون الإيرادات والمصروفات[4].

= 1992، ص 19 ـ 20. كولتون: عالم العصور الوسطى، ص 266؛ العهد القديم ـ سفر التكوين ـ الإصحاح الرابع: 9 و16.

(1) ج.ج. كولتون: عالم العصور الوسطى، ص 272 ـ 273.

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 347 ـ 348.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 294.

N. Zacour: An introduction, p. 183-184.

(3) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج 1، ط 1، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت 1967، ص 153.

E.A. Synan: The Popes and The Jews, p. 65.

(4) سعيد عاشور: أوربا جـ 2، ص 220 ـ 221.

وهكذا حققت البابوية انتصارات عديدة حاسمة على الدولة الرومانية المقدسة، سواء في منح الألقاب أو غيرها، وأصبح الأباطرة أمام البابا أذلاء لا يستطيعون رفع رؤوسهم، بعد أن خطا خطوات ضخمة في طريقه إلى السيطرة الدولية[1]. ولا شك في أن هذا التطور لم يتم دون تورط البابوية في بعض النواحي الدنيوية العلمانية، فلكي تكون سلطتها ناجحة وجب أن يكون البابوات رجال دولة أولاً ورجال الرب ثانياً، ولتنفيذ حرب ما يجب أن يجمعوا الرجال والمال ويلجأون إلى الحيل بكل أنواعها من أجل هذا الغرض، وأن ينتهزوا كل فرصة لوضع السياسة التي تناسب الظروف. كذلك كان يجب عليهم أن يكونوا على استعداد لمحاربة أساليب النفاق السياسي، وإذا دعت الضرورة لا مانع من الإلتجاء إلى الكذب[2].

وفي الوقت الذي أخذت تتكاثر الإلتزامات التي فرضتها البابوية على العالم المسيحي الغربي بوجه عام والهيئات الكنيسية والدينية بوجه خاص بلغ النضال أشده بين البابوية والسلطة الزمنية[3].

جـ ـ العلاقة بين الكنيسة والدولة

لا نعرف سوى القليل عن انتشار المسيحية في أوائل عصرها في الإمبراطورية الرومانية، ولكن من الواضح أنه مع نهاية القرن الثالث، كان عدد من المسيحيين قد ازداد بدرجة كبيرة ليشكلوا وزناً سياسياً في العالم الروماني، وبدأت المسيحية في اجتذاب أعداد من الطبقات العليا في المجتمع، بحيث غدا في كل مدينة رئيسية مجتمع صغير يرأسه أسقف يساعده عدد من القساوسة والشماسة. وقد ردد الأساقفة الذين يعتبرون خلفاء الحواريين الأوائل، أن المسيح لم يأمر أتباعه بمهاجمة سلطة الدولة، وإنما

(1) د. عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ط 1، ترجمة د. فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة 1972، ص 108.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 5, p.321.

(3) سعيد عاشور: أوربا جـ 2، ص 223.

قال «أعطوا لقيصر ما لقيصر»[1]، على أنه حدث بعد اعتناق الأباطرة للمسيحية أن ظهرت على المسرح عدة مشاكل، لعل أخطرها مشكلة تحديد العلاقة بين الدولة والكنيسة، وهي المشكلة التي بدأت تظهر منذ القرن الرابع، وازدادت وضوحاً عندما أخذ المسيحيون يأملون من الدولة حمايتهم من الاضطهاد لا سيما وأن الإمبراطور صار في عداد المسيحيين، وهذه المشكلة - أي تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة - برزت في الوقت الذي انقسمت فيه الكنيسة إلى شرقية وغربية، وكانت الفكرة السائدة في ذلك الوقت، هي أنه لا يوجد فرد واحد يشك في أن المناصب الحكومية في الإمبراطورية قد أقرها الرب لإدارة شؤون العالم المسيحي[2].

ولم يلبث أن شهد الغرب الأوربي في العصور التالية نزاعاً حاداً بين البابوية والإمبراطورية، استمر حتى سنة 1250 م تقريباً، ومر بأدوار عديدة، ومهما تعددت الأسباب الظاهرية التي أدت إلى إثارة الحرب بين الفريقين في كل دور، فإن السبب الحقيقي الذي كمن وراء ذلك النزاع بجميع أدواره، هو مبدأ السمو والتنافس بين السلطتين الكنسية والعلمانية حول سيادة العالم، فأيهما أسمى: البابا أو الإمبراطور؟ وأيهما يجب أن تكون له الكلمة الأولى في العالم الغربي: الدولة أم الكنيسة[3]؟ على أننا نعتقد أن العلاقة بين الكنيسة والدولة لم تكن بالكامل عبارة عن صراع دائم مستمر، حيث أن هناك فترات كثيرة سادت فيها روابط التقارب والمصلحة المشتركة بين الطرفين، وعلى الرغم من الاضطهاد الذي تعرض له بعض معتنقي الديانة المسيحية في الدور الأول بعد مولدها، إلا أنه مع مرور الوقت ظهرت نظريات تؤكد سمو الكنيسة والبابوية، وذلك عندما اعتلى عرش الكنيسة بابوات أقوياء، سعوا لتحويل هذه النظريات إلى حقائق واقعة، وكان ذلك في الوقت الذي ظهر بعض الحكام العلمانيين أرادوا أن يؤكدوا سمو مركز الإمبراطور، وعظم

(1) إنجيل مرقس: 17:12.

(2) B. Tierney: Western Europe, p. 28, 31, 198.

(3) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 949 ـ 950.

مكانته وأحقيته في زعامة العالم المسيحي. وكان أن أدى تمسك كل طرف بوجهة نظره واعتداده بمركزه، إلى جعل العلاقة بين القوتين في العالم المسيحي تتصف بالصراع الذي اتخذ في أغلب مراحله طابعاً عسكرياً ودموياً[1].

والواقع أن الصراع الذي نشب بين أباطرة الدولة الرومانية المقدسة وبين البابوات في روما في العصور الوسطى (1075 ـ 1250 م)، لم يكن إلا نتيجة مباشرة للتعارض القائم بين السلطتين الدينية والزمنية حول مفهوم مبدأ السمو البابوي، كما كان نتيجة للحركات الإصلاحية التي عمت الكنيسة الغربية آنذاك، وبالتحديد الحركة الإصلاحية التي انبعثت من «دير كلوني» بيرجينديا أوائل القرن العاشر الميلادي (910 م)، والتي استهدفت منذ أيامها الأولى إصلاح الحياة الديرية، ولكنها لم تلبث أن اتسعت وتطورت حتى غدت منهجاً للإصلاح الكنسي العام[2]. وهذه المحاولات التي قامت بها الكنيسة الغربية استهدفت كيانها من الداخل والتحرر من السيطرة السياسية على شؤونها، ولتنظيم علاقاتها مع السلطة الزمنية حسب ما جاءت به نظرية السيفين[3]. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن نظرية السيفين لم يكتب لها

(1) N. Zacour: An Introduction, p. 174-175.

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 339 ـ 340.
كانتور: العصور الوسطى، ص 367 ـ 375.
كولتون: عالم العصور الوسطى، هامش. ص 172 ـ 173.

(3) نظرية السيفين: «Theory of the two swords»: وخلاصتها أن الله سبحانه وتعالى له ملك الدين والدنيا، وبيده سيفان مسلولان أحدهما يمثل سلطانه على الأرواح، والآخر يمثل سلطانه إلى الأبدان. أي أن أحد السيفين يقوم على الحكومة الدينية sacerdotium، بينما يقوم الآخر على الحكومة العالمية أو الزمنية Regnum. وبعد انتشار المسيحية في روما على يد القديس بطرس أحد تلامذة المسيح، سلمه الله كلا هذين السيفين. فأعطى بطرس سيف الأرواح للبابا، وسيف الأبدان للإمبراطور. ولما كانت الروح تفوق الجسد في تلك الأزمان، التي هيمنت فيها الكنيسة في الغرب على مصائر الناس ومقدراتهم فقد ترتب على ذلك تفوق البابوية على الإمبراطورية =

التطبيق العملي الواقعي، وقد حاولت الكنيسة تطبيقها في أواخر القرن الحادي عشر ولكنها عادت على السلطتين الإمبراطورية والبابوية بعواقب وخيمة[1].

والواقع أن المتأمل في تاريخ الكنسة الرومانية يجد أنها كانت معرضة لسيطرة العلمانية منذ اعتراف قسطنطين بالمسيحية (313 م) وإذا كانت بعض الظروف السياسية قد أتاحت لكنيسة روما التخلص من التدخل الحكومي المباشر في بعض المراحل، فإن ظروفاً سياسية أخرى أوقعتها تحت تأثيرات ثيودوريك (493 ـ 526 م) ملك القوط الشرقيين، فضلاً عن بعض أباطرة الشرق. وكان أن اتجهت الكنيسة الغربية نحو دولة الفرنجة في عهد الأسرتين الميروفنجية (500 ـ 753 م) والكارولنجية (754 ـ 888 م)، واعتمدت على حكام الفرنجة اعتماداً كبيراً في حماية كيانها. ولم يكن هناك مجال لتطبيق نظرية السيفين حينما توج شارلمان سنة 800 م إمبراطوراً بيد البابا، لأنه كان في واقع الأمر حاكماً ثيوقراطياً، وإن كانت الكفة الراجحة بجانب السلطة الزمنية. وهكذا شهد ذلك الدور تداخلاً واضحاً بين السلطتين الزمنية والدينية، وزاد من ذلك الارتباك غزوات الفيكنج من جهة وانتشار الإقطاع الذي سرى إلى المؤسسات الدينية من جهة أخرى[2]. وصفوة القول أنه إذا كان الإمبراطور قسطنطين (306 ـ 337 م) لم يتردد في التدخل ـ إذا لزم الأمر ـ في الشؤون الداخلية للكنيسة، فإن الكنيسة غدت بعد ذلك بحكم الضرورة موضع اهتمام الأباطرة والواقع أن الأباطرة كانوا على استعداد

= وكان من أهم من نادوا بهذه النظرية العالم الإنجليزي يوحنا السالسبوري الذي مات عام 1180 م. هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص 54.

(1) فشر: تاريخ أوربا، ص 257 ـ 260.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 289 ـ 304.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 350 ـ 406.

G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 63-117.

(2) ج. و. كوبلاند و ب. فينوجرادف: الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا، ص 62 ـ 133.

للاستعانة بأية سلطة يمكن أن تساعدهم في تحقيق وحدة العالم الروماني تحت سيادتهم، من هذه السلطات كانت كنيسة روما التي برزت بمكانتها المستمدة من القديس بطرس، لذا فليس من المستغرب أن نجد الإمبراطور جراثيان (375 ـ 383 م) يساند أسقف روما عام 378 م في مطالبته بالسيادة على بقية أساقفة الغرب. وكان كل ما يهتم به الأباطرة في العصر المسيحي الأول هو تحقيق وحدة العقيدة[1]. ولكن حدث بعد ذلك ـ مع مضي الوقت ـ أن ابتعدت كنيسة «روما» بالتدريج عن الإمبراطورية، وكان ذلك نتيجة لبعض التطورات السياسية التي لم يكن البابا مسؤولاً عنها[2].

ذلك أن الحكام العلمانيين كانت لهم مصالح لدى الأساقفة، فهم مستشاروهم الروحانيون، أي أنهم في كثير من الحالات سند للحكام. هذا فضلاً عن أن الملوك والأباطرة استخدموا رجال الكنيسة في أداء مهام أخرى متنوعة. ففي ألمانيا كانت تسند إليهم وظائف مدنية والتي تعتبر غريبة بالنسبة لمهامهم الأساسية الدينية، وكان التصور العام في داخل المجتمع المسيحي، هو أن يعمل رجال الكنيسة والعلمانيون جنباً إلى جنب لتحقيق أهداف مسيحية عامة. ولكي يحصل الملك على مساعدة رجال الكنيسة، كان يرفعهم إلى مكانة النبلاء وبذلك ابتعدوا عن جو التقوى والتدين. وسرعان ما اتضح أن النبلاء الروحانيين أفضل من النبلاء العلمانيين، حيث أنهم دربوا تدريباً جيداً لممارسة مهامهم الدنيوية[3]. وهكذا درج رجل الدين في سلم اجتماعي غريب عن طبيعته في ظل المناصب والألقاب الدنيوية. وفي ذلك الوقت نفسه اعتقد أن الكنيسة هي صاحبة السيادة على الأمراء والحكام[4].

ومن الملاحظ أن البابوية تأثرت كثيراً بالأوضاع السياسية التي سادت أوربا بصفة عامة وإيطاليا بصفة خاصة باعتبارها مركز البابوية، وكلما زاد

(1) G. Barraclough: The Medieval Papacy, p, 21-24.
(2) G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 22-28.
(3) Cam. Med. Hist: Vol. 5 p. 6.
(4) هـ. و. ديفز: أوربا في العصور الوسطى، ص 179.

تصارع القوى السياسية وخاصة في إيطاليا في العصور الوسطى كلما عانت البابوية من تنافس الحكام، وهي الظاهرة التي اتضحت على مدى قرن ونصف من الزمان ابتداءاً من القرن العاشر[1].

وفي بعض الأحيان كانت الكنيسة تمارس بعض النفوذ العلماني، أما في الشؤون الدينية فإن الحاكم العلماني لم يكن له نفوذ يذكر ومع ذلك كان يوجد خطر متزايد لما كان يحدث أحياناً من التدخل الذي لا مبرر له في الشؤون الروحية، أما في الكنيسة الشرقية، ولا سيما منذ القرن الرابع فصاعداً، فكانت معارضة البابا لرأي الإمبراطور تعتبر خيانة عظمى[2].

ومنذ سقوط الإمبراطورية في الغرب سنة 476 م، والعلاقة بين البابوية وأباطرة القسطنطينية في الشرق يغلب عليها طابع السوء وعدم الوفاق، وربما العداء في كثير من الحالات. وظل الأمر على ذلك حتى قيام دولة الفرنجة في الغرب وما كان من تقارب بين هذه الدولة والبابوية، مما هيأ للبابوية سنداً تستند إليه في مواجهة خصومها في الشرق والغرب جميعاً. هذا على الرغم من أن الإمبراطور البيزنطي ظل يتمتع بسيادة ـ ولو اسمية ـ على الغرب بوصفه وريث الأباطرة الرومان، وذلك حتى تتويج شارلمان وإعلانه إمبراطوراً سنة 800 م مما أوجد منافساً خطيراً للإمبراطور البيزنطي، وحرم الإمبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية والعالم الغربي[3].

ولكن تصدّع إمبراطورية الفرنجة وانتقال مركز الإمبراطورية في الغرب إلى ألمانيا، وظهور ما عرف في التاريخ بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، أدى بدوره إلى ظهور الصراع على السلطة من جديد بين الكنيسة والإمبراطورية الغربية خاصة في فترة حكم أوتو الأول (962 ـ 973 م)، حيث إن أوتو أراد أن يسيطر على الكنيسة الألمانية كوسيلة للسيطرة على ألمانيا. لذلك رأى أن يبدأ بإخضاع البابا أو على الأقل اكتسابه إلى جانبه، وطالما كان البابا خارجاً عن قبضة الإمبراطور، فإن أحلام أوتو الأول في

(1) محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 292.

(2) N. Zacour: An Introduction To Medieval, p. 176.

(3) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 208.

السيطرة على ألمانيا عن طريق وساطة رجال الدين لن تتحقق بشكل مضمون. وهكذا تحددت الخطوة التالية أمام أوتو وهي التدخل في شؤون إيطاليا للسيطرة على البابوية[1]. هذا وكان أن تتابع الأباطرة في الغرب بعد أوتو، فتمتع هنري الثاني (1002 ـ 1024 م) بسلطان واسع فوق الكنيسة، فأحبه رجال الدين لتقواه وتدينه وحبه للخير، وفي الوقت ننفسه استغل الأساقفة ومقدمي الأديرة كآداة له في تنفيذ سياسته الدنيوية، حتى أصبحوا ممثلين للسلطة الإمبراطورية في مناطق نفوذهم[2] ولم يلبث أن انتقل عنصر المبادأة في غضون سنوات قلائل إلى أيدي البابوات، وكان ذلك بعد وفاة هنري الثالث سنة 1056 م. وبوسعنا أن نعتبر الهجوم المضاد الذي شنّه البابا جريجوري السابع على الإمبراطورية بمثابة ردّ فعل «لما تعرضت له البابوية من تدخل في شؤونها»، الأمر الذي حرم البابا من بسط نفوذه الفعّال على سيادة الإمبراطور مثل ما كان الحال في القرن التاسع، ولا شك في أن تدهور الإمبراطورية البيزنطية في الشرق بعد وفاة الإمبراطور باسيل الثاني حوالى سنة 1025 م، أدى إلى تحرير البابوية منن سطوة أباطرة الشرق، مما مكنها من أن تتخذ موقفاً أكثر استقلالاً، هذا إلى أن ظهور النورمان[3] في البحر المتوسط كان عاملاً آخر يمكن البابوية من مواجهة الإمبراطورية الغربية. ويعتبر الإنشقاق الديني[4] بين الشرق والغرب عام 1054 م بمثابة نقطة تحوّل فيما

(1) فشر: تاريخ أوربا، ص 139 ـ 140.
هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص 44 و46.
سعيد عاشور: أوربا جـ1، ص 300.
سعيد عاشور: أوربا جـ 2، ص 94 ـ 95.

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 312.

(3) النورمان: استخدمت البابوية والبيزنطيون النورمان كفرق أجيرة ومنذ عام 1060 م أخذوا يعملون لحسابهم الخاص، واستطاع النورمان عام 1071 م الاستيلاء على باري البيزنطية وفي عام 1091 م استولى النورمان على صقلية ومالطة من السيادة العربية. للمزيد، الاطلاع على مراجع تاريخ العصور الوسطى بقائمة المراجع.

(4) الانشقاق الكبير أو القطيعة الدينية الكبرى عام 1054، وهي لأسباب متعددة. بدأت=

نحن بصدده[1]. ويلاحظ أن البابوات الذين تولوا منصب البابوية بين سنتي 1045، 1057 م خضعوا لسيطرة أباطرة الغرب عليهم سيطرة تامة دون أن يعترض أي منهم على تلك السيطرة، ولم يكن هذا كله في صالح الإمبراطورية كما يبدو في ظاهر الأمر لأن القبضة التي أحاطت بعنق البابوية كانت شديدة، مما جعلها تدخل بكل ثقلها في معركة ضد الإمبراطورية لتحرير نفسها من تلك القبضة، وهكذا غدا الصدام حتمياً بين القوتين. وفي سنة 1059 م أصدر البابا نيقولا الثاني مرسوماً يهدف إلى تحرير الانتخابات البابوية من التحكم الخارجي للحكام العلمانيين، كخطوة أولى نحو تحرير كل المناصب الكنسية من التحكم العلماني[2].

= بوضوح في الاتساع بين الشرق والغرب بعد تتويج شرلمان عام 800 امبراطوراً على يد البابا في روما. وقد جاءت الفتنة الكبرى أثناء بابوية ليو التاسع في روما والبطريق مخائيل كيرولاريوس في القسطنطينية. حيث أن البابوية في روما أرادت السيادة على جميع الكنائس المسيحية وفقاً للنظرية البطرسية وبخاصة بعد انتشار حركة الاصلاح الديني الكلوني. هذا ولقد تصرف المندوب البابوي همبرت بغطرسة وعجرفة أثناء إيفاده للقسطنطينية مما أشعل الصراع بشدة. هذا وإن الانشقاق الكبير مثلما كان لأسباب متعددة فقد أدى إلى نتائج عديدة بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني.

ويلاحظ الفرق بين الانشقاق الكبير في عام 1054 م وبين الانشقاق الذي حدث في غرب أوربا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (1378 ـ 1417) فالأول بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية والثاني داخل الكنيسة الغربية.

هارتمان: الدولة والإمبراطورية، هامش ص 217.

حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة، القاهرة 1986، ص 164 ـ 165.

جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص 117 ـ 118.

عبد القادر أحمد اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 1967، ص 314 ـ 315.

(1) هارتمان: الدولة والإمبراطورية، ص 216 ـ 217؛ حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 164 ـ 165؛ جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 117ـ118.

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 325. N. Zacour: An Introduction, p. 181.

بعد وفاة الإمبراطور هنري الثالث (1039 ـ 1056 م) كان ابنه القاصر هنري الرابع (1096 ـ 1105) في وضع ضعيف للغاية لا يمكنه من تعزيز حقوقه التقليدية، فلبث تحت الوصاية مدة تجاوزت خمس عشرة سنة (1056 ـ 1072 م)، ولا نشك في أن قيام صبي قاصر على عرش الإمبراطورية تلك السنوات الطويلة كان له تأثير خطير على الإمبراطورية وسلطانها، في الوقت الذي نفخت الحركة الكلونية روحاً جديدة في الكنيسة الغربية أدت إلى ازدياد نفوذ البابوية التي وجدت حلفاء أقوياء لها في النورمان بجنوب إيطاليا من جهة وفي كونتية تسكانيا من جهة أخرى[1].

بعد انتخاب هيلد براند لمنصب البابوية باسم جريجوري السابع (1073 ـ 1085 م)، وجد الإمبراطور نفسه في خلاف قوي مع البابوية، التي وضعت نفسها على قمة الحركة الإصلاحية، وكانت تلك الحركة لا تستهدف مجرد تصحيح الفساد في الكنيسة وسوء استخدام السلطة، وإنما أيضاً إعادة تنظيم العلاقات بين السلطة العلمانية والسلطة الكنسية، إذ كان البابا يرى أن الإمبراطورية هي ذراع الكنيسة العلماني. وكان أن وجه الباب رسالة قاسية للإمبراطور هنري الرابع يأمره فيها بأن يصلح سياسته في ألمانيا وأن يوقف تدخله في شؤون الكنيسة هناك، حيث إن الإمبراطور كان مشتبكاً مع الثوار السكسون[2]. واستمر الصراع لمدة طويلة بين هنري الرابع والبابا جريجوري السابع، ويلاحظ أن هذا البابا لم يأت بجديد في نظرية السمو البابوي، لكنه أراد تحويل هذه النظرية إلى واقع عملي، وأدت سياسته إلى الكثير من المعارك بين القوتين الدينية والعلمانية، وانتهى الدور الأول من أدوار الصراع بإهانة كبرى لحقت بالإمبراطورية فيما تعرف بضربة كانوسا في

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 350.

(2) N. Zacour: An Introduction, p. 181.
Cam. Med. Hist: Vol. 5 p. 331.
G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 66 .
B. Tierney: Western Europe, p. 201-211 .
N. Zacour: An Introduction, p. 181.

يناير 1077 م، والتي كانت ضربة قاسمة للإمبراطورية، التي لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقاً بعد ذلك، وقد مرّ الصراع بين البابوية والإمبراطورية بثلاثة أدوار، واستمر قائماً طوال عصر الحروب الصليبية، وهي الفترة التي تميزت بمحاولة تنظيم نفسها وتحرير كيانها من سيطرة العلمانية[1] في شؤونها.

د ـ صحوة الكنيسة وحركة الإصلاح الديني في غرب أوربا في القرن الحادي عشر

نلاحظ أن البابوية لم تستطع أن تحقق أطماعها في الزعامة والسمو إلا بعد أن مرّت الكنيسة الغربية بوجه عام بدور من الإصلاح والتطور، الأمر الذي مكّن البابوية من الوقوف على رأس الكنيسة في وجه القوى المعارضة حتى خرجت في النهاية مرفوعة الرأس[2]. وكانت الكنيسة تعاني عندئذ ثلاثة أمراض خطيرة، هي السيمونية[3] وزواج رجال الدين والتقليد العلماني. وتعتبر حركة الإصلاح التي بدأت في الكنيسة بصورة فعلية قبيل الحروب الصليبية مظهراً من مظاهر النهضة الأوربية التي لاحت بشائرها في الأفق الأوربي منذ القرن الحادي عشر ثم ازدهرت في القرن الثاني عشر، وذلك على إثر الاستقرار النسبي الذي ساد أوربا الغربية بعد الغزوات والضربات المختلفة التي تعرضت لها أوربا في القرون السابقة. وقد أسهم في إصلاح الكنيسة تياران: أحدهما صدر من دير بندكت والآخر من دير كلوني ومن

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 346 ـ 406.
فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 149 ـ 150.
هانس أ. ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 12.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 105.

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 333 ـ 334.

(3) سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن، 18 ـ 20.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 342.

هذا يبدو أن هذه الحركات الإصلاحية نبعت من أصول ديرية[1]. وكانت بذور حياة الرهبانية قد ظهرت في الشرق منذ وقت مبكّر يرجع إلى القرن الثالث للميلاد، وأخذت تقوى وتزداد انتشاراً بعد ذلك حتى وصلت إلى الغرب الأوربي في القرن الخامس. ومن أعلام الحركة الديرية ومؤسسيها في غرب أوربا كان القديس بندكت النورسي (458 ـ 540 م) الذي أقام ديره الشهير في مونت كاسينو بإيطاليا على أساس الجمع بين العبادة والعمل؛ وسرعان ما انتشر النظام الديري البندكتي في غرب أوربا حيث أطلق على الرهبان البندكتيين اسم الرهبان السود وعرفت الفترة بين سنتي 500 و1150 م غالباً باسم «القرون البندكتية». وللديريين البندكتيين الفضل في تعمير الأراضي الجديدة التي استقروا بها وزرعوها بعد إصلاحها، كما عنوا بالفقراء والمساكين، وهم كذلك أصحاب الفضل في صون المخطوطات الدينية ونسخها والحفاظ عليها من الضياع والنسيان[2]. وهكذا صار ديرمونت كاسينو مركزاً وأباً روحياً لشبكة واسعة من الأديرة التي تأسست في غرب أوربا وفقاً للنظام الأساسي الذي وضعه القديس بندكت.

ويقوم هذا النظام البندكتي على ثلاثة أركان أساسية هي إنكار الذات

= تنسب السيمونية إلى سيمون الساحر الذي ورد عنه في العهد الجديد «ولما رأى سيمون أنه بوضع أيدي الرسل يعطى الروح القدس قدم لهم دراهم، قائلاً أعطياني أنا أيضاً هذا السلطان حتى أي من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس، فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله بدراهم».

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 20 ـ 21.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 348 ـ 349.
The American Historical Review, vol. 93, No. 2. April 1988, p. 137.
History: vol. 58, No 193, June 1973, p. 169-170.
G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 63-65.

(2) فشر: تاريخ أوربا، ص 113.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 172 ـ 185؛ عبد القادر اليوسف: العصور الأوربية، ص 72 ـ 75.
وللإستزادة عن الرهبنة انظر ملحق رقم (6).

والطاعة والعمل، ويلاحظ من تاريخ الحركة النبدكتية أن مقدم أو رئيس الدير كان يتحمل مسؤولية جسيمة لأنه هو المسؤول أمام الله لا عن تصرفاته فحسب، بل عن تصرفات بقية أعضاء الدير[1]. وتتميز الحياة الديرية، كما يصورها الدستور البندكتي، بأنها حياة عامة غاية في التنظيم، والترتيب الصارم والنظام الثابت. ولم يتضمن الدستور البندكتي أية صورة من صور الرهبانية المتطرفة؛ إذ كان بندكت يتمتع بحس روماني متوازن، وبنظرة سيكولوجية ثاقبة فيما يتعلق بالقيود التي يمكن أن تلائم طبيعة البشر[2]. ويلاحظ أن ثمة عوامل خاصة دفعت بأعداد كبيرة من الرجال والنساء إلى ذلك النوع من الحياة التنسكية الآمنة، وهذه العوامل بلا ريب مزيج من السمو الروحي، والنزعة الدينية، والخوف من عذاب الآخرة، والرغبة في التحرر من أعباء الحياة، والحياة في جو هادىء، ولم يلبث لهذه العوامل أن اجتذبت الكثيرين من الناس إلى الحركة الديرية، بدافع الشعور باستحالة العيش في عالم مزّقته إغارات الأعداء، ودكت أركانه الحروب[3]. على أنه حدث في القرون الثلاثة التي أعقبت وفاة بندكت، أن تعرض النظام الديري البندكتي لتغيرات هامة تتعارض مع القواعد التي وضعها القديس بندكت. وقد أدت إلى ذلك عدة أسباب منها تفكك إمبراطورية شارلمان، وعدم استقلال الأديرة عن السلطة العلمانية، مما جعل الحياة الديرية في غرب أوربا عند نهاية القرن التاسع

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 181 ـ 182.
سعيد عاشور: أوربا جـ 2، ص 240 ـ 241 .
فشر: تاريخ أوربا، ص 113 ـ 114.
محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 156 ـ 157.
كانتور: العصور الوسطى، ص، 259 ـ 268.
(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 181 ـ 182.
فشر: تاريخ أوربا، ص 113 ـ 114.
محمود عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 156 ـ 157.
نورمان كانتور: العصور الوسطى، ص 261.
(3) فشر: تاريخ أوربا، ص 114.

مفتقرة إلى إصلاح شامل سريع يعالج ما تعرضت له من أمراض وعيوب[1].
وجاء هذا العلاج على يد الحركة الكلونية التي تنسب إلى دير كلوني في أوائل القرن العاشر الميلادي (910 م) ويقع دير كلوني هذا في إقليم برجينديا بالقرب من الحدود الألمانية الفرنسية، وفيه بدأت الحركة الكلونية ضيقة في أول الأمر ثم أخذت تتسع تدريجياً، إلى أن غدت في القرن العاشر مثلاً يحتذى به في النظام والإستقامة. أما النظام الكلوني فقد قام على أساس الاستقلال التام عن السلطتين الدينية والدنيوية، بحيث يكون اتصاله مباشراً بالبابوية، هذا مع تجنب استقلال الأديرة بعضها عن بعض، ولم تلبث أن ظهرت في دير كلوني حركة استهدفت إصلاح الكنيسة والبابوية من المفاسد والشرور التي تغلغلت أجهزتها. والواقع أن الكلونيين لم يكونوا مجددين تماماً، إذ استمدوا بعض مبادئهم من النظام الباخومي الذي عرفته مصر والشرق في القرن الرابع. كذلك عنى رهبان كلوني بالعلوم والزراعة والأعمال الأدبية. ومن هنا كان لهذه الحركة آثارها البالغة الأهمة، فأصبحت حركة دولية بعد أن امتدت حدودها خارج فرنسا نفسها[2].

يمكننا القول أن الحياة التي جسدها دير كلوني في مجملها، كانت استمراراً وتكثيفاً للنظام البندكتي الذي انتشر في القرن التاسع. وإذا كان الرهبان البندكتيون قد مارسوا نشاطاً دينياً واقتصادياً وعلمياً وسياسياً، فإن هذا النمط نفسه من أنماط الحياة هو الذي تميّز به دير كلوني إبان القرنين العاشر والحادي عشر[3]. ولكن الحركة الكلونية تميزت بالعمل على إصلاح

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 2، ص 242 .
كانتور: العصور الوسطى، ص 263 .
(2) هامش كولتون: عالم العصور الوسطى، ص 172 ـ 173 .
G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 65 .
نورمان كانتور: العصور الوسطى الباكرة، ص 367 ـ 375.
فشر: تاريخ أوربا، ص 146 ـ 158.
(3) نورمان كانتور: العصور الوسطى الباكرة، ص 368.

الكنيسة وتطهيرها مما كانت تعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية في شؤونها، بذلك نفخت هذه الحركة في الحياة الديرية روحاً قوية أدت إلى قيام كثير من الأديرة الجديدة. ولم تلبث هذه الأديرة أن انتشرت في شمال غرب أوربا وفي انجلترا نفسها بعد الغزو النورماندي في القرن الحادي عشر[1]. وإذا كانت حركة الإصلاح الكلونية قد بدأت بالعمل على نشر العفة والتقوى والنظام في الأديرة، إلا أنها اتسعت كما تتسع الحركات المشابهة حتى غدت منهجاً للإصلاح الكنسي العام[2].

كان الرئيس الأعلى الوحيد المشرف على شبكة الأديرة الكلونية هو مقدم دير كلوني وعليه دون غيره تقع مسؤولية تنظيم كل الأديرة الكلونية وله أن يقوم بالتفتيش عليها بنفسه[3]. ثم ظهر جيل من الكلونيين طمعوا في مزيد من الإصلاح، إذ قالوا أن تعاليم المسيح لن تمكث في الأرض إلا إذا وجدت كنيسة مستقلة يرأسها بابا واسع النفوذ والسلطان، وهكذا تغلبت روح الحماسة على الحركة الكلونية كلها فاتجهت نحو إعلاء شأن البابوية[4]، التي تعاني مثلما عانت الكنيسة والحياة الدينية بوجه عام من أمراض خطيرة فشت فيها، وهي السيمونية وزواج رجال الدين وتدخل رجال السلطة الزمنية في اختيار رجال الدين للمناصب الكنسية، ولم تلبث أن أدت حركة الإصلاح الكلونية إلى ظهور بعض البابوات المصلحين أهمهم ليو التاسع (1049 ـ 1054 م) ونيقولا الثاني (1059 ـ 1061 م) وجريجوري السابع (1073 ـ 1085 م) وقد سبق أن تعرضنا للإصلاحات التي قام بها هؤلاء البابوات في الجوانب الداخلية، وهي تتمثل في إصلاح الجهاز الكهنوتي، عن طريق تطبيق مبدأ العزوبة على رجال الدين والإقلاع عن السيمونية، وهي شراء الوظائف الدينية بالمال والرشوة، ويلاحظ أن هذه الإجراءات تتعلق

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 2، ص 243.
(2) فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 145.
(3) B. Tierney: Western Europe, p. 205.
(4) فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 145.

بأمور تخص الكنيسة ورجالها، أي بمعنى أنه ليس هناك طرف خارجي بالمعنى المطلق. ولكن عندما أرادت الكنيسة «البابوية» منع العلمانيين من التدخل في شغل المناصب الدينية، أي تعيين رجال الدين في المناصب الدينية لقاء منافع مشتركة متبادلة وأصدر البابا جريجوري السابع قراره الشهير الذي نص على أنه ليس من حق الحاكم العلماني كائناً من كان أن يقلد أحد من رجال الكنيسة مهام منصبه الديني عندئذ انزعج الملوك والأمراء واعتبروا ذلك حرماناً لهم من بسط نفوذهم، كما يعني جعل البابا في روما المشرف الوحيد على رجال الدين في العالم المسيحي الغربي، من حيث تعيينهم في مناصبهم والفصل في مشاكلهم والإشراف على أعمالهم. وهكذا أخذت سياسة البابوية تنذر بصدام عنيف مع الحكام العلمانيين، وهو الصدام الذي اندلع وشمل كافة المناطق الأوربية واستمر طيلة العصور الوسطى[1].

(1) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 340 ـ 406.
نورمان كانتور: العصور الوسطى، ص 369 ـ 375.
فشر: تاريخ أوربا، ص 146 ـ 158.
Cam. Med. Hist; Vol. 5 p. 11, 13.
G. Barraclough: The Medieval Papacy, p. 63-95.
N. Zacour: An Introduction, p. 181-183.
The American Historical. vol. 93, No. 2 p. 137-139.
R. Pernoud: les Hommes de Croisade, Librairi. Jules Tauaudin, Paris, 1977, p. 31.

الفصل الثاني

موقف الكنيسة من حركة الفتوح الإسلامية في حوض البحر المتوسط

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

[إبراهيم: 24 ـ 27]

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

[النور: 55]

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

[الرعد: 17]

جاء بعث محمد رسول الله ﷺ ودعوته للدين الإسلامي ليغير أوضاع المجتمع العربي في الجزيرة العربية، ويبدل بتلك الدعوة صورة المجتمع القديم، الذي كانت تهيمن عليه إمبراطورية الروم من ناحية ودولة الفرس من ناحية أخرى. وقد احتوت هاتان الدولتان بلاداً عديدة مثل فلسطين، والقدس، ودمشق، وسوريا، ومصر، وإفريقية، والعراق، فضلاً عن العديد من جزر البحر المتوسط والبلدان المطلة عليه.

وبظهور حركة الفتوح العربية الإسلامية واتساع نطاق هذه الحركة، أخذت دولة الروم بوجه خاص تحس بأن هناك خطراً جديداً يتهددها، فهبّت للتصدي لخطر العرب المسلمين، ولكن ذلك لم يفلح في وقف تيار المد الإسلامي الذي امتد بعد قليل من جوف القارة الآسيوية وحدود الصين شرقاً حتى بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي غرباً. ولم يلبث أن غدت الدولة الإسلامية قوة بحرية للدفاع عن شواطئها الطويلة، فهاجم المسلمون جزر البحر المتوسط وشواطىء أوربا، وفتحوا الأندلس وأقاموا فيه دولة كبرى غدت محوراً لحضارتهم في الغرب، ومعنى هذا كله سقوط العديد من معاقل المسيحية في فلسطين والشام وشمال العراق ومصر وشمال إفريقية فضلاً عن أجزاء من الأرض الأوربية في حوض البحر المتوسط[1].

---

(1) M. Michaud: Des Croisades, Tome Premier, p.4 .
Nicolas lorga: Hitoire Des Croisade, UNive, J. Gamber, Paris 1924, p. 16.
M. Michaud: Histoire des Croisades, p. 14.
رنسيمان: الحروب الصليبية جـ 1، ص 32 ـ 37.
وابن خلدون: العبر «القسم الرابع المجلد الثاني» دار الكتب، بيروت 1957، ص 788 ـ 801.
فازيليف: العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، بروكسل 1934، ص 9.

وفي هذا الفصل أتناول الفتوحات الإسلامية وموقف الكنيسة منها وذلك من خلال النقاط التالية:

أ ـ الفتوح الإسلامية، وصداها في العالم المسيحي.

ب ـ أثر الفتوح الإسلامية في بلاد حوض البحر المتوسط.

جـ ـ ضعف الكنيسة والعالم المسيحي الغربي في الشطر الأول من العصور الوسطى وترقب الفرص لتحول ميزان القوى في صالح الجانب المسيحي ضد المسلمين.

أ ـ الفتوح الإسلامية وصداها في العالم المسيحي

كانت السيادة في فجر القرون الوسطى في حوض البحر المتوسط للديانة المسيحية؛ والتي انتشرت في بلاد حوض البحر المتوسط وجزره فضلاً عن أجزاء أخرى من في العالم القديم في آسيا وأوربا وأفريقية.

وبظهور الإسلام والدعوة إليه، غدت السيادة المسيحية مهددة في تلك البلدان[1]، لا سيما بعد أن بدأت الفتوحات الإسلامية منذ عهد رسول الله ﷺ، مما أثار الرومان، ودفعهم إلى التصدي بسرعة ليضربوا هذه القوة الناشئة. ولكن حركة الفتوح الإسلامية مضت في طريقها، وأخذ المسلمون ينتقلون من فتح إلى آخر، ففتحوا دمشق سنة 14 هـ/ 635 م صلحاً على يد أبي عبيدة، ثم فتحت بعد ذلك عنوة على يد خالد بن سعيد بن العاص، بعد ذلك فتحت بعلبك، وحمص، وهرب هرقل عظيم الروم من أنطاكية إلى القسطنطينية[2].

(1) Vicotr Duruy: Histoire Du Moyen Age, Librairie Hachette, 1880, Dixieme Edition, p.287.

(2) العماد الحنبلي: أبي الفلاح عبدالحي (ت 1089 م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبع مكتبة القدس، 8 أجزاء جـ 1، ص 27.
أرنولد (ت. و): الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد =

كان أن دارت معركتان كبيرتان هما أجنادين 13 هـ/ 634 م واليرموك 15 هـ/ 636 م، وانتهى الأمر بانتصار المسلمين وخروج الروم نهائياً من الشام[1].

لا شك في أن هذا الانتصار الساحق أدى إلى زعزعة كيان دولة الروم بعد أن كانت تعد العدة لصدّ غزوات المسلمين. وكانت خسارة هذه الدولة ضخمة بعد أن اقتطع المسلمون منها جناحها الشرقي.

زاد خسارة دولة الروم والعالم المسيحي اتجاه أنظار المسلمين إلى فتح بيت المقدس ذات المكانة المهمة بوصفها أولى القبلتين ومسرى نبيهم عليه الصلاة والسلام[2].

فعلاً في عهد عمر ابن الخطاب، وبالتحديد سنة 16 هـ/ 637 م، توجه المسلمون لفتح هذه المدينة، ولما سمع واليها الراهب الفلسطيني «صفر وينوس»[3] بأنباء اليرموك أصلح استحكامات المدينة؛ ولكن قوة بأس

= عابدين، النهضة المصرية، القاهرة 1957، ص 46.
جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 33 ـ 34.
نورمان بينز: الأمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1950، ص 354.
سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ط 5، ص 126 ـ 127.

(1) ابن الأثير: الكامل جـ 2، دار صادر، بيروت 1979، أحداث عام 13 هـ، ص 410 ـ 418.
والواقدي: فتوح الشام جـ 1، القاهرة 1302 هـ، ص 165.
أبو الفلاح: شذرات الذهب جـ 1، ص 24 ـ 28.
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 1، ص 141 ـ 142.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 46.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 341, 1980.
M. Michaud: Histoire Des croisades, Tome 1, p. 14.

(3) هو من رجال الدين الأرثوذكس وكان ضد مذهب «الإرادة الواحدة» الذي أراد به هرقل (610 ـ 641 م) الإمبراطور البيزنطي، بعد انتهاء الحرب مع الفرس، إيجاد حل وسط بين الفرق المسيحية حول طبيعة المسيح. وكان «صفر وينوس» يطوف الشرق =

المسلمين جعلته يتأكد من أن المدينة لا محالة سوف تقع في أيديهم. وعندما وصل المسلمون إلى أريحا جمع «صفر وينوس» ما يتعلق بالمسيح من مقدسات دينية، وأرسلها ليلاً إلى الساحل، فأخذت طريقها إلى القسطنطينية حتى لا تقع في أيدي المسلمين[1] واستمرت المدينة يحاصرها المسلمون أربعة أشهر كاملة[2]، ثم استسلمت بعد ذلك وسلمت مفاتيحها للخليفة عمر ابن الخطاب، فدخلها المسلمون سنة 16 هـ/ 637 م، مما جعل أحد كتّاب الغرب يقول[3]: إن المدينة استسلمت للفاتحين بسهولة تدعو إلى السخرية. ومنذ ذلك الحين وقعت المدينة في أيدي المسلمين على حد تعبير أحد كتّاب الغرب. وكان أن ترك الخليفة عمر بن الخطاب الحرية الدينية لسكان بيت

= مع صديقه يوحنا موسكوس في سبيل الدعوة للأرثوذكسية ووحدة العالم المسيحي، ومن أجل تجميع أقوال القديسين وسيرهم المتناثرة بالأديرة من أجل كتابهما «الرياض الروحانية» وبصفته رأس رجال الإدارة في القدس هو الذي عقد اتفاق التسليم مع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وكان هذا الراهب يسمى «حامي الإيمان ذا الحديث العذب». هذا ولقد توفى بعد الفتح العربي الإسلامي للقدس بأسابيع قليلة.

ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 15 ـ 17، 28 ـ 29.

(1) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ط 1، ص 35.

(2) يذكر بعض المؤرخين أن حصار بيت المقدس دام عامين كاملين في حين يذكر البعض الآخر أنه دام أربعة أشهر فقط.

انظر عن ذلك: وسام عبد العزيز فرج: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط 1 سنة 1981، ص 32. وعن قصته انظر: العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص 28 ـ 29.

ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ1، ط 1، ص 35.

جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 40.

(3) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة في المشرق الدعوة حرب الصليبية، المجلد الثاني، دير الرهبان الفرنسيسكان، أورشليم 1965، ص 11.

جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 40 ـ 41.

المقدس يمارسون شعائرهم دونما إكراه على دخول الإسلام، ولكنه اشترط عليهم أن لا يكون في ممارستهم لشعائرهم إثارة للمسلمين وإظهار التحدي للديانة الإسلامية[1]. واستمر التوافد المسيحي على بيت المقدس لم ينقطع[2]، مما يفسر حرية التنقل[3]، ولبيان حقيقة معاملة المسلمين للمسيحيين نورد ما ذكره رجل من الروم كان أسيراً في أيدي المسلمين ثم هرب فناداه «هرقل» وطلب منه أن يخبره عن حقيقة هؤلاء المسلمين، فذكر له «أحدثك كأنك تنظر إليهم. فرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه، فقال هرقل: «لئن كنت صدقتني ليرثُن ما تحت قدمي هاتين»[4].

وبعد وقوع بيت المقدس في أيدي المسلمين، أخذت المدن والمعاقل المهمة الموجودة في أطراف العراق والشام مثل: ماردين والرها وميافارقين، تسقط واحدة بعد أخرى في قبضة العرب سنتي 17، 18 هـ/ 638 ـ 639 م ثم استولى العرب على قيصرية سنة 19 هـ/ 640 م وبذلك فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها حول طرسوس[5].

(1) M. Michaud: OP. Cit. Vol. 1, p.16.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 42.

(2) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 42.
M. Michaud: op. cit. vol. 1, p.16.

(3) العماد الحنبلي: شذرات الذهب. ص28؛ نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص385.

(4) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ 3، ص 602 ـ 603 وسعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 142 عن القلقشندي: صبح الأعشى، القاهرة 1913، جـ 5، ص 397؛ حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 71.
صدقت مقولة هرقل هذه فعندما تمت الفتوحات الإسلامية في الشام التفت هرقل إليها مودعاً وقائلاً «عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً».

(5) البلاذري: كتاب فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد، القاهرة 1956.
الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس، القاهرة ـ لندن 1966.
سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 46.

وفي شوال من نفس السنة (16 هـ/ 637 م) وقعت معركة القادسية، التي قادها سعد بن أبي وقاص، لفتح بلاد فارس[1]، وتقويض سلطان الفرس، وتقويض دولة الأكاسرة بجانب دولة الروم، وقد تمكنوا من الانتصار عليها[2]، وتحول أهلها إلى الإسلام، وفي سبيل ذلك نهج المسلمون سياسة معينة قوامها بتر أذرع الدولة الفارسية، بمعنى فتح البلاد التابعة لها والهيمنة عليها، مما يقلل مركزها، وهو ما تم بالفعل، ففي عام 16 هـ/ 637 م فتح المسلمون العراق، وبعدها بأربع سنوات أي في سنة 20 هـ/ 641 م أحرز العرب انتصاراً عظيماً على الفرس عند «نهاوند» مما فتح أمامهم الطريق إلى قلب فارس، ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة أمام العرب الذين تم لهم القضاء على «يزدجرد» الثالث آخر ملوك آل ساسان سنة 31 هـ/ 652 م، وبذلك اختفت المملكة الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس[3]. وقد تزامن مع خروج هذه الجيوش الإسلامية لفتح فارس، خروج جيوش أخرى لفتح بلاد أخرى لها دورها في تاريخ المسيحية، وتتبع الإمبراطورية البيزنطية مثل مصر والشام وشمال إفريقية وأسبانية[4].

ففي سنة 20 هـ/ 641 م نجح عمرو بن العاص في فتح مصر[5]، وأسس أول عاصمة إسلامية في قارة إفريقية هي مدينة الفسطاط، وشيّد بها جامعه الذي عُرف باسمه أو بالمسجد العتيق، واختط حوله المسلمون الفاتحون أخطاطهم، كل مجموعة في خطة خاصة بهم[6].

(1) العماد الحنبلي: شذرات الذهب ص 28؛ نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 385.

(2) فشر (هـ. أ. ل.) تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 61.

(3) د. سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ط 5، ص 142.

(4) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 355 وسعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 47.

(5) نورمان بينز: الأمبراطورية البيزنطية، ص 355.
هلستر (س. ورن) أوربا في العصور الوسطى، ص 79.

(6) عبد الرحمن زكي: حواضر العالم الإسلامي، منارة الحضارة الإسلامية، الأنجلو =

وبعد ذلك بعامين أي في سنة 22 هـ/ 643 م نجح عمرو كذلك في الاستيلاء على الإسكندرية[1]. مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تتخلى عن مصر للأبد، وبذلك دخلت مصر في حوزة العرب، وفقدت الدولة البيزنطية معقلاً هاماً من معاقل المسيحية، وإقليماً من أغنى أقاليمها[2].

والواقع أن فتح مصر بالذات يعتبر دليلاً واضحاً على مدى نجاح قوة المسلمين، وبرهاناً قوياً على مدى ضعف الأمبراطورية البيزنطية وانحلالها السياسي[3].

ومن ناحية أخرى فإن فتح الاسكندرية جاء ـ على ما يبدو ـ لمصلحة بطريرقية القسطنطينية، فعلى الرغم من أن بطارقة الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس استمروا في ممارسة شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية في ظل الحكم العربي الإسلامي، واستمروا يحتفظون بلقبهم الذي منحته لهم المجامع

= المصرية، القاهرة 1979، ص 1.

(1) يذكر فيليب حتي نقلاً عن ابن عبد الحكم المتوفى سنة 257 هـ/ 871 م وهو صاحب أقدم كتاب محفوظ عن فتح مصر أن أسقف القبط في الاسكندرية لما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو.
عن ذلك انظر: فيليب حتي: تاريخ العرب المطور جـ 1، دار الكشاف للنشر، 1949، ص 230.
ارشيبالد (ر ـ لويس): القوى البحرية والتجارية، النهضة المصرية، 1960، ص 78.

(2) لم يترك البيزنطيون أمر الاسكندرية هكذا إذ استطاعوا في سنة 645 م أن ينزل جيشاً إلى أرض مصر لاستعادتها وتصدى المسلمون لهذا الجيش، وقاتلوا قتالاً عنيفاً لإجلاء هذه القوة، وعندما تم إجلاء العدو عنها أمر عمرو بن العاص بهدم حصون الاسكندرية حتى لا تجد حملة مستقبلية حصوناً تمكنها من الصمود أمام هجوم قواته، عن ذلك انظر: ارشيبالد (ر. لويس): القوى البحرية، ص 89.

(3) د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى جـ 1، ط 3، ص 46 ـ 47.

المسكونية، إلا أنه لم يعد بإمكانهم منافسة بطريركية القسطنطينية على زعامة العالم المسيحي الشرقي، أو بالأحرى على زعامة القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، ولم يعد بإمكان روما الضغط على القسطنطينية من خلال الإسكندرية[1].

ومجمل القول أن الفتح الإسلامي للبلاد التي كانت تُعد معاقل للمسيحية أبقى على الاستقلال الديني، وتمتع المسيحيون بحرية لم يمارسوها تحت حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية[2].

ورغم ذلك فإن هذه الفتوحات مكنت العرب من السيطرة على حصون إقليم الجزيرة، وبذلك شكلوا تهديداً دائماً للإقليم الحيوي في آسيا الصغرى، واضطرت الإمبراطورية البيزنطية إلى إعادة توزيع قواتها الدفاعية، مما أدى إلى تغييرات جوهرية في التنظيم الإداري للأقاليم. ومع ذلك فإن حركة الفتوح الإسلامية لم تتوقف، إذ واصل العرب المسلمون تقدمهم بعد فتح مصر تجاه الشواطىء الغربية لشمال إفريقية، وبحلول عام 650 م/ 30 هـ أصبح كل من الشام وشرق آسيا الصغرى، وبلاد ما بين النهرين العليا وفلسطين ومصر، وجزء من الولاية البيزنطية في شمال إفريقية، تحت النفوذ العربي[3].

وعلى الرغم من أن أباطرة الأسرة الهرقلية كانوا رجالاً موهوبين في الإدارة والحرب إلا أنهم لم يستطيعوا التصدي بنجاح لمشكلات تلك الفترة؛ فلقد قضى الإمبراطور قنسطانز Constans 2 (641 ـ 688 م/ 20 ـ 48 هـ) معظم عهده تقريباً في حروب لمقاومة الخطر العربي الإسلامي المتفاقم. وبالرغم من انتصارات العرب الباهرة إلا أن وصولهم إلى شواطىء البحر المتوسط وضع أمامهم مشكلات جديدة تتصل بالطبيعة البحرية[4]. فعندما

(1) عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنيسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص 326.

(2) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 23.

(3) M. Michaud: OP. Cit. vol. 1 p. 16.

(4) وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، ص 32 ـ 33.

انتقل مركز الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق في بلاد الشام على يد الخليفة معاوية ابن أبي سفيان، تحولت الدولة الإسلامية إلى دولة بحر متوسطية، فقد كانت تملك إلى جانب الشام بلاد مصر، ثم استطاع الأمويون تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية وكان ذلك إبتداءً من سنة 40 هـ 661 م، وقد فتح معاوية جزيرة قبرص وبذلك أصبحت قاعدة إسلامية في البحر المتوسط، وفيما بين سنتي 54 ـ 61 هـ/ 674 ـ 681 م تم لمعاوية إخضاع جزيرتي أرواد ورودس[1]، وبهذا اشتد ساعد المسلمين في مياه الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

أما فتح شمال إفريقية، فقد اتجه المسلمون في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان خليفة المسلمين في دمشق، فأرسل حسان بن النعمان على رأس جيش بمساعدة أسطول بحري أمده به الخليفة عبد الملك، ونجح المسلمون في كسر شوكة الروم، والإستيلاء على قرطاجنة التي دمرت، كما تم تطهير الساحل من الجيوش البيزنطية وبعد أن فرغ حسان من الخطر البيزنطي اتجه إلى الداخل لمواجهة البربر وذلك سنة 75 هـ/ 695 م[2]. غير أنهم استطاعوا بقيادة امرأة تلقب «بالكاهنة» إلحاق الهزيمة بجيش حسان فاضطر إلى الانسحاب إلى برقة، واستردّ البيزنطيون قرطاجنة، وقامت الكاهنة بتخريب مدن الشمال الإفريقي ظناً منها أن ذلك لن يشجع المسلمين على فتح هذه البلاد الخربة[3]، وظلت الكاهنة تعيش بالمغرب خمس سنوات حتى سنة

(1) اتخذت جزيرة أرواد قاعدة للأعمال البحرية وداراً للصناعة البحرية أما الحوض الغربي للبحر المتوسط فقد فكر المسلمون في الاستيلاء عليه عن طريق فتح الشمال الإفريقي.
انظر: حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ص 5 ـ 6.

(2) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 46 ـ 47.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة القاهرة 1986، ص 99.

(3) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات بين الإمبراطورية، ص 103.
حسنين ربيع: تاريخ الدولة البيزنطية، ص 99.

80 هـ/ 699 م[1] عندما عاود حسان حملته على إفريقية فالتقى بجيش الكاهنة عند مدينة قابس، وتمكن من إنزال الهزيمة بجيشها البربري وقتلها في سنة 82 هـ/ 701 م، وبذلك تمكن من استرداد مدينة قرطاجنة من البيزنطيين، الذين انتهى حكمهم تماماً في شمال إفريقية، وهكذا بسط المسلمون سيادتهم على غرب البحر المتوسط[2]؛ ونشروا الدعوة في ربوعها. واتسعت رقعة دولتهم، في حين فقد الروم معقلاً مهماً آخر من معاقل المسيحية.

وقد هاجر بعد الفتح الكثير من سكان شمال إفريقية الأصليين إلى إيطاليا وغالة، أما كنيسة إفريقية التي كانت مركزاً هاماً من مراكز الدعوة إلى المسيحية فقد صدمت صدمة شديدة، وفي ذلك يذكر «شارل ديل»: «. . . ولمدة قرنين من الزمان رفعت الإمبراطورية البيزنطية عن هذا الجزء من الشمال الإفريقي تقاليد الحضارة القديمة، وحولت البربر إلى حضارة أرقى بالدعاية الدينية[3].

ويضيف قائلاً: «. . . ولا تعني تلك الحوادث التي جرت في شمال إفريقية أن العرب لم يطبقوا سياسة التسامح الديني هناك، ولكن كل ما في الأمر أن الغزو العربي قوبل بمقاومة عنيفة، سواء من جانب البيزنطيين الذين ملكوا البحر وقرطاجنة، أو من جانب البربر الذين امتلكوا الشعاب الجبلية في جبال أطلس، وأمام هذه المقاومة العنيفة أنفق الأمويون خمسين عاماً في فتح إفريقية وردوا على العنف بالعنف، وفي النهاية وبعد أن أصبحت شمال

(1) ابن عذري المراكشي: البيان المغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، جـ 1، بيروت 1948، ص 34، 39.
السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، الإسكندرية 1966، ص 243 ـ 248.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 99.

(2) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 99.

(3) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات بين الأمبراطورية، ص 341 عن Diehl c: L'Afrigue Byzantine, p. 592.

إفريقية ولاية عربية إسلامية؛ طبق العرب سياسة التسامح الديني، ولم يتعمدوا أن يصيبوا كنيسة إفريقية[1] بتلك الضربة القاصمة. وفي هذه النصوص المقتبسة تسجيل حقيقي يتفق والسياسة العربية الإسلامية التي تدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، مع حفظ حق من يريد البقاء على ديانته في جو من التسامح الديني مع الآخرين المسالمين. وبعد أن تم للمسلمين بسط نفوذهم على غرب البحر المتوسط فضلاً عن شرقه، هاجموا صقلية وسردينيا وجزر البليار، وعبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد البحر من إفريقية إلى أسبانيا، وبذلك تمكنوا من النفاذ إلى أوربا من جهة الطرف الغربي للبحر المتوسط وفتحوا أسبانيا، وأنهو دولة القوط بها[2].

وهكذا فقدت بيزنطة هيمنتها الاسمية على الغرب الأوربي، فضلاً عن أن الفتوحات الإسلامية أدت إلى تمزق الوحدة الحضارية القديمة لعالم البحر المتوسط عندما كان بحيرة رومانية[3].

أما المسلمون فقد تمكنوا من بسط نفوذهم على الكثير من المناطق الأوربية، فضلاً عن تقويض الكيان البيزنطي بعد أن بتروا ذراعيه في مشرق البحر المتوسط وفي غربه، وبذلك اكتسب المد الإسلامي مكانة متميزة في

(1) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات بين الأمبراطورية، ص 341.
Vichor Durvy: Histoire. p.287.

(2) هانس إبراهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 14.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ 1، ص 46 ـ 47.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 99 ـ 100.
M. Michaud: Op. cit. vol. I p. 14.
محمد العروسي: المرجع السابق، ص 11.
فشر (هـ. أ. ل) تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 91.
Nicolas lorga: Op. cit, p.17.

(3) حسنين ربيع: المرجع السابق، ص 100.
حسين مؤنس: تاريخ المسلمين، ص 109 ـ 120؛ وللإستزادة الاطلاع على هامش رقم 2 نهاية الجزئية (أ) من هذا الفصل ص 100.

قلب العالم، وأصبح قوة يخشى بأسها، ويحسب لها حساب وبعد أن بلغ المد الإسلامي مداه في الغرب رأى الأمويون ضرورة الاستيلاء على القسطنطينية بوصفها البوابة الشرقية لأوربا، فضلاً عن أن فتحها سوف يقضي على كيان الإمبراطورية البيزنطية نهائياً.

وبالفعل تعرّضت القسطنطينية للهجوم الإسلامي الشديد أكثر من مرة[1]. فكانت المرة الأولى في سنة 34 هـ/ 655 م، حيث خرج المسلمون بقيادة والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح لمهاجمة الأسطول البيزنطي، في حين تصدى الإمبراطور «قنساطنز الثاني» على رأس قوة بحرية في البحر التوسط بلغت عدتها خمسمائة مركب لمواجهة الخطر الإسلامي، وقد هاجم المسلمون هذه القوة البيزنطية، وأنزلوا بها خسائر فادحة وأصيب الإمبراطور قنسطانز بجراح كثيرة، ونجا من الموت بأعجوبة، وكاد أن يقع أسيراً في تلك المعركة البحرية التي عرفت باسم معركة «ذات الصواري» لكثرة صواري السفن التي اشتبكت في القتال. وقد ترتب على انتصار المسلمين في هذه المعركة نتائج بعيدة المدى منها: أنها أدت إلى تداعي سيادة البيزنطيين على البحر، وأدرك الإمبراطور قنسطانز الثاني أنه لا داعي لبعثرة الجهود في إعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر والشام، كما أدرك ضرورة الاستعداد لصد أي هجوم إسلامي متوقع على القسطنطينية، ومن ناحية أخرى لم يجرؤ الروم بعد هذه المعركة على منازلة المسلمين في مواقع بحرية فاصلة، بل اكتفوا بمهاجمة شواطىء البلاد الإسلامية، مما دفع المسلمون إلى مضاعفة الهمة في بناء السفن وإنشاء دور صناعتها[2].

(1) M. Michaud: Op. cit , vol 1, p.16.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 85.
إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، مكتبة الأنجلو المصرية، 1953، ص94_95.

(2) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 85 ـ 86.
ارشيبالد (ر. لويس): القوى البحرية، ص 91 ـ 93.
الطبري: تاريخ الطبري، طبعه دي خويه، طبعة القاهرة 1939 جـ 5، ص 69 ـ 70
حسين مؤنس: تاريخ المسلمين، ص 60 ـ 61.

وكيفما كان الأمر، ففي حوالى منتصف القرن السابع الميلادي، لم يكن في مقدور الدولة البيزنطية أن تقف في وجه حركة الفتوحات الإسلامية؛ وتوالت الكوارث على البيزنطيين منذ قامت في منتصف القرن السابع مملكة البلغار[1] في الأطراف الشمالية للدولة البيزنطية. وتقدم الصقالبة[2] من البلقان نحو العاصمة وشواطىء بحر إيجه، ولما أصبحت القسطنطينية في خطر أمام الهجمات الإسلامية، وتقدم الصقالبة[3]، رأى الإمبراطور قنسطانز الثاني أن يغادر القسطنطينية وأن ينقل العاصمة إلى روما، أو أي مكان آخر في إيطاليا[4].

(1) مملكة وثنية أسسها أسبرج بين الدانوب والبلقان، وهي بحكم وثنيتها كان من المحتمل جداً أن تتأثر بالديانة الإسلامية إذا سقطت القسطنطينية في أيدي المسلمين
انظر: د. سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 128؛ حسنين ربيع: دراسات، ص 87.
نورمان بينز: الأمبراطورية البيزنطية، ص 57.

(2) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 608 ـ 615.
يرجع السلاف ـ أو الصقالبة ـ في أصلهم إلى الجنس الآري Aryens أو الهند أوربي Indo Europèene والمعروف أنهم استمروا يتوسعون حتى القرن العاشر توسعاً مطرداً نحو الغرب والجنوب.

(3) كان الصقالبة يحدثون ببلاد البلقان اضطراباً لا آخر له، ومن ثم فإن حملاتهم قد أزعجت الأمبراطورية بجانب ما تواجه من خطر المسلمين. انظر حسنين ربيع: دراسات، ص 87.
انظر: ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق، دار النهضة، 1961 م، ص 40.

(4) عرف المسلمون البيزنطيين باسم الروم، وعرف البيزنطيون أنفسهم باسم الرومان، وامبراطورهم هو الإمبراطور الروماني وتفسير ذلك يرجع إلى أنهم اعتبروا أنفسهم امتداداً للإمبراطورية الرومانية وهذا ما يفسر محاولة نقل مقر الإمبراطورية إلى روما.
انظر: أسمت غنيم: تاريخ الأمبراطورية البيزنطية (324 ـ 1453 م)، دار المعرفة الجامعية 1987 م، ص ، ك.
حسنين ربيع: دراسات، ص 87.

ويرى فازيليف أن قنسطانز أدرك عدم الأمان في البقاء في القسطنطينية على مقربة من قلب الدولة الإسلامية، كما أنه توقع امتداد الهجمات الإسلامية من شمال إفريقية إلى إيطاليا وصقلية، ولذا رأى أن يقوي مركز الإمبراطورية في الجزء الغربي من البحر المتوسط، للقيام بالترتيبات اللازمة لمنع المسلمين من تقدمهم، ويبدو أنه أراد من تأسيس مركز آخر للإمبراطورية البيزنطية في الغرب، أن يحد من تقدم الجيش الإسلامي، والوقوف في وجه اللومبارديين في إيطاليا[1].

ورغم ذلك فإن المد الإسلامي لم يتوقف، ولم تنجح محاولات الإمبراطور قنسطانز الثاني في نقل مقر العاصمة إلى إيطاليا، في حين اشتدت رغبة المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة بيزنطة ذات المركز الجغرافي الفريد ليتحقق لهم اقتحام شرق أوربا، فأغاروا سنة 47 هـ/ 667 م على القسطنطينية وتكررت الإغارات سنتي 52، 53 هـ 672، 673 م[2]، ومنذ هذه السنة حتى سنة 57 هـ/ 677 م ظلت القسطنطينية تتعرض لإغارات مكثفة من جانب المسلمين، حتى تم عقد الصلح بين الطرفين في سنة 58 هـ/ 678 م[3]. واستمر الهدوء النسبي بين المسلمين والبيزنطيين منذ تلك السنة وحتى سنة 99 هـ/ 717 م وهي السنة التي اعتلى فيها «ليو الأيسوري» عرش الإمبراطورية، والتي أرسل فيها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك جيشاً بلغ ثمانين ألفاً، يسانده أسطول عدته ألف وثمانمائة سفينة، للاستيلاء على مدينة القسطنطينية. وكان أن حاصر المسلمون المدينة بقيادة «مسلمة بن عبد الملك» سنة كاملة ارتدوا بعدها سنة 718 م/ 100 هـ دون أن يحققوا غرضهم بفضل مهارة «ليو الأيسوري» 717 ـ 741 م التي حالت

(1) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 87.

Vasiliev: History of the Byzantin Empire 324-1453, Vol. 1. 3 rd edition Madison, 1961, p. 221-222.

(2) د. سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 126.

(3) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 57.

دون إحكام الحصار الإسلامي حول القسطنطينية، فظلت العاصمة تتلقى الإمدادات من إقليم البحر الأسود[1] حتى اضطر المهاجمون إلى فك الحصار، ومن ثم فشل المسلمون في الاستيلاء على القسطنطينية بعد المحاولات العديدة السابقة[2].

ويرى فازيليف أن المؤرخين أبدوا اهتماماً كبيراً بفشل المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية، وأن «ليو الثالث» استطاع بمقاومته الناجحة أن ينقذ، ليس فقط الدولة البيزنطية والعالم المسيحي الشرقي، بل أنقذ حضارة غرب أوربا أيضاً، ولو فتح المسلمون القسطنطينية في تلك السنة 99ـ100هـ/ 717 ـ 718 م؛ لانتشر الإسلام، وانتشرت الحضارة الإسلامية بين الأفار والصقالبة، والبلغار، وحلت المساجد محل الكنائس في شرق أوربا[3].

ويعلق المؤرخ الإنجليزي«بيوري» على معركة القسطنطينية قائلاً «لقد كانت روما الجديدة وليست روما القديمة هي الحصن العظيم لأوربا المسيحية، ولو كانت روما الجديدة قد سقطت لانتهى أمر العالم المتمدن[4].

ويقول فازيليف «إذا كان قسطنطين الرابع قد أوقف العرب من قبل دون القسطنطينية»، فإن ليو الثالث قد أجبرهم على الرجوع نهائياً عنها[5]. أما استروجورسكي فيعلق على معركة القسطنطينية قائلاً «. . . وهكذا وللمرة الثانية انهار الوجود العربي الضخم على أبواب أوربا أمام أسوار العاصمة البيزنطية[6]. ولعل أقوال هؤلاء تنطوي على مدى إدراكهم لخطورة وقوع

(1) د. سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى، ص 128.

(2) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 29؛ وسام فرج: العلاقات بين الإمبراطورية، ص 119 ـ 175.

(3) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 105.
ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص 42.

(4) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات بين الإمبراطورية، ص 171.

(5) محمدالعروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 11.

(6) وسام فرج: العلاقات ص 172؛ Nicolas lorga: Histoire Des Croisades, p. 17.

القسطنطينية في أيدي المسلمين، بعد أن تكبدت الإمبراطورية خسارة فادحة على أيديهم بعد أن انتزعوا منها غالب ممتلكاتها، بحيث لم يتبق لها إلا جزءٌ ضئيلٌ من أملاكها الواسعة، فانحصرت دائرتها في شبه جزيرة البلقان والأناضول، وجزء من جنوب إيطاليا[1].

ولم تتوقف الفتوحات الإسلامية عند هذا الحد، فقد هدد المسلمون دولة الفرنجة من ناحية الجنوب الغربي، إذ زحفوا من الأندلس ولكن الهزيمة حلّت بهم عام 732 م/ 114 هـ في موقعة بلاط الشهداء التي عرفها الأوربيون باسم موقعة «تور»، وترتب على ذلك نتائج متعددة في العالم الإسلامي، والعالم الغربي على السواء، كما سبق أن ذكرنا في الفصل السابق.

ففي العالم الإسلامي وضعت موقعة تور حداً لتقدم المسلمين في أوروبا في هذا الاتجاه، أما في العالم الغربي أدى انتصار شارل مارتل على المسلمين إلى إضفاء قدر من الأهمية على الدولة الكارلونجية[2].

ولم تمر فترة زمنية طويلة حتى هاجم مسلمو إفريقية وإسبانيا الجزر المجاورة وهي كورسيكا وسردينيا والبليار، وهاجموا بعد سنة 806 م/ 188 هـ بعض المدن الفرنسية مثل نيس، بل إن روما كانت في القرن الثامن والتاسع عرضة للهجمات الإسلامية حتى أن البابا «حنا الثامن» (872 ـ 882) وعد بمنح «راحة الدنيا الأبدية لمن يمنحه المدد والمساعدة لصد هؤلاء المسلمين»[3].

وبعد ذلك شرع المسلمون في الاستيلاء على صقلية وانتزاعها من يد الدولة البيزنطية في سنة 827 م/ 209 هـ وهاجموا أرض إيطاليا ذاتها سنة

(1) محمدالعروسي المطوي: الحروب الصليبية، ص 11.
(2) محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 153.
د. سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى، ص 193 ـ 194.
(3) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 194؛ Nicolas lorga: Op. cit. p. 19.

840 م/ 222 هـ. وقد تزعم البابوات أنفسهم المقاومة الإيطالية ففي سنة 848 م/ 230 هـ وعد البابا «ليو الرابع» (847 ـ 855) كل من يموت في سبيل الدفاع عن الصليب بالأمل الأكيد في الخلاص على أن إيطاليا استطاعت الصمود في وجه هذا الخطر منذ عام 916 م/ 298 هـ ثم حدث بعد ذلك أن تم من جديد فتح المسلمين بعض جزر البحر المتوسط بالقرب من شواطىء إيطاليا، واستمرت سيطرة المسلمين بذلك على مياه البحر المتوسط حتى أواخر القرن العاشر الميلادي على وجه التقريب وهكذا تحولت الدولة الإسلامية إلى دولة بحر متوسطية، وذلك طيلة العصر الأموي وشطراً من العصر العباسي[1].

وفي تلك الفترة لم يعد البحر المتوسط تحت سيادة المسلمين بحيرة أوربية، بل صار من أوائل القرن الثامن الميلادي إلى منتصف القرن الحادي عشر حداً جنوبياً للعالم الأوربي، وأصبحت الحدود الجنوبية لأوربا هي سواحلها الجنوبية، وامتدت حدود العالم الإسلامي حتى أصبحت جبال البرانس، ولم تعد جزر البحر المتوسط الكبرى والصغرى ضمن نطاق أوربا وإنما غدت في نطاق آسيا وإفريقية، بل دخلت في هذا النطاق أيضاً أجزاء كبيرة من كلبريا وأبوليا في جنوب إيطاليا، وأصبحت السواحل الجنوبية للبلقان والسواحل الشرقية لإيطاليا والسواحل الجنوبية لغاليا مهددة بغارات المسلمين. هذا في حين تراجع أهالي البلاد إلى الداخل بينما تعطلت الثغور الأوربية الواقعة على البحر المتوسط طوال هذه الفترة، وأما الحوض الشرقي للبحر المتوسط فلم تعد تصل إليه ـ بما يضمه من موانىء بيزنطية ـ إلا السفن الوافدة من بعض الشواطىء الأوربية القريبة مثل البندقية.

وهكذا تعطلت الموانىء الأوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وحرمت أوربا من واردات الشرق كلها طوال ثلاثة قرون على الأقل، وكان

(1) جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما، ص 178.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 17 ـ 18.
حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ص 109.

لهذا نتائجه البعيدة على الدولة البيزنطية أولاً وعلى غرب أوربا ثانياً، أما في غرب أوربا، فقد كان لدخول المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط وسيطرتهم على مياهه وتهديدهم شواطئه نتائج بعيدة على أوضاع غرب أوربا، منذ أوائل القرن الثامن الميلادي حتى نهاية القرن الحادي عشر وهو ما يعبّر عنه المؤرخ البلجيكي هنري بيرين بقوله «أن وحدة البحر المتوسط قد دُمرت نتيجة لغزو الإسلام لهذا البحر»[1]. رأى المؤرخ «بيرين» ما حلّ بالبحر المتوسط من خراب، ولكنه أخطأ التحري عن المسؤول عن ذلك. كان البيزنطيون لا العرب «الإسلام» كما زعم، هم الذين دمروا الوحدة القديمة التي ربطت أجزاء البحر المتوسط بعضها ببعض. ذلك أن بيزنطة استخدمت في حرب الحياة أو الموت التي كانت بينها وبين الأمويين جميع ما لديها من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية لإحراز النصر في المدة بين 715 ـ 752 م. وتكون بيزنطة قد دمرت بعملها هذا، الوضع الاقتصادي القديم لعالم البحر المتوسط؛ وهيأت المسرح لظهور حياة أخرى جديدة فيه[2].

ب ـ أثر الفتوحات الإسلامية في بلاد حوض البحر المتوسط

كان رد فعل القوى المسيحية أمام الفتوحات الإسلامية قوياً، إذ أن الخوف والقلق على مصير العقيدة المسيحية في الشرق بعد الفتوحات الإسلامية، أديا إلى ارتفاع الأصوات منادية بخروج جيوش مكثفة لوقف هذا

(1) حسين مؤنس: تاريخ المسلمين، ص 109 ـ 120؛ جوزيف نسيم: الإسلام، ص 110 ـ 111.

Henri Pirenne;Mahamed et Charlamagne, Paris, 1937, p. 162-163.
Henri Pirenne: Mahammed and Charlemagne, London, 1954, p. 185.

(2) ارشيبالد (لويس): القوى البحرية، ص 145 وللإستزادة عن الردود على نظرية «هنري بيرين» الاطلاع على الملحق رقم (7).

المد الإسلامي الجارف[1]، وقد أحس الغرب الأوربي بأن هذا الخطر يهدده، فازداد الإحساس بضرورة محاربة المسلمين في ديارهم. حقيقة إن الغرب الأوربي لم يكن أمامه سوى الإمبراطورية البيزنطية تشكل حاجزاً بينه وبين قلب الدولة الإسلامية، ولكن هذا الفاصل كان هشاً إذ تهاوت تلك الإمبراطورية ـ وإن لم تسقط ـ أمام ضربات المسلمين، ولذلك لم يكن هنالك بُد إلا اتباع سياسة الهجوم قبل أن تسقط أوربا تحت أقدام الغزاة المهاجمين[2].

على أنه يلاحظ أن الغرب الأوربي كان يعاني الكثير من مظاهر الضعف والتفكك في القرنين السابع والثامن، أي زمن اشتداد تيار الفتوح الإسلامية، وبالتالي لم يكن باستطاعته عندئذ أن يقف موقف الهجوم من المسلمين أو يتمكن من القيام بحرب مضادة ضدهم، ولذا ظلت فكرة غزو بلاد المسلمين لا تعدو أن تكون مجرد رغبة يتعذر تنفيذها، ولم يكن أمام البابوية والكنيسة الغربية عندئذ سوى أن تنتظر إلى أن تتبدل الأوضاع ويتحول المسلمون من قوة إلى ضعف ويتحول الغرب الأوربي من ضعف إلى قوة.

وهكذا مرت القرون وأخذت الدولة الإسلامية تتعرض للضعف والتفكك وركن أهلها إلى حياة الترف والدعة، في الوقت الذي بدأ الغرب الأوربي وعلى رأسه البابوية والكنيسة يدخل في مرحلة من مراحل الصحوة، نتيجة لحركة الإصلاح الكلونية التي سبق أن أشرنا إليها.

وقد شهدت تلك المرحلة في القرن الحادي عشر للميلاد دخول الأتراك في الإسلام، فعبّر هذا العنصر الجديد عن حماسته للدين الجديد بإنزال ضربات بالدولة البيزنطية جعلها تستغيث بالبابوية والغرب ضد هذا الخطر الكاسح.

وهكذا جاء صوت الاستغاثة في هذه المرة والغرب في وضع يمكنه من

(1) M.Michaud: Histoire Des Croisades, A.J. Ducollet librairie, paris 1938, vol. 6, p.2.

(2) P. Gagnol: Histoire Du Moyen Age, ANCIENNE librairie Paussielgue, Paris, 1918, p. 353

القيام بعمل فعّال ضد المسلمين، وقد ساعد على تنفيذ هذه السياسة ما ذكره البابا «أوربان الثاني» في مجمع كلير مونت سنة 1095 م في خطبته والتي تضمنت أنه لا يجوز لأي ساعٍ في خلاص روما أن يتوانى عن أن يسلك خاشعاً طريق السيد المسيح، وإذا أعوزه المال فالرحمة الإلهية تعينه، وأضاف «أيها الإخوان يجب عليكم أن تتحملوا كثيراً من أجل اسم المسيح فتتعرضوا للمشقة والفقر وتتكبدوا الجفاء والاضطهاد والذلة والمرض والجوع والظمأ وما شاكلها في الشرق».

وما كاد الحضور يسمعون تلك الدعوة، حتى بادروا إلى خياطة الصلبان على أكتافهم اليمنى قائلين: إنهم على بكرة أبيهم يريدون اقتفاء خطى السيد المسيح وتتبع أثره، مؤملين أن تمكنهم تلك الخطى من استرداد عرش المسيح.

وهكذا بدأت الحركة الصليبية التي شنّها الغرب الأوربي ضد المسلمين في أواخر القرن الحادي عشر، واتسعت ميادين هذه الحركة لتمتد من المغرب إلى المشرق، فشن المسيحيون حرباً لا هوادة فيها على المسلمين في الأندلس وجزيرة صقلية، وأمدت البابوية والكنيسة الغربية هذه الحملة بالمال والسلاح والرجال فضلاً عن التأييد الأدبي وكان البابا الإسكندر الثاني (1061 ـ 1073 م) قد نادى بأن مقاتلة المسلمين في إسبانيا تغني عن الذهاب لمقاتلة هؤلاء في الأراضي المقدسة[1].

وبعد ذلك تمكن المسيحيون من الاستيلاء على طليطلة سنة 1085 م/ 478 هـ وغيرها من بلاد الأندلس. ونلاحظ أن القوى المسيحية في غرب أوربا، تعمل منذ وقت مبكر على استرداد هذا الجزء المفقود من الوطن المسيحي.

والواقع أن الحروب الصليبية التي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر

(1) حسن حبشي: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، دار الفكر العربي، القاهرة 1958، ص 18.
هانس إبراهارد: تاريخ الحروب الصليبية، ص 41؛ عبد القادر اليوسف: علاقات، ص 13.

للميلاد، لم تكن إلا مظهراً من مظاهر التعصب الديني، بوصفها رد فعل للفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام قبل ذلك بعدة قرون، وهي خير أداة استطاعت أن تثأر بها الدولة البيزنطية لنفسها مما حلّ بها على يد السلاجقة منذ موقعة مانزكرت سنة 1071 م/ 463 هـ[1].

أما المؤرخ ابن الأثير ففي تناوله لابتداء ظهور دولة الفرنج فإنه ينظر للحروب الصليبية وحدة متكاملة، فنجده في حديثه عن أحداث سنة 491 هـ/ 1098 م، يبدأ حديثه عن غرب العالم الإسلامي، فقد استولى الفرنج على طليطلة 478 هـ، ثم استولوا على صقلية سنة 484 هـ ثم يعود للحديث عن شرق العالم الإسلامي فيقول: فلما كانت سنة 490 هـ/ 1097 م خرجوا إلى بلاد الشام[2].

وقبل أن تخرج أولى الحملات الصليبية إلى الشرق، صمم البابا جريجوري السابع 1074 م على أن يقود حملة لنجدة الإمبراطورية البيزنطية ضد هجمات المسلمين[3]، حتى يتمكن من ردع الإسلام والمسلمين، ويعيد للإمبراطورية هيبتها التي سحقتها الجيوش الإسلامية، وبذلك يستعيد دور الكنيسة الذي بدأ يعتريه الإهتزاز[4]، وكان ذلك بعد أن استطاع السلاجقة أن ينزلوا هزيمة مدوية بالإمبراطورية الشرقية في مانزكرت Manzikert سنة 463 هـ/ 1071 م واجتاحوا الأراضي المقدسة، مما أدى إلى انضمام البابا جريجوري السابع إلى هنري الرابع في عقد اتفاق تعاون لشن حرب ضد السلاجقة في الشرق[5].

(1) Barraclough (G): The Medieval Papacy, london, 1972, p. 19
د. سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، 1964، ص 22.
د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 165.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ مجلد 10، ص 272.
(3) هانس إبراهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 13.
(4) Victor Duruy: Op. Cit, p. 288.
(5) هانس إبراهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 41. =

وفي تلك المرحلة تمكن النورمانديون في سنة 1088 م/ 480 هـ من وضع حدّ للحكم الإسلامي في صقلية، وخاصة بعد الصراعات والخلافات على السلطة بين الأمراء المسلمين في تلك المنطقة، الذين استعانوا في صراعهم بالجيوش المسيحية، وتمكن المسيحيون من الاستيلاء على المدن والجزيرة الواحدة تلو الأخرى، حتى تهاوت كامل الجزيرة في يد المسحيين.

هذا وقد أشعلت الانتصارات المتوالية على المسلمين حماسة المسيحيين، وبدأ شعار الحرب الدينية يتبلور أكثر فأكثر[1]، وفي هذا المعنى يقول المؤرخ الفرنسي فرديناند شالندون الذي كتب عن الحرب الصليبية الأولى وممهداتها، أنه منذ ذلك الوقت تعتبر الحروب المسيحية الغربية ضد المسلمين في غرب أوربا حروباً مقدسة[2]، وذلك أن الأندلس كان يشتمل على الكثير من مقدسات المسيحيين[3] بالإضافة إلى صقلية ومدنها حتى سقطت صقلية تماماً سنة 1091 م/ 483 م[4].

استعرضنا فيما سبق الفتوحات الإسلامية، ورأينا كيف استطاع

= ابن الأثير: الكامل جـ 10، ص 65 ـ 67.
وانظر د. فايز نجيب اسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد، دار الثقافة بالاسكندرية 1984.
ومحمد محمد الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين، الاسكندرية 1972، ص 13 ـ 14.
عماد الدين الأصفهاني: كتاب تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات مصر، 1318 هـ/ 1900 م، ص 38 ـ 42.

(1) Nicolas lorga: op. cit. p. 25.
(2) جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما، ص 178.
(3) هانس إبرهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية 1967، ص 13.
محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 176.
(4) حسين مؤنس: «أثر الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر المتوسط» المجلة التاريخية، المجلد الرابع العدد الثاني، (1952)، ص 117.

المسلمون أن يضعوا أيديهم على فلسطين وسوريا ومصر وكل الشاطىء الشمالي الإفريقي إلى المحيط الأطلسي، ورفعوا راية الإسلام على صخور طوروس كما أوغلوا في آسيا الصغرى حتى البوسفور، وهددوا عاصمة الإمبراطورية البيزنطية نفسها أيام قسطنطين الرابع (668 ـ 685 م)[1] وفتحوا صقلية واستقروا في بالرمو، ثم بعد ذلك تجاوزوا صقلية إلى جنوب إيطاليا[2].

ومن الواضح أن هذه الانتصارات السريعة للمسلمين كان لها أثرها في العالم المسيحي وذلك من النواحي الآتية:

1 ـ الأثر الديني.
2 ـ الأثر الاقتصادي والتجاري.
1 ـ الأثر الحضاري والثقافي.

1 ـ الأثر الديني:

كان لسياسة التسامح الديني التي أظهرها المسلمون الفاتحون نحو الديانة المسيحية[3] أكبر الأثر في تسهيل حكمهم للبلاد التي دخلوها، فلقد سمح المسلمون لرعاياهم من المسيحيين ببناء كنائس جديدة بالإضافة إلى الحفاظ على الأديرة الكثيرة الأخرى التي كانت مقامة قبل وصول المسلمين، وعاش الرهبان والراهبات في ظل الحكم الإسلامي في أمن وطمأنينة، لم يتعرض لهم أحد من المسلمين بسوء، فضلاً عن أن سماحة الإسلام نلحظها أيضاً في السماح للمسيحيين بتقلد بعض المناصب في جهاز الحكم الإسلامي[4]، مما يفسّر روح المودة التي جمعت بينهم بعد الفتح وذلك تمشياً مع ما جاء في القرآن الكريم:

(1) فازيليف: العرب والروم، ص 9.
فيليب حتي: تاريخ العرب المطول، جـ 1، ص 214.
(2) فازيليف: العرب والروم ص 24، جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 103
عمر توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية 1958، ص 3.
(3) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 119.
(4) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 120؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 31.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1].

على عكس ما يردده بعض الكتاب الغربيين من أن استيلاء المسلمين على فلسطين قد أثر تأثيراً عكسياً، أدى إلى تقييد حرية الحجاج في الحركة والتجوال إلى داخل بيت المقدس أو خارجها[2].

ولعل هذا الكاتب قد تناسى الاتفاقية التي عقدت بين المسلمين وكنيسة القدس، والتي نصت بنودها على أن يترك للمسيحيين الحرية في إقامة شعائرهم الدينية في كنائسهم، على أن لا يحملوا الصليب، وأن لا يحاولوا قدر المستطاع محاكاة المسلمين في زيهم الإسلامي.

واستمر هذا الوضع مطبقاً طيلة العصر الأموي. وفي العصر العباسي، وبالتحديد في عهد هارون الرشيد (168 ـ 191 هـ) (786 ـ 809) عقدت اتفاقية ودية مع شارلمان إمبراطور الغرب، كان من أثرها تمتع المسيحيين في فلسطين بالاستقرار والأمان، مع إطلاق الحرية لهم في إقامة شعائرهم دون مضايقات[3]. وما يقال عن المسيحيين في بيت المقدس والشام تحت الحكم الإسلامي يقال أيضاً عن أقباط مصر الذين حظوا تحت الحكم الإسلامي بمعاملة حسنة منذ الفتح الإسلامي لها، وتمتعوا بجو من الاستقرار والأمان لم يألفوه في ظل خضوعهم للبيزنطيين، اللهم إلا بعض فترات استثنائية قصيرة نتيجة لانحراف أحد الحكام، مثلما حدث أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (386 ـ 411 هـ/ 996 ـ 1021 م). ولكن الأوضاع كانت لا تلبث

(1) قرآن كريم المائدة آية 82 ـ 84.

(2) K.M. Setton: A history of The Crusades, UNIV, of Wisconsin, 1977, Vol. 4, p. 38

(3) F. Valentin: A Brége De L'Histoire Des Croisades, Dix, SE, EDI. TOURS, Alfred Mame ET Fils, Editeurs, MD ccclxx VIII, p. 11, 19, Browne: The Eclipse of Christianity in Asia, Cam, At The UNIV. 1933, p. 26-29.

أن تعود إلى ما كانت عليه من الصفاء والهدوء، ولكن بعد ذلك تغيرت سياسة الحاكم تجاههم[1].

كذلك فإن سياسة التسامح الديني التي سار عليها المسلمون نحو رعاياهم من أهل الكتاب في أسبانيا، وحرية الاختلاط بين المسلمين والمسيحيين، أدى ذلك إلى شيء من التقارب بين الجماعتين، الأمر الذي ظهر واضحاً في ميدان اللغة. ذلك أن اللغة اللاتينية بلغت في بعض أجزاء أسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى صار من الضروري أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القديمة والإنجيل إلى العربية، مما يشير إلى تأثر المسيحيين بالعرب في لغة قرآنهم[2].

كذلك فإن أهالي الأندلس الأصليين الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية مع تأثرهم بلغة العرب وعلومهم وعاداتهم، والذين أطلق عليهم اسم المستعربين، تمتعوا بقسط كبير من التسامح في ظل الحكم الإسلامي، فباشروا طقوسهم في كنائسهم ومارسوا حياتهم العادية داخل المدن وخارجها، دون أدنى تدخل من جانب حكام البلاد المسلمين.

ولعل هذا التسامح الذي حظوا به تحت الحكم الإسلامي هو الذي أدى بنسبة كبيرة من المستعربين إلى الدخول في الإسلام، في حين اعترف الذين ظلوا على مسيحيتهم بأنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الفرنج أو القوط[3].

وكان أن أسهم أهل البلاد بنصيب وافر في ظل هذه الحياة المستقرة،

(1) F. valentin: ABrége De , l'Histoire des Croisades, p. 17, ابن تغرى بردى: والنجوم الزاهرة: جـ 4، ص 178، 179؛ حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 28 ـ 29؛ أبو الفلاح: شذرات الذهب جـ 3، ص 150، 158، 192 ـ 194؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 1 ص 31.

(2) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 121 ـ 124.

(3) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 537. لين بول: العرب في إسبانيا، ترجمة على الجارم، القاهرة 1944، ص 41 ـ 42.

ومارسوا النشاط العلمي والاقتصادي مع إخوانهم الوافدين، مما أدى إلى انتعاش الحضارة الإسلامية في الأندلس. وقد أعجب الأسبان أنفسهم بثقافة العرب الدينية والدنيوية، وعبّر عن أسفه لذلك «الفارو» الكاتب المسيحي المتعصب في القرن التاسع الميلادي «... إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربي بليغ، وا أسفاه أنني لا أجد اليوم علمانياً يُقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل، بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة إلا العربية، ذلك أنهم يُقبلون على كتب العرب في نهم وشغف، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة، في الوقت الذي يحتقرون فيه الكتب المسيحية وينبذونها[1]، كذلك ومن الواضح أن الإسلام كعقيدة كان له أثره في إذابة الخلاف بين الفرق والمذاهب المسيحية في شتى البلدان التي فتحها وحكمها المسلمون، وكان لهذا أثره في تحول كثير من السكان في الشام ومصر وشمال إفريقية وإقليم الجزيرة إلى الإسلام، فأخذوا يرددون أمام إخوانهم العرب المسلمين: «إن حكمكم وعدالتكم أكثر قبولاً لنا من ذلك الطغيان وتلك الإهانات التي نخضع لها». وتعتبر هذه العبارة التي رددها سكان مدينة حمص تعبيراً عن استيائهم من سياسة حكومة الروم في حكم رعاياهم من المسيحيين أنفسهم[2].

2 ـ الأثر الاقتصادي:

عندما اتسعت الدولة الإسلامية وشملت البلاد المطلة على الشواطىء الجنوبية والشرقية والغربية للبحر المتوسط، فضلاً عن البحار الداخلية مثل البحر الأحمر أو بحر القلزم، وبحر قزوين وغيرهما، غدت هذه الدولة دولة برية بحرية، بمعنى أنه صار لا غنى لها عن أسطول كبير يربط بين أطرافها

(1) د. سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 2، ص 489.
(2) وسام فرج: العلاقات، ص 40، 340.
جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 52.

المطلة على البحار، ويحمي شواطئها ويسهل الانتقال بين أجزائها.

قد اتضحت هذه الحقيقة في كل مرحلة من مراحل الفتح والتوسع، فمثلاً بعد أن تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص كان أهم إنجاز للعرب المسلمين وبخاصة في عهد عثمان بن عفان وبتدبير من معاوية بن أبي سفيان، وبتنفيذ من عبد الله بن أبي سرح هو إنشاء عمارة بحرية إسلامية، قاعدتها الإسكندرية[1].

عندما فتح العرب إفريقية على يد حسان بن النعمان أنشأوا بمساعدة المصريين دار صناعة للسفن، وساعدهم في ذلك أهل البلاد الأصليون من البربر الذين قاموا بقطع الأخشاب من سفوح الجبال، ونقلها إلى تونس حيث قام الصنّاع ببناء السفن حتى غدت تونس القاعدة الثانية بعد القيروان[2].

كذلك بنى موسى بن نصير سفناً على الشاطىء الإفريقي، حملت رجاله إلى سواحل أسبانيا، وعلى هذه السفن ذاتها رحل ابن نصير بجيشه الرئيسي عندما بلغته أخبار انتصارات طارق بن زياد، ومنذ تلك اللحظة تحول فتح أسبانيا إلى عمليات بحرية من النوع الذي ألفه العرب في عصر الفتوح الإسلامية الأولى في سورية ومصر[3].

لا شك في أن العرب المسلمين أفادوا من الموانىء البحرية التي استولوا عليها في الشام، كما أفادوا من خبرة أهالي تلك البلاد، في صناعة السفن وركوب البحر والقتال فيه، وهذه الحقيقة فسرها العلامة ابن خلدون بقوله في مقدمته «فلما استقر العرب وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من

(1) فيليب حتي: تاريخ العرب المطول، ص 223.
(2) إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص 228.
وسام عبد العزيز فرج: العلاقات، ص 104.
أرشيبالد(ر. لويس). القوى البحرية والتجارية، ص 90.
(3) أرشيبالد: المرجع نفسه، ص 102.

النواتية في حاجتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته استحدثوا بصراء بها، فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشؤوا السفن فيه والشواني[1]، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس»[2].

قد نهض الأسطول الإسلامي بمهام كثيرة لخدمة الأغراض الحربية والتجارية، فبواسطته تم غزو العديد من جزر البحر المتوسط، واستطاع المسلمون التصدي لمواجهة الأساطيل البيزنطية وحماية شواطىء دولتهم الجديدة[3]، ولا شك في أن الجزر التي احتلها المسلمون في البحر المتوسط مثل قبرص وكريت وصقلية[4] وجزر البليار وكورسيكا وسردينيا غدت كلها بمثابة قواعد بحرية أمامية ساعدتهم في إحكام سيطرتهم على مياه ذلك البحر[5]. وبجانب هذه المكانة الحربية، فقد كان للأسطول الإسلامي نشاط بحري تجاري واسع المدى.

(1) جوزيف نسيم: في تاريخ الحركة الصليبية، ص 117.
جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 249.
الشواني: سفن نقل المقاتلين.
الحراريق: سفن نقل الأسلحة النارية.
الطرائد: سفن نقل الخيول.
المرمات: سفن نقل الميرة والسلاح.
المسطحات ـ البطس ـ الغربان: أنواع من السفن.
(2) ابن خلدون: المقدمة: الجزء الأول من كتاب العبر، القاهرة 1930، ص 200.
حسنين ربيع: دراسات، ص 83.
حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ص 44 ـ 55، 57 ـ 80.
(3) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات، ص 104.
إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص 229.
(4) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 356.
(5) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات، ص 259 ـ 260.
د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة جـ 1، ص 47.

حقيقة إن الفتوح العربية لم تحدث أول أمرها سوى تغييرات طفيفة في تجارة البحر المتوسط، ولم يترتب عليها انقلابات اقتصادية مباشرة وسريعة، لأن العرب آثروا في أول الأمر أن يتركوا زمام النشاط التجاري في حوض البحر المتوسط لمن كان بأيديهم ذلك الزمام من قبل، وكانت غالبيتهم من الروم وأهل الشام وغيرهم من شعوب البحر المتوسط[1]. ولكن الإنسان العربي عرف بقدرته على سرعة التعلم من جهة، وحبه لممارسة التجارة من ناحية أخرى، ولذلك لم يلبث العرب أن أفادوا من أهالي البلاد المفتوحة، واعتمدوا عليهم في ممارسة النشاط التجاري بعيداً حتى الهند، وأفادوا من ذلك فوائد ضخمة[2].

يضاف إلى ذلك أن المسلمين بعد فتح مصر عمدوا إلى قطع ضريبة القمح عن القسطنطينية. وكانت مصر تدفع لها هذه الضريبة سنوياً، فما كان يرسل لتموين بيزنطة صار يرسل لتموين مكة والمدينة، وساعد ذلك على إيجاد سوق للتجارة العربية[3].

قد تأثرت القسطنطينية ـ حكومة وشعباً ـ تأثيراً واضحاً بهذا التطور، إذ تخلى هرقل عن سياسة توزيع القمح في العاصمة، وأخذت حكومة القسطنطينية تبحث عن مصادر جديدة للقمح، والراجح أن المناطق الزراعية القريبة في البلقان وآسيا الصغرى وشمالي القرم عوضت النقص الناجم عن ضياع قمح مصر[4].

يضاف إلى ما تقدم أن انفصال بلاد الشام عن بيزنطة أدى إلى إضعاف تجارتها البحرية إلى حد بعيد، وإن كانت قد استعاضت عن ذلك بأسواق جديدة في فارس ووسط آسيا[5].

(1) أرشيبالد: القوى البحرية: ص 120.
(2) أرشيبالد: القوى البحرية، ص 120.
(3) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات، ص 263.
(4) أرشيبالد: القوى البحرية، ص 125.
(5) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات، ص 264.

كان ذلك في الوقت الذي عمّ الرخاء المدن الداخلية في الشام، وأفادت دمشق عاصمة الدولة الأموية، بعد أن أخذت أموال الغنائم والخراج والتجارة تصب فيها.

جاء ذلك كله مصحوباً بنشاط التجارة وزيادة الرخاء وزوال الحواجز الجمركية الرومانية القديمة، التي فصلت بين سوريا والعراق[1]، كذلك أدت سيطرة العرب المسلمين البحرية على موانىء البحر المتوسط، وبخاصة على طريق التجارة الدائري الممتد من سورية إلى صقلية وكريت وقبرص، إلى مزيد من الرخاء الاقتصادي، وزاد من أهمية الدور الذي قام به أهل إفريقية كوسطاء في تجارة ذلك البحر، إلى تحكم هؤلاء في أحد الطرق الرئيسية للتجارة بين الشرق والغرب، فكانت سفنهم دائبة الحركة إلى سورية ومصر لجلب التوابل والمنتجات الآسيوية من بلاد الشرقين الأدنى والأقصى إلى إفريقية وسائر بلاد الغرب[2].

3 ـ الأثر الحضاري والثقافي:

لم يكن للعرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع تراث حضاري شامل بمعنى الكلمة، ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين، وتشرب أصولها، وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات في غرب آسيا وإفريقية، وبخاصة ما صادفوه من معارف في بلاد كالشام ومصر وإفريقية[3].

بعبارة أخرى فإن وصول العرب على تلك الأقاليم أتاح لهم الاتصال

(1) أرشيبالد: القوى البحرية، ص 127.
(2) جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية وصراع القوى، ص 110.
(3) جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 120 ـ 121.
Cam. Med. Hist. (1960) vol. 2, p. 330.
د. سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 151.

بأمم ذات حضارات قديمة راسخة، فبدأ الاحتكاك الفكري بين الجانبين وظهرت نتائج ذلك، وسرعان ما تحول اللقاء الحربي إلى لقاء حضاري وفكري أثمر بعد ذلك وأدى إلى نشأة الحضارة العربية الإسلامية[1].

وكان أن بدأت حركة الترجمة والتعريب مما مكن المسلمين من الإفادة مما هو نافع من التراث الهيلنستي اليوناني، الذي وجدت له مراكز مزدهرة في مصر والشام وإقليم الجزيرة، ومزجوا بين النافع من ذلك التراث وتراث الفرس والهنود وغيرهم من أصحاب الحضارات التي صادفوها في المنطقة، ونتج من عملية المزج هذه مولد الحضارة العربية الإسلامية، ولا شك في أن هذه الحضارة أفادت من روح الإسلام وتعاليمه[2]. وما اتصف به من تسامح عرف به المسلمون ولا يوجد له نظير في الشرق أو في الغرب في العصور الوسطى[3]. هذا فضلاً عن انتشار الأمن والعدل والاستقرار والطمأنينة في ربوع البلاد المفتوحة، مما أدى إلى انتعاش الأحوال الاقتصادية في النواحي الزراعية والصناعية والتجارية وهذا بدوره أدى إلى انتشار الرخاء وازدياد الثروات. مما ساعد على بناء حضارة كبيرة شامخة البنيان[4].

ليعنينا في موضوعنا أن هذه الحضارة الإسلامية ازدهرت في القرنين التاسع والعاشر، أي زمن الظلام الذي عمّ الغرب الأوربي. ولما أفاق الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر نتيجة للصحوة الكبرى التي بدأت شرارتها الأولى في دير كلوني، وجد أهل الغرب أنفسهم أمام بناء حضاري عربي إسلامي شامخ لم يترك علماً ولا فناً إلا وأسهم فيه، فأقبل على علوم المسلمين يترجم كتبهم إلى اللاتينية، وينهل منها ليشيد على أساسها نهضته الحديثة.

(1) وسام عبد العزير فرج: العلاقات، ص 333 ـ 335.
وجوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 120 ـ 121.
(2) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 360.
(3) د. سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 1، ص 153.
(4) جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 121 ـ 122.

جـ ـ ضعف الكنيسة والعالم المسيحي الغربي في الشطر الأول من العصور الوسطى وترقب الفرص لتحول ميزان القوى في صالح الجانب المسيحي ضد المسلمين

استعرضنا في الصفحات السابقة حركة الفتوحات العربية الإسلامية، وأثرها في الجبهتين الإسلامية والمسيحية، وتبين لنا نجاح المسلمين في الهيمنة على البلاد التي فتحوها وانتشر فيها الدين الإسلامي، ولم يكن بوسع الكنيسة الغربية وعلى رأسها البابوية سوى أن تنظر إلى ذلك التطور الخطير وهي تعاني من العجز والضعف، وأن تتحين الفرص المناسبة عندما تتحول كفتا الميزان لصالح الغرب وكنيسته.

قد رأينا أن انتشار النفوذ الإسلامي على شواطىء البحر المتوسط ودخول معظم البلاد المطلة عليها في الإسلام، كان بمثابة كارثة كبرى حلّت بالغرب المسيحي الذي كان أضعف من أن يواجه الموقف. وهكذا وقفت الكنيسة الغربية ورجالها موقف العاجز في الوقت الذي دبت التجارة والنشاط التجاري في حوض البحر المتوسط.

كل ما فعله العالم المسيحي الغربي في الفترة بين القرنين السابع والحادي عشر أمام العرب المسلمين، هو الوقوف موقفاً دفاعياً[1]، فلم يكن باستطاعتهم القيام بحرب شاملة تكفل لهم استرداد الأراضي المقدسة التي دخل أهلها في دائرة الإسلام، أو حتى استرداد البلاد التي استولى عليها المسلمون في الغرب في أسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا، وقد استمرت كفة الإسلام هي الراجحة في صراعه ضد أوربا المسيحية بشقيها الشرقي والغربي، طوال القرون السابع والثامن والتاسع والعاشر.

لكن ليس معنى هذا عدم تطلع أوربا المسيحية في ذلك الدور إلى الأراضي المقدسة التي استحوذ عليها المسلمون، فلقد استمرت أوربا

(1) وسام عبد العزيز فرج: العلاقات، ص 261 ـ 270.

المسيحية حتى في أحلك عصورها تبدي اهتمامها بالأراضي المقدسة. مع عدم قدرتها على القيام بأي جهد عسكري مباشر لاستعادة هذه الأراضي، أما الدولة البيزنطية ـ هي أقرب القوى المسيحية إلى الأراضي المقدسة ـ فكانت هي الأخرى تعاني من ذلك الدور ضعفاً مضطرداً وتدهوراً في أوضاعها الداخلية والخارجية، في الوقت الذي لم يرحمها جيرانها المسلمون فدأبوا على غزو أراضيها والتوغل في أواسط آسيا الصغرى، وكثيراً ما اضطروا حكومة القسطنطينية لدفع الجزية[1]، وهو ما يشير إلى الحالة التي وصلت إليها بيزنطة في تلك الفترة، أي حتى القرن الحادي عشر[2].

وقد رأينا أن حركة الإصلاح الديني في الغرب في القرن العاشر اتسعت لتشمل الكنيسة والبابوية ثم الدولة، فألهمت الغرب الأوربي روحاً جديدة، مكنت المسيحين في الغرب من إحراز عدة انتصارات على المسلمين في الأندلس، مما حرّك فيهم الأشجان نحو الأراضي المقدسة[3]، وفي الوقت الذي دبت هذه الصحوة في العالم المسيحي الغربي، كانت الدولة الإسلامية قد أخذت تعاني آلام التفكك السياسي وانفصام عرى الوحدة، فضلاً عن الصراع المذهبي في بعض أجزائها.

جاء ذلك مصحوباً بصحوة مرت بها الدولة البيزنطية في القرن العاشر. فصارت هناك ثلاثة خلافات هي: العباسية في بغداد، والفاطمية في مصر والأموية في الأندلس[4].

لا شك في أن الانقسامات التي مرت بها الدولة الإسلامية في تلك

(1) عبد الناصر جبار: بنو حفص والقوى الصليبية، (رسالة، القاهرة 1990)، ص 97.
(2) عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضي المقدسة، القاهرة 1979، ص 6.
(3) Victor Duruy: Op.Cit. P. 230.
(4) د. سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 26.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 7.

المرحلة هيأت للقوى الصليبية الفرصة لمحاولة استرجاع أراضيها المقدسة، فأخذت أفواج الحجاج الصليبيين تتجه إلى الأراضي المقدسة منذ أواخر القرن العاشر، ثم لم يلبث هذا الحج الجماعي أن تحول في القرن الحادي عشر إلى حملات حربية تستهدف في الظاهر حماية الدولة البيزنطية من الأتراك السلاجقة وتهديدهم لها، وتستهدف في الباطن ضرب دولة الإسلام واسترداد الأراضي المقدسة للكنيسة المسيحية.

الفصل الثالث

الطابع الديني لصحوة الدولة البيزنطية في القرن العاشر

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: 173 ـ 175]

استعرضنا في الفصل السابق موقف الكنيسة الغربية من حركة الفتوحات العربية الإسلامية في حوض البحر المتوسط؛ وانتهينا إلى أن قوة الدولة الإسلامية قد مكنتها من بسط سلطانها في ذلك الإقليم؛ فدانت لها البلاد المطلة على الشواطىء الشرقية والجنوبية والغربية لذلك البحر فضلاً عن عدد كبير من الجزر ولكن حدث عندما أخذ الضعف ينخر في أوصال الدولة الإسلامية، وتفككت وحدتها، أن شهدت الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر صحوة اتخذت من الدين قوة دافعة لها.

في هذا الفصل نتناول الطابع الديني لصحوة الدولة البيزنطية في القرن العاشر، من خلال المحاور التالية:

أ ـ صحوة الدولة البيزنطية في القرن العاشر:

مظاهرها ـ أسبابها ـ أهدافها

ب ـ الدولة البيزنطية تستغل هذه الصحوة في محاربة المسلمين على الجبهة الشرقية.

جـ ـ الطابع الديني لحملات نقفور فوقاس، وحناتز مسكيس ضد المسلمين أواخر القرن العاشر.

د ـ ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث وتزعمهم حركة الجهاد الديني ضد البيزنطيين.

أ ـ صحوة الدولة البيزنطية
في القرن العاشر
أسبابها ـ مظاهرها ـ أهدافها

تعرضت الدولة العباسية ـ الجار الشرقي لدولة الروم وعدوها اللدود ـ للتفكك والضعف في القرن العاشر فانقسمت إلى دويلات عديدة منها الدولة السامانية (360 ـ 388 هـ/ 971 ـ 998 م) في بخارى وسمرقند، ودولة البويهيين الشيعية (320 ـ 446 هـ/ 932 ـ 1055 م) وهم أسرة فارسية حكموا الجزء الغربي من بلاد فارس، ثم مدوا سيادتهم على بغداد والعراق[1]. وقامت الدولة الحمدانية (317 ـ 400 هـ/ 929 ـ 1009 م) بالموصل وحلب على أكتاف سيف الدولة الحمداني (317 ـ 356 هـ/ 929 ـ 967 م)، واستقل الطولونيون (265 ـ 292 هـ/ 876 ـ 905 م) ومن بعدهم الإخشيديون (322 ـ 358 هـ/ 934 ـ 969 م) بمصر. وكذلك ظهرت على حساب الدولة العباسية، الدولة الزيارية (316 ـ 438 هـ/ 928 ـ 1047 م) والدولة الغزنوية (351 ـ 581 هـ/ 962 ـ 1186 م). مما يشير إلى أن كل أمير كان يسعى ليكوّن لنفسه حكماً مستقلاً على حساب الخلافة العباسية. ولا شك في أن هذه الأوضاع هيأت فرصة مواتية طالما انتظرها العالم المسيحي منذ القرن السابع، ونخص بالذكر دولة الروم أو الدولة البيزنطية، التي طالما عانت الأمرين من الهجمات الإسلامية[2]. ومما يوضح ضعف الدولة العباسية في تلك المرحلة، الخلافات التي قامت بين الإخشيديين، والحمدانيين، دون أن يكون للخليفة دوراً فيها، فضلاً عن وقوع الخليفة العباسي نفسه تحت سيطرة كبار

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 54 ـ 55.
أسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص 109.

(2) M. Muchaud: Histoire Des Croisades, Tome I, p. 30.
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 1، ص 420.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 54 ـ 55.

الأمراء ـ وبخاصة من بني بويه ـ مما جعله ألعبوة في أيديهم، دون أن يكون له من الخلافة سوى الاسم؛ ولقد أحسن المؤرخ البيروني حين قال إن الدولة والملك قد انتقلتا من آل العباس إلى آل بويه؛ ولم يبق في أيدي بني العباس سوى المظهر الديني للخلافة[1]. فكان لهذا الوضع المتدهور بطبيعة الحال آثاره السيئة على الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية[2]. ويبدو أن البويهيين وجهوا اهتمامهم نحو الجناح الشرقي للدولة، أعني بلاد فارس والأقاليم المجاورة لها، ولم يكترثوا بالجناح العربي المجاور للدولة البيزنطية ولذا فإنهم لم يعملوا حساباً لخطر صحوة الروم، وما قد يترتب على ذلك من هجمات يشنونها على أقاليم الدول الإسلامية المجاورة لهم[3]. ولعل ذلك الانحلال الذي أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذي اعترى وحدة الدولة الإسلامية، كانا من العوامل التي نبهّت الأباطرة البيزنطيين منذ منتصف القرن التاسع، وشجعتهم على الوقوف موقفاً أكثر حزماً وصلابة من جيرانهم المسلمين. وهكذا تحول موقف الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر من الدفاع إلى الهجوم، وذلك عندما أدرك البيزنطيون أنهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية دولة إسلامية موحدة مثلما كان الحال أيام الأمويين والعباسيين الأوائل، وإنما صاروا لا يرون إلا دولة مفككة أضعفتها الانقسامات السياسية والمذهبية[4]. وقد صاحب هذه الفترة من الضعف والانحلال في قوى الدولة الإسلامية في الشرق، قيام أسرة حاكمة من أقوى الأسر التي ظهرت في التاريخ البيزنطي، وهي الأسرة المقدونية التي حكمت

(1) أسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية، ص 109.
(2) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 143 ـ 144.
محمود محمد الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، دار المعارف، ط 1، 1992، ص 12.
(3) أسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص 109.
(4) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 55 ـ 56.
Baldwin (.W): The First Hundred Years.
university of Pennsylvania, phildelphia, 1969, p. 179, in Sehan: History, vol. 1.

من سنة (254 ـ 447 هـ/ 868 ـ 1056 م)، وفي عصر هذه الأسرة بلغت الإمبراطورية البيزنطية أوج قوتها ومجدها فقد اعتلى عرشها عدد من الأباطرة العظام الذين دأبوا على العمل من أجل دعم الإمبراطورية ورفعة شأنها في الداخل والخارج. ومن أجل ذلك أقاموا حكومة مركزية قوية استطاعت أن تجعل من الإمبراطورية وحدة متماسكة، كما تمكنوا من تنمية الموارد الاقتصادية للدولة، وكونوا جيشاً قوياً منظماً، أما في الخارج فقد استأنف هؤلاء الأباطرة سياسة الهجوم على كافة الحدود في أوربا وآسيا دفاعاً عن حدود الدولة ولاسترداد أراضيها المفقودة[1]، والواقع أن أباطرة البيت المقدوني حرصوا على إحياء مجد الدولة الحربي، وساعدهم على تحقيق ذلك استمرار توارثهم الحكم حتى سنة 1056 م، وهو ما ضمن للإمبراطورية فترة طويلة من استقرار الأوضاع السياسية في الداخل، فكان لذلك نتائجه المهمة على الجبهة مع المسلمين إذ رجح ميزان القوى إلى الجانب البيزنطي خلال القرن العاشر وحتى منتصف القرن الحادي عشر[2].

والواقع أن الإمبراطورية البيزنطية شهدت في عصر هذه الأسرة نهضة شاملة يمكن إجمال مظاهرها في عدة أركان، أهمها:

1 ـ الجانب الحربي والسياسي.
2 ـ الجانب الديني والفكري.
3 ـ الجانب الإداري.
4 ـ الجانب التجاري.

1 ـ الجانب الحربي والسياسي:

أما في الجانب الحربي فقد استطاع أباطرة الدولة البيزنطية في منتصف

(1) عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الأرض المقدسة، ص 11.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 157 ـ 158.
جوزيف نسيم: في تاريخ الحركة الصليبية، دار المعارف 1989، ص 48.
(2) أحمد عبد الكريم سليمان: العلاقات بين الدولة البيزنطية والقوى الإسلامية، (رسالة، القاهرة 1980)، ص 28.

القرن التاسع إعادة تنظيم البحرية البيزنطية، وتجهيزها وإعدادها حتى استوعب كافة ما عرف في حوض شرق البحر المتوسط من فنون البحر[1]، واكتظت موانىء الدولة بأعداد كبيرة من السفن الحربية[2]، وقد عهد إلى هذا الأسطول مهمة حراسة أفواه البحار من قراصنة المسلمين[3]. مما يشير إلى إدراك بيزنطة لدور الأسطول في حماية أراضيها من إغارات المسلمين. وبفضل قوة الأسطول البيزنطي، تحققت سيطرة بيزنطة مرة أخرى على جنوب إيطاليا ودالماشيا[4].

وبجانب الأسطول، عنى الأباطرة بتحصين حدود، الإمبراطورية ضد أي هجمات مستقبلية من جانب المسلمين[5]. فأقاموا نظاماً دفاعياً يتولاه أمراء ونبلاء عرفوا باسم Akrtia يقيمون على الحدود وكانت مهمتهم مهاجمة أراضي الأعداء، وصد هجماتهم. وكان هؤلاء الأمراء مستقلين لا يخضعون للسيطرة الفعلية للدولة، كما كانت أراضيهم معفاة من الضرائب، فضلاً عن أن الدولة كانت تكافئهم على خدماتهم[6]. لا شك في أن هذا الإجراء ساعد على إيجاد نظام أمني كامل على حدود الإمبراطورية البيزنطية.

وإلى جانب هذا النظام الدفاعي وجد جيش عماده الخيالة الثقيلة المسلحة بالأطبار ـ وهي الفؤوس الحربية[7] ـ وهكذا تم إحياء قوة الدولة البيزنطية براً وبحراً في عصر الأسرة المقدونية[8]، حتى تمكنت أواخر القرن العاشر من إستعادة جزيرتي كريت 350 هـ/ 961 م وقبرص 354 هـ/ 965 م، وقضت على قوة المسلمين البحرية في طرسوس وشمال سورية،

(1) فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 172.
(2) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 82.
(3) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 378.
(4) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 50.
(5) فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 172.
(6) زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، ص 44.
(7) فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 172.
(8) ارشيبالد ر. لويس: القوى البحرية والتجارية، ص 337.

وضمت تلك الأقاليم إلى الإمبراطورية، مما أضعف قوة المسلمين كثيراً في شرق حوض البحر المتوسط[1].

وجاء هذا النجاح البحري الذي حققته الإمبراطورية البيزنطية، مقروناً بنجاح كبير في الجانب السياسي، حيث عرف البيزنطيون نفسية الشعوب المتبربرة خير معرفة، فشهدت القسطنطينية نشاطاً دبلوماسياً واسعاً لم تشهده غيرها من العواصم المعاصرة. وكان للمبشرين من رجال الكنيسة البيزنطية فضل يفوق فضل القادة العسكريين في إعلاء شأن الإمبراطورية، لأنهم هيمنوا على عقول البرابرة، ليس بالأفكار والآراء الدينية فحسب، بل أيضاً بالشعائر الكنيسية البيزنطية، وما ارتبط بها من بخور وشموع وموسيقى، وملابس كهنوتية رائعة. كذلك حظيت الإمبراطورية ود الملوك التابعين بمختلف الوسائل، سواءً بالهدايا السنية أو الأموال الوافرة، وزوجّت بعضهم من عقيلات البيوت البيزنطية الكبيرة وأسبغت على الكثيرين ألقاباً إمبراطورية ضخمة[2].

فإذا وصل سفير أجنبي إلى القسطنطينية أحيط بكل أنواع التكريم، وحيل بينه وبين مقابلة أي شخص غير مفوض، فإذا أدخل إلى «الحضرة» حيي طبقاً لمراسم موضوعة واستقبل وفق مكانته ومكانة بلاده[3]. كذلك روعي في البروتوكول الإمبراطوري أن يكون على درجة من الهيبة والجلال والإكرام، حتى يبدو الإمبراطور في أعين الوافدين على القسطنطينية وكأنه شخصية مؤلهة فوق مستوى البشر[4]، وكان المفروض من السفير أن يسجد

(1) ارشيبالد: القوى البحرية، ص 317.
سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، القاهرة 1957، ص 14 ـ 17.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 604 ـ 605.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 60 ـ 61.
(2) فشر هـ.أ.ل.: تاريخ أوربا، ص 172.
(3) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 186.
(4) فشر هـ.أ.ل: تاريخ أوربا، ص 172.

على الأرض أمام الإمبراطور، ثم يعود فيما بعد ليمارس علاقة شخصية مع الإمبراطور في مأدبة رسمية، أو ربما مُنح الإذن ليقابل الإمبراطور مقابلة شخصية، فإن كان من شعب بدائي، عرضت عليه بعض الألاعيب الآلية بالقصر حتى تستثير إعجابه، فتزأر الأسود الذهبية وتشدو الطيور الذهبية، وبينما الحضور سجود على الأرض يرتفع العرش الإمبراطوري في السماء، ويبدو الإمبراطور مرتدياً ثياباً فاخرة. أما إذا كان السفير على درجة من الوعي والحضارة عرضت عليه على سبيل التسلية كنوز القصر وآثار القدامى، وهي أشياء لا تقدر بثمن تبهر رؤيتها أنفاسه حتى يعود إلى بلاده مشيداً بعظمة الإمبراطورية في نظمها الحضارية والحربية فتقع مهابتها في العالم الخارجي[1].

والواقع أن أعظم ما امتازت به الإمبراطورية البيزنطية في المجال الدبلوماسي، هو قدرتها الكبيرة الفائقة التي مكّنتها أن تحوط نفسها بشبكة من الصداقات والمودات القريبة والبعيدة، فضلاً عن المعرفة التي تمت لها بشعوب السهوب الآسيوية وأحوالها مما هيأ لها مكانة عالية من المهابة آنذاك[2].

2 ـ الجانب الديني والفكري:

اتصفت الحياة الدينية في الدولة البيزنطية بنشاط كبير واسع وذلك لاعتبارين: الأول داخلي تمثل في محاولة حل بعض المشاكل الدينية في المجتمع البيزنطي، والثاني خارجي يتعلق بالرغبة في نشرالمسيحية بين دول العالم، وإيجاد علاقات بين الكنيسة الشرقية من ناحية، وروما والبابوية من ناحية أخرى[3]، وذلك لتحقيق الهدف الأساسي الذي استهدفته الإمبراطورية البيزنطية وهو سياستها الحربية ضد المسلمين. فالعقيدة المسيحية بالنسبة للبيزنطيين كانت المحور الرئيسي لحديثهم، وقوام آمالهم وأحلامهم المعبرة

(1) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 187.
(2) فشر هـ.أ.ل: تاريخ أوربا، ص 172.
(3) A.A. Vasiliev: Histoire L'Empire Byzantin, Tome 2, paris, 1932, p. 12.

عن وجهة نظرهم، وكان جُل اهتمام الأباطرة هداية الناس إلى المسيحية، لتكوين حلفاء وأصدقاء يدينون بالولاء لهم وللدولة البيزنطية، ويكونوا أعواناً لها في هجومها المرتقب على المسلمين.

وفي سبيل ذلك قام المبشرون البيزنطيون، يساعدهم رجال السياسة حيناً ورجال الجيش أحياناً، بنشر الإنجيل بين العبيد في جنوب إيطاليا[1]، وكذلك قاموا بنشر المسيحية الأرثوذكسية بين الشعوب الصقلبية أو السلافية، كما دافعوا عن حقوق الكنيسة الأرثوذكسية وحموها من تدخلات البابوية، وبعد أن انتصرت عبادة الأيقونات في القرن التاسع الميلادي، أعيد تأسيس جامعة القسطنطينية التي سبق وأن قامت في القرن الخامس الميلادي. وقد قام بهذه المهمة القيصر «بارداس» خال الإمبراطور ميخائيل الثالث ومستشاره، فعيّن «بارداس» الفيلسوف «ليو» رئيساً لهذه الجامعة، وعهد إليه بمهمة نشر الديانة المسيحية بين الشعوب السلافية، وغيرها من الشعوب الوثنية المجاورة، مما أدى إلى دخول الصقالبة والبلغار في الديانة المسيحية[2].

ومن الواضح أن هذه الروح الدينية التي حرص الأباطرة على غرسها كان لها أثرها في استثارة الحماسة لمحاربة المسلمين، لا سيما وأن الدين المسيحي وأتباعه يذكرون للإمبراطور نقفور فوقاس أنه قال في وصف المسلمين أنهم «يفترون على المسيح كلمة الرب، ويتبعون رسولاً كاذباً»[3]. وهكذا تم شحن القلوب والعقول ضد المسلمين استعداد للمعركة المقبلة.

3 ـ الجانب الإداري والحرفي:

عملت الأسرة المقدونية ـ تحقيقاً لهدف الصحوة ـ على وضع نظام

(1) Baldwin (M.W.): the First Hundred, vol. 1, p. 179.

(2) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 161 ـ 162؛ وللمزيد عن الأيقونات واللاايقونات انظر: عبدالقادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص 101 ـ 124.

(3) A.A. Vasiliev: Histoire L'empire, Tome, 2, p. 122.

إداري للإمبراطورية يكفل لها التماسك الداخلي، والإنتاج الحرفي والفني، فضلاً عن توجيه أمور الدولة في يسر وسهولة، وقد ساعدتهم الظروف على تحقيق ذلك، بفضل توفير طبقة حاذقة من الموظفين، وإدارة مالية حسنة ونظام قضائي متين[1]، وكان والي القسطنطينية من هيئة كبار الموظفين، وهو المسؤول عن الإشراف على الأسواق وتموين السكان بالقمح، ومراقبة النقابات الكثيرة، التي كانت تشمل تجار الحرير وصناع الأقمشة الحريرية والصباغين، وتجار المجوهرات والمشتغلين بالصرافة وتجار العطور والتوابل وصناع الشمع والصابون والجلود والجزارين والخبازين وغير ذلك.

وساعد على النشاط الاقتصادي وفرة المواد الخام في أقاليم متعددة في الدولة البيزنطية، كما استغلت المناجم المنتشرة في أجزاء شتى من الإمبراطورية واستخرجت منها المعادن الأساسية وبخاصة الشب الذي كان ذا أهمية كبيرة في صباغة النسيج. ودبغ الجلود[2] وغير ذلك[3]. وقد تميزت الصناعات البيزنطية بالإتقان والجودة، وأشرفت الدولة عن طريق موظفيها المدنيين على الحرفيين وتنظيماتهم بواسطة هيئات حرفية عرفت باسم «نقابات الحِرَف» التي استطاع كثير من أعضائها تكوين ثروات طائلة واحتلوا مكانة اجتماعية عالية. ولا شك في أن هذا النشاط كان له أثره في تحقيق دخلاً كبيراً للإمبراطورية استخدمته في توجيه برنامجها الحربي ضد المسلمين.

ويشرح كتاب والي المدينة وهو المعروف في اليونانية باسم

(1) فشر (هـ. أ. ل): تاريخ أوربا، ص 172.

(2) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 159 ـ 160.

(3) انتوني بروج: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان، دار قتيبة، بيروت 1958، ص 31. انتج عمال بيزنطة آنذاك منسوجات فخمة، استخدمها الرجال في عمل أثواب طويلة ذات أكمام طويلة تحاكى أثواب سفراء الإمبراطورية الصينية، وهذه المنسوجات كانت مطرزة، ومرصعة بأحجار ثمينة، بينما ارتدت النساء الحرير.

EPARCHIKON BIBLION، الذي صنفه الإمبراطور البيزنطي ليو السادس (911 ـ 912 م).

واعتمد في تصنيفه على ما كان معروفاً قبل عهده من قوانين وأعراف وتقاليد، وكيف نظمت الحكومة البيزنطية العلاقات بين عامة الناس وأرباب الحرف فألزمت الابن بممارسة مهنة أبيه، وجعلت أرباب الحرف والصناعات ينتظمون في نقابات خاضعة لسلطان الدولة[1].

ومهما يكن من أمر، فإن هذا النظام الإداري والحرفي ضَمِن للدولة استمرارية المحافظة على المستوى العام للأداء، واتقان الحرفة، والسير بها في مدارج الرقي، مما أدى إلى تحقيق أرباح طائلة خدمت الناحية الحربية وأمنت الجبهة الداخلية ضد نقص الموارد في حالة الحرب.

4 ـ الجانب التجاري:

غدت القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي أعظم مركز تجاري في العالم المسيحي، وجذبت إليها التجار والمتاجر من أوربا، ومن بلاد الهند والمسلمين والصين، وازدهرت التجارة الداخلية في الدولة البيزنطية، بحيث أصبحت كل مدينة مركزاً تجارياً للأقاليم المحيطة بها، حيث يبيع المزارعون منتجاتهم الزراعية، ويشترون منتجات الحرفيين المحليين، وجذبت الأسواق المحلية التي كانت تقام عادة عند ضريح أحد القديسين المحليين انتباه التجار البيزنطيين وغير البيزنطيين، وفي الأسواق الكبرى كان التجار القادمون من الشرق يبيعون العطور والتوابل، ويشترون السجاد والأقمشة البيزنطية[2]،

(1) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 159.

(2) انظر: عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس، ص 12؛ حسنين ربيع: دراسات، ص 160 ـ 161.

كانت الولايات المختلفة بآسيا الصغرى هي المسؤولة إلى حد كبير عن إمداد خزانة الإمبراطورية بإيراداتها كما كان من بين هذه الولايات ما جمعت خيرة قوادها وجنودها.

ولما كان هؤلاء التجار قد سلكوا طريق آسيا الصغرى في طريقهم إلى القسطنطينية، فإن المدن البيزنطية التي مروا بها استفادت من هذه التجارة الدولية والمحلية. حيث أمدتها بالموارد المالية والبشرية[1].

وقد تميزت القسطنطينية آنذاك بأنها سوق للتجارة العالمية، وذلك بفضل المترددين عليها من تجار الروس والبلغار والإيطاليين والمسلمين، وغيرهم ممن سيطروا على نشاطها التجاري، ومع أن مطلع القرن العاشر شهد بعض الانتعاش في مجال النقل التجاري البحري، إلا أن السفن البيزنطية لم تلبث أن توقف نشاطها في ميدان التجارة، وبخاصة في البحر الأسود بسبب ظهور الفيكنج الذين أطلق عليهم في سهول شرق أوربا اسم الروس، وقد حلوا محل التجار البيزنطيين في نشاطهم في ذلك الميدان الشرقي[2].

أما الزراعة ونظام حيازة الأرض الزراعية في القرن العاشر، فقد اهتزا نتيجة للاعتداء على الملكيات الصغيرة من جانب كبار الملاك، الأمر الذي دفع بعض الأباطرة في ذلك الدور إلى إصدار بعض المراسيم لحماية ممتلكات الفلاحين الأحرار من جيرانهم الأغنياء، ومنح الفلاحين نوعاً من حق الشفعة على أراضي الطبقة الأرستقراطية، غير أن هذا الإجراء لم يُثمر شيئاً، وأخذ الفلاحون يفقدون ممتلكاتهم شيئاً فشيئاً خلال القرن العاشر لصالح الطبقة الأرستقراطية بالبيع أو بالغصب[3].

وصفوة القول إن القسطنطينية غدت في عهد الأسرة المقدونية حاضرة العالم من الناحيتين المالية والتجارية، فهرع إليها التجار من البلاد البعيدة: من إيطاليا، وألمانيا وروسيا ومصر والشرق، وصاروا يتزاحمون على ابتياع

(1) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 160 ـ 161.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 56.

(2) ارشيبالد: القوى البحرية، ص 267 ـ 269.

(3) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 171 ـ 173؛ ارشيبالد: القوى البحرية، ص 269.
انظر: عليه الجنزوري: العلاقات البيزنطية الروسية في عهد الأسرة المقدونية.

ما تنتجه مصانعها من أدوات الترف والزينة[1]. وبعبارة أخرى فإن القسطنطينية ظلت منذ أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مدينة قوية غنية، بل أقوى مركز صناعي وتجاري في عالم حوض البحر المتوسط، وبقي نقدها الذهبي ثابت القيمة حافظاً لدرجة نقاوته وعملتها شائعة التداول، وحقق الصيارفة فيها أرباحاً وفيرة من النشاط المالي والرخاء الذي عمّ العاصمة. كذلك حافظت بيزنطة على صلاتها مع بلاد الغرب اللاتيني عن طريق علاقاتها مع المدن التجارية الإيطالية، مثل البندقية وامالفي وغيرهما، وبقي لهذه المدن التي اعترفت بسيادة القسطنطينية الحق في أن تستورد وحدها من القسطنطينية التوابل والعطور والحرير، على حين حُرم على تجار هذه المدن نفسها وعلى جيرانهم من البلغار الاتجار في أنواع خاصة من الحرير الرقيق الفاخر[2].

وقد استجاب البنادقة لأمر التحريم الذي أصدره الإمبراطور حناتز مسكيس عام 971 م والذي يقضي بعدم الاتجار مع الموانىء الإسلامية في بعض السلع مثل الأخشاب المخصصة لبناء السفن والأسلحة والحديد[3]. فوافقوا رغم ما أصابهم من خسائر وذلك كسباً لود الدولة البيزنطية التي حققت من وراء الاتجار معهم مكاسب تجارية كثيرة، وبذلك حققت القسطنطينية في ظل هذا النظام التجاري مكاسب ضخمة، وصلت بالمدينة إلى أعلى درجات الرخاء[4]. ويعنينا في هذا المجال أن حكومة القسطنطينية

(1) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1، ص 82.
(2) ارشيبالد ر. لويس: القوى البحرية، ص 265؛ حسنين ربيع: دراسات، ص 160.
(3) ارشيبالد ر. لويس: القوى البحرية، ص 316.
(4) في ذلك يذكر الدكتور حسنين ربيع أن القرن العاشر الميلادي كان من أزهى قرون الدولة البيزنطية إذ كتب أباطرة ذلك القرن مثل باسيل الأول ونقفور فوقاس وحناتز مسكيس فصولاً رائعة في صفحات الحوليات العسكرية البيزنطية. للإستزادة انظر:
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 157 وما بعدها.
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ص 420.
ارشيبالد: القوى البحرية، ص 335.

وظّفت هذه الثروة لخدمة الغرض الذي طالما راود فكرها، وهو تحرير الأراضي المقدسة من المسلمين، ولا شك في أن هذا الاتجاه هيأ للإمبراطورية مكانة متميزة بين دول العالم المسيحي، فخطب ودها كثير من بلاد الغرب الأوربي، متلهفين على الانضمام إليها في حرب شاملة ضد المسلمين.

هذه هي أهم معالم الصحوة البيزنطية التي أسفرت عن بناء قوة الدولة في بناء جديداً استمر قائماً على مدى قرن ونصف القرن من الزمان، منذ أن اعتلى العرش الإمبراطوري باسيل الأول Basil 1 سنة 867 م حتى وفاة الإمبراطور باسيل الثاني عام 1025 م، وكان أن استغلت الدولة هذه القوة في مهاجمة أعدائها من المسلمين والبلغار كما طهرت البحر المتوسط من القراصنة، وأحكمت قبضتها على جنوب إيطاليا[1] وأخضعت أرمينيا[2].

والواقع أن عهد باسيل الأول (253 ـ 273 هـ/ 867 ـ 886 م) شهد تحولاً مفاجئاً في الموقف العسكري على الحدود الإسلامية البيزنطية. فبعد أن ظل ميزان القوى يتأرجح بين الجانبين وفق الظروف السياسية والعسكرية الطارئة على مدى بضعة قرون، إذا بهجمات الجانب البيزنطي في عهد هذا الإمبراطور تتصف بالقوة والعنف، حتى وصلت الجيوش إلى ملطية ذاتها مرتين. وكانت ملطية بمثابة مفتاح الطريق إلى منطقة الثغور الشامية فحاصرتها الجيوش الإمبراطورية سنة 259 هـ/ 872 م، ولكنها قوبلت بمقاومة شديدة من حاميتها الإسلامية التي ألحقت الهزيمة بالروم[3].

(1) Baldwin (M.W.): The First Hundred, vol. 1, p. 177.
(2) Baldwin (M.W.): The First Hundred, vol. 1, p. 179 للاستزادة انظر.
R.Grousset: Histoire de L'Armenie des Origines 1071, paris 1947.
M. chamich: History of Armenia, Trans. J. Audoll, calcutta, 1827.
Pasdermad: Histoire de L'Armenie depuis les Origines, Jusgu unau Traité de lausanne, 2éme Ed., Paris, 1963.
Sirarpie, Narssessian: The Armenians, Norwich, 1972.
(3) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 1، ص 417 ـ 419؛ جوزيف نسيم: العرب والروم، ص 142 ـ 143.

أما الثغور الشامية فقد كان موقفها أكثر حرجاً، فاضطرت حامياتها إلى الاستسلام للبيزنطيين سنة 263 هـ/ 876 م، ولما بلغ الخليفة المعتمد بذلك كتب إلى أحمد بن طولون لتدبير أمر الثغور، ولكن محاولته لم يكتب لها النجاح، فعاود باسيل الأول مهاجمة ملطية مرة أخرى كي يتمكن من خلالها الوصول إلى الثغور الشامية[1] وبذلك ينفتح الباب للدولة البيزنطية لتحقيق هدفها الأكبر، وهو تحرير بيت المقدس من المسلمين. وهكذا انفتح الباب على مصراعيه للحرب بين الروم والمسلمين في القرن العاشر.

ب ـ الدولة البيزنطية ومهاجمة المسلمين في القرن العاشر[2]

أحس أباطرة الدولة البيزنطية في ظل الصحوة التي شرحنا أبعادها أنهم غدوا أكفأ عدة وأمضى سلاحاً عن ذي قبل، مما أغراهم على القيام بهجوم على العالم الإسلامي المتفكك الأوصال على حدودهم الشرقية، وذلك لبسط سيطرتهم وتأمين سيادتهم، واسترداد ما انتزعه المسلمون منهم على مدى أربعة قرون. والواقع أن المسلمين استشعروا نوايا الأباطرة الأوائل من الأسرة المقدونية، وأحسوا بأنهم يدبرون ويخططون لهجوم على بلاد الإسلام، ولكن يبدو أن هذا الهجوم بدأ على نطاق ضيق بسبب انشغال بيزنطة بمحاربة البلغار[3] من جهة، وحتى يسبر الروم غور حصونهم ومدى مقاومتهم من

= أحمد عبد الكريم سليمان: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 27 ـ 31؛ صابر دياب: المسلمون، ص 79.

(1) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق 1358 هـ، ص 90 ـ 91.
أحمد عبد الكريم سليمان: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 27 ـ 31؛ عليه الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، القاهرة 1979.

(2) انظر: الملحق رقم(5) بخصوص أسماء المدن والأماكن الجغرافية.

(3) عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس، ص 12.
سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 66.

جهة أخرى، ويمكن القول أن البداية الحقة للهجوم البيزنطي الجاد على حدود الدولة الإسلامية في الشرق كانت في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي[1]، أو قبل ذلك بقليل.

ففي عام 314 هـ/ 926 م ـ في عهد الإمبراطور «رومانوس الأول» (919ـ449 م) ـ بدأ هجوم الروم على الثغور والعواصم الإسلامية، مستهدفين دفع المسلمين بعيداً عن هذه الثغور الشامية، وأن يدفعوا لبيزنطة أموالاً مقابل عدم التعرض لبلادهم. وكان هذا الهجوم بمثابة استثارة للمسلمين، فلما رفض المسلمون هذا المطلب، دخل الروم بقيادة «مليح Meleh الأرمني» (911 ـ 934 م) مدينة ملطية وخربوا ما جاورها من قرى، مما دفع الأهالي إلى إرسال وفد إلى بغداد يطلب النجدة ولكن دون جدوى، بسبب انشغال العباسيين بالخطر القرمطي الذي لم ينته إلا في عام 316 هـ/ 928 م[2].

ولكن الروم عادوا بعد معاهدة الصلح مع البلغار عام 315 هـ/ 927 م إلى المنطقة الوسطى من الحدود العربية البيزنطية، وقاموا بشن عدة هجمات عليها بالإضافة إلى حملات حربية أخرى أرسلوها إلى أرمينية في محاولة من الإدارة البيزنطية لاجتذاب الأرمن إلى أحضان الدولة البيزنطية. كذلك استهدف الروم مساعدة الأرمن ليجعلوا منهم مصدر خطر وتهديد دائم لشمال إقليم الجزيرة (ما بين النهرين)، منطقة هنزيط، وحصن زياد (خرتبرت)[3].

وفي العام التالي 316 هـ/ 928 م حاول الروم بقيادة مليح الأرمني الاستيلاء على مدينة ملطية ولكن دون جدوى، وأصبح الوضع حرجاً بالنسبة

(1) عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس، ص 12.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 1، ص 167، 181 ـ 182.
أحمد عبد الكريم سليمان: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 62.
صابر محمد دياب: المسلمون وجهادهم ضد الروم، مكتبة السلام العالمية 1984، ص 68 ـ 69؛ انظر خريطة رقم (4).

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 169، 544، 693.
صابر محمد دياب: المسلمون وجهادهم، ص 68 ـ69، 234.

لهذه المدينة ومدينة آمد وأرزن وميافارقين لعدم حصول أهاليها من الدولة الإسلامية على ما يدعم صمودهم أمام الهجمات التي شنّها البيزنطيون سنة 317 هـ/ 929 م بقيادة «مليح الأرمني»، وهكذا استمر الوضع طوال عام كامل مما هيأ «لمليح الأرمني» فرصة الزحف سنة 318 هـ/ 930 م على منطقة سُميساط في إقليم الجزيرة[1]، حيث استطاع في سنة 319 هـ/ 931 م احتلال ملطية للمرة الأولى[2].

كذلك قامت حملة بيزنطية أخرى في سنة 315 هـ/ 927 م بقيادة يوحنا كوركواس، الأرمني الأصل، اتجهت إلى مدينة «دوين» وفرض عليها الحصار، إلا أن حامية المدينة بالتعاون مع سكانها استطاعوا هزيمة البيزنطيين وطردوهم وكبدوهم خسائر فادحة[3]. وبعد أن أدرك كوركواس صعوبة الاستيلاء على «دوين» اتجه عام 316 هـ/ 928 م إلى جنوب أرمينيا أي إلى المناطق الإسلامية في إقليم بحيرة «وان» (Wan/Van) المتاخمة لمنطقة الجزيرة، فهاجم كوركواس في ذلك الإقليم خلاط وبدليس ودمر مسجداً بها، فاضطر سكان المدينة إلى مصالحته مقابل انسحابه، على أن كوركواس كان

(1) انظر: ابن الأثير الكامل في التاريخ، جـ 8، ص 169، 199، 213.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 69 ـ 70، 234.
انظر: الخريطة رقم (4).
وفي سنة 315 هـ/ 927 م هاجمت الروم، وقصدوا الثغور، دخلوا سُمَيساط، وغنموا جميع ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك، وضربوا في الجامع بالناقوس أوقات الصلاة.

(2) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 234 ـ 235؛ صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 70.
هذا التاريخ غير مؤكد ذلك أن ابن الأثير يروي عن حاكم الموصل أبي العلاء سعيد ابن حمدان المتولي عام 319 هـ/ 931 م حكم الموصل وديار ربيعة أنه تلقى أمراً من الخليفة المقتدر العباسي (295 ـ 320 هـ) باستعادة ملطية التي كان قد أخذها الروم، وهو ما يفهم منه أيضاً أن المدينة استسلمت ليوحنا كوركواس قبل هذا العام.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 177 ـ 178.
أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 65.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 83 ـ 84.

مصمماً على تدمير المناطق الإسلامية في أرمينيا، فعاد إليها من جديد سنة (317 هـ/ 929 م) فهزمه ملفح الساجي والي أذربيجان وأرمينية الجديد، فهاجمها مرة ثالثة، وخرّب في هذا الهجوم «بركَرى» وخلاط وأسر وقتل عدداً كبيراً من السكان[1].

وإذا كانت هجمات كوركواس قد حققت نجاحاً ملحوظاً في تثبيت النفوذ البيزنطي في منطقة الثغور بالاستيلاء على ملطية وحصن زياد، وحققت كذلك نجاحاً في أرمينيا بإضعاف نفوذ الأمراء المسلمين فيها، فإن منطقة الثغور الشامية لم تكن تلق نفس الاهتمام من كوركواس، فأتاح ذلك لـ «ثمال الخادم» والي طَرسُوس القيام بهجومين ناجحين على الأراضي البيزنطية سنة 319 هـ/ 931 م، في الوقت الذي انشغل فيه كوركواس في أرمينيا. على أن هجمات «ثمال» كانت مع ذلك محددة النتائج، ولم تؤد إلى تغيير ميزان القوى في القتال على الحدود بين الجانبين، وبوجه خاص بعد أن قل نشاط بحرية طرسوس بعد وفاة قادتها العظام مثل «ليو» الطرابلسي ودامیان[2]. ثم عاود الروم محاولتهم لغزو ملطية مرة أخرى بعد ذلك بثلاث سنوات، إذ يبدو أن المسلمين قد تمكنوا من استردادها، ثم استردها منهم القائد البيزنطي «يوحنا كوركواس» سنة 322 هـ/ 934 م، الذي هاجمها وصحبه القائد الأرمني مليح وجنوده الأرمن، في خمسين ألف مقاتل واستبسلت حامية المدينة في الدفاع عنها خارج أسوارها، ولكن كثافة الجند البيزنطيين اضطرتهم للانسحاب والتحصن داخل المدينة، لتقع بعد ذلك تحت حصار شديد للروم، مما اضطرهم إلى الاستسلام في غرة جمادى الآخر سنة 322هـ/ 934 م[3].

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 198 و214 و234.
أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 65.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 108.
أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة البيزنطي، ص 66.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 243. =

وبعد أن استسلمت ملطية، عمل البيزنطيون على تنصير أهلها فأذاعوا لأهل المدينة بياناً مؤداه «من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليرد عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى، وله الأمان على نفسه ونبلغه مأمنه»[1].

وكان الدمستق قد ضرب خيمتين على إحداهما صليب، مما يتضح منه محاولة نشر المسيحية على نطاق واسع لتستعيد مكانتها القديمة في المنطقة، وبذلك يتسنى لهم استعادة مجد الإمبراطورية القديم، وفي نفس الوقت حاصرت القوات البيزنطية في هذه الحملة مدينتي «خلاط» و«بتليس» اللتين استسلم أهاليهما، مما كان له أثره السيىء في نفوس أهالي آرزن ARZAN وسائر المدن الأرمنية المتاخمة لإقليم الجزية، فاستنجدوا بالخليفة العباسي في بغداد[2]، ولكن استغاثتهم ذهبت صرخة في واد دون جدوى، بسبب ما كانت تعانيه الخلافة وقتذاك من مظاهر الضعف والانهيار في سلطتها، فلم يجبهم أحد، وعندئذ صالحهم الدمستق[3] «القائد العام البيزنطي» على أن يقلع منبر الجامع، ويعمل موضعه صليب فأجابوا، وفعلوا ذلك ببدليس و«بتليس» كذلك[4]. وذلك تحقيقاً لهدفهم الذي يرمون إليه من جراء هذه

= سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 57.
أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 63.
صابر دياب: المسلمون، ص 72 ـ 73.

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 296.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 73.

(2) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، جـ 1، المطبعة الوهبية، 1868، ص 388.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 198 ـ 199.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 83.

(3) انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، القسم الأول، ص 195 ـ 196.

(4) ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 1، ص 388.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 84.

الحملات، وهو إعادة البلاد الإسلامية إلى الطابع الديني المسيحي، وقفاً للمد الإسلامي الذي يهدد كيان الإمبراطورية البيزنطية.

أما الحمدانيون[1] فقد واجهوا عبء الدفاع عن منطقة الموصل التي كانت تخضع لنفوذهم ـ ضد الزحف البيزنطي ـ فشرع سيف الدولة الحمداني الذي كان يعمل تحت قيادة أخيه الحسن بن عبد الله ناصر الدولة في غزو الأراضي البيزنطية، واسترداد بعض الحصون التي استولى عليها القائد البيزنطي كوركواس، وكانت أولى العمليات التي قام بها سيف الدولة موجهة ضد حصن زياد القريب من ملطية من ناحية وسُميسَاط من ناحية أخرى، فسار سيف الدولة إليه في 326 هـ/ 937 م وحاصره سبعة أيام حتى أوشك على فتحه، فأسرع كوركواس لإنقاذ الحصن على رأس جيشه فانسحب عندئذ سيف الدولة والبيزنطيون في أثره، إلى أن وصل إلى موضع بين حصن زياد وسلام حيث دارت المعركة بين الطرفين، انتصر فيها سيف الدولة انتصاراً حاسماً على كوركواس. بعدها سعت بيزنطة إلى تهدئة منطقة الثغور الشامية كي تستطيع التركيز بقواتها في منطقة الجزيرة[2].

استمراراً للسياسة البيزنطية في الاستيلاء على الثغور في منطقة الجزيرة، أقام البيزنطيون حصناً يسمى هفجيج «hafjij» بالقرب من ثغر قَالِيقَلا[3]، بهدف إعاقة وصول الإمدادات الإسلامية إلى الثغر، تمهيداً للاستيلاء عليه. فلما سمع سيف الدولة بخطة البيزنطيين سار من نصيبين

(1) انظر: ابن خلدون: العبر جـ 4، ص 227.
صابر دياب: المسلمون، ص 26 ـ 44.
فيصل السامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب جـ 1، جامعة بغداد، 1973.
الحمدانيون: ينتمون إلى قبيلة تغلب التي قامت بضواحي الموصل ثم سرعان ما مدوا نفوذهم إلى منطقة ديار بكر وسوريا وإقليم الجزيرة.

(2) أحمد عبد الكريم سليمان: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 66 ـ 67؛ صابر دياب: المسلمون، ص 89 ـ 90.

(3) انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة قاليقلا.
قاليقلا: عرف باسم أرزن الروم وهي قيليقيا وهي كرين وهي ثيود.

لإنقاذ قالقيلا أواخر عام 327 هـ/ 939 م، فأسرع البيزنطيون عندئذ بتدمير الحصن الذي بنوه وانسحبوا منه، إلا أن سيف الدولة كان مصراً على الغزو فأقام في أززن حتى مر الشتاء وانحسر الثلج وأصبحت الطرق سالكة فدخل أرمينية وتحالف مع أمرائها الأرمن، وتسلم منهم حصوناً كانت تشكل خطورة على أمن الثغور الإسلامية. ومن أرمينية دخل سيف الدولة الأراضي البيزنطية وانتصر على كوركواس[1].

وكان لانتصار سيف الدولة ونجاحه في غزو أراضي بيزنطة أثر كبير على البيزنطيين، فنظروا إليه منذ ذلك الحين على أنه العدو الخطير لهم، لأن أحداً غيره من قادة المسلمين لم يصل إلى تلك الأماكن. غير أنه لم يستطع مواصلة غزواته بسبب اشتراك الأمراء الحمدانيين في الصراع على السلطة في بغداد[2].

قد أسهم سيف الدولة بنصيب وافر في ذلك الصراع الذي استمر قرابة ثلاث سنوات، تنقل خلالها سيف الدولة بين بغداد وواسط وتكريت والموصل حتى تمكن من الاستيلاء على حلب سنة 333 هـ/ 944 م وعندئذ بدأ مرحلة جديدة من النضال ضد البيزنطيين[3].

في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية مشغولة بصراعاتها الداخلية، أصبحت الظروف السياسية والعسكرية للإمبراطورية البيزنطية مهيأة

(1) أحمد عبد الكريم سليمان: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 68 ـ 69.

(2) العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ 2، ص 310.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 406 ـ 408.
أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة، ص 69.

(3) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر 11 جزء القاهرة 1325، جـ 3، ص 117.
أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة، ص 69.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 445 ـ 446.
الهمداني: تكملة تاريخ الطبري، دار المعارف، القاهرة 1977، ص 332 ـ 350.
صابر دياب: المسلمون، ص 101.
انظر: فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية 3 أجزاء، 1966.

لاستئناف هجماتها على الجبهة الإسلامية، وعلى ذلك أصبح في إمكان البيزنطيين مهاجمة الجزيرة بعد أن تحولوا عن جبهة أذربيجان وأرمينية[1]، وميافارقين ودارا سنة 322 هـ/ 934 م وأسروا أعداداً كبيرة من السكان، كما حاصر البيزنطيون الرها في نفس العام، ولم ينسحبوا إلا بعد أن حصلوا على المنديل المقدس[2] الذي يُقال بأنه يحمل صورة السيد المسيح، وتم ذلك مقابل إطلاق سراح عدد من أسرى المسلمين، وفي العام التالي هاجم البيزنطيون رأس عين[3]، وبذلك وصلت القوات البيزنطية في تقدمها إلى قلب إقليم الجزيرة، كما ترتب على هذه العمليات العسكرية البيزنطية تحت زعامة الإمبراطور قسطنطين السابع[4] سنة (913 ـ 959 م)، الكثير من الخسائر وهنا نلاحظ أن بعض من المدن الإسلامية في تلك المنطقة كانت قد غدت في وضع شبه مستقل مثل الرها وحران وسروج[5]، وأقامت علاقات سلمية مع البيزنطيين، ولكن هذا الوضع لم يعجب سيف الدولة فأسرع بقوة ليشتبك مع قوات الروم المهاجمة سنة 340 هـ/ 951 م في معركة حالفه فيها

(1) السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، القاهرة 1960، ص 353 ـ 363.

(2) الانطاكي: تاريخ الانطاكي، ص 32، 730.
ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 1، ص 410.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 136.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 120.
تذكر الأساطير عن المنديل المشار إليه أن أبجر ملك أرمينية (4 ق.م ـ 35 م) أرسل إلى السيد المسيح يدعوه للحضور إلى مدينته فأرسله له السيد المسيح رسالة ومنديلاً مسح به وجهه فانطبعت عليه صورته.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 417.
أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة، ص 70.

(4) السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص 370.

(5) راجع ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت 1955.
ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 1، ص 425.
سروج: مدينة قرب كل من حلب وحران وقد دخلها البيزنطيون، وخربوا مبانيها ومساجدها ونهبوا أموالها.

النصر فأخذ يتعقبهم حتى أجلاهم عن سروج ، ثم اتجه إلى مرعش[1] وفي سنة 340 هـ أعاد سيف الدولة بناء ما كان الروم قد هدموه في غزوتهم[2].

على أن الروم عاودوا في سنة 347 هـ/ 958 م مهاجمة آمد وارْزن وميافارقين، وتمكنوا من فتح حصون كثيرة وقتلوا من المسلمين الكثير، وضربوا سميسَاط[3]. وفي شعبان من نفس العام اتجه البيزنطيون إلى بعض نواحي حلب، حيث حدثت هناك معركة كبيرة بينهم وبين المسلمين بقيادة سيف الدولة علي بن عبدا لله بن حمدان، وتمكن البيزنطيون من هزيمة حمدان، وقتلوا معظم رجال جيشه وأسروا أهله وتمكن من الهرب مع عدد ضئيل من رجاله[4].

في مستهل شوال سنة 348 هـ/ 959 م سار الروم إلى طَرسُوس حيث تم لهم فتح حصن الهارونية، كما سارت فرقة إلى ناحية ديار بكر[5] في نفس العام، فلما علم بذلك سيف الدولة سار من حلب إلى هناك فرحل الروم إلى ناحية الشام، وأسر محمد بن ناصر الدولة الحمداني ثم حشد الروم قواتهم بقيادة «ليوفوقاس» فاستولوا على مدينة «الحدث» ودكوا حصونها، وفي نفس العام 348 هـ/ 959 م نجح الروم في السيطرة على مدينة مرعش[6]. وبهذه

(1) CORPUS, Theophanes Continuatus, Bonn, 1828, p. 459.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 136 عن ابن الشحنة: الدرر المنتخب من تاريخ مملكة حلب، بيروت 1909، ص 191 ـ 192.
مرعش: أول الثغور الشامية مما يلي جبل اللكام خربتها الروم سنة 337 هـ فأعاد سيف الدولة بناءها سنة 340 هـ.

(2) صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 136.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 499.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ 3، ص 319.

(4) ابن تغري بردي: نفسه جـ 3، ص 319؛ صابر دياب: المسلمون، ص 144ـ145.

(5) ابن تغري بردي: نفسه جـ 3، ص 322.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 322.

(6) CORPUS, Cedrenus Historiarun Compendium, II, p. 336.
ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، «جزءان» نشرهما محمد سامي الدهان، دمشق 1951، جـ 1، ص 120. =

الانتصارات البرية التي حققها البيزنطيون، انتقل ميدان الصراع ضد المسلمين بعد ذلك إلى الحوض الشرقي للبحر المتوسط في جزيرة كريت «اقريطش»، حيث هاجم الأسطول البيزنطي في عام 349 هـ/ 960 م الجزيرة محاولاً خطفها من المسلمين، في الوقت الذي كانت القوى الإسلامية المعاصرة مثل «الفاطميين في المغرب والأخشيديين في مصر» مشغولين بمشاكلهم الإقليمية الخاصة، فضلاً عن تردي أوضاع الخلافة العباسية آنذاك[1]، لكن سيف الدولة لم يقف صامتاً إزاء هذه التحركات، فسار في نفس العام إلى «خَرْشَنة» عازماً ضرب الروم في عقر دارهم وقلب حدودهم، وليحول بينهم وبين التوغل في البلاد الإسلامية، لا سيما وأن مطامعهم كانت تستهدف احتلال حلب واستعادة بلاد الشام من المسلمين. ومع ذلك فقد نجح البيزنطيون في استرداد الجزيرة من المسلمين. وهي العملية التي قام بها القائد نقفور فوقاس[2] قائد الإمبراطور رومانوس الثاني (959 ـ 963)م[3]. مما أعطى

= صابر دياب: المسلمون وجهادهم ضد الروم، ص 147.

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ 3، ص 327.
ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ 1، ص 147.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 147.

(2) للمزيد انظر: ابن الأثير: الكامل في تاريخ جـ 8، ص 517.
أبو الفدا: المختصر، جـ 3، ص 139 ـ 140.
Corpus, Theophanes, p. 459.
عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس، ص 14 ـ 15.
G. Schlumberger: Recits De Byzance, Librairie plan, paris, 1922, p. II.
صابر محمد دياب: المسلمون وجهادهم، ص 148 ـ 149.
كان نقفور فوقاس عميداً لإحدى العائلات الإقطاعية الكبيرة في آسيا الصغرى وكان يمتلك أرض واسعة في «كبدوكيا» على طول الحدود الإسلامية وقد كان أبوه وجده من قبله من القواد المعروفين، ولكن نقفور قد تفوق عليهم في قيادة الجيوش وفي خبرته العسكرية.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزهرة جـ 3، ص 322.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 606 ـ 607.
سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 421. =

الإمبراطور مركزاً استراتيجياً وتجارياً قوياً في شرق البحر المتوسط، وبعد ذلك أتبع نقفور انتصاره بمهاجمة الحمدانيين والاستيلاء على بعض المعاقل المهمة في قيليقية[1]، حيث سار على رأس جيوشه في عام 961 م، ونزلوا بقيليقية وهاجموا مدينة «عين زربة» وفرضوا عليها الحصار، فأرسل سيف الدولة حملة تحت قيادة والي طَرسُوس «رشيق النسيمي» لإنقاذها من الحصار البيزنطي، ولكن نقفور قضى على هذه المحاولة، وأنزل الهزيمة بهذا الجيش، ويُقال إن عدد القتلى من المسلمين بلغ خمسة آلاف[2]، وتمكن الروم في هذه الحملة من الاستيلاء على حلب باستثناء قلعتها، وكذلك استولوا على حصون المدينة، كما تمكنوا من أسر أبي فراس الحمداني[3].

ثم أراد البيزنطيون أن يتوجوا أعمالهم الحربية في الشرق الإسلامي بالاستيلاء على أنطاكية ودمشق، بعد أن سقطت حلب في أيديهم، فهاجم نقفور فوقاس المدينة، ولكنها رفضت الاستسلام له، ولما كان نقفور يعرف ما كانت عليه أنطاكية من حصانة، وأن الاستيلاء عليها عنوة يستلزم مجهودات كبيرة، فإنه لم يمكث أمامها سوى يومين،، وأرجأ الاستيلاء عليها إلى ما بعد،

= حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، 1958، ص 9.
سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص 16.

(1) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ 1، ص 89.
أسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص 124.

(2) ابن الأثير الكامل جـ 8، ص 538 ـ 542.
أبو الفدا: المختصر جـ 3، ص 132.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 9.
أسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص 124.

(3) ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 1، ص 289.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 531، 536 ـ 540.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ 3، ص 332 ـ 333.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 10.

فغادرها في 19 أكتوبر سنة 968 م/ 357 هـ بعد أن هدد أهلها بالعودة للاستيلاء عليها[1]، وقام نقفور بعد ذلك بجولة سريعة في البلاد الشامية، فاستولى على الكثير من المراكز الإسلامية، وخرب أراضي البلاد التي استعصت عليه، فقد نزل «معرة مصريين» وأسر أهلها ثم فتح معرة النعمان[2]، وكذلك كفر طاب وشيزر وحماة وحمص[3]، وبعد ذلك نزل على طرابلس وخرب أراضيها، ثم حاصر مدينة «عرقة» وقلعتها الحصينة واستولى عليها، واتجه بعد ذلك إلى بلدان الساحل حيث حصل على الكثير من الأسرى والغنائم، وفتح حصن أنطرطوس ومرقية وحصن جبلة، واضطر أهل اللاذقية إلى أن يعقدوا معه صلحاً، وقد توجه نقفور بعد فراغه من اللاذقية إلى أنطاكية، ولكن الأمراض تفشت بين رجال جيشه فاضطر إلى مغادرة الشام والعودة إلى القسطنطينية في أوائل سنة 358 هـ/ 969 م، ولكنه قبل أن يترك المدن التي استولى عليها في الشام، عمل على تنظيم الشؤون الإدارية في تلك البلاد، كذلك ترك قوى عسكرية للاستيلاء على ما تبقى من المراكز الإسلامية الكبرى في الشام[4]، مما مكن الروم في عام 360 هـ/ 970 م من الاستيلاء على أنطاكية وأخذ أكثر من عشرين ألف أسير

(1) Rene Grousset: L'empire Du Levant, paya, Paris, 1949, p. 8.
أبو الفدا: المختصر جـ 3، ص 139.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 589.
أسمت غنيم: تاريخ الأمبراطورية البيزنطية، ص 35 ـ 36.

(2) ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 596 ـ 597.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 2 ـ 8.

(3) أبو الفدا: المختصر جـ 3، ص 139.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 603 ـ 604؛ عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس.
أسمت غنيم: تاريخ الأمبراطورية، ص 37.

(4) أبو الفدا: المختصر جـ 3، ص 138.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 596 ـ 597.
أسمت غنيم: تاريخ الأمبراطورية، ص 37.

من أهلها المسلمين[1]، وقد أحدث استيلاء البيزنطيين على أنطاكية دوياً هائلاً في العالم المسيحي الشرقي والغربي، نظراً لما لهذه المدينة من مكانة في تاريخ المسيحية، وباستيلاء البيزنطيين على أنطاكية، يكونوا قد بلغوا قمة حركتهم التوسعية على حساب المسلمين في القرن العاشر[2]. وبذلك يكون النفوذ البيزنطي قد بلغ مداه في عهد هذا الإمبراطور.

وبعد نقفور فوقاس عاود خليفته وهو حناتز مسكيس 358 ـ 362 هـ/ 969 ـ 976 م ـ وكان المسلمون قد تمكنوا من استرداد أنطاكية ـ فقام الإمبراطور حنا بمهاجمة المدينة عام 974 م/ 363 هـ لاستردادها بعد أن تمكن من إخضاعها[3]، ثم اتجه بعد ذلك لتأمين الحدود مع أرمينية ودعم النفوذ البيزنطي هناك، فعقد حلفاً مع حكامها، ومر في طريقه بآمد وميّافارقين ونصيبين[4]، ثم اتجه بعد ذلك جنوباً فأغار على الجزيرة (ما بين النهرين)، وعبر الفرات من ناحية ملطية، ثم اتجه نحو الجنوب الغربي قاصداً آمد على نهر دجلة، وكان المسلمون قد استعادوها بعد أن هزموا مليح الأرمني بقواته، فاستردها وافتدى أهلها أنفسهم بما دفعوه من أموال وفيرة، كما هاجم مدينة ميّافارقين فنهبها وأشعل فيها النيران، وغنمت فيها القوات البيزنطية الكثير من

(1) أبو الفدا: المختصر جـ 3، ص 139.
العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص 25.
ابن الأثير: الكامل جـ 8، ص 603.
عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس، ص 33.

(2) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 60.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 91.
F. Valentin: ABrégé De L'Histoire, p. 12.
M. Michaud: Histoire Des Croisades, tome, I, p.30.

(3) أبو الفدا: المختصر جـ 3، ص 131؛ عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس.
R.Grousset: L, EPopée Des croisades, librairie plon, Paris, 1949, p.2.
F. Valentin: Abrégé De L'Histoire, p.12.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 87، ص 572 ـ 573.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 215.

الغنائم. وبعد ذلك اتجهت جيوش الروم إلى نصيبين فاستباحوها بعد أن هجرها أهلها[1] وأقام بها الإمبراطور، إلى أن تقرر الحال بينه وبين ابن تغلب ابن حمدان على هدنة ومال يتعهد أبو تغلب الحمداني بدفعه إليه سنوياً، على أن يدفع جانباً منه عاجلاً[2]، وفي حملته الواسعة على الشام استولى حناتز مسكيس على بعلبك كما سلمت له دمشق صلحاً، وأقرت بدفع الجزية، وخضعت له طبرية، والناصرة، وقيصرية صلحاً[3]، وقد استطاع حنا أن يتوغل في بلاد المسلمين حتى وصل إلى أبواب بيت المقدس[4].

جـ ـ الطابع الديني لحملات نقفور فوقاس وحناتز مسكيس ضد المسلمين في أواخر القرن العاشر

كان من الطبيعي أن تؤثر ميول نقفور فوقاس (963 ـ 969 م) وكفاءته العسكرية ونزعته الدينية في سياسته الخارجية بعد اعتلائه عرش بيزنطة، وهو ما حفزه على أن يهتم بالعمل على نصرة المسيحية ومحاربة المسلمين، وتخليص الأراضي المقدسة من حكمهم، فضلاً عن استرجاع ما يمكن استعادته من البلاد التي كانت خاضعة من قبل لحكم البيزنطيين. وقد ركز هذا

(1) صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 219.
ابن الأثير: جـ 8، ص 572 ـ 573، 596 ـ 597.
Corpus Scriptorum Byzantionae, Bonn, 1828, leodiaconus Historide, p. 161-163.

(2) السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص 480.

(3) صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 220.
حسنين ربيع: دراسات، ص 157 ـ 158
Grousset: Hist. de l'Armènie, p. 498.

(4) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص 337؛ عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبي.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 143.
للاطلاع على أسماء الأماكن والمدن باللغة العربية وما يقابلها بالأجنبي العودة إلى الملحق رقم (5).

الإمبراطور اهتمامه وجهوده أثناء فترة حكمه التي استمرت حوالى ست سنُوات لمحاربة المسلمين في الشرق، ولم يحد عن ذلك إلا عندما اضطرته ظروف قاهرة.

والواقع أنه توجد شواهد كثيرة تدل على أن هذا الإمبراطور كان يعمل بروح دينية من أجل مجد المسيحية، والقضاء على الإسلام، وأنه كان يستهدف استعادة مدينة القدس من حكم المسلمين وإدخالها في حظيرة المسيحية، الأمر الذي يعد هدفاً أساسياً من أهداف الحروب الصليبية[1]. وقد صرح الإمبراطور نقفور لمعاصريه قائلاً إن جنوده يحاربون ويموتون من أجل خدمة الرب، مما يبرهن على أنه كان ينظر إلى حروبه في الشرق بوصفها حروباً مقدسة. ويؤكد ذلك رواية أوردها ابن العديم تسجل مقولة نقفور عندما دخل طَرسُوس وصعد منبرها إذ قال لمن حوله «أين أنا فقالوا على منبر طرسوس، فقال لا ولكن على منبر بيت المقدس»؛ مما يشير إلى أن نقفور اعتبر استيلاءه على طَرسُوس في باكورة حكمه مقدمة لعملياته الحربية التي تستهدف الاستيلاء على بيت المقدس. حتى اعتبر بعض الباحثين هذه المحاولات ارهاصات للحروب الصليبية[2].

ومما يشير أيضاً إلى الطابع الديني لحملات هذين الإمبراطورين ضد المسلمين، أن كلاهما عندما كان يفتح مدينة حرص على أن يحتفل بذلك

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ 3، ص 334.
عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس، ص 17.
حسنين ربيع: دراسات، ص 157 ـ 158.
M. Michaud: Histoire Des Croisades, p. 31, Tome I.
Corpus, Leo dionus, p. 31-40.

(2) أبو الفدا (ابن كثير): البداية والنهاية، ط 5، جـ 11، مكتبة المعارف. بيروت 1983، ص 243 ـ 244.
ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تصوير شمسي بمكتبة بلدية الإسكندرية في 3 أجزاء جـ 1، ص 38.
عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور، ص 17؛ حسنين ربيع: دراسات. ص157.

احتفالاً مهيباً يحضره رجال الكنيسة الشرقية البيزنطية، الذين يرددون الهتافات التي تعكس البعد الديني لهذه الحروب[1].

كذلك يبدو الطابع الديني لسياسة نقفور فوقاس من خلال الرسالة التي أرسلها للخليفة المطيع العباسي (334 ـ 363 هـ/ 946 ـ 974 م)، والتي كانت على شكل قصيدة نظمها على لسانه أحد كتابه باللغة العربية وكان ذلك حوالى سنة 964 م. وتظهر القصيدة بوضوح أن غرض نقفور كان نصرة المسيحية وتحقيق مجدها، كما تصف برامج سياسته الخارجية بشكل عام، فبعد أن افتخر بذكر أسماء البلاد التي استولى عليها لصالح الروم، أظهر نيته وعزمه على فتح بيت المقدس وسائر بلاد الشام، والبلاد التي كانت من قبل ضمن دائرة الإمبراطورية، هذا بالإضافة إلى تهديده بالاستيلاء على شبه الجزيرة العربية وإقامة عرش للمسيح بمكة المكرمة. كذلك هدد بالاستيلاء على العراق وعاصمته بغداد مقر الخلافة الإسلامية، وبالتقدم لأخذ البلاد الواقعة شرقي العراق. كذلك تعرض في هذه الرسالة بالإهانة للخليفة العباسي وللنبي محمد نفسه[2].

ومن أبيات هذه القصيدة التي تظهر بوضوح الطابع الديني لسياسة نقفور ضد المسلمين قوله:

سأفتح أرض الله شرقاً ومغرباً وانشر ديناً للصليب بصارمي
فعيسى علا فوق السموات عرشه يفوز الذي والاه يومه
التخاصم وصاحبكم بالترب أودى به الترف فصار رفاتاً بين تلك الرمائم

وعن عزمه على استرجاع بيت المقدس تذكر القصيدة:

أعود إلى القدس التي شرفت بنا وبعز مكين ثابت الأصل قائم
أعلو سريري للسجود معظماً وتبقى ملوك الأرض مثل الخوادم

(1) Gustave Schlumberger: Récits De Byzance et Des Croisades, p. 17.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ط الخامسة جـ 11، ص 244 ـ 252.
عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس، ص 18.

وعن تهديده للخليفة العباسي يذكر:

ألا سمروا يا أهل بغداد وملكم ... فكلكم مستضعف غير دائم
رضيتم بحكم الرياي ورفضه ... نصرتم عبيداً للعبيد الذيالم
ويا قاطني الرملات ويلكم ارجعوا ... إلى أرض صنعا راغبيين للهاتم
وعودوا إلى أرض الحجاز أذلة ... وخلوا بلاد الروم أهل المكارم
سألقى جيوشاً نحو بغداد سائراً ... إلى باب طاق حيث دار القماقم
وأحرق أعلاها وأهدم سورها ... وأسبي ذراريها على رغم راغم

وعن تهديده بغزو مكة وامتلاكها تقول أبيات القصيدة:

وأخرج منها نحو مكة مسرعاً ... أجر جيوشاً كالليالي السواجم
فاملكها دهراً عزيزاً مسلماً ... أقيم بها للحق كرسي عالم[1]

كذلك وعد نقفور من يموت من جنوده في الحرب ضد المسلمين بامتيازات روحية خاصة، وهذه الامتيازات كانت من الخصائص المميزة للحروب الصليبية الغربية. وقد بنى كنيسة تذكارية خاصة تمجيداً لمن سقط منهم في حومة الوغى في محاربة المسلمين، بل لقد طلب من الكنيسة الاعتراف بأن هؤلاء القتلى يصبحون في مرتبة الشهداء[2]، غير أن الكنيسة عارضت إصدار المرسوم الديني الذي يبغيه نقفور والذي يحمل هذا المعنى[3].

وعلى الرغم من هذه الشواهد التي تضفي الطابع الديني على حملات نقفور إلا أنه لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس، ولا مكة، وهو ما يشير إلى أن البيزنطيين غير قادرين على استرداده من المسلمين، ومن ناحية أخرى فإنه يمكن القول بأن بيزنطة في عهد نقفور لم تفكر جدياً في حرب شاملة

(1) ابن كثير: البداية والنهاية جـ 11، ص 244 ـ 252.
عمر كمال توفيق: الإمبراطور، ص 19.
(2) عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور، ص 20 ـ 21.
(3) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 12.
M. Michaud: Histoire Des Croisades, Tome I, p. 31.

تستهدف الاستيلاء على بيت المقدس، وبالتالي فإنه لا يمكن أن نسمي هذه الحروب التي قامت بها الإمبراطورية البيزنطية إذ ذاك حروباً صليبية، رغم أن نقفور أسماها بالحروب النصرانية[1]، وبعبارة أخرى فإنه يمكن القول بأن هذه الحملات كان دافعها السياسي لا يقل عن دافعها الديني. ومما يدل على ذلك ما لقيته الطوائف المسيحية في الشرق ـ غير التابعة للكنيسة البيزنطية ـ من اضطهاد أنزلته الحكومة البيزنطية مما حمل الكثيرين من أهل هذه الطوائف على الاندماج في ظل الدولة الإسلامية التي اتصف تشريعها بالتسامح والاعتدال[2].

أما عن حروب خلفه حناتز مسكيس ضد المسلمين، فكانت هي الأخرى ذات مسحة دينية كما يتضح من خلال الرسالة التي بعث بها أحد الأسرى البيزنطيين إلى الإمبراطور حنا، والتي ورد فيها المآسي التي لحقت بهم أثناء أسرهم، ويقال إن الإمبراطور تألم ووعد بالثأر للمسيحيين والإمبراطورية البيزنطية[3]، وكانت حملاته المكثفة التي عرضنا لها سلفاً ذات صبغة دينية واضحة إذْ استهدفت إرساء دعائم المسيحية، والتمكين لها في الأراضي التي أخذها المسلمون، كذلك تشير الرسالة التي بعث بها هذا الإمبراطور إلى أشود الثالث ملك أرمينيا إلى هذه الناحية، إذ ورد فيها أن نيته تتجه إلى استخلاص القبر المقدس من سيطرة المسلمين والصلاة فيه. ويذكر هذا الإمبراطور أيضاً في رسالته أن جماعة من أهل بيت المقدس قدموا عليه ملتمسين منه الرحمة لقاء دفعهم الجزية له. ومع ذلك فإننا نرى أن الإمبراطور

(1) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 12.
(2) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 16؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 31.
انظر: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957.
(3) M. Michaud: Histoire Des Croisades, p. 34.
عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبي ـ الإمبراطور يوحنا زيمسكيس وسياسته الشرقية، الإسكندرية 1966.

لم يتقدم من زحفه إلى بيت المقدس، رغم أنه أعلن صراحة أنه يريد استخلاص تلك المدينة من أيدي المسلمين، مما يشير إلى أن الحرب الصليبية بمفهومها الذي يعني الاستيلاء على القبر المقدس. لم تؤلف ركناً جدياً في سياسته[1]، شأنه شأن سلفه نقفور فوقاس؛ وحسب حنا الشمشقيق[2] (969-976 م) أنه وصل في زحفه إلى أبواب بيت المقدس[3].

ـ تحالف الأرمن مع البيزنطيين في حروبهم ضد المسلمين

كان للهزائم التي تعرض لها الإمبراطور باسيل الأول، وقائد جيشه أندرياس في ملطية 268 هـ/ 881 م وطرسوس 270 هـ/ 883 م أثرها المباشر في توجيه نظر الإمبراطور إلى أرمينية[4] عسى أن يجد فيها حليفاً له في حرب الحدود مع المسلمين، مما جعل الإمبراطور يعترف بآرشوت البقراتي (البجراتي) ملكاً على أرمينية سنة 273 هـ/ 886 م، لكن لم يلبث أن توفي في نفس العام فخلفه ابنه ليو السادس 273 ـ 300 هـ/ 886-912 م الذي لم يكن في مقدرة أبيه الحربية[5].

(1) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 14.

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ1، ص423 عن ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص169. شمشقيق أو شوموشقيق وهو لفظ أرمني بمعنى قصر القامة ولقب أيضاً دمستق Domsticus وهو لفظ لاتيني لقب به قائد جيش الروم.

(3) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، 337؛ جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 143.

(4) انظر: السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة 1960، ص 8. صابر محمد دياب: أرمينية من الفتح إلى مستهل القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية، القاهرة 1978.
أقام الأرمن إمارات عديدة أهمها إمارة روبين في قليقية الوسطى وإمارة أوشين في قليقية الغربية (قليقة)، وإمارة فبلارت التي امتدت من جبال طوروس إلى ما وراء نهر الفرات، وللأرمن في تاريخ الشرق الأدنى أهمية كبرى، إذ انتشروا في شمال الشام، وانتقل عدد كبير منهم إلى مصر زمن الفاطميين.

(5) Recueil des Histoiriens des Croisades, Historiens Occidentaux Pub. Academie des inscription et belles lettres, Tome 4 p. 110.

وقد أدت سياسة ليو السلمية إلى استفادة يازمان أمير طرسوس من ذلك الموقف فشدد هجماته على الأراضي البيزنطية، وغزا الطوائف في عام 273 هـ/ 886 م، وفي عام 274 هـ/ 887 م، ثم قام بهجوم بحري على الأسطول البيزنطي سنة 275 هـ/ 888 م أسر فيه أربعة مراكب حربية، وعندئذ أدرك ليو مثلما أدرك أبوه من قبل تفوق قادة الثغور الإسلامية ـ ولا سيما يازمان أمير طرسوس ـ على الجيوش البيزنطية العاملة في تلك المناطق وكان أن اتجه ليو شطر أرمينية ليجد فيها نصيراً وحليفاً له ضد المسلمين، وبناء على ذلك جدد اعترافه بآرشوت البقراتي ملكاً على أرمينية في سنة 274 هـ/ 887 م[1]. يضاف إلى ذلك أنه أدرك أن استمالة الأرمن إلى جانب القوات البيزنطية سيؤدي إلى تأمين جانب بيزنطة من خطر المسلمين الموجودين بأرمينية، وإلا فإنها تصبح مصدر خطر دائم على الإمبراطورية، ومنذ ذلك الحين، والأرمن يشاركون في صفوف الجيش البيزنطي ضد المسلمين، وخير دليل على ذلك تحالفهم مع القائد البيزنطي نقفور فوقاس في حملته على كريت عام 960 م سواء في الشق البحري أو البري[2]. كذلك قام الأرمن بمعاونة الإمبراطور حناتز مسكيس الذي تودد إليهم، وخلع الألقاب على زعمائهم ومنحهم الرتب، وبذلك استمالهم إلى جانبه، وكانت منهم أشجع الفرق التي تألف منها جيش الإمبراطور في حربه الصليبية ضد المسلمين[3]، ونجح حناتز مسكيس بمساعدة هؤلاء الأرمن[4] في إخضاع

= أحمدعبد الكريم: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 33، 35.

(1) أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 33 ـ 34.
Grousset: Histoire de L'Armenie, paris, 1947, p. 372-373.

(2) أسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص 113.

(3) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت 1976، ص 54.
صابر دياب: المسلمون وجهادهم، ص 217.

(4) إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص 110.
أحمد عبد الكريم: العلاقات بين الدولة البيزنطية، ص 77.

الكثير من الثغور الإسلامية بالشام، حتى أصبح على أبواب بيت المقدس، التي أعلن صراحة أنه يريد استردادها باعتبارها مدينة المسيح، غير أنه لم يتمكن من ذلك كما سبق وأن أسلفنا.

د ـ ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث وتزعمهم الجهاد الديني ضد الصليبيين

هكذا حقق البيزنطيون انتصارات ملموسة على المسلمين في عهد الأسرة المقدونية عامة، والإمبراطورين نقفور فوقاس، وحناتز مسكيس خاصة. غير أن الموقف ما لبث أن تبدل في المشرق عندما ظهر على مسرح الأحداث الأتراك السلاجقة[1]. الذين بثوا في الدولة الإسلامية روحاً جديدة وغذوها بدماء فتية؛ ذلك أن سلاطين السلاجقة لم يكتفوا بفرض حمايتهم على الخلافة العباسية المتداعية، وإنما نصبوا أنفسهم حماة للمسلمين في الشرق الأدنى ضد هجمات الروم على بلادهم[2]، والتي أتاحها ما ألمّ بالعالم الإسلامي من مشاكل داخلية وخارجية تمثلت في الصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية، ثم ضعف العباسيين، وسيطرة الفرس البويهيين عليهم، مما ساعد على صحوة بيزنطة، وتوسعها على حساب الدولة الإسلامية في الشام[3].

(1) هم من قبائل الغز التركية، ينتسبون إلى زعيمهم سلجوق بن تقاق أو دقاق. انظر المراجع التالية:
بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت 1968، ص 271
حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي 1958، ص 30.
Godfrey (J): The unholy Crusade, Oxford, 1980, p. 3.
محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 17.
عبد الغني إبراهيم رمضان: السلاجقة والصليبيون، (رسالة، 1957)، ص 1.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 180 ـ 191.
(2) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 75، 79.
(3) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى، جـ 1، ص 420 ـ 430.
= M.Michaud: Histoire Des Croisades, p. 30.

ومما ساعد على ظهور هؤلاء السلاجقة على مسرح الأحداث أنه بانتهاء الأسرة المقدونية في التاريخ البيزنطي سنة 1056[1] م، بدت عوامل التمزق والشقاق ونشوب حرب أهلية امسكت بخناق الإمبراطورية، وفي خلال السنوات الواقعة بين سنتي 1057، 1081 م حلّت بالإمبراطورية كوارث عديدة، فاقت في شناعتها وشدّتها جميع الكوارث التي وقعت في أية فترة من فترات التاريخ البيزنطي باستثناء عهد الإمبراطور هرقل (610 ـ 641 م)، إذ مزقت الحروب الأهلية أوصال الإمبراطورية، وقدر لها أن تفقد نصف قوتها، وأن تظل مبتورة ممزقة الأوصال، وكان من الممكن أن تجتاز الإمبراطورية البيزنطية تلك الفترة بسلام، كما اجتازت الفترات السابقة التي جاءت بين سقوط أسرة وقيام أخرى في الحكم، لولا أن ظهر خطر الأتراك السلاجقة الذين هدّدوا الإمبراطورية تهديداً خطيراً مرة أخرى[2].

وقد رأينا كيف نجح البيزنطيون في انتزاع أجزاء عديدة من جسم الدولة الإسلامية في أعالي العراق والشام، حتى حققت بيزنطة في القرن العاشر

= سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 54 ـ 55.
(1) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 165 ـ 166.
جوزيف نسيم: في تاريخ الحركة الصليبية، ص 48.
عمر كمال توفيق: الإمبراطور نقفور فوقاس، ص 48.
أرشيبالد (ر.لويس): القوى البحرية، ص 369؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 407 ـ 435.
(2) ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 1، ص 144 ـ 145.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، 165 ـ 166، 180 ـ 191.
Rene Grousset: L'Empire Du Levant, p.9, 159.
محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 17.
عبد الغني إبراهيم حمد: السلاجقة والصليبيون من موقعة ملاذكرد حتى سقوط الرها، (رسالة القاهرة 1957).
صدر الدين أبو الحسن الحسيني: زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ط 1، تحقيق، محمد نور الدين، دار إقرأ، بيروت 1985.

الميلادي تفوقاً واضحاً على المسلمين الذين التزموا موقف الدفاع بقدر المستطاع[1].

ولكن الوضع تبدل في القرن الحادي عشر الميلادي نتيجة لظهور السلاجقة على المسرح، فبدأوا عصراً جديداً في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم[2].

وكان هؤلاء السلاجقة قد دخلوا في الإسلام في وقت متأخر ـ في القرن الرابع الهجري، العاشر للميلاد ـ وأخذوا يمكنون لأنفسهم في العالم الإسلامي، بعد أن اعتنقوا المذهب السني، فقام زعيمهم طغرلبك (431 هـ/ 1038 م) باحتلال جرجان، وطبرستان، ثم خوارزم، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوي (1040 م) واحتل نيسابور عاصمة خراسان[3]، وتدرجت القوة السلجوقية في مدارج البأس حتى تمكن طغرلبك من دخول بغداد سنة 447 هـ/ 1055 م[4] ومنذ ذلك الوقت حلّ السلاجقة محل البويهيين الشيعة في السيطرة على الخلافة، في حين استمر الخليفة العباسي

(1) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 430.

(2) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 430.
حسنين ربيع: دراسات، ص 180 ـ 191.

(3) Rene Grousset: L'Epopee Des Croisades, p. 7.
Rene Grousset: L'Epire Du Levant, p. 159.
بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 271.
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 1، ص 431.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 31.

(4) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 31.
زبيدة عطا: بلاد الترك، ص 42.
Grousset: L'Empire Du Levant, p. 159.
Boase (T.SR.): Kingdoms and strong-holds of the crusades thomes and Hudson, London, 1971, p. 15.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 41.
فشر هـ. أ. ل: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 175.
Cam. Med. Hist. vol, 5, p. 260.

مجرد رمز ديني يعيش في حماية سلاطين السلاجقة، الذين مكنتهم قوتهم الحربية من فرض سيطرتهم على العالم الإسلامي في آسيا[1]. ومن أجل تحقيق هذا الغرض دخلوا في حروب عديدة، فحاربوا الغز أبناء جلدتهم وأخضعوهم لسلطان الإسلام، وأخضعوا الثورات في فارس وحاربوا الفاطميين المخالفين للعباسيين في المذهب الديني، واستردوا منهم بيت المقدس، والرملة، ودمشق[2]. وبهذا تمكنوا من تكوين إمبراطورية شاسعة الأرجاء امتدت من خراسان عبر فارس حتى القوقاز، وشملت أيضاً غرباً وجنوباً بلاد ما بين النهرين، وسوريا وفلسطين حتى الحجاز، وحرروا الخلفاء السنيين من سيطرة البويهيين الشيعة، فأصبح هؤلاء الخلفاء مجرد أدوات في يد السلاجقة[3]، وعلى ذلك تبين بأن طغرلبك (1037ـ1063 م) هو مؤسس دولة الأتراك السلاجقة وصاحب الفضل في التمكين لها داخل العالم الإسلامي المتداعي، كما عمل على تأمين حدود هذه الدولة لتستطيع أن تصمد في وجه هجمات الدولة البيزنطية التي عانى منها المسلمون في القرن العاشر. بدأت الدولة السلجوقية تحتك بالإمبراطورية البيزنطية سنة 441 هـ/ 1049 م بالإغارة على أطرافها الأرمنية، حيث خرج إبراهيم إينال أخو طغرلبك من أمه ليغير على الأرض

(1) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى، ص 432.
زبيدة عطا: بلاد الترك، ص 42.
بركلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 272.
هلستر س. ورن: أوربا في العصور الوسطى، ص 174.

(2) زبيدة عطا: بلاد الترك، ص 42.
نقولا زيادة: دراسات إسلامية، لبنان 1960، ص 104.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 19.
هانس إبراهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 17.
W.B. Stevenson: The Crusaders in the East, Cam. Univ. press, 1968, p. 19.

(3) هانس إبراهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 17.

البيزنطية، فهاجم طرابيزون، وإقليم ايبريا[1]، وأرضروم[2] في أعالي الفرات، والتي أحرقها وسواها بالأرض، وقتل معظم سكانها[3].

وفي عام 446 هـ/ 1054 م قاد السلطان طغرلبك بنفسه حملة داخل الأراضي البيزنطية، فغزا أرمينية ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة «فان» وأرضروم وفرض الحصار على «مانزكرت» ولكن الجيوش البيزنطية لم تمكنه من الاستيلاء عليها فانسحب إلى الرّي. وفي عام 1057 م/ 449 هـ استولى طغرلبك على ملطية وأحرقها[4]. وفي عهد السلطان ألب أرسلان 1063 ـ 1072 م 555 ـ 562 هـ استمر توسع السلاجقة في الأراضي البيزنطية فوقعت في أيديهم مدينتي «آني» «Ani» وهي المدينة الرئيسية في أرمينية البيزنطية[5] ومدينة «كارس»[6] «Kars»[7] اللتين

(1) ايبريا: الابخاز: حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 182.
(2) أرضروم (ثيودوسيوبوليس): أرض الروم: سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1225، صابر دياب: المسلمون ص 21.
(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 10، ص 2.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة ص 182.
Baldwin (M.W.): The first Hundred Years, vol. 1, p. 44.
R. Grousset:L'Empire, p. 160.
زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، ص 49.
محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 20 ـ 21.
(4) ابن الأثير الكامل في التاريخ جـ 10، ص 28.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 31.
الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 20.
(5) Grousset: Hist. de L'Armenie, p. 596-597.
James A. Brundage: The Crusades, D.C: HE. and Co-Boston, 1964, p. 28.
عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص 141.
R. Grousset: L'Empire, p. 161.
(6) قرس Kars؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1227.
(7) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 31. =

كانتا خط الدفاع الأول عن السيادة البيزنطية في هذه المنطقة[1]. وفيما بين عامي 1054، 1055 م استولى طغرلبك على العديد من المدن الأرمينية الأخرى. وقد تتابعت الهجمات التركية في عهد الإمبراطور البيزنطي إسحاق كومنين (1057 ـ 1059 م)، ففي سنة 1057 م تمكن السلاجقة من مهاجمة بعض المناطق التابعة لبيزنطة، وفي سنة 1058 م هاجموا مدينة طرون «Toron» فتصدى لهم الأرمن لحمايتها[2].

وقد حاول الأرمن مهادنة السلاجقة مؤقتاً، وفي نفس الوقت تنازلوا عن بعض الأراضي الأرمنية المتاخمة للأراضي الإسلامية، مقابل تعويضهم عنها بأراض أخرى. وبسبب عدم قبول رجال الدين الأرمن الخضوع لكنيسة القسطنطينية[3] بسبب الاختلاف بينهما، لم يثبت الأرمن في الدفاع عن أرضهم[4]، مما أدى إلى ضعف جبهة المقاومة ضد الجيش السلجوقي الذي استمر في التوغل في الأراضي الأرمنية، وأمام هذا الضغط السلجوقي على بلاد الأرمن، ترك كثيرون أرضهم وبلادهم ونزحوا إلى إقليم الرها وجنوب شرق آسيا الصغرى، مستغلين ضعف الإمبراطورية البيزنطية[5].

ولم تغب سوريا أو بلاد الشام عن أنظار السلاجقة الأتراك، فوقعت تحت أيديهم أنطاكية والرها[6]، وبعد ذلك تجاوز الأتراك أرمينية وسوريا البيزنطية، واتجهوا إلى آسيا الصغرى نفسها، وأوغلوا فيها. وفي عام

R. Grousset: L'Empire, p. 161. =
(1) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 33.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 8، ص 58.
R. Grousset: L'Empire, p. 160.
(3) كان الأرمن متزعمين الدفاع عن الأرثوذكسية الإغريقية، ومن ثم حدث هذا الاختلاف بينهما. انظر:
R. Grousset: L'Empire, p. 366.
(4) W.B. Stevenson: the Crusade, in the East, p, 21.
(5) R. Grousset: L'Empire, p. 384.
(6) R. Grousset: L'Empire, p. 163.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 185 ـ 186.

1067 م اعتلى عرش الإمبراطورية بالقسطنطينية «رومانس الرابع ديو جينس» (1067 ـ 1071 م)، الذي عمل على إعادة تنظيم الجيش، الذي صار معظمه يتألف من المرتزقة النورمان و الخرز والبلغار والروم والصقالبة والترك، وبهذا الجيش الذي قدرته المراجع بحوالى مائتي ألف مقاتل والذي يفتقر إلى روح التجانس، ويتألف من قوميات مختلفة. خرج رومانوس في عام 463 هـ/ 1071 م ليسترد أرمينية ويضع حداً لتقدم السلاجقة[1] وعسكر بجيشه عند ملاذكرد (مانزكرت) شمال بحيرة «فان» بالقرب من مدينة «خلاط» منتظراً اللقاء بخصمه السلطان ألب أرسلان (1063 ـ 1072 م)، وعندما أحس السلطان أنه أمام خطر داهم، بادر بالهجوم على مقدمة الجيش البيزنطي في سرعة خاطفة وشجاعة نادرة، واستطاع أن يحرز نصراً، ولكن لم يلبث أن وجد أنه من الصعب على جيشه أن يواجه جيشاً ضخماً كجيش البيزنطيين، ورأى أن الحكمة تقتضي أن يسعى في طلب الصلح إلى أن يستعد الاستعداد المناسب[2]. ولكن الإمبراطور، رفض الصلح في غطرسة وكبرياء، ورد على ألب أرسلان بأن الصلح بينهما لن يتم إلا في الري عاصمة السلاجقة، وعندئذ لم يجد السلطان بداً من خوض المعركة[3]، فاستثار السلطان جنوده

(1) العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ص 38.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 10، ص 65.
الأصفهـــانـــي: دولـــة آل سلجـــوق، ص 38 ـ 42.
حسنين ربيع: دراسات، ص 185 ـ 186.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 10، ص 65 ـ 66.
ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر جـ 1، ص 374.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 187.
محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 23.

(3) الأصفهاني: دولة آل سلجوق، ص 39.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 10، ص 65.
محمـود الحـويـري: بنـاء الجبهـة الإسـلاميـة، ص 23.
حسنين ربيع: دراسات ص 187.

وخاطبهم قائلاً «أنا أحتسب نفسي عند الله، وهي إما السعادة بالشهادة وإما النصر، ولينصر الله من ينصره» وتقدم إليه إمامه وفقيهه أبو جعفر محمد البخاري قائلاً «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان»[1].

والتقى الفريقان في 20 ذي القعدة 463 هـ 19 أغسطس 1071 م في معركة عنيفة اشتدت فيها حماسة السلاجقة، واستماتوا في القتال، ولم يستطع الجيش البيزنطي الصمود أمام الفرسان السلاجقة الذين انقضوا على البيزنطيين بحركاتهم السريعة المفاجئة، وقتلوا منهم جموعاً كثيرة وانتهت المعركة باندحار الروم وانتصار السلاجقة، ووقع الإمبراطور نفسه أسيراً في أيدي ألب أرسلان[2]. الذي وافق بعد ذلك على إطلاق سراحه مقابل فدية

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 10، ص 65 حيث استثار السطان جنوده قائلاً «إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي»
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 188.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 10، ص 66 ـ 67.
تفاصيل معركة ملاذكرد: تاريخ ابن يعلى القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت 1908، ص 98 ـ 115.
العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ 3، ص 311.
فائز نجيب: البيزنطيون والأتـراك السلاجقة في معركة ملاذكرد، دار الثقافة، الاسكندرية 1984.
حسنين ربيع: دراسات ص 188 ـ 189.
Cam. Med. Hist, vol. 4, p. 397, 1979.
محمـد محمـد الشيـخ: الجهـاد المقـدس ضـد الصليبيـين حتـى سقـوط الـرهـا 1097 ـ 1144، ص 13 ـ 14.
J. Godfrey: The Unholy Crusade, p. 3.
K.M. Setton: AHist. of The Crusades, vol. 1. UNIV. of Wisconsin, 1969, p. 119
H.E. Mayer: The Crusades, Tran. John Gillinghan, Oxford UNIV, 1972, p. 6
T.S.R. Boase: Kingdoms and strongholds of The Crusades, p. 9.
T.A.Archer: The Crusades, 5 the Fisher Unuin, London, 1919, p. 19.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 34.

كبيـرة، مع عقد اتفاقية نصت على أن يدفع جزية سنوية للسلاجقة، فضلاً عن إطلاق سراح من وقع في أسره من الترك، وتعهده بإمداد الترك بالمعونة العسكرية متى طلبوها[1]، ولم تتمكن بيزنطة بعد هذه الهزيمة من حشد جيش آخر لرد الخطر السلجوقي، بل لقد فقدت في هذه المعركة لقبها وصفتها كحامية لأوربا المسيحية ضد الإسلام في الشرق[2]. وقد ترتب على هذه المعركة الحاسمة نتائج هامة لصالح الجبهة الإسلامية، إذ تمكنت القوات السلجوقية من احتلال الأقاليم البيزنطية في آسيا[3] دون مقاومة تذكر وأوغلت الجيوش السلجوقية في آسيا الصغرى حتى نيقية [4]«Nicuee» وذلك نتيجة للتمزق الذي شهدته الإمبراطورية البيزنطية بعد أسر رومانوس ديوجين، إذ كثر المطالبون بالعرش الإمبراطوري[5]، ومن ثم فإن الدفاع عن الإمبراطورية صار أمراً ثانوياً.

في عهد السلطان السلجوقي «ملكشاه» 1073 ـ 1092 م جرى طرد البيزنطيين بصفة نهائية من مناطق نفوذهم شرقي آسيا الصغرى، وأمست الكنيسة الأرثوذكسية في الأناضول في ضيق، كما تعثرت حركة الحجاج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين بطريق البر[6]، ولم يسع الإمبراطورية البيزنطية سوى الاستنجاد بالبابوية والغرب الأوربي. وكان أن استجابت البابوية للنداء بحجة المحافظة على المسيحية في الشرق. ولم تلبث هذه الفكرة أن أخذت تلتمس لنفسها المبررات، فانتشر الكلام في غرب أوربا بأن الحجاج

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 10، ص 67.
عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص 142.
(2) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 91.
عمر توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، مصر 1958، ص 24.
R. Grousset: L'Empire, p. 164
Marcel Jullian: Histoire De la France, Tome 2, p. 55.
(3) هانس إبراهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 17.
(4) John Godfrey: The Unholy Crusade, p. 3.
(5) T.A.Archer: The Crusades, p. 19.
(6) H.E.Mayer: The Crusades, p. 7.

المسيحيين لم يعودوا آمنين على أنفسهم، ولم تعد هناك قوة تحميهم[1]، وهي أقوال مغلوطة أريد بها الدعاية للحركة الصليبية بإثارة أحقاد الأوربيين ضد الإسلام[2].

بعبارة أخرى فإن الحمـلة الصليبية الأولى التي حدثت سنة 1095 م إنما جاءت كرد فعل للكارثة التي حلّت بالدولة البيزنطية في «مانزكرت»[3]. وباعتلاء الإمبراطور الكسيوس كومنين العرش البيزنطي عام 1081 م كان السلاجقة هم السادة الحقيقيون في آسيا الصغرى من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غرباً، وقد حـاول الكسيوس كومنين 1081 م طـرد السلاجقة من بعض المواقع التي احتلوها على الضفة الشرقية لبحر مرمرة، ولا سيما بعد أن استطاع سليمان بن قتلمش تكوين سلطنة سلاجقة الروم في نيقية (1075 م) وهي التي كانت مصدر خطر دائم على الإمبراطورية البيزنطية والأوربيين.

ويبدو أن الإمبراطور الكسيوس كومنين حقق نجاحاً ملحوظاً في هذه الحملات، إذ اضطر السلاجقة إلى التخلي عن بعض مواقعهم على طول ساحل بحر مرمرة[4]، وساعد على ذلك أن دولة السلاجقة أخذت تسير في طريق التداعي والانقسام بعد وفاة ملكشاه 1092 م أي قبل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام بسنوات قليلة. وقد ترتب على وفاة ملكشاه نشوب نزاع بين أبنائه ثم بينهم وبين أعمامهم حول اقتسام السلطنة، مما أدى إلى تفتيت الدولة إلى دويلات صغيرة وانتشار الفوضى وفسـاد الإدارة، مما هيأ لغرب

(1) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 34.
J. Longnan: L'Empire Latin De Constantinople, payot, paris, 1949, p. 156.
(2) هانس إبراهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 18.
(3) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص 45.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 165.
(4) عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنيسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص 78؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 197.

أوربا التقدم نحو الشرق في أولى حملاته الصليبية[1].

(1) محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 25.

Recueil Des Histoiriens Des Croisades, Tome, 1. Imprimerie National, paris, 1967.

سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 435.

سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 106 ـ 117.

عبد القادر اليوسف: علاقات، ص 26 ـ 27.

Grousset: Hist. des Croisades, l,p, 42-43.

سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 78.

يلاحظ أنه بعد وفاة ملكشاه انقسمت الدولة السلجوقية إلى عدة دويلات وهي سلاجقة الأناضول وسلاجقة إيران وسلاجقة سورية ولقد انقسم هؤلاء إلى إمارات أصغر في حلب والقدس ودمشق وإنطاكية. وانتشرت الفرق المذهبية وانقسم الناس واشتعلت الحروب الأهلية وساد الانقسام في الوقت الذي بدأت فيه طلاع الحملة الصليبية الأولى.

الفصل الرابع

البابوية تتزعم مسيرة الحروب الصليبية

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

[الأعراف: 34]

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾

[التوبة: 14]

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾

[سبأ: 54]

بعد أن تمكن السلاجقة من هزيمة البيزنطيين في مانزكرد سنة 1071 م، وما ترتب على ذلك من توغل السلاجقة في آسيا الصغرى تقريباً، صار من الواضح أن بيزنطة أضعف من أن تواجه التيار السلجوقي[1] بوجه خاص والإسلامي بوجه عام، والواقع أن المسيحيين الأرثوذكس سواء أكانوا في الأرض المقدسة أو في الإمبراطورية البيزنطية، كانوا يمثلون جزءاً كبيراً من العالم المسيحي، وبالتالي فإن مأساة الكنيسة الشرقية كانت مأساة للمسيحية جمعاء[2]؛ وكان لا بد من تضافر الجهود لدرء الخطر السلجوقي على المسيحية، لا سيما وأن الأرض المقدسة كانت في أيدي المسلمين. وكان أن ظهرت دعوة لتوحيد صفوف المسيحيين في الشرق والغرب وشن حرب شاملة ضد المسلمين، وتزعمت البابوية تلك الحركة مدفوعة بالأمل في تحقيق حلمها القديم في تحقيق زعامتها على الكنيسة العالمية[3]. وهكذا برزت فكرة الحروب الصليبية، بزعامة البابوية لكسر شوكة المسلمين في الشرق، ولتحقيق مآربها الخاصة، وفي هذا الفصل أتناول دور البابوية في مسيرة الحروب الصليبية، متخذاً المحاور التالية موضوعاً للبحث:

المحور الأول:

استنجاد الدولة البيزنطية بالغرب الأوربي بعد الكوارث التي حلّت بهم على أيدي السلاجقة، ومبالغة الأباطرة البيزنطيين في تصوير وضع المسيحيين والحجاج الغربيين تحت حكم المسلمين.

(1) Peter W. Edbury: William of Tyre, Cam. UNIV. press, Cambridge, 1988, p. 132.
(2) Peter W. Edbury: William of Tyre, p. 132.
(3) H.E.Mayer: The Crusades, p. 267.

المحور الثاني:

دعوة البابا أوربان الثاني للحروب الصليبية ضد المسلمين في مجمع كلير مونت سنة 1095 م ـ مع دراسة تحليلية لخطاب البابا وما يحويه من اتجاهات لاستثارة المشاعر الدينية ضد المسلمين في غرب أوربا ـ وتعيين مندوب بابوي (أدهمار) مرافقاً للحملة الصليبية الأولى.

المحور الثالث:

حرص البابوية على الإشراف على الحركة الصليبية ـ بطارقة بيت المقدس الكاثوليك ومحاولة إقامة حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة ومكانة رجال الكنيسة في ظل الحكم الصليبي في الإمارات الصليبية ببلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر.

أ ـ استنجاد أباطرة الدولة البيزنطية بالغرب الأوربي بعد الكوارث التي حلت بهم على أيدي السلاجقة

الواقع أن الكسيوس (1081 ـ 1118 م) لم يكن أول من فكر في الاستعانة بالغرب الأوربي لدفع الخطر السلجوقي، إذ سبقه إلى ذلك الإمبراطور ميخائيل السابع (1071 ـ 1079 م) عندما التمس من البابا جريجوري السابع 1074 م «أن يعاونه في دفع الأخطار التي تهدد المسيحيين على أيدي الغزاة السلاجقة، مقابل وعد بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية»، ورحب البابا بالفكرة فكتب إلى ملوك أروبا وأمرائها، يدعوهم إلى الاشتراك في دفع الخطر السلجوقي عن الدولة البيزنطية[1]، لأنه رأى في هذا

(1) الروندي: راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم الشواربي وآخرون، القاهرة 1960.
الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، لاهور 1933.
عبد الغني إبراهيم رمضان: السلاجقة والصليبيون، ص 19. =

الالتماس الفرصة لإدخال الكنيسة الشرقية تحت رئاسة البابوية، وتأكيد لمبدأه القائل بأن ملوك العالم المسيحي ما هم إلا أتباع مخلصين للبابوية[1]، وقد ذكر في رسالته الموجهة إلى أوربا أن أولئك المعتدين ـ ويقصد السلاجقة ـ قد أهانوا الطبيعة الإنسانية وإنهم على أبواب القسطنطينية، وإذا لم تبادر أوربا والمسيحيون الغربيون بنجدة مدينة قسطنطين فإنها ستقع في أيد تفتك ولا ترحم. كذلك ذكرهم بما تحتويه هذه المدينة من مقدسات مسيحية وقد حرص على تذكيرهم بخيراتها، ووعدهم بتلك الخيرات والنساء الجميلات ليستثير حماسهم، وهناك[2] مجموعة من الوثائق تدل دلالة واضحة على التغير الجذري الذي أحدثه جريجوري في الموقف الكنسي الرسمي تجاه الدولة البيزنطية والكنيسة الشرقية، وأول هذه النصوص خطاب مؤرخ بتاريخ 2 فبراير 1074 م من جريجوري السابع إلى الكونت وليم الأول تورجوني يدعوه للمساعدة وجمع النورمان لقتال «الكفار» الذين يهددون القسطنطينية[3]، أما الوثيقة الثانية فهي بتاريخ أول مارس 1074 م وفيها يخاطب البابا كل من يرغبون في الدفاع عن العقيدة ويحثهم على القدوم لنجدة الإمبراطورية البيزنطية التي يهددها الكفار الذين تقدموا حتى أسوار القسطنطينية[4]. والوثيقة الثالثة عبارة عن خطاب موجه من جريجوري السابع

= سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 125 ـ 126.
M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome 1, p. 96.
J.A- Brundage: The Crusades, D.C.He. and co, Boston, 1964, p. 29.
J.B- Bury: The Cambridge, Medieval, vol. 2, p. 270.
سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب، ص 83.

(1) J.B.Bury: The Cambridge Medieval, vol. 2, p. 270.
(2) M.Michaud: Histoire Des Croisades, tom 1, p. 96.
Vasiliev: Byzantine Empire p. 28.
(3) عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 35.
عمر توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص 24.
قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية ط 1، دار المعارف، القاهرة 1983، ص 26.
(4) J.A. Brundage: The Crusades, p. 29.
قاسم عبده: الخلفية الأيدلوجية، ص 26. =

إلى وليم السادس كونت بواتييه، يشكره على ما قدمه من خدمات للدفاع عن العقيدة[1]، أما الوثيقة الرابعة فهي عبارة عن خطاب بتاريخ 7 ديسمبر 1074 م من البابا جريجوري السابع إلى الإمبراطور هنري الرابع الألماني، يخبره أنه مستعد لإنقاذ البيزنطيين وتخليص الضريح المقدس بجيش قوامه خمسين ألف رجل[2]، ويقترح عليه أن يقوم برعاية شؤون الكنيسة في غيابه، وفي السادس عشر من الشهر ذاته وجه جريجوري خطاباً إلى أتباع القديس بطرس وهي الوثيقة الخامسة يستحثهم على القدوم لنجدة مسيحيي الشرق، والوثيقة السادسة عبارة عن خطاب من البابا إلى الكونتيسة ماتيلدا أميرة تسكانيا في إيطاليا يدعوها لمرافقته في الحملة التي أعدها ضد الكفار، ويرى كثيرون من المؤرخين في خطابات جريجوري الستة برهاناً على أن البابا كان قد أعد مشروعاً لحملة صليبية مستغلاً الأزمة البيزنطية لصالح البابوية، إذ كان يريد أن يتوجه جيش لاتيني إلى القسطنطينية لتوحيد الكنيستين تحت زعامته وبذلك يتم رأب الصدع الذي حدث بالانشقاق بين الكنيستين 1054 م، بمعنى أنه إذا كان البابا جريجوري السابع قد رغب في تنظيم حملة في عام 1074 م بدعوى مساعدة البيزنطيين ضد السلاجقة، فإن هدفه الأول كان توحيد الكنيستين تحت زعامته[3]، لذلك كتب البابا جريجوري خطاباً إلى الإمبراطور البيزنطي يخبره بأنه عازم على القدوم إلى الشرق على رأس جيشه لمحاربة السلاجقة، وأنه سوف يعقد خلال ذلك مجلساً في القسطنطينية لتسوية المشكلات المعلقة وتحقيق الوحدة بين الكنيستين[4]، غير أنه يبدو أن

= محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 28.

(1) قاسم عبده: الخلفية الأيدلوجية، ص 26.

(2) Smith (J-R): The crusades: Ashort History, Yale Univ. Press, London, 1987, p. 2.
قاسم عبده: نفسه، ص 26.

(3) M.W. Baldwin: The First Hundred years, vol. 1, p. 160.
قاسم عبده: نفسه، ص 26.

(4) عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنيسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص 351. قاسم عبده: الأيدلوجية، ص26؛ سعيد عاشور: أوربا =

الصراع بين البابوية والإمبراطور الألماني هنري الرابع حالت دون تنفيذ ذلك المخطط[1]، مما جعل بيزنطة تقف وحيدة أمام الخطر السلجوقي[2].

وهكذا استمرت الأوضاع حتى عزل ميخائيل السابع عن عرش الإمبراطورية البيزنطية سنة 1079 م وحل محله الإمبراطور نقفور الثالث 1079 ـ 1081 م الذي أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت بإعلان الكسيوس كومنين إمبراطوراً لبيزنطة (1081 ـ 1118 م)[3].

اعتلى عرش بيزنطة قبل وفاة السلطان السلجوقي 1092 م ملكشاه الإمبراطور الكسيوس كومنين سنة 474 هـ/ 1081 م؛ فأخذ يعمل جاهداً ضد السلاجقة، بعد أن أوغلوا في آسيا الصغرى وتمكنوا من احتلال قونية ونيقية وأزمير، حتى اقتربوا من القسطنطينية عاصمة الدولة، وكان أن طلب الإمبراطور البيزنطي النجدة في سنة 1094 م[4]، من البابا أوربان الثاني درءاً للخطر الذي هدد العاصمة البيزنطية وبالتالي أوربان[5]؛ هذا إلى أن السلاجقة تمكنوا في عام 1090 م من الاستيلاء على شمال الشام حتى طرابلس[6]، وكانوا يتطلعون لغزو مصر الفاطمية، مما جعل منهم قوة خطيرة في الشرق

= جـ 1، ص 438 ـ 439.

(1) زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، ص 69.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 146 ـ 147.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 434.

(2) J. Godfrey: The Unholy Crusade, p. 3.

(3) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 126 ـ 127.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 435.

(4) J.Godfrey: The Unholy Crusade, p. 3.
آنا كومنينا: كتاب الألكسياد عن سهيل زكار: الحروب الصليبية، جـ 1، ط 1، دار حسان، دمشق 1984، ص 110 ـ 187؛ جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 312 ـ 328.
حسنين ربيع: دراسات، ص 198 ـ 205.

(5) J.Godfrey: the Unholy Crusade, p. 3.

(6) F.Valentin: Abrège De L'Histoire, p. 18.

الأوسط، ويبدو أن البابوية أحست بذلك الخطر الذي زاد من وقعه استيلاء السلاجقة على الأماكن المقدسة، في حين شكلت هذه الأوضاع عقبة في وجه الحجاج المسيحيين إلى الشام بسبب اضطراب الأمور في تلك المنطقة[1].

وكان الإمبراطور الكسيوس رجلاً قديراً، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهت الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت؛ وعندما واجه الكسيوس مشكلة السلاجقة وجد أنه لا قبل له بهم، فاتجه من جديد إلى البابوية[2] يطلب منها الإغاثة لأن الأتراك أغاروا على بلاده[3]، فأرسلت البابوية بدورها عدة رسائل إلى حكام وأمراء الغرب مخبرة

(1) زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، ص 63.
حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 205.
سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 438 ـ 439.
C.W.Hollister: Medieval Europe, 3Rd Edition, John wiley, London, 1974, p. 162, 163.

(2) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 435.
زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، ص 68.
P.W.Edbury: William of Tyre, p. 132.
W.B. Stevenson: The Crusaders in The East, p. 21.
T.S.R. Boase: Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, p. 12.
حسنين ربيع: دراسات، ص 202 ـ 207.
كان الخطر الذي يهدد الإمبراطورية البيزنطية من الشرق السلاجقة ومن الشمال البشناق وفي سنة 1090 ـ 1091 م تحالف البشناق مع حاكم أزمير التركي وهاجموا القسطنطينية براً وبحراً وباستعمال الدبلوماسية البيزنطية استطاع بمساعدة الكومان والروس إلحاق الهزيمة بالشناق في 29 أبريل 1091 عند جبل ليفونيون. وبالتالي لا قيمة للمساعدات من الغرب لولا أن للغرب أهدافاً بعيدة أهمها الدافع الديني.

(3) أورد جوزيف نسيم: نص الخطاب الذي أرسله الكسيوس إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة في سنة 1088 م يستحثه على إرسال النجدة ويعدد فيها ما أصاب الإمبراطورية من جراء هجمات السلاجقة. انظر: نص الخطاب، ص 307 ـ 308.
كذلك عن استغاثات الكسيوس: المراجع التالية:
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 307؛ عادل زيتون: العلاقات =

إياهم عن الأماكن التي امتلكها السلاجقة والتي كانت ضمن أقاليم آسيا الصغرى، وبالتالي الخطر الداهم الذي تتعرض له المدينة وخوفها من سقوطها في قبضة هؤلاء السلاجقة البرابرة، وتستحلفهم بأن يأتوا إليها لأجل حمايتها، مقررة لهم بأن خزائن هذه المدينة الكثيرة ستكون أجرة شجاعتهم[1]. وهنا يبدو أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق بالصورة التي تم عليها الأمر فعلاً من ابتكار هذا الإمبراطور، ونفذها البابا أوربان الثاني؛ ففي ضوء ما سمعه هذا البابا عن اضطهاد الأتراك السلاجقة للمسيحيين والحجاج بدأ أوربان يفكر في مشروع يحشد فيه مسيحيي أوربا[2] لطرد المسلمين من آسيا، وتخليص الأراضي المقدسة.

وفي مارس عام 1095 م رفع البابا أوربان الإمبراطور ألكسيوس بالمساعدة إلى المجلس الذي عقد في إيطاليا وعرف بمجلس بياكنزا Piacenza[3] نسبة إلى هذه المدينة التي عقد بها، والذي كان يحضره وفد من القسطنطينية في محاولة لتجنيد عدد لصالح الجيش البيزنطي[4]، بعد أن وصف وفد إمبراطور بيزنطة المخاطر التي تحيط بالقسطنطينية وكذلك إذلال الكنيسة الشرقية. وقد ناصر أوربان قضيتهم بحرارة لدرجة أن البعض تعهد

= السياسية، ص 84؛ مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، أورشليم 1865 جـ 1، ص 6، فشر (هـ.أ.ل): تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 176 ـ 177؛ سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 435 ـ 440.

(1) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ص 6.

(2) J.A. Brundage: the Crusades, p. 85.

(3) كانت تسمى قديماً «بلاصانس» انظر مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ص، 7.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 128.

(4) Godfrey (J): The Unholy Crusade, p. 3.
History: vol. 55, NO. 184, June 1970, p.178.
عمر توفيق: مملكة بيت المقدس، ص 29.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 156 ـ 157.

بأن يذهب في الحال لإنقاذ مدينة قسطنطين[1]، وهو ما يشير إلى نجاح مبعوثي الإمبراطور في إقناع البابا بأن السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون المسيحية جمعاء، وأن قوتهم أخذت في الضعف والانحلال، بحيث تكفي ضربة واحدة قوية للإجهاز عليهم. وعلى ذلك عمل البابا أوربان جاهداً على معاونة الإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين، بحيث يتحقق له وقف مدهم، وكذلك توجيه جهود الأمراء والفرسان وجهة صالحة تخفف من الحروب والمنازعات المحلية الدائرة بينهم في غرب أوربا[2]، ازداد إيمان بقية رجال الكنيسة الغربية بتلك الفكرة عندما سمح للمندوبين البيزنطيين بالكلام في المجمع للتدليل على وجهة نظرهم[3]، والتي أوضحت موافقتهم الصريحة على تلبية دعوة الإمبراطور البيزنطي لإنقاذ الإمبراطورية من الخطر السلجوقي الداهم، باعتبارهم درعاً بشرياً يحمي الإمبراطورية. وتدل موافقة هؤلاء على الدور الذي لعبته البابوية في قيام الحروب الصليبية[4]، فهي التي دعت إليها وتبنتها ووجهت مسارها بدعوى استرداد الأماكن المقدسة من المسلمين في الشرق، وبعبارة أخرى لم تكن الحروب الصليبية من عمل أي فرد من أهالي الغرب الأوربي، أو أي حكومة من حكوماته بل كانت في حقيقتها عملاً بابوياً؛ إذ أن البابوية قد بلغت في القرن

(1) Cam. Med. Hist. , vol. 5, p. 272.
السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة، 1960، ص 9.
محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 35.

(2) G.W. Hollister: Medieval Europe, p. 163.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 128 ـ 129.

(3) زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، ص 69.
محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 29.

(4) J.Longnon: L'Empire Latin De Constantinople, p.13.
J.W. thompson: Economic and Social History of Middle Ages, vol. 1, New York, 1959, p. 12.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 356.

الحادي عشر مكانة خطيرة من القوة واتساع النفوذ[1]، وهي الوحيدة التي مارست سلطتها المطلقة على جميع أنحاء الغرب الأوربي، فقد شجعت الفرسان والنبلاء في الغرب الأوربي على التخلي عن منازعاتهم، والتوجه لقتال المسلمين في الشرق الأدنى؛ وأعلنت أن من حق الفرسان والنبلاء الاستيلاء على الأراضي الواقعة تحت أيدي المسلمين، ووعدت كل من يشترك في الحروب الصليبية بالغفران التام لذنوبه وخطاياه وحماية ممتلكاته لحين عودته إلى وطنه[2]؛ واستجاب لدعوة البابا نحو مائة وخمسين ألف رجل أكثرهم من الفرنج والنورمنديين، وبعضهم من صعاليك الناس[3]، وهو ما شكل حشداً مسيحياً ضخماً ضد العالم الإسلامي[4]، بهدف تحقيق أحلامهم في الشرق، بالاستيلاء على الأراضي المقدسة، وتأسيس مملكة لهم بها، ثم العمل على تعزيز هذه المملكة وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل، حتى تكون نقطة ارتكاز لهم يتوسعون منها على حساب البلدان المجاورة[5]، وعلى ذلك يمكن القول بأن الحركة الصليبية كانت منذ بدايتها ركناً أساسياً من أركان سياسة البابوات الخارجية في العصور الوسطى، فقد اتخذت البابوية من الدين وسيلة لتحقيق مآربها[6]، ثم إن البابا أوربان الثاني كان أصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبي الجديد، إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحروب الصليبية ورعايتها، فضلاً عما

(1) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 84
H.E. Mayer: The Crusades, p. 266.

(2) محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 29 ـ 30.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 71 ـ 72.
C.W. Hollister: Medieval Europe, p. 163.

(3) فيليب حتي: تاريخ العرب المطول، جـ 3، ص 752.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 72.

(4) J.A. Brundage: The Crusades, p, 65.

(5) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 43. ويمكن القول أن ذلك ينطبق تمام الانطباق مع جهود الغرب الأوربي وأمريكيا وفي قيام ودعم ما يسمى بإسرائيل على حساب فلسطين العربية.

(6) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 72.

عرف به من بعد النظر ومقدرة في اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم، ثم إن البابا أوربان الثاني لم يقل مرونة عن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين، فلم يكد ذلك البابا يلي منصب البابوية حتى فتح باب المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي لتسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين، كما رفع قرار الحرمان الصادر ضد ذلك الإمبراطور[1]، الأمر الذي أدى إلى نوع من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية، وإلى منح الكنائس الكاثوليكية في البلاد الأرثوذكسية قسطاً من الحرية في تصريف شؤونها، مما هيأ مناخاً ملائماً لتلبية نداء الإمبراطورية بمساعدة الغرب الأوربي لها، بخروج هذه الجيوش المسيحية التي عبأها البابا أوربان ضد الشرق الإسلامي[2]. غير أن الملاحظ أن وجهة نظر البابا أوربان اختلفت عما أرادته الإمبراطورية البيزنطية، فالإمبراطور الكسيوس كومنين أراد حين استنجد بالبابوية أن يسعفه الغرب بقوة تمكنه من استرداد آسيا الصغرى من قبضة المسلمين، أي أنه أراد جنوداً مرتزقة تخدم أغراضه هو، دون أغراض البابوية، أما البابا أوربان، فلم يكن يهتم بأمر آسيا الصغرى قدر اهتمامه بالأراضي المقدسة، وتخليصها من سيطرة المسلمين، وهكذا بدأ عدم الانسجام والتوافق في الأغراض بين الحروب الصليبية التي دعت إليها البابوية، والحروب التي أرادتها الدولة البيزنطية، إذ أن الأولى أرادت أن ترسل جيوشاً نظامية يستهدفون استرداد الأراضي المقدسة من المسلمين[3]، هذا في حين أرادت الإمبراطورية إمدادها فقط بالجنود، وتوجه الإمبراطورية هؤلاء الجنود وفقاً لرغبتها هي دون أن يكون للبابوية شأن في توجيه سياستها، والواقع أن البابا قد أراد أن يحقق سيطرته وهيمنته على بيزنطة وعلى الشرق المسيحي بأسره من خلال

(1) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات، ص 84.
هانس إبرهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 19.
(2) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات، ص 84.
(3) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 206 ـ 209.
سهيل زكار: الحروب الصليبية، ص 110 ـ 187.
حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى، ، ص 5.

دعوته لخروج الحروب الصليبية، كما أراد أيضاً أن يخفف من حدة المنازعات بين الأمراء والنبلاء، وتوجيههم إلى الاشتراك في تلك الحروب المقدسة، وبالتالي ضمان أمن الجبهة الداخلية، كما أراد بعض المنخرطين في هذه الحروب تحقيق بعض آمالهم بالتخفيف من ديونهم وغفران ذنوبهم[1]، ومهما يكن الأمر فإن استجابة البابا أوربان الثاني للإمبراطور الكسيوس بإيفاد حملة صليبية للشرق قد كان باعثه أمور كثيرة[2] نعرض لها في النقطة التالية.

ـ مبالغة الأباطرة البيزنطيين في تصوير سوء أوضاع المسيحيين والحجاج الغربيين[3] تحت حكم المسلمين:

بالغ أباطرة بيزنطة في تصوير وضع المسيحيين في الشرق، وكذلك الحجاج الوافدين إلى الأراضي المقدسة، وذلك شحناً للغرب الأوربي ضد السلاجقة بعد أن سقطت في أيديهم المدن التركية بإقليم آسيا الصغرى، وأصبح وضع القسطنطينية أكثر حرجاً، لذلك فإن مبالغاتهم في تصوير أوضاع هؤلاء الرعايا والوافدين على الأراضي المقدسة، ساهم كثيراً في بلورة فكرة الحروب الصليبية، غير أن هناك أسباباً لهذه المبالغات التصويرية نعرض لها في الآتي لتوضيح ما ساعد أوربا على تلبية دعوة بيزنطة بخروج هذه الحملات الصليبية. وكذلك نحاول أن نرد الحق إلى أهله فيما ذكره بعض المؤرخين عن ذلك، ومن ذلك كثرة شكايات حجاج بيت المقدس من سوء معاملة الفاطميين وما كان يلقاه مسيحيو هذه المنطقة على أيديهم من مآسي بلغت ذروتها زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (996 ـ 1021 م)، الذي أحرق

(1) J.W. thompson: Economic and Social History, p. 392
J.A. Brundage: The Crusades, p. 29.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 118.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 157 ـ 158.
(2) حسن حبشي: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، دار الفكر العربي، 1958، ص 7.
M.W. Baldwin: The First Hundred, vol. 1, p. 16.
(3) الاطلاع على ملحق رقم (3).

كنيسة القيامة وهدمها سنة 1009[1] وأمر بأن تنقل الآثار منها، وأن تدمر المعالم بما فيها الضريح المقدس، غير أنه قد تم نقل ما يمكن حمله من آثاث الكنيسة وكنوزها إلى أماكن آمنة قبل وصول رجال الخليفة، إلا أنه تم تخريب الضريح والمزارات المقدسة بقدر المستطاع، وتركت الأجزاء الداخلية مشوهة تماماً[2] وإذا كانت هذه المقولة ضد المسلمين لصالح المسيحيين وبيان ما وقع عليهم من غبن في عصر الحاكم، فإنه يجب علينا أن نوضح أوضاع هؤلاء المسيحيين تحت مظلة الحكم الإسلامي. فالحج إلى الأراضي المقدسة، لم يتوقف طوال العصور الإسلامية، وذلك منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ووصول المسلمين إلى بيت المقدس.

ولما كان الإسلام قد أوصى بأهل الذمة خيراً وترك لهم الحرية الدينية ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[3] فإن المسيحيين تحت الحكم الإسلامي، سواء كانوا حجاجاً أو غير حجاج، تمتعوا بحرية كاملة في أداء شعائرهم ولا ينتقص من هذه الحقيقة تصرف مؤقت من أحد الحكام مثل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، الذي عرف بشذوذه، لأن مثل هذا التصرف كان يعتبر ظاهرة عابرة، تعود الأمور بعدها إلى ما كانت عليه من صفاء وتسامح[4]، وهكذا حتى كان القرن الثامن للميلاد ـ الثاني للهجرة، وفيه كثر الحجاج كثرة ملحوظة، وتعددت أجناس القادمين من الغرب، وتبودلت بشأنه الرسائل بين بعض كبار الحجاج

(1) أبو الفلاح «عبد الحي»: شذرات الذهب في أخبار من ذهب جـ 3، ص 150.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ 4، ص 178.
حسن حبشي: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص 41.
فيليب حتي: تاريخ العرب المطول جـ 3، ص 736.

(2) P.W.Edbury: William of Tyre, p. 131.
J.B. Bury: The Cambridge, vol. 5, p. 254.

(3) قرآن كريم: آل عمران: 20.

(4) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 19؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 30 ـ 31.

وسادتهم وأصدقائهم في مواطنهم الأصلية، غير أن الإجماع يكاد ينعقد على أن القرن العاشر هو القرن الذي بلغ الإقبال فيه على الحج غايته، فهو الفترة التي شهدت أولاً تقلص النفوذ الإسلامي في السيطرة على كثير من نواحي البحر المتوسط، وضاعت من أيديهم كذلك السيطرة على بعض الموانىء في جنوب فرنسا وإيطاليا، وفقدوا جزيرة كريت، وكان هذا عاملاً نفسياً مهماً أوحى لكثير من عامة هذا القرن بأن عصر السيادة الإسلامية قد زال، فاتجهت النفوس أكثر من قبل إلى القبر المقدس لأداء الحج تعبيراً عن الشكر[1]؛ فشهدت فلسطين في هذا القرن حجاجاً لم يقدر لها أن تشهد مثلهم قط من قبل، لأن الاعتقاد ساد يوم ذاك بأن نهاية العالم قد دنت، وأن المسيح سيظهر للمؤمنين به على رأس الألف من السنين التي غبرت[2].

ولم تقف رغبة هؤلاء الحجاج عند حد الزيارة فحسب بل أراد بعضهم البقاء بالأرض المقدسة حتى يوافيهم الأجل، واستولت على الناس نزعة تصوف عميقة، حتى ليقال إن أحد الحجاج قد استلقى على الصليب هاتفاً «أيها السيد المسيح يا من تفضلت بالنزول من عرش جلالك إلى الأرض لخلاص الجنس البشري ويا من ارتفعت إلى السماء على شكل آدمي، أتوسل إليك بعظمتك القوية أن تقبض روحي في نفس المكان الذي شهد صعودك»[3]. ولم[4] يقتصر الحج في هذه الفترة بالذات على جماعات الفقراء الذين عرفوا بفقراء المسيح بل تعداهم إلى أصحاب السلطة والسطوة وذوي الأسماء الضخمة في التاريخ، ولم يقتصر على الرجال بل انضم إليهم النساء كذلك.

على أنه ظهر في ذلك القرن أيضاً عامل كان له تأثيره المباشر على ازدياد الإقبال في غرب أوربا على الحج ألا وهو تأثير «دير كلوني» بفرنسا

(1) Jean lugol: Le Panarabisme, Scribe Egyptien S.AE., p. 124.

(2) حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى، ص 20.

(3) حسن حبشي: الحرب الصليبية، ص 20.

(4) حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى، ص 20.

في العقد الأول من هذا القرن؛ وأخذت قوة هذا الدير في التضخم حتى أصبح ذا تدخل في الشؤون السياسية وتحريكها؛ وقد استطاع الوصول إلى هذه المكانة بفضل تنظيماته ورجاله المنتشرين في جميع الأماكن المسيحية وغير المسيحية، وعد الحج إلى الأماكن المقدسة سواء في الشرق أو الغرب من الفرائض التي ينبغي على المسيحيين أداؤها[1].

وليس هناك شك في أن هؤلاء الحجاج المسيحيين قد صادفوا كثيراً من التعب زمن ضعف الحكام المسلمين وتفكك الخلافة ودخول بعض الشعوب الجديدة كالأتراك في الدين، وهي التي حملها تحمسها على أن تسلك في بعض الأحيان سبيل العنف، كما أن بعض المسلمين نقموا على المسيحيين بما كانوا ينعمون به من ثروة وجاه ورفعة منزلة عند بعض الخلفاء والسلاطين والملوك خلال القرن العاشر[2]، وفيما عدا ذلك فإن هؤلاء المسيحيين عاشوا عيشة هادئة يباشرون طقوسهم ويتمتعون بحقوقهم كاملة[3]. وإذا كان هناك إشارات في كتب التاريخ لقيام بعض الحكام الذين عرفوا بشذوذهم مثل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي باضطهاد أهل الذمة، فإننا يجب أن نذكر دائماً أن هذه الحالات فردية ومؤقتة، وتعد خروجاً على مبادىء الدين الحنيف الذي سارت عليه الدولة العربية الإسلامية منذ قيامها، والذي حرص دائماً أبداً على رعاية أهل الكتاب والعطف عليهم، بل والاستعانة بهم وفتح الطريق أمامهم للوصول إلى أكبر مناصب الدولة وأخطرها، فإذا جاز حاكم عرف بشذوذه في أفعاله فخرج عن هذا الأسلوب الذي هو أسلوب الإسلام فإن الأمور كانت لا تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه بعد قليل فيحظى أهل الكتاب بما تعودوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والعرب المسلمين.

وأخيراً فقد شهد شاهد من أهلها، عندما كتب بطريرق بيت المقدس

(1) أرشيبالد ر. لويس: القوى البحرية والتجارية، ص 379.
(2) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 21..
(3) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 26.
سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 16.

في القرن التاسع رسالة خاصة سرية إلى زميله بطريرق القسطنطينية، وجاء في الرسالة بالنص القطعي «أن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو أي تعنت»[1]. ويعلق أحد الكتاب الغربيين المحدثين على ذلك بقوله «إن الحق يتطلب منا أن نعترف بأن المسيحيين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية أسعد حالاً بكثير مما كانت عليه بعض الطوائف المسيحية التي عاشت في كنف الدولة البيزنطية ذاتها[2]، غير أننا يمكن تفسير قيام الحاكم بهدم كنيسة القيامة عام 1009 م بأنه جاء كرد فعل للسياسة البيزنطية التوسعية في عهدي الإمبراطورين «نقفور فوقاس» و«يوحناتز مسكيس» ثم عاد الحاكم نفسه مرة أخرى وأخذ يتقرب من المسيحية على أثر اغتيال بعض دعاته الذين بشروا بألوهيته في جهات القدس من قبل المسلمين[3]. واستمرت هذه العلاقات أكثر وداً في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وذلك على أثر اتفاق الإمبراطور قسطنطين التاسع (1042 ـ 1055 م) مع الجهات الفاطمية. والحقيقة أن علاقة الدولة البيزنطية بالخلافة الفاطمية في ذلك الوقت كانت علاقة وثيقة ووطيدة، ومن الأدلة على ذلك أنه لما حدثت الشدة المستنصرية بمصر، أرسل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله 1035 ـ 1094 م طالباً من الإمبراطور قسطنطين التاسع تزويد مصر بالقمح لمواجهة القحط الذي أصاب بلاده[4]. وكل هذه العلاقة، ويُقال إن المسلمين يضطهدوا المسيحيين استناداً على بعض أفعال من حكام عُرف عنهم الشذوذ في أفعالهم، أما أحوال الرعاية والعناية بأهل الذمة فلا تذكر بجانب محاولة تهويل هذه الأمور،

(1) فايد حماد: جهاد المسلمين، ص 79 عن
Thompson: Economic and Social Aist, vol. 1, p. 385.
(2) سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 17.
(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ 4، ص 178 ـ 179.
أبو الفلاح (عبد الحي): شذرات الذهب جـ 3، ص 150، 158، 192 ـ 194.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 28 ـ 29.
M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome 1, p. 34.
(4) حسنين ربيع: الدولة البيزنطية، ص 182 ـ 184.

وذلك ليتحقق لهم أهدافهم في شحن أنصارهم ضد المسلمين، تحقيقاً لأهدافهم في بسط السيطرة والنفوذ، ومقاومة الإسلام الذي يكنون له كل العداء والحقد؛ غير أن ما ذكرناه عن أفعال المسلمين تجاه هؤلاء تدحض افتراءاتهم على المسلمين، والتي حاولوا ترديدها قبيل الحروب الصليبية وهي أن الحجاج والمسيحيين في الأراضي الإسلامية مضطهدون ومعذبون من جراء اعتداءات الأتراك السلاجقة عليهم[1] وعلى حرية القبر المقدس[2].

بجانب هذا ردد بعض المؤرخين والكتاب الغربيين رأياً خاطئاً مؤداه أن المسيحيين في الشرق الأدنى تعرضوا لعدوان فريد من نوعه في أواخر القرن الحادي عشر، وأن الطريق إلى بيت المقدس غدى موصداً في وجه الحجاج المسيحيين[3]، مما استثار الكنيسة والناس جميعاً في غرب أوربا وأدى إلى مولد الحركة الصليبية، وقد أثبتت الأبحاث الحديثة التي قام بها المؤرخون الأوربيون أنفسهم خطأ هذا الرأي، وبُعده عن الحقيقة والتاريخ، فليس حقيقياً أن المسيحيين في البلاد الإسلامية تعرضوا لموجة اضطهاد وحشي في القرن الحادي عشر، وأن كنائسهم خربت وطقوسهم عطلت، وليس حقيقياً أن حجاج الغرب المسيحيين الوافدين إلى بيت المقدس صادفوا عنتاً وسوء معاملة من حكام البلدان الإسلامية التي مروا بها، ذلك أن طبيعة الإسلام وأسلوب الدعوة إليه وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية؛ كل هذه أشياء تتنافى وتلك الافتراءات ويدحض قول القائلين بذلك[4]، وإذا كان هناك نوع من

(1) هلستر. س. ورن: أوربا في العصور الوسطى، ص 174.

(2) J.W. Thompson: Economic and Social, vol 1, p. 370.
نقولا زيادة: دراسات إسلامية، لبنان 1960، ص 101.

(3) يشهد على أن هذه المقولة غير صحيحة المؤرخ الغربي ستيفن رنسيمان إذ يقول إن فلسطين وقتذاك لم تكن مغلقة في وجه الحجاج، غير أن الرحلة إليها عبر آسيا الصغرى كانت مستحيلة نتيجة غارات الأتراك السلاجقة. انظر المؤلف: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 149.

(4) سعيد عاشور: أضواء جديدة، ص 15؛ قرآن كريم: المائدة، 110 ـ 118؛ عبدالله برّي: الإسلام والإنسان، مؤسسة نوفل، بيروت 1987، ص 125 ـ 159.

الاضطهاد في بعض مراحل التاريخ فإن مرجعه في الأغلب الأعم إلى أسباب سياسية أو خصومات شخصية أو أدبية أو عقلية لا يحمل الدين وزرها[1].

وهناك عامل آخر ساهم أباطرة بيزنطة في تضخيمه للغرب الأوربي، بعد أن ضخموا لهم سوء معاملة المسيحيين والحجاج الغربيين في الأراضي الإسلامية، ألا وهو استيلاء السلاجقة على بيت المقدس من الفاطميين (1070 م) في فترة حكم السلطان الب أرسلان[2]، حيث انتزعوها منهم مثلما انتزعوا أنطاكية وآسيا الصغرى من أيدي البيزنطيين، وأخذوا يبالغون في سوء معاملة السلاجقة لهؤلاء الحجاج.

ورداً على هذه المقولة نقول إن البلاد الشامية بما فيها الأراضي المقدسة قد انتابتها أحداث حربية مهولة؛ لأنها أصبحت ميدان كرٍ وفرٍ ما بين القوات المصرية الشيعية وما بين قوات السلاجقة السنية، وكانت بلاد الشام في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تعيش في ظروف حربية استثنائية، مما لا يستبعد معه في هذه الحالة، أن يجد الزوار الأجانب والوافدين على البلاد الشامية والفلسطينية مضايقة وعنتاً، وهو أمر طبيعي في الظروف الحربية[3]، ولكن الأمر لا يصل مهما بلغ إلى مبالغات النصارى زوار بيت المقدس الذين أخذوا يهولون الأمر في أوربا، ويصفون المسلمين بالتعصب واضطهاد المسيحيين وانتهاك حرمة أماكنهم المقدسة[4]،

(1) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني، ص 163 ـ 194.

(2) أرشيبالد (ر. لويس): القوى البحرية، ص 380.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 145 عن المقريزي: السلوك جـ 1، قسم1 ص 33؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ (دمشق)، ص 98 ـ 99.
G.Schlumberger: Récits de Byzance Et Des Croisades, p. 18.

(3) J.A. Brundage: The Crusades, p. 85.

(4) محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص 15.
انظر أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون.
انظر: إدوار بروي: القرون الوسطى، ط 1، ترجمة يوسف أسعد وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت 1965.

حيث ذكر المؤرخون الأوربيون كثيراً عن المعاملات القاسية من الأتراك السلاجقة للمسيحيين، سواء الأهالي أو الحجاج الذين عانوا المرارة على حد قولهم، بل إن الأتراك منعوا بعض المسيحيين من دخول المدينة المقدسة، وضيقوا على التجارة التي تحتاجها المدينة المقدسة، بخاصة في فترة الحج؛ ويعتمد هؤلاء المؤرخون في معلوماتهم على ما ردده الحجاج أنفسهم عند عودتهم إلى بلادهم من مشاهد قسوة ومعاناة من الأتراك في الطريق، وما لاحظوه من هوان لمسيحيي فلسطين بل إن واحداً من هؤلاء المؤلفين يدلل على ما ذهب إليه من سياقه لهذه القصة. إذ يقول بينما الحجيج في طريقهم إلى المدينة المقدسة خرج عليهم بعض البدو وهاجموهم قرب الرملة، مما أدى إلى جرح الكثير من المسيحيين من الحجيج، بل إنهم أخذوا كل متاع الحجاج، وكان ذلك مقابل تركهم مغادرة المكان بسلام[1]. والحقيقة أن كل هذه الأخبار مبالغ فيها أشد المبالغة، إذ لا يعقل أبداً أن يتعرض السلاجقة للحجاج وهم يعلمون ما يدره الحج عليهم من ربح نتيجة لفرضهم ضريبة المرور، وفي إسكان الحجاج وتزويدهم بالمؤن[2]، فضلاً عن أن ذلك يتنافى وتعاليم دينهم الحنيف، أما إذا كانت قد حدثت بعض الأمور التي ورد ذكرها في بعض الكتب الغربية، فإنها من باب شحن الهمم ضد المسلمين ليتخلصوا من هذه الضريبة التي يدفعونها، وتصبح لهم الأماكن المقدسة ملكاً خالصاً، مما يترتب عليه مهاجمة هؤلاء المسلمين كي يتمكنوا من الاستيلاء عليها وفرض سيادتهم عليها، كذلك فنحن لا ننكر إمكانية حدوث بعض النهبات نتيجة الحالة الحربية التي شهدتها هذه الفترة، فكان لا بد أن تقع مثلها نتيجة الفوضى وعدم النظام وهي على أي حال حالات فردية لا يمكن بأي حال استخدامها في إعطاء حكم عام على النظام الإسلامي السلجوقي ضد الحجاج والمسيحيين في الأراضي الإسلامية[3].

مما يوضح حرص السلطات الإسلامية على رعاية الحجاج المسيحيين،

(1) F. Valentin: ABrégé De L'Histoire Des Croisades, p. 25.
(2) J.W. Thompson: Economic and Social History, p. 12.
(3) M.W. Baldwin: The First Hundred, p. 16.

أن والي القدس المسلم نصح الحجاج بأنهم في زياراتهم للأماكن المقدسة، يجب عليهم أن يصحبوا معهم بعض المرافقين المسلمين، حتى لا يتعرضون لمضايقة بعض الطائشين من الصبية والذين تجد السلطات صعوبة في التحكم فيهم[1]، كذلك حرصت السلطات الإسلامية على معاقبة من يتعرض للحجاج المسيحيين بأذى عقاباً شديداً، فعندما هجم أحد المسلمين وضرب اثنين من الرهبان الفرنسيسكان في الأراضي المقدسة عاقبه الوالي عقاباً شديداً[2]. وذكرهم بعدم التعرض لأي مسيحي مرة أخرى، كذلك فإن أي شكوى من المسيحيين بالأراضي المقدسة عن ارتفاع سعر سلعة معينة فإن السلطات الإدارية كانت تحقق فيها وتعاقب من يرفع سعر بضاعته[3]، مما يشهد للسلطات الإسلامية بحرصها على توفير مناخ ملائم للحجاج المسيحيين في الأراضي المقدسة، وليس العكس. ويبدو أن تزايد أعداد الحجاج وحملهم للسلاح كانت وراء وقوع اشتباكات بينهم وبين المسلمين[4] إذ أن المصادر التاريخية المعاصرة تشير إلى أن إحدى مجموعات الحجاج في سنة 1054 م وصلت إلى ثلاثة آلاف حاج وبعدها بعشر سنوات 1064 ـ 1065 م وصلت إلى الأراضي المقدسة مجموعة قوامها سبعة آلاف حاج مسلح، وهذا التسلح قد لجأ إليه الحجاج للاحتكاك بالمسلمين، بعد أن تحول الحج من شعيرة من شعائر التطهر الفردي إلى عملية تكفير جماعية، مما أفقد الحج طابعه الديني وتحول إلى جماعات تحمل السلاح لتطهير الأراضي المقدسة، فأنتج هذا النوع من الاحتكاك بينهم و بين المسلمين الذي يبدو طبيعياً بسبب هذه

(1) K.M. Setton: Ahistory of the Crusades, vol. 4, p.65.
(2) K.M. Setton: Ibid.
(3) K.M. Setton: ibid.
(4) عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 371.
مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ص 132.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 16.
J.R. Smith: The Crusades: Ashort History, p. 8.
H.E. Mayer: The Crusades, p. 15.

الظروف[1]، غير أن وصول الروايات المبالغ فيها والمغلوطة أحياناً من قبل زوار تلك الأراضي قد أثار الكراهية عند الغرب الأوربي ضد الأتراك الذين توسعوا في آسيا الصغرى، فاندفعت أوربا لحمل السلاح نيابة عن القدس وعن الكنيسة الشرقية[2]، ورغم أن الغرب الأوربي قد شُحن ضد المسلمين في الشرق، إلا أن المسيحيين الشرقيين لم يكونوا راغبين في تدخلهم لعلاقة بينهم وبين المسلمين، لأنهم كانوا دائماً آمنين على وضعهم وعلى أملاكهم وأرواحهم. وعلى الرغم من أن الكونت ديان حاول أن يثبت أن اضطهاد المسيحيين في الشرق كان من أهم أسباب حركة البابوية، معتمداً في ذلك على الرسالة التي يقال إن بطرق بيت المقدس والمسيحيين قد أرسلوها إلى البابا أوربان الثاني وجميع أمراء الغرب؛ إلا أن هذا الرأي لا يلقى قبولاً بين المؤرخين المحدثين، إذ لا توجد لدينا وثيقة واحدة تسجل أن مسيحيي الشرق قد استعانوا بالبابوية أو بالغرب كما أنه لا توجد لدينا معلومة واحدة عن حادثة واحدة ارتكبها الأتراك في حق المسيحيين الشرقيين؛ أما ما حدث إبان الغزو السلجوقي لهذه المناطق فيمكن النظر إليه باعتباره النتيجة الحتمية للحرب التي شعر بوطأتها كل السكان بطبيعة الحال، أو إذا أخذنا في اعتبارنا أن المسيحيين في هذه المنطقة كانوا من أتباع الكنائس الشرقية مثل النساطرة واليعاقبة، أي أنهم كانوا يخالفون الكنيسة البيزنطية في عقيدتها لأدركنا أنه لم

(1) Mayer: The Crusades, p. 13-15.
William of Tyer: A History of Deeds Done Beyond the Sea Trans E.A. Balcock, Columbia, 1943, vol. 1, p. 80-81.

(2) H.E. Mayer: The Crusades, p. 269.
F.Valentin: ABrégé De L'Histoire, p. 26.
ريموناجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، مصر 1989، ترجمة حسن محمد عطية، ص 15.
هلستر (س.ورن): أوربا في العصور الوسطى، ص 174.
مصطفى حسن محمد: حملة لويس التاسع الصليبية على تونس، دار الصحوة 1985، ص 12.

يكن ثمة ما يدعو للأسف للتغيير الذي حدث باستيلاء السلاجقة على أنطاكية والقدس وغيرهما من مناطق آسيا الصغرى[1]. وهكذا فقد ركن الأوربيون بتحريض من البابوية لهذا الزعم وهو تعطيل حركة الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة في فلسطين ومن أجل ذلك وبالإضافة إلى غيرها من الأسباب والتي على رأسها العامل الديني، فإن المسيحيين الغربيين أشعلوا حرباً استمرت لأكثر من مئتي عام ضد الوطن العربي المسلم كي يحرروا طريق الحج.

ومهما يكن الأمر، فإن دعوة أباطرة بيزنطة لنجدة الإمبراطورية في ضوء مسألة الحج وسوء معاملة المسيحيين، قد قوبلت بحماس كبير من جمهور المسيحيين الغربيين على اختلاف طبقاتهم[2]، ومن ثم تولدت فكرة الحروب الصليبية التي دعي إليها وذكاها البابا أوربان الثاني[3].

ب ـ دعوة البابا أوربان الثاني للحروب الصليبية ضد المسلمين في مجمع كلير مونت سنة 1095

في 27 نوفمبر 1095 م انعقد مؤتمر كلير مونت[4] بفرنسا دعي إليه

(1) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 80؛ محمود الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص 33.
ر.سي.سميل: الحروب الصليبية، ط 1، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1982، ص 45 ـ 60.

(2) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص440.

(3) عاونه في ذلك الأساقفة والكهان والناسكون في كل مكان. انظر:
هلستر (س.ورن): أوربا في العصور الوسطى، ص 175.

(4) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 86.
عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنيسية، ص 85.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 128.
جوناثان رايلي سميث: ما هي الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر مصر 1990 م، ص 17.
وفي 27 نوفمبر 1995 انعقد مؤتمر برشلونة بدعوة من الغرب الأوربي وأمريكيا لكثير من الأغراض ربما يكون أقلها خطورة يشابه أهداف كليرمونت.
= F.Chaladon: Histoire De La Première Croisade, Auguste picard Editeur, Paris,

البابا أوربان الثاني بعد أن فشل مؤتمر بيانزا في إيطاليا، ولقد عمل البابا على إنجاح هذا المؤتمر، فقام بعدة جولات لدعوة الأساقفة ورؤساء الكنائس والقصاد الملوكيين[1]، بالإضافة إلى ملوك وأمراء أوربا لحضوره، فدخل فرنسا أواخر صيف 1095 م قادماً من فالنس[2]، ثم زار «لي بويه» في 11 أغسطس من نفس العام، ومن لي بويه بعث برسائل إلى أساقفة فرنسا والبلاد المجاورة، يطلب إليهم الاجتماع في كلير مونت ليتدارسوا بعض مشاكل الكنيسة وأمر الأراضي المقدسة، دون أن يعلمهم بما يعتزمه تجاه هذه الأراضي، وقرر أن يكون انعقاد المؤتمر في 18 نوفمبر ولمدة عشرة أيام (1095 م)؛ وتوجه بعد ذلك نحو الجنوب، ليمضي شهر سبتمبر في أفينون وسانت جيل في بروفانس، وفي أوائل أكتوبر جاء إلى ليون، ومنها توجه إلى برجنديا، وفي 25 أكتوبر شهد أوربان في كلوني المذبح الذي شرع رئيس دير كلوني في عمارته في بالياسينيقا الكبيرة، واجتمع به في هذا الموضع أسقف كلير مونت، وصحبه إلى مقر أسقفيته استعداداً للمجمع[3].

=

1925, p. 18.

فشر (هـ. أ. ل): تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 177.

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ص 9.

هانس إبراهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 24.

حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى، ص 51.

السيد الباز العريني: مصر في عهد الأيوبيين، ص 10.

عمر عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ط 1، دار الإيمان، 1978، ص 384.

(1) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ص 9.

René Grousset: L'Epopée Des Croisades, p. 7.

M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome 1, p. 79.

محمود العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص 28.

(2) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 159.

(3) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 159.

R.Grousset: L'Epopée Des Croisades, p. 7.

J.R. Smith: The Crusades, p.3.

وفي كلوني تحدث أوربان إلى أناس اهتموا بمسيرة الحجاج إلى كومبو ستلا، وبيت المقدس ووقف منهم على ما تعرض له الحجاج وقتذاك من متاعب وهم في طريقهم إلى فلسطين، وما أصاب سلطة الأتراك من وهن وتفكك[1]، مما هيأ له تكوين رأي معقول في مسألة طلب بيزنطة المعونة العسكرية من البابوية.

وفي كلير مونت انعقد هذا المؤتمر الذي ضم ائتلافاً ضخماً من رجال الغرب الأوربي الدينيين والمدنيين، ليشهدوا لقاء البابا ويستمعوا إلى خطابه الذي أراد به أموراً هامة لم يفصح عنها، وكذلك مناقشة بعض أمور الكنيسة والتي منها توقيع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيليب الأول (1060 ـ 1108 م) الذي رفض حضور المجمع[2]؛ وانقضت تسعة أيام في مناقشة هذه الأمور وفي اليوم العاشر وجه البابا دعوته إلى المسيحيين جميعاً، الذين احتشدوا داخل الكاتدرائية، والتي ضاقت بهم، فتقرر إقامة الكرسي البابوي على منصة مرتفعة في الفضاء خارج الباب الشرقي للمدينة فلما اكتمل اجتماع الجماهير، نهض أوربان ليخاطبهم ويدعوهم للاتحاد لاستخلاص الأرض المقدسة من المسلمين[3]، وقد عرض البابا على المجتمعين خطابه في أسلوب بلاغي جذاب موضحاً مدى ما تعانيه الأرض المقدسة وحجاجها من متاعب[4] بسبب سيطرة المسلمين عليها الأمر الذي صار يتطلب من

(1) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 160.

(2) وقيل أيضاً لأنه اتهم بالفاحشة. عن ذلك انظر:

J.R. Smith: The Crusades, p. 3.

حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 52.

سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 128.

(3) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 160 ـ 161.

هانس إبراهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 24.

(4) عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 85.

ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 161.

المسيحيين الغربيين الإسراع لنجدة إخوانهم في الشرق[1]، غير أنه لم يتحدث فحسب عن بيزنطة، بل أكد ما لبيت المقدس من قداسة خاصة، وبعد أن وصف الصورة القاتمة، وجه نداءه الشهير «فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق[2] وينبغي أن يسير الأغنياء والفقراء على السواء[3]، ويكفوا عن قتل أحدهم الآخر، وأن يباشروا عوضاً عن ذلك القتال الهادف لخدمة شريعة الرب، الذي سوف يكون مرشداً وهادياً لهم، ومن يلق حتفه في المعركة تغفر له ذنوبه، فالحياة غدت تعسة كثيرة الشرور بعد أن أضنى الناس أنفسهم في تدمير أجسادهم وأرواحهم، واستبد بهم هنا الفقر والبؤس[4]، وسوف ينعمون هناك بالسعادة والرخاء ويكونوا أصدقاء أوفياء لله، ولذا لا ينبغي التمهل والإرجاء، فليستعدوا للمسيرة عند حلول الصيف، وليكن الله هاديهم»[5] وقد ساق البابا هذه الكلمة بإسلوب حماسي شديد البلاغة مما يفهم منه أنه كان يتمتع بملكة خطابية ممتازة[6].

ولا شك في أن نجاح خطبة البابا كان خارقاً، فانطلقت الجماهير تردد «هذه مشيئة الله» وكان الأسقف ادهمار أسقف بوي أول من حمل الصليب، وتبعه في ذلك كثير من الحاضرين من رؤساء الكنائس[7]، ومن القوات المختلفة الرتب متحالفين على المحاربة، وكذلك الأمراء، حيث قاموا واستلموا من البابا سنجق الصليب، بعد ذلك هبت الجماهير يمزقون الثياب

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص 128 ـ 129.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 161.
(2) Joseph Calmette: Le Moyen Age, librairie Artheme Fayard, Paris, p. 422.
(3) Marcel Jullion: Histoire de la France, Tome 2, p. 56.
(4) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 161 ـ 162.
(5) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 162.
(6) هانس ابراهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 24؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 129؛ انظر ملحق رقم (1).
(7) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 129.

ليعملوا منها صلبان قماشية لوضعها على الأكتاف تيمناً بالمسيح[1]. ولم يقتصر الحماس على كلير مونت فقط، بل استمر أوربان مقيماً في فرنسا عدة شهور أخرى يدعو الناس للحملة الصليبية، وذلك ما فعله في ليموج على سبيل المثال، كما[2] وجه نداءات كتابية أيضاً ما زال لدينا حتى الآن نسختان، منها نسخة النداء الموجه إلى الفلمنك والبولونيين «أهالي بولونا». وأخذت الأسقفيات بالحركة الصليبية، ووجهت الوعاظ لتعميم النداء البابوي على الشعب، ولقيت هذه صدى كبيراً على وجه الخصوص في جنوب فرنسا وكذلك في اللورين والمناطق الغربية من الإمبراطورية، وشامباني والنورماندي والفلاندرز، ولدينا وثيقة عبارة عن خطاب من أوربان الثاني إلى الصليبيين في إقليم الفلاندرز وهو بتاريخ 1095 م يحمل تعليمات البابا في مصطلحات تؤكد على الجانب الديني في الحرب[3] المقترحة؛ هذا نصه «من أوربان أسقف راعي خدمة الرب، نحن نعتقد أنك وإخوانك قد سمعتم حديثاً من عدة مصادر أن البرابرة قد خربوا ودمروا كنائس الرب في الشرق، والأهم أن مدينة المسيح المقدسة، والتي اشتهرت بعد موته وحيث يبعث، قد تحولت إلى مدينة الرق لدرجة لا تحتمل، ونحن لذلك زرنا فرنسا لنحث أمراءها ورعيتهم بأن يتعهدوا بتحرير كنائس الشرق، وأن خطايا هؤلاء المشاركين سوف تغفر لهم»[4].

(1) History: vol. 65. No. 214, June 1980, p. 178.
هانس ابرهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 24.
(2) Smith (J.R): The Crusades, p. 10-11.
عمر عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي، ص 384.
هانس ابراهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 24 ـ 25.
(3) R.Pernoud: The Crusades, Secker and warbirg, London, 1962, p. 27.
History: vol. 55, No. 184, June 1970, p. 154.
R.Pernoud: The Crusades, p. 24.
(4) هانس ابرهاردماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص 24 ـ 25.
Joseph Calmette: Le Moyen Age, p. 423.

ونتيجة لذلك فإن صدى مشروعه قد انتشر انتشاراً واسعاً، ففي كل مكان كان يوجد محاربون وغير محاربين مستعدين لبدء الحملة إلى القدس، ولم يقتصر جهد أوربان على ذلك، بل قام بجولة في كل من وسط وغرب وجنوب فرنسا على حافة المنطقة الواقعة تحت سيطرة الملك الفرنسي؛ الذي وقع عليه قرار الحرمان بمجمع كلير مونت ، حيث قام بإلقاء خطبة في مدينتي انجرز؛ ومان في فبراير 1096 م وفي نيم في يوليو 1096 م، وحضر مراسم تسلم الفرسان الصليب في كل من تورس ولدمان، وعبر بعد ذلك جبال الألب إلى إيطاليا في أغسطس عام 1096 م حيث كانت الحملة الصليبية قد بدأت[1].

وقد أعطى البابا في البداية وحدة لمشروعه عن طريق تشكيل أهداف واضحة ومحددة، «حيث تم وضع العديد من القادة على رأس الجيش مختلف الطباع والصفات، والذين لم يكن لهم سوى تدريب ضعيف على التعاون في جيش كبير يحتاج إلى اتحاد السلطة والأوامر من أجل غرض واحد ومحدد، وكان لهذا الجيش حماس ديني واضح وممتد، وكان الهدف الحقيقي للحملة التي أخرجها البابا والتي أشار إليها في العديد من أحاديثه وخطاباته، هو الأراضي المقدسة التي هي موقع ميلاد المسيحية، والتي كان لا بد من استردادها وإنقاذها من تلوث ونجاسة غير المسيحيين» على حد قوله المزعوم الذي لا يتفق مع الحقيقة التاريخية على الإطلاق.

وكانت هذه الفكرة هي التي أشعلت الحماسة في نفوس جيوش الغرب الأوربي ووضعت نشاط حقيقي وحيوية للحركة الصليبية[2].

(1) Smith (J.R): The Crusades, p. 4.
سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 131.

(2) James A. Brundage: The Crusades, p. 22.
Smith (J.R): The Crusades, p. 6-8.

دراسة تحليلية لخطاب البابا[1] وما يحويه من اتجاهات لاستثارة المشاعر الدينية ضد المسلمين في غرب أوربا

بعد أن عرضنا لخطاب البابا أوربان الثاني في كلير مونت وجهوده في الإعداد لخروج الحملة الصليبية الأولى، التي أرادها لتخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين؛ مستعملاً في ذلك كافة المغريات التي يمكن اعتبارها دوافع لتلك الحرب؛ فإننا نقف أمام هذا الخطاب والذي يجسم أمامنا مشاعر الحركة الصليبية كلها لنحلل ما ورد داخله كي نستطيع أن نقف على مفهوم أوربا للحروب الصليبية.

ذلك أن أوربان الثاني تحدث إلى الشعب الفرنسي باللغة الفرنسية ولم يستخدم اللغة اللاتينية، حتى يكون كلامه مفهوماً واضحاً من الجماهير[2]، وتناول في مقدمة خطابه وفقاً لما أورده فوشيه دي شارتر، «الدعوة إلى الإصلاح الداخلي للأوضاع الأخلاقية في أوربا الغربية، فحث على الدعة والتواضع والتعلم والسلام والتيقظ والتقوى والعدل والمساواة والعفة، لتكون هذه الأوضاع عدة للحركة الصليبية»، وفي ذلك الخطاب يعرض البابا في بدايته الإشادة بالحضور وببلادهم السعيدة، وبما يتمتعون به من قوة بأس، حاثاً إياهم على أن ينشروا ما سوف يذكره في خطابه إلى الجميع في أوربا كي يتحقق ما تمناه من خطابه، ثم انتقل بعد ذلك إلى ذكر السبب الذي جاء به إلى هذا المجمع، فقدم بياناً لحالة الشرق وما أصابه من دمار وتخريب على

(1) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، هامش ص 311.
أورد الخطاب أربعة من المؤرخين:
1 ـ فوشيه دي شارتر.
2 ـ روبرت الراهب.
3 ـ بودري دي بورجي.
4 ـ جيبرت دي نوجان.
وهناك مؤرخ خامس بعد قرابة ثلاثين سنة وهو وليم مالمسبوري.

(2) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 10 ـ 11.

أيدي العرب والأتراك، ودعا إلى اتخاذ خطوة من جانب الغرب المسيحي لتحرير تلك البقاع وخاصة الأراضي المقدسة[1]، وأن يحمي المسيحيين الشرقيين الذين ساءت حالتهم، ثم أعلن البابا بعد ذلك الحرب الصليبية في كلمات حركت العواطف عندما قال «وبناءً على ذلك فإني أو بالأحرى فإن الله يطلب إليكم باعتباركم أتباع المسيح أن تنشروا هذا الخطاب في كل مكان لحث الناس من كل الطبقات، الفرسان والجنود المشاة، الأغنياء والفقراء، لمد يد العون سريعاً لهؤلاء المسيحيين، وأن تمحوا ذلك الجنس الدنيء من أرض إخوانكم، وأنا أقول ذلك لمن هو حاضر الآن ليعلنه لمن هم غائبون وفوق هذا فإن ذلك ما يأمر به المسيح»[2].

وبعد ذلك عدد البابا مزايا الاشتراك في هذا العمل المقدس والكبير، فذكر أن كل من يحمل الصليب سوف يكافأ بنيل الغفران فوراً عن جميع خطاياه، وهذا ما منحه لكل من يذهب بحكم السلطان الذي خوله الله إياه، ثم طلب إلى جميع الأمراء أن يتجنبوا عداء بعضهم لبعض وأن يوجهوا حرابهم نحو الشرق، «فليحارب كل واحد البرابرة كما يجب بدلاً من محاربة الإخوة والأقربان»[3].

وفي ختام الخطاب طالب البابا الناس أن يبدأوا العمل فوراً، وحذر كل حملة الصليب من التسويف، وحثهم على أن يؤجروا أراضيهم ويجمعوا المال اللازم للنفقات، وعندما ينتهي فصل الشتاء ويأتي الربيع يمضون في طريقهم في رعاية الرب[4].

وفي ضوء ما جاء في خطاب البابا قال البعض إن السبب وراء دعوته للحرب الصليبية الأولى كان تأمين الحج إلى بيت المقدس. هذا في حين رأى فريق آخر أن الرغبة في نجدة مسيحيي الشرق كانت هي السبب، أما الفريق

(1) زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، ص 70.

(2) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 10 ـ 11.

(3) Lamb (H): The Crusades: Iron Men and Saints, New York, 1930, p. 39-42.

(4) Smithe (J.R): The Crusades, p. 3.
Cam. Med. Hist., vol. 5, p.321.

الثالث فقد رأى أن حرب أوربان كانت بهدف توجيه طاقة أوربا الزائدة في فترة النمو إلى خارج القارة لتأمين حركة السلام. كذلك اعتقد البعض أن البابا كان يريد تأسيس دولة إقطاعية في فلسطين تحت سيطرة البابوية، بينما ظن البعض الآخر أن الهدف الحقيقي كان زيادة نفوذ البابوية وهيبتها، وهناك أيضاً من يرى أن الهدف كان هو توحيد الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية تحت زعامة البابوية[1].

والواقع أن هذه التفسيرات لا تتضح إلا بتحديد ماهية الحركة الصليبية التي هي في الواقع حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي المسيحي في العصور الوسطى، واتخذت شكل هجومي حربي استعماري على بلاد المسلمين، وبخاصة في الشرق الأدنى، بقصد امتلاكها، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً لتعبر عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق[2].

وهذه الحركة حرّكتها بواعث حقيقية وأسباب قوية انبعثت من صميم المجتمع الأوربي، حقيقة أن أباطرة بيزنطة عندما تعرضوا لضغط السلاجقة وغزوهم لأراضي الإمبراطورية استعانوا بالبابوية وطلبوا النجدة العاجلة من الغرب الأوربي، ولكن إن لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك، لما لبى نداء الاستغاثة ولما استجاب لدعوة الإمبراطورية في تلك السرعة والقوة. وعلى ذلك فإننا نعرض لدوافع الحركة الصليبية استنتاجاً من

(1) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة، ص 206 ـ 207.
Marcel Jullian: Histoire De La France Et des Français, p. 60.

(2) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 26.
حسنين ربيع: دراسات في التاريخ، ص 208.
محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 14.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 12.

خطاب البابا والتي أمكن تقسيمها إلى: دافع سياسي، دافع اجتماعي، دافع اقتصادي، دافع ديني[1].

جـ ـ حرص البابوية[2] على الإشراف على الحركة الصليبية

لقد سعت الكنيسة أن تكون الحروب الصليبية تحت قيادتها وباسمها وتحت إشرافها، وأن يكون لها دورها حتى في اختيار قادة الحملات، وأن تمدهم بالتعليمات والإرشادات التي عليهم الامتثال لها[3]، ولقد برز دور الكنيسة في هذه الحروب لعدة أسباب:

1 ـ حماية أموال المحاربين وخاصة إذا علمنا أن أغلب المشاركين هم من الأمراء والبارونات والدوقات، أي أنهم الفئة الإقطاعية في أوربا.

2 ـ اختيار الكنيسة لرجال الدين المرافقين للحملات والذين يتولون الوعظ والإرشاد والتوجيه، محاولة منها لإعطاء الطابع الديني لحملاتها، ولقد ذكر مؤرخو الحوليات أن كثيراً من أسماء رجال الدين المشاركين في

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 28.

(2) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 67.
فقد بشر بالحملة الأولى أوربان الثاني وكان من دعاتها بطرس الناسك، وبشر بالحملة الثانية البابا يوجين الثالث وساعده على الدعاية لها القديس برنارد دي كليرفو، كما بشر بالحملة الثالثة البابا كلمنت الثالث وقام بالدعاية لها وليم الصوري. وبشر بالحملة الرابعة أنوسنت الثالث، بينما بشر أنوسنت الرابع بحملات لويس التاسع. كما بشر بابوات أفينون في المنفى بالحروب الصليبية المتأخرة. هذا يؤكد أن الحملات الصليبية كلها كانت تحت إشراف الكنيسة الرومانية والبابوية نفسها وبالتالي يظهر بوضوح العامل الديني على غيره من العوامل.
وللاستزادة عن الحملات الصليبية انظر المصادر والمراجع بالقائمة التي تتحدث عن الحملات بالتفصيل.

(3) M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome, 4. p. 24.
M.Michaud: op. cit. Tome 3. p. 81.

الحملات الصليبية، قد كانت مهمتهم تذكير المشاركين فيها بالهدف الأسمى وهو تحرير بيت المقدس السجين، وتخليص المؤمنين المسيحيين من أيدي المسلمين، وفض النزاعات التي قد تثور بين المشاركين في الحملات أو التوفيق بينهم[1]، وكذلك إلهاب حماس المحاربين[2].

وخلاصة القول فإن الكنيسة الكاثوليكية في الغرب كان لها دور فعال في توجيه الحركة الصليبية وفي السيطرة عليها باسم الدين؛ فهي التي دعت إليها، وهي التي أمدتها بتأييدها الأدبي والمعنوي، وهي التي شجعت المحاربين من كافة الأجناس والفئات على الاشتراك فيها مقدمة كافة التسهيلات اللازمة لكل من يحمل الصليب، وأخيراً فإنها عينت ممثلاً لها يسمى مندوباً بابوياً للإشراف على الحملة[3].

إيفاد مندوب بابوي (ادهمار) مع الحملة الصليبية الأولى

بعد أن انتهى البابا من إلقاء خطابه قام ادهمار[4] دي مونتيل أسقف مدينة «بوي» وطلب من البابا الإذن له بأن يكون أول من يجاهد في سبيل الله، ثم تسلم من يد البابا سنجق الصليب فاتبعه عدد عظيم من رؤساء الكنائس ومن القوات المختلفة الرتب، متحالفين على الخروج في هذه الحرب المقدسة، كما شارك الأفراد في ذلك واستلموا سنجقاً آخر من البابا للصليب، وأظهر البابا أمامهم اهتمامه بإنابته لأسقف «بوي» في قيادته لهذه الحملة[5]، حيث قال لقد عيّنا ابننا المحب ادهمار أسقف بوي قائداً على

(1) R.Pernoud: Les Hommes de Croisade, librairie Jules Taudin, Paris, 1977, p. 91-92.

(2) M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome 3. p. 84.

(3) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ص 68.

(4) رجل دين من الطراز الأول تميز ببراعته الدبلوماسية، ومهارته ونفاد بصيرته وبهدوء طبعه، ورفقه الشديد، وهو رجل أجمع الناس على احترامه يسعى للإقناع لا لفرض رأيه أو أمره. انظر للاستزادة: ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 164.

(5) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 86.
James A. Brundage: The Crusades, p. 13.

مكاننا في حملة الحج هذه، والعمل لها؛ أي أن أوربان أراد من قيادة ادهمار النصح والتحكيم والوعظ، بمعنى أنه قائد روحي، وكان هذا الإجراء من قبل البابا ليكون للكنيسة السيطرة على الحركة الصليبية، وكان على ادهمار التوفيق بين مجموعة الأمراء والبارونات والدوقات، وكافة الإقطاعيين المشاركين في الحملة، ولكن أوربان الثاني رأى أن يختار رجلاً عسكرياً آخر يترأس الجيش، ويعمل تحت إمرة ادهمار، ووقع اختياره على ريموند الصنجيل، وهو أحد البارونات (كونت تولوز) والذين عرفوا بخبرتهم وتحمسهم للحروب الصليبية ضد المسلمين[1].

وهكذا تعين للحملة الأولى قائداً روحياً وآخر عسكرياً التف حولهما الجنود الذين قرر لهم المجمع امتيازات هامة منها غفران الذنوب، وإسقاط الضرائب عنهم. وقام أساقفة كل مدينة بصنع سناجق الصلبان وتقديمها إلى جماهير المسافرين مع تلك الحملة التي حدد أوربان موعدها وهو 15 أغسطس عام 1096 م، بحيث تكون القسطنطينية مكاناً لالتقاء الجيوش الأوربية الزاحفة إلى الشرق، وقاد هذان الرجلان الحملة الصليبية الأولى نحو الشرق الإسلامي، وبعد أن اطمئن البابا أوربان إلى خروجها قفل عائداً إلى إيطاليا[2] ليحث المزيد من الجنود على الخروج للانضمام إلى تلك الحملة.

(1) J.R. Smith: what were the Crusades, New Jersey, 1977, p. 34, 51.
Rene Grausset: L'Empire, p.8.
Joseph Calmette: Le Moyen Age, p. 424.
H. Lamb: The Crusades, p. 320.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 23.
جوناثان رايلي سميث: ما هي الحروب الصليبية، ص 55.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الصليبية، ص 164 ـ 165.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 360.
(2) سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 130 ـ 131.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 1، ص 163.
Recueil Des Hitoirens, Tome 1. p. 3-10.

بطاركة بيت المقدس الكاثوليك ومحاولة إقامة حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة ومكانة رجال الكنيسة في ظل الحكم الصليبي

عندما تم استيلاء الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس، اختاروا الأمير جود فري دي بوايون حاكماً على المدينة، غير أنه لم يحمل لقب ملك بيت المقدس، ولكنه اكتفى باتخاذ لقب متواضع هو «حامي بيت المقدس»؛ ويبدو أن اتخاذ جود فري لهذا اللقب جاء اعترافاً منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة، وأن لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعاً من الإشراف عليها، وهكذا أدى تواضع جود فري إلى تأخير قيام ملكية قوية منظمة تستطيع بيت المقدس في ظلها أن تعيش وسط الأخطار الجسيمة المحيطة بها[1].

أما السلطة الدينية كما رأينا فقد كانت في يد أرنولف دي مالكورن الذي نجح في خلعه دايمبرت واستقام هو بطريرقاً لبيت المقدس في عهد جود فري، ومن بعده أخيه بلدوين الأول، وكان حكم جود فري في بيت المقدس بمثابة حل وسط بين النظامين الملكي والثيوقراطي، وفيه ترضية ولو جزئية لمطامع الأمراء ومطامع رجال الكنيسة، ولذلك أثار موت جود فري سنة 1100 م مشكلة كبرى حول الوضع المقبل لدولة بيت المقدس الصليبية، وكيف يكون نظام الحكم فيها، ويقال إنه أوصى قبل وفاته بأن يخلفه البطرق دايمبرت في حكم بيت المقدس[2].

ولو أن هذه الوصية قد نفذت لكان معناه أن تتحول حكومة بيت المقدس إلى حكومة ثيوقراطية[3]، ترتبط بالكنيسة، وهو ما سعى إليه =

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 244.
J.A. Brundage: The Crusades, p. 27.
عمر توفيق: مملكة بيت المقدس، ص 61.
(2) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات في الشرق والغرب، ص 202 ـ 203.
محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 25.
(3) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات، ص 218.

دايمبرت منذ أمد بعيد[1] وحاول أن يمنع بلدوين ـ الذي كان حاكماً للرها أثناء حكم أخيه جود فري للقدس ـ من الوصول إلى حكم بيت المقدس بعد وفاة جود فري، فقاوم دايمبرت بلدوين اعتماداً على تأييد بوهيمند[2]، غير أن دايمبرت قد هاجمه حزب ظهر في بيت المقدس هو حزب يرأسه «أرنولف» والذي جعل هدفه مهاجمة دعاوى «دايمبرت» في النظام الكنسي وما يستند إليه من النفوذ النورماني، ونجح هذا الحزب في كسب المعركة[3]، إذ جرى استدعاء بلدوين من الرها، بواسطة رسالة أرسلها أنصاره في بيت المقدس في سبتمبر سنة 1100 م «يخبرونه بموت أخيه ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتسلم مقاليد الأمور في المدينة المقدسة»[4]، فخرج بلدوين من الرها ونجح في الوصول إلى حيفا وهي أول مدخل الصليبيين في فلسطين، وفيها جميع ما يلزمه من زاد، ثم اتجه إلى يافا أكبر ثغر للصليبيين عندئذ في فلسطين، ومن يافا اتجه إلى بيت المقدس فوصلها في 10 نوفمبر سنة 1100 م وخرج المسيحيون من أهل المدينة على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم لاستقباله استقبالاً رائعاً بوصفه أخو جود فري ووريثه، «بل لقد نادوا جميعاً به داخل المدينة المقدسة ذاتها ملكاً وسيداً عليهم»[5]،

= أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 37.

(1) Cahen (c): La syrie Du Nord A l'Epoque De Croisades, paris, 1940, p. 313.
Joseph Calmette: Le Moyen Age, p. 436.

(2) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 40.
سعيد عاشور: تاريخ العلاقات في الشرق والغرب، ص 219.

(3) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 40.

(4) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات في الشرق والغرب، ص 222.
H.E. Mayer: The Crusades, p. 67.
عمر توفيق: مملكة بيت المقدس، ص 69.
سعيد عبد الله جبريل البشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، مصر 1989، ص 112.

(5) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات، ص 224.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 458. =

حيث تولى دايمبرت بنفسه تتويجه، وفي احتفال التتويج أقسم بلدوين «أن يخدم ويدافع عن قبر المسيح المقدس، وأن يحكم الكنيسة وشعب القدس بالعدل والأمان»[1]، «وأن يحترم البطرق ويحمي الكنيسة ويحافظ على أملاكها»[2]، وباعتلائه العرش تأسست في يوم عيد الميلاد سنة 1100 م مملكة بيت المقدس الصليبية، وأصبح بلدوين أول ملك لاتيني لبيت المقدس[3].

هذا إلى أن البابوية رأت من صالحها عدم قيام حكومة دينية في بيت المقدس، لأن ظهور أحد رجال الدين الأقوياء، في مدينة المسيح، معناه قيام بابوية جديدة في الشرق، وفي تلك الحالة يستطيع البابا الجديد في بيت المقدس أن يطالب ـ بوصفه خليفة المسيح في مدينته ـ بالسيادة على بابا روما، الذي لن ينفعه عندئذ أنه خليفة القديس بطرس في كنيسته. ولعل هذه المخاوف هي التي جعلت باباوات روما لا يؤيدون دايمبرت في خلافه مع ملك بيت المقدس، ولا يشجعون بأي حال قيام حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة[4].

وهكذا لم يقدر للحكومة الثيوقراطية التي أراد البطرق دايمبرت إقامتها أن تعيش أكثر من خمسة شهور فقط، ولم يستطع دايمبرت الوقوف أمام الرأي العام المسيحي[5]، فنبتت بذلك في تربة فلسطين مملكة إقطاعية من

= عمر توفيق: مملكة بيت المقدس، ص 72.
سعيد عبد الله جبريل: الممتلكات الكنسية، ص 113.

(1) H.E. Mayer: The Crusades,p.58.

(2) عمر توفيق: مملكة بيت المقدس، ص 73.

(3) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 39 ـ 40؛ عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 50؛ ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص 460.
H.E. Mayer: The Crusades, p. 67.

(4) سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 471 عن
Setton: A Hist. of the Crusades, vol. p. 379-383.

(5) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات، ص 224.

السادة الفرنجة[1]. وتولى بلدوين مقاليد الحكم منذ سنة 1100 م وحتى 1118 م وفي عهده قسمت المملكة إلى أربع إمارات إقطاعية هي مملكة بيت المقدس، وإمارات أنطاكية، والرها وطرابلس، ثم جزئت كل إمارة إلى إقطاعيات تكاد كل منها أن تكون مستقلة عن الأخرى، وكان الأشراف هم الذين يختارون الملك، وتقيده سلطة الكنيسة الدينية التي لا سلطان عليها لغير البابا نفسه[2].

أما عن مكانة رجال الكنيسة في ظل الحكم الصليبي، فقد أعد البابا أوربان الثاني قبل ارتحال الصليبيين من غرب أوربا إلى الشرق في أواخر القرن الحادي عشر الهيكل الرئاسي للكنيسة اللاتينية في الأراضي التي سوف يستولي عليها الصليبيون، وبمجرد استيلاء الصليبيين على بلاد الشام كان الرهبان المرافقون للجيوش الصليبية يعينون في الوظائف الكنسية في تلك البلاد، وجنوا من وراء ذلك فوائد ومكاسب عديدة[3]. كان من الطبيعي أن يهتم الصليبيون بعد استيلائهم على بيت المقدس 1099 م بالسيطرة على باقي الأماكن المقدسة في فلسطين، والتي أصبحت هي الأسقفيات الرئيسية الخمس الكبرى والتي تتبع لكنيسة بيت المقدس اللاتينية ويرأسها رئيس أساقفة يتبع بطرق بيت المقدس مباشرة؛ وهذه الأسقفيات هي الناصرة وصور وقيصرية والكرك وبصرى[4].

(1) محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 255.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 50.

(2) سعيد عاشور: تاريخ العلاقات في الشرق والغرب، ص 497.
عبدالقادر اليوسف: علاقات، ص 73 ـ 92.
حسين عبدالوهاب حسنين: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية 1989. وللمزيد عن تشكيلات مملكة بيت المقدس اللاتينية بالقدس. انظر الملحق رقم (4).

(3) ليلى محمد القاسمي: إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية، (رسالة دكتوراه، القاهرة 1986)، ص 186.

(4) Enlart.c: Les Monument des Croises dans Le Royaume de Jerusalem, paris, 1925 - 1928. p. 13.

إن الكنيسة الكاثوليكية في بلاد الشام فازت بنصيب الأسد، حيث ربحت الكثير من الامتيازات والحصول على إعفاءات كثيرة، نتيجة لرعاية البابوية في روما للكنيسة اللاتينية في القدس، ذلك أنه ترتب على طرد رجال الدين الأرثوذكس من كراسيهم وكنائسهم، أن استحوذ رجال الدين الكاثوليك على كل شيء من الممتلكات والأموال، الأمر الذي جعل هؤلاء يعيشون في جو من الترف أبعد ما يكون عن روح الدين وبساطته[1] ونلاحظ أن دور رجال الدين لم يقتصر على الوفاء بالمطالب الدينية للمجتمع والنهوض بشعائر الدين، وإنما تعدى ذلك إلى التدخل في شؤون الحكم والسياسة والحرب، فضلاً عن وجود جماعات منهم عرفوا بالفرسان[2] والرهبان. ساعدهم على ذلك أن البابوية في روما شجعت نفوذهم، وبنجاح الصليبيين في الاستقرار، بصورة مؤقتة، في بلاد الشام صار للبابوية رأي مسموع في حل الكثير من المشكلات التي واجهت الصليبيين في مجتمعهم الجديد، ومن أهم تلك المشاكل التوسط بين رجال الدين ورجال السلطة العلمانية.

وبالإضافة إلى ذلك كان للبابوية دوراً مهماً في تعيين المندوبين

= Richard.J: Le Royaume Latin de Jerusalem, paris, 1953. p. 98.
ليلى محمد القاسمي: إقليم الجليل، ص 188.

(1) سعيد عاشور: «ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام»، مجلة المستقبل العربي، العدد 102، (أغسطس 1987)، ص 26.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 65 ـ 67.

(2) سعيد عاشور: «ملامح المجتمع الصليبي»، ص 26.
نبيلة إبراهيم: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، (رسالة القاهرة 1975)، ص 2.
حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ص 35.
عبد الحفيظ محمد علي: الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين في الشرق، (رسالة القاهرة 1975)، ص 133.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 69.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 66 ـ 67.

البابويين منذ خروج القوات الصليبية نحو الشرق[1]، وهكذا نلاحظ أنه تم تنظيم الكنيسة اللاتينية في الشام تحت إشراف البابوية في روما[2].

وكدليل على سيطرة البابوية، أو بالأحرى العلاقة بين البابوية والكنيسة اللاتينية بالشام، فقد أيد البابا باسكال الثاني (1099 ـ 1118) في 1103 م رفع دير جبل الطور إلى مرتبة أسقفية، ووضعت أسقفية طبرية والجليل تحت إشرافها[3]، وهكذا نرى من خلال مسيرة الحروب الصليبية وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية، أن الكنيسة الكاثوليكية في روما قد سيطرت على تعيين المندوبين البابويين واعتماد الأسقفيات الجديدة ومنح هذه الأسقفيات، وبالتالي الكنيسة اللاتينية بالشام وكبار رجال الدين الإعفاءات والامتيازات، مما جعل الكنيسة الكاثوليكية بروما لها السيادة على الكنيسة ببيت المقدس، الأمر الذي جعلها تتدخل بل تتحكم في تعيين واختيار رجال الدين للمناصب في الكنيسة، كذلك فإن هذا الأمر جعلها تتدخل في حل المنازعات بين رجال الدين بعضهم البعض، وبينهم وبين رجال السلطة العلمانية، وهذه الأمور سيطرت على العلاقة بين الكنيستين طيلة فترة القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد[4].

---

(1) سعيد عاشور: «ملامح المجتمع الصليبي»، ص 26.

(2) Murphy: The Holy War, Ohio State UNIV. Paris, Columbus, 1974, p. 16.
Enlart: Les Monument des Croises, p. 11-12.

(3) Richard: Le Royaume Latin, p. 65-66.

(4) عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية، ط 1، دار النهضة العربية، القاهرة 1984، ص 7 ـ 32.
ريموند اجيل؛ تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص 257 ـ 263.
سعيد عبد الله البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص 323 ـ 365.
سعيد عاشور: «ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام»، مجلة، ص 24 ـ 39.
ليلى القاسمي: إقليم الجليل، رسالة، ص 186 ـ 192.

الفصل الخامس

ملامح ذبول العامل الديني قبل وبعد إجلاء الصليبيين من بلاد الشام

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾

[الحاقة: 12]

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

[التوبة: 82]

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[النمل: 37]

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة: 109 ـ 110]

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت: 40]

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ * وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾

[الحشر: 2 ـ 3]

تتبعنا في الفصل السابق دور البابوية في دفع مسيرة الحروب الصليبية، ورأينا كيف أنها مارست ذلك الدور بنشاط واقتدار رغبة في التخلص من متاعبها الاقتصادية، والاجتماعية وتحقيق طموحاتها الدينية والسياسية.

وفي هذا الفصل نعرض لذبول العامل الديني قبل وبعد إجلاء الصليبيين من بلاد الشام، وذلك في ضوء النقاط الآتية:

أ ـ فتور العامل الديني في الغرب الأوربي أواخر العصور الوسطى ـ بداية التحول إلى عالم جديد يستهدف التحرر من سيطرة رجال الدين، ويمهد فيما بعد لنشأة الدول القومية الحديثة والانطلاق للكشف عن أرجاء العالم المجهول.

ب ـ ازدياد أهمية العامل الاقتصادي على حساب العامل الديني تدريجياً، حتى بدأ الدين في كثير من الحالات مجرد ستار لإخفاء أهداف اقتصادية.

جـ ـ انهيار البناء الصليبي في بلاد الشام.

د ـ فشل بعض المتدينين من حكام الغرب الأوربي في إحياء الروح الصليبية ـ مشاريع الدعاة وعدم إمكانية تحقيقها عملياً.

هـ ـ اشتداد التيار الصليبي ضد المسلمين في الأندلس وإفريقية العربية الإسلامية وفيما يلي عرض تحليلي لهذه العناصر:

أ ـ فتور العامل الديني في الغرب الأوربي أواخر العصور الوسطى

بعد أن نجح الصليبيون في الوصول إلى الأراضي المقدسة والاستيلاء على القدس وإقامة حكومة ثابتة بها، أدركوا أن هذه البلاد وفيرة الخيرات،

مما كان له أثره المباشر في إذكاء التيار الاقتصادي ليحل محل التيار الديني الذي بدأ في الفتور[1]. وبعبارة أخرى فإن المصالح الاقتصادية غدت تدريجياً تمثل الفيصل في تحريك جموع الصليبين نحو الشرق[2]، ولعل وراء هذا الفتور أسباب مهمة أدت إلى نتائج كبيرة، كان لها أثرها في نجاح المسلمين في استرداد تلك الأراضي من مغتصبيها، ومن أهم هذه الأسباب:

1 ـ أدرك الرأي العام في غرب أوربا أن مكاسب الحملات الصليبية لا تتناسب مع استهلاك تلك الحروب من خسائر فادحة في الأرواح والأموال[3].

2 ـ ازدياد الاتجاهات العلمانية في غرب أوربا وتعارض السياسة البابوية العالمية مع السياسات المركزية للممالك الإقطاعية في كل من انجلترا وفرنسا بصورة خاصة[4].

3 ـ التباس المفهوم الصليبي في ذهن الغرب الأوربي، وذلك للتوسع في مضامينها وأهدافها، بحيث أنها لم تعد مقتصرة على الحروب التي يشنها الغرب الأوربي ضد المسلمين، بل غدت منذ بداية القرن الثالث عشر تعني كل حرب يدعو لها البابوات ضد الفرق الهرطقية وضد الإمبراطورية البيزنطية أو ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة في نزاعها مع البابوية، لهذا فقد رأى قسم من الناس في تلك الحروب سلاحاً بابوياً مسلطاً على الرقاب من أجل أغراض لا تتفق ومعنى تلك الحروب وإطارها الديني السليم[5].

4 ـ تكالب رجال الدين على المال والجاه وبعدهم عن الإيثار

(1) M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome 2, p. 235.
(2) R.Grousset: L'Epopée Des Croisades, p. 288.
M. Michaud: Histoire Des Crousades, Tome 5, p. 66.
(3) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 218.
(4) عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 1969، ص 217.
(5) J.Godfrey: The UnholyCrusades, p. 149.
عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 217 ـ 218.

والتضحية مما كان له أثره البالغ في كشف حقيقة هؤلاء للعيان[1].

5 ـ تطور العقلية الأوربية تطوراً دنيوياً في أواخر العصور الوسطى، إذ غدا المجتمع الأوربي الذي كان ملتصقاً بالكنيسة منقسماً إلى قسمين: قسم شغل عن الكنيسة وابتعد عنها نحو حياة رحبة فسيحة الآفاق متحررة من كل قيد، وقسم آخر عكف على دراسة أصول الدين، فاتضح له فساد الأوضاع التي تطورت إليها أنظمة الكنيسة.

وقد ظهر مفكرون في أواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر ينادون بضرورة تطهير الكنيسة من المفاسد التي علقت بها[2].

6 ـ اختلاف أوضاع أوربا في منتصف القرن الثالث عشر عما كانت عليه في منتصف القرن الثاني عشر، حيث كانت النهضة الأوربية الوسيطة قد أخذت تؤتي أكلها، وأدت بالناس والمجتمع الغربي إلى التفكير في مثل جديدة وآمال جديدة وأهداف جديدة وحياة جديدة، الأمر الذي جعل المعاصرين يتجهون بنشاطهم نحو آفاق تتفق مع ما آمنوا به من مثل وآمال وأهداف. والواقع أنه كان من الصعب في عصر شهد نمو المدن وتضخم نشاطها الاقتصادي ونمو الملكيات وازدياد نفوذ الملوك على حساب أمراء الإقطاع، ونشأة الجامعات وما ارتبط بها من علوم حديثة وظهور الآراء والمذاهب الهرطقية التي انتقدت الكنيسة واستهدفت الحد من سطوتها، وازدهار الفن القوطي[3]، كان من الصعب في عصر شهد كل هذه التطورات

(1) عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور الحديثة، الأنجلو المصرية، 1977، جـ 1، ص 356.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 97.
(2) عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور الحديثة، ص 357.
وعن محاولات الإصلاح انظر: المرجع نفسه، ص 361 ـ 362.
(3) سعيد عاشور: أوربا جـ 2، ص 466 ـ 472.
نشأ عند نهاية القرن الثاني عشر لمداوة العيوب التي اتصف بها الفن الرومانسكي. والفن القوطي يمثل مظهراً عظيماً من مظاهر النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر، =

أن يظل الناس عبيداً للكنيسة ورجالها وأن يستنفدوا كل طاقاتهم وإمكانياتهم في حروب ضد المسلمين أثبتت التجارب عدم جدواها وقلة نفعها[1].

7 ـ فتور الحماسة للحروب الصليبية في الغرب الأروبي، بعد أن تغلبت المصالح الشخصية وساد بين الصليبيين الشقاق مما ساعد على القضاء عليهم[2]. بالإضافة إلى الهزائم المتكررة التي تلقاها الصليبيون حتى وصل الأمر إلى أسر ملوكهم نتيجة لارتفاع الروح الجهادية لدى المسلمين على أثر قيام الجبهة الإسلامية المتحدة.

كل هذه التيارات جعلت الغرب الأوربي ينصرف تدريجياً عن الكنيسة وتعاليمها وقيودها، ويتجه نحو حياة أكثر حرية وأوسع أفقاً، مما يشير إلى أن صالح الدولة في نظر المعاصرين أخذ يحتل مكانة أكثر أهمية من صالح الكنيسة، كما بدأ الشعور يسري بأن واجب الفرد نحو نفسه وإنسانيته وبلده يجب أن يسبق واجبه نحو كنيسته.

وقد ساعد هذا على أن يعيد المعاصرون النظر في حقيقة الوظيفة البابوية وأهمية البابا في المجتمع، ومصدر سلطاته الواسعة، ولا أدل على ما أصاب سمعة البابوية ومكانتها من ضعف وخور نتيجة للانشقاق الديني من ظهور بعض الحركات الهرطقية التي اتجهت نحو نقد الكنيسة وتصرفاتها وتجريح رجال الدين وعلى رأسهم البابا[3]، والإقلال من شأنهم.

وكانت النتيجة الحتمية لكل ذلك تناقص هيبة البابوية وضعف سلطانها

= كما يعبّر عن الحماسة الدينية التي سادت أوربا في ذلك العصر وظل الفن القوطي هو الطراز السائد في غرب أوربا حتى القرن السادس عشر وقد أطلق أحد فناني عصر النهضة وهو «فاساري» 1552 ـ 1574 على هذا الفن الاسم القوطي للتحقير والازدراء، حيث إنه يعبر عن روح البرابرة.

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1003 ـ 1004.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 135.

B. Tierney: Western Europe, p. 442-443.

(2) محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق، ص 98.

(3) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 98.

على النفوس، مما أفقد الحركة الصليبية رأسها الكبير وزعامتها القوية التي تعهدتها منذ بدايتها بالدعوة لها والسهر عليها للتوجيه والرعاية[1].

ويمكن تفسير ما ألم بالحركة الصليبية من فتور وبرود في أواخر العصور الوسطى من خلال أربعة تقارير مهمة حاولت إعطاء التحليلات لهذا الفتور في أوربا وكيفية تلافي ذلك ففي تقرير الأسقف برونو Bruno حوالى سنة 1273 م في عهد البابا جريجوري العاشر 1271 ـ 1276 م نجده يتطرق لعدة نقاط لإنقاذ الأراضي المقدسة منها؛ وضع حد للحروب الأوربية الداخلية وإصلاح الأوضاع الاجتماعية والدينية، وذلك في ظل حكم إمبراطور مسيحي قوي يتولى شؤون الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ثم أشار إلى أن الحروب الصليبية غدت عديمة الجدوى، لذا فيجب توجيه الطاقات العسكرية لتنصير الشعوب الوثنية في الأجزاء الشمالية الشرقية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبذلك يتحقق النفع من الناحيتين الروحية والمادية[2].

أما وليم الطرابلسي، وهو راهب عاش في إقليم عكا فقد أشار في تقريره إلى أنه لا يرى أملاً في الغرب في شأن إنقاذ مملكة بيت المقدس الصليبية من الخطر، وإنما يرى أملاً في زوال المخاطر التي تهدد الصليبيين بفضل معونة المغول، ثم قال بإنه لا يمكن الاحتفاظ بالأراضي المقدسة بحد السيف، وإنما عن طريق التبشير في أقاليم المشرق[3]. أما همبرت Humbrt of Roman وهو راهب دومنيكاني واسم تقريره أو كتابه هو التقرير الثلاثي Opus Triparkitum صدر حوالى عام 1274 م في عهد البابا جريجوري العاشر (1271 ـ 1276 م) فقد عالج ثلاثة أمور في تقريره هي المشكلة الصليبية وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية وإصلاح الكنيسة الغربية، وقال

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1133.

(2) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 581 ـ 582.

Setton: AHistory of The Crusades, vol 2, p. 343-377, 1962.

(3) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 582 ـ 584.
عبد القادر اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 218.

بعدم إمكانية تنصير المسلم عن طريق التبشير، لهذا فإن إنقاذ الأراضي المقدسة لا يتأتى إلا عن طريق مواصلة الحرب، وأن الأسباب التي فتت في عضد الأوربيين ثبطت هممهم عن تلك الحرب جاءت نتيجة للطمع والتقاعس والجبن، إذ لم يعد الكثير من الناس يؤمنون بالثواب المنتظر عن طريق المشاركة في الحروب الصليبية. ونادى كثيرون في أنحاء العالم المسيحي برأب الصدع بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، وقد ردد هذا الفريق أن الفساد الذي طرأ على أجهزة الكنيسة أضعف الوازع الديني وأشاروا بضرورة التعاون الوثيق بين السلطات السياسية والدينية في سبيل الحرب المقدسة[1].

كذلك أشار الشاعر «رتبف» W. Rutebeuf الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وعاصر أحداث تلك الفترة في قصيدة طويلة له بالفرنسية إلى ضعف الوازع الديني في الغرب الأوربي آنذاك حيث قال: في صراحة تامة أنه من الحماقة أن يخاطر الإنسان في حرب تتسم بالطابع الديني خارج بلاده ما دام بوسعه أن يتصل بالله في وطنه وهو مقيم بين أهله وعشيرته، حيث يعيش في نعمة ويسر وسلام، ثم يسخر الشاعر في قصيدته من رجال الدين الذين جعلوا من الحرب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال وتحقيق أطماعهم في الشرق[2]، كما يشير إلى الانحطاط الخلقي الذي تميز به هؤلاء المتدينون وبالتالي البابوية في تلك العصور الأخيرة مما جعلهم يبتعدون عن المستوى اللائق بهم[3].

ويمكن أن نلمس هذه الأسباب من خلال استعراض الدور البابوي في الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى.

(1) عبد القادر اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 219.
(2) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 98 ـ 99.
جوزيف نسيم: في تاريخ الحركة الصليبية، ص 110.
(3) Cam. Med. Hist., vol 5, p. 321.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين؛ ص 99.

ذلك أن أوربا في بداية القرن الثاني عشر لم تضن على الحروب الصليبية بالمال والرجال، مما ضمن للصليبيين في تلك المرحلة قدراً كافياً من المساعدات والعون، وظل الحال كذلك حتى منتصف القرن الثالث عشر، عندما فترت حماسة البابوية بفكرة استرداد الأرض المقدسة. ومنذ عام 1208 م صارت الحروب ضد الهراطقة في أوربا تعتبر في نظر معظم البابوات أهم من الحروب ضد المسلمين، فوجه البابوات الرجال والأموال التي جمعت لحرب المسلمين في الشرق نحو الحروب الأوربية[1] وهو ما يشير إلى أن الفتور اعترى القوى الأوربية، ولم يحفزهم على توجيه كافة الجهود الصليبية ضد المسلمين في الشرق خلال القرن الثالث عشر الميلادي؛ ولكن ليس معنى ذلك أن تيار الحروب الصليبية قد توقف وإنما اعتراه الفتور فقط.

وإذا كانت جموع الحجاج والصليبيين قد استمرت في طريقها إلى الأراضي المقدسة بعد الحملة الصليبية الثالثة (1189 ـ 1192 م)، فإن هذه الجموع كانت صغيرة وغير كافية لدعم الإمارات الصليبية في الشرق[2].

ويمكن أن نقرر أن الحملة الصليبية الرابعة (1202 ـ 1204 م)، كانت نقطة تحول مهمة في تاريخ الحروب الصليبية بصرف النظر عن نتائجها الخطيرة بالنسبة للتاريخ الأوربي بوجه عام، إذ أن الفشل الذريع الذي منيت به هذه الحملة أثار نوعاً من الفتور أصاب التيار الصليبي في حركته ضد المسلمين في الشرق[3]. ذلك أن أمراء أوربا آثروا مصالحهم القومية والأسرية على مسايرة التيار الديني كما أنهم استخدموا اسم الحرب الصليبية

(1) نقولا زيادة: دراسات إسلامية، ص 125.
(2) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 455.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 93.
أسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المجمع العلمي، جدة 1978.
K.M.Setton: History of The Crusades, p. 509.
(3) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 457.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 103 ـ 104.

منذ أيام هنري السادس (1190 ـ 1197 م) ذريعة ووسيلة لتحقيق مطامعهم الدنيوية، ولا شك في أنهم بهذه الوسيلة أسهموا إلى حد كبير في إخماد الحماسة الدينية القديمة التي اشتهرت في الحرب المقدسة[1].

بداية التحول نحو عالم جديد يستهدف التحرر من رجال الدين

بعد أن بلغت البابوية ذروة نفوذها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعرضت لهزات عنيفة زلزلت عرشها، وأضعفت مركز الكنيسة وهيبتها، ومهما تعددت الأسباب التي ساقها المؤرخون لتفسير هذه الأزمات التي أدت إلى إضعاف مركز الكنيسة بوجه عام والبابوية بوجه خاص في القرنين الرابع عشر والخامس عشر[2]، إلا أن هناك سبباً واحداً جديراً بأن يسترعي منا العناية والاهتمام، وهو تطور العقلية الأوربية والمجتمع الأوربي بوجه عام تطوراً دنيوياً، فالآفاق الجديدة التي أخذت تتفتح أمام الغرب نتيجة للنشاط التجاري، والتطور السياسي وتدفق العلوم الجديدة التي احتضنتها الجامعات الناشئة؛ هذه التيارات جميعاً جعلت الغرب الأوربي ينشغل عن الكنيسة وأهدافها وقيودها، ويتجه نحو حياة أكثر حرية وأوسع أفقاً، وهكذا جاء وقت أخذ صالح الدولة يبدو فيه أكثر أهمية من صالح الكنيسة، كما بدأ يرد الشعور بأن واجب الفرد نحو دولته ووطنه ينبغي أن يسبق واجبه نحو كنيسته، مما جعل السياسة العلمانية تشكل خطراً جسيماً على السياسة

(1) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 133 ـ 134.

J.Godfrey: The Unhloly Crusades, p. 149.

B.Tierney: Western Europe, p. 442-443.

محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق، ص 98.

فشر. هـ.أ.ل: تاريخ العصور الوسطى، ص 242.

محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 271.

(2) J.Calmette: Le Moyen Age, p. 512.

سعيدعاشور: أوربا في العصور الوسطى، جـ 1، ص 509.

الكنسية[1]. وثمة فترة في القرن الرابع عشر ظهر فيها تدهور نفوذ البابوية واضحاً بحيث لم يبق لها سوى القليل من سلطانها الواسع الذي كان عليه في القرن الثالث عشر، وهي الفترة الواقعة بين سنتي (1305 ـ 1377 م) والتي يطلق عليها في تاريخ البابوية اسم «الأسر البابلي»[2].

أما عن البابوية في النصف الأخير من القرن الخامس عشر، فقد فقدت كثيراً من مظاهر عظمتها وهيبتها الأولى، فضلاً عن ضياع ما كان لها من نفوذ سياسي وروحي تمتعت به في أوائل القرن الثالث عشر ذلك أن البابوات أصبحوا في تلك الفترة من المترفين الذين لا يعنيهم من أمر الكنيسة سوى الحصول على أكبر قدر ممكن من المال لتحقيق مصالحهم الخاصة، ومصالح أقاربهم وذويهم، هذا إلى أن الأسر البابلي والانشقاق الأكبر أضعف مركز البابوية بوجه خاص والكنيسة بوجه عام[3]، مما أدى إلى انتشار مبادىء الهرطقة سراً في كثير من البلاد الغربية وجهروا في بعضها لتقضي على ما تبقى من نفوذ وهيبة لرجال الدين[4]، وقد ساعد هذا على انبعاث الآراء الخاصة

(1) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 509.

(2) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 509؛ أرنست باركر: الحروب الصليبية، هامش ص 135.

سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 509 ـ 513.

عبدالقادر اليوسف: العصور الأوربية، ص 207 ـ 213.

الأسر البابلي:

يرجع الأصل التاريخي إلى ما حدث من طرد اليهود من بيت المقدس إلى بابل زمن بختنصر في سنتي 597، 586 ق.م وجرى استخدام اللفظ للدلالة على ما حدث من انتقال البابوات منذ 1309 ـ 1377، إلى أفينيون بفرنسا، زمن فيليب الجميل (الرابع) 1285 ـ 1314.

(3) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 519.

(4) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 519؛ للاستزادة عن الحركات الهرطقية العودة إلى نفس المرجع ص 520، وما بعدها.

عبد القارد اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، ص 253 ـ 255.

بالمتعة الشخصية والتأمل والدعوة إلى التحرر من سيطرة رجال الدين، وهي الآراء التي أدى انتشارها إلى تمزيق الوحدة التي كانت موضع فخر الكنيسة اللاتينية خلال المرحلة السابقة من حلقات العصور الوسطى[1] مما كان قد ساعد على انتشار شوكة الكنيسة[2]. ونجاح هذه المذاهب في الخروج من سيطرة رجال الدين بعد أن ساعدت النهضة الأوربية آنذاك على إنجاز هؤلاء لفكرهم.

ب - ازدياد أهمية العامل الاقتصادي وتغلبه على العامل الديني تدريجياً

ظل الاقتصاد الزراعي هو الغالب على المجتمع الأوربي في العصور الوسطى، ولكن إحياء المدن وظهورها على مسرح الغرب الأوربي في أواخر العصور الوسطى، كان من أهم عوامل التطور الاقتصادي والحضاري، لأنه في تلك المدن تمت المواجهة بين عبادة الله وعبادة المال وجهاً لوجه، وفي أحوال كثيرة عملتا متعاونين[3].

وبحلول القرن الثاني عشر أصدر عدد من الإقطاعيين الذين لمسوا المزايا الاقتصادية لوجود مراكز تجارية مزدهرة في أراضيهم براءات تضمن لتلك المدن حقوقها، بل لقد لجأ بعض الأمراء الواسعي الأفق إلى تشييد المدن وإصدار البراءات التي تضمن لها حريتها وسلامة نشاطها. وفي بداية الأمر كانت براءات المدن تختلف عن بعضها البعض إلى حد كبير، بيد أنه بمرور الوقت صار من المعتاد تشابهها مع بعضها البعض بعد وجود نماذج معروفة، مثل البراءة التي أصدرها ملك فرنسا لمدينة لوري، وهذه البراءات حولت الجماعات التجارية إلى وحدات لها كيان ذاتي من النواحي السياسية والقانونية[4].

(1) Speculum: vol. 65, October 1990, NO.4, p. 839.
(2) J.Calmette: Le Moyen Age, p. 572.
(3) هلستر (س. ورن): أوربا في العصور الوسطى، ص 162.
(4) هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ص 164.

ولا شك في أن قيام هذه المدن واتساع نشاطها أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصادية كما أدى إلى توفير الأموال التي استخدمت في بناء الكاتدرائيات القوطية؛ هذا فضلاً عن دعم الحملات الصليبية، وبمرور الوقت قدر للتيار الديني أن يكون ضحية لروح الحرص الشديد على المال الذي تفجر في تلك المدن[1]. هذا وإن كان أهل المدن قد ظلوا عامة على درجة من التقوى جعلتهم أكثر حيوية ونشاطاً وانفتاحاً على المجتمع مما كان عليه الفلاحون والطبقة الأرستقراطية، والواقع أن بقاء المسحة الدينية عند سكان المدن الأوربية صارت العامل الحاسم في انتعاش المسيحية في العصور الوسطى[2]؛ ولم يكن ذلك إلا بعد أن ركب الإيطاليون تيار الحرب الصليبية فبدأت أهمية العامل الاقتصادي تتضح على حساب العامل الديني الذي طالما تمسكت به الكنيسة. ذلك أن العلاقات والتبادل التجاري بين شطري العالم الغربي والشرقي ازدهرت وأصبح المشرق منفذاً لسوق الغرب[3]. حيث قامت إيطاليا بإقامة مستوطنات لها في الشرق، كما وضع الفرنج أيديهم على ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية مما عاد بالنفع على مدينة البندقية، حيث بدأت بذلك مرحلة جديدة في التجارة الدولية بين الشرق والغرب، وكان الفضل في هذا التطور للإيطاليين الذين دخلوا الشرق عن طريق البحر، وساهموا في توفير المدد والمؤنة للجيش الصليبي، وساعدهم على ذلك خبرتهم بأمور الملاحة البحرية. وقد استفادوا بتوسيع امتيازاتهم في المجال

(1) J.A.Brundage: The Crusades, p.59.
(2) هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ص 166.
(3) C.Cahen: La Syrie Du Nord, p. 691.
سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 2، ص 98.
V. Duruy: Histoire Du Moyen Age, p. 315.
مصطفى محمد عبد الخالق: علاقة القوى الصليبية في غرب البحر المتوسط، (دكتوراه القاهرة 1987)، ص 111.
أرشيبالد ر. لويس: القوى البحرية والتجارية، ص 391.
H.Lamb: The Crusades: The Flame of Islam, London, 1931, vol. 2, p. 389.

التجاري والملاحي، الدور الرائد الذي لعبه الجنويون في حماية أنطاكية وحصلوا مقابل ذلك على امتيازات في الشرق. كذلك حصلت بيزا على بعض الامتيازات التجارية مما ساعد إيطاليا على المساهمة في تطوير التجارة الدولية، والتي أصبح المشرق مركزاً لها. وميناء عكا، كما ساعدهم على توسيع مجال نشاطهم في سوريا[1]. ولم يقدم الإيطاليون تلك المساعدات للصليبيين بوازع ديني وإنما جرياً وراء مصالحهم الاقتصادية الخاصة، إذ رأوا في الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً[2]، وبعبارة أخرى فإنه إذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد قدمت المساعدات المطلوبة للصليبيين فإنها لم تفعل ذلك إكراماً للكنيسة، وابتغاء مرضاة الله، وإنما معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية بالشام، وحصلت بمقتضاها على الامتيازات الاقتصادية التي أشرت إليها[3].

وهكذا أصبح العامل الاقتصادي أساساً للحركة الصليبية وتراجع أمامه العامل الديني، إذ أن الكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب وحرب المسلمين، وإنما جرياً وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي، بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة، وعبثاً ذهبت صيحات العقلاء من

(1) C.Cahen: La Syrie Du Nord, p. 689.
K.M. Setton: Ahistory of The Crusades, vol. 5, p.380, 1985.
R. Grousset: L'Empire Du Levant, p. 15.
Cam. Med. Hist. vol, 5. p. 328.

(2) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 35 ـ 36.
مصطفى حسن محمد: حملة لويس التاسع على تونس، دار الصحوة، 1985، ص 66.
سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص 26.

(3) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 36.

الباباوات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذي يوشك أن يعصف بهم جميعاً، فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين والمستوطنين بعضهم وبعض أعمق جذوراً وأقوى أثراً وأكثر منفعة من شعور الولاء للدين والكنيسة[1].

كذلك شهد القرن الثالث عشر استبدال طرق التجارة القديمة بأخرى جديدة، فبعد أن استولى الصليبيون في الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية عام 1204 م معقل طريق القسطنطينية التجاري، كما أتاحت الحرب الصليبية ضد الهراطقة الألبيجنسيين Albigensians[2] في غرب أوربا فرصة أتاحت لملوك فرنسا الحصول على منافذ تجارية جديدة على البحر المتوسط، فدخلت مارسيليا وبرشلونة في دائرة النشاط التجاري مع الشرق، أما شمال أوربا فإن الفرسان التيتون الذين استقروا على الشاطىء الشرقي لبحر البلطيق مارسوا نشاطاً تجارياً واسعاً كما أسسوا عدة موانىء أهمها ليبا وميمل وريفال[3].

وفي أواخر القرن الثالث عشر أخذ ملوك أرغونة يقيمون علاقات قوية مع سلاطين المماليك في مصر والشام، من أجل رعاية مصالح الكاثوليك في الشرق، وفتح أسواق جديدة لأرغونة في مصر. وبذلك أثبتت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية، وصار لكل من البندقية وجنوة وأرغونة تجارة نامية مع مصر، وأدت هذه العلاقات التجارية الطيبة

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 37.

(2) سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 264 ـ 269.
عبد القادر اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، ص 256 ـ 258.
هم الكاتاريون Cathari أي الأطهار. وكانت تعاليمهم ذات أصل شرقي وعلى صلة بتعاليم المانويين. وعليه فقد قام هذا المذهب على الثنائية المطلقة. ويلاحظ أن التعاليم الكاتارية تنادي بتعاليم تتعارض تعارضاً كبيراً مع تعاليم الكنيسة مما جعل الموقف بينهم وبينها مسألة حياة أو موت. ويبدو أنهم بلغوا درجة كبيرة من الكثرة حول مدينة ألبي Albi في كونتية تولوز مما جعلهم ينسبون إليها.

(3) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 2، ص 305.

بالمماليك على التوسط لصالح المسيحيين الكاثوليك المقيمين في أراضي الدولة المملوكية آنذاك[1]، مما يشير إلى ازدياد العامل الاقتصادي على حساب العامل الديني أواخر العصور الوسطى.

جـ- انهيار البناء الصليبي في بلاد الشام يصيب المجتمع الغربي بخيبة أمل

كان لاجتماع الشمل الإسلامي في منطقة الشرق الأدنى خلال العصرين الأيوبي والمملوكي أثره المباشر في تقوية الجبهة الإسلامية على حساب الجبهة الصليبية التي بدأ الضعف يدب في أوصالها مما أنذر بانهيار البناء الصليبي في بلاد الشام[2]، وهناك أسباب عديدة أدت إلى هذا الضعف منها: انشغال أوربا عن مواصلة تقديم العون للصليبيين بسبب مشكلاتها الداخلية، إلى جانب فتور الحماسة الدينية للفكرة الصليبية نفسها، وتشكك الأوربيين فيها، وفي جدواها وفائدتها؛ وقد أدى هذا كله إلى نقل زمام المبادأة إلى يد المسلمين الذين أخذوا يوجهون ضرباتهم القوية إلى المعاقل والحصون الصليبية في الشام، حتى انتهى الأمر بإخراجهم من آخر معاقلهم بالشام في

(1) فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، الإسكندرية 1988، ص 8.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 11، 1966، ص 324 ـ 327.
عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ط 1، المطبعة الخيرية، 1322هـ، ص 15 ـ 19.
جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية وصراع القوى، ص 106.
سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة 1965، ص 50 ـ 59.
حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، 1948، ص 6.
انظر: المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 102، (أغسطس 1987).

عهد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل أواخر القرن الثالث عشر الميلادي[1]، وهو ما سوف نعرض له تفصيلياً في السطور التالية:

قام الزنكيون في الشام الفترة من (1128 ـ 1174 م/ 522 ـ 570 هـ) بمحاولة استعادة الأراضي الشامية من الصليبيين، فقام عماد الدين زنكي في سنة 530 هـ/ 1136 م بالاستيلاء على حماه[2] وفي سنة 531 هـ/ 1137 م حاصر عماد الدين زنكي قلعة بعرين وقاتل الصليبيين فيها قتالاً عنيفاً استسلموا بعده لعماد الدين، ودانت له القلعة وفي نفس العام كان فتح المعرة وكفر طاب وأخذهما من الصليبيين، وفي سنة 539 هـ/ 1144 م تمكن عماد الدين من فتح مدينة الرها بالسيف رغم الحصانة والمنعة التي كانت عليها المدينة، ثم اتجه بعد ذلك إلى سروج وهرب منها الإفرنج فملكها[3].

وفي سنة 559 هـ/ 1164 م تمكن نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي من فتح قلعة حارم وأخذها من الإفرنج بعد أن قتل منها الكثير، وأسر منهم أيضاً الكثير ومنهم صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس، ثم سار

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1، القسم الثالث، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939، ص 756 ـ 777.
جوزيف نسيم: الإسلام والمسيحية، ص 106.
سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ط 1 دار النهضة العربية، القاهرة 1965، ص 58 ـ 74.
سيد علي الحريري: الحروب الصليبية، ط 1 تحقيق د. عصام محمد شبارو، دار التضامن للنشر، بيروت 1988، ص 264 ـ 279.
مصطفى عبد الخالق: علاقة القوى الصليبية، (رسالة)، ص 116.

(2) أبو الفدا: المختصر جـ 5، ص 8.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 1، ص 35 ـ 41.
حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، ص 22 ـ 24.

(3) أبو الفدا: المختصر جـ 5، ص 19 ـ 20.
ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 2، ص 41.
ابن الأثير؛ الكامل في التاريخ جـ 11، ص 51 ـ 52.

إلى بانياس في نفس السنة وتمكن من فتحها بعد أن استمرت في أيدي الصليبيين منذ سنة 543 هـ/ 1148 م[1].

وبعد ذلك انتقلت زعامة الجبهة الإسلامية إلى مؤسس الدولة الأيوبية العفيف المجاهد صلاح الدين الأيوبي[2]، (1169 ـ 1193 م / 564 ـ 589 هـ) ربيب البيت الزنكي والذي ورث عن هذه الأسرة أمر الجهاد والنضال ضد الصليبيين، ففي عام 570 هـ/ 1174 م تمكن من امتلاك مدينة

(1) القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 279 ـ 280.
ابن واصل (جمال الدين محمد): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ 3، تحقيق جمال الدين الشيال، الإسكندرية 1960 ص 93.
أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جزءان، مطبعة وادي النيل، القاهرة 1288هـ، ص 36.
أبو الفدا: المختصر جـ 5، ص 57.
ابن الوردي: المختصر جـ 2، ص 67.
ابن الأثير؛ الكامل في التاريخ جـ 11، ص 301 ـ 305.
السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص 19.
فيليب حتي: تاريخ العرب جـ 3، ص 763.
عبد الوهاب زيتون: الحروب الصليبية هل انتهت؟، ط 1، دار المعرفة، دمشق 1992.
M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome 2, p. 142.
M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome 1, p. 360.
Recueil Des Histoirens, Tome 1, p. 26.
سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 29.
C.W.Hollister: Medieval Europe, p. 166.
كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 346 ـ 350.

(2) Jean lugol: Le Panarabisme, p. 127.
Joseph calmette: Le Moyen Age, p. 436-439.
أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ص 154.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ 6، ص 3 ـ 5.
الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 14 ـ 15.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 7.

حماة، ثم سار إلى حمص فرحل الفرنجة عنها وحاصر قلعتها، وتمكن من امتلاكها في الحادي والعشرين من شعبان من سنة 570 هـ/ 1174 م ثم سار إلى بعلبك فتملكها. وفي سنة 579 هـ/ 1183 م ملك صلاح الدين حصن آمد بعد حصار وقتال، ثم سار إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب فملكها[1]، ثم بعد ذلك فتح القائد مدينة طبرية، وقد أدى ذلك إلى اجتماع الفرنج في سنة 583 هـ / 1187 م يريدون القائد، فخرج إليهم من طبرية وسار إليهم يوم السبت 25 ربيع الآخر، وتقابل الجيشان في حطين حيث اشتد القتال، وتمكن المسلمون من هزيمتهم وأبادوهم قتلاً وأسراً وكان في جملة من أسر الأمير أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل[2]، وبعد هذا النصر اتجه صلاح الدين إلى القدس ليفتحها، بعد أن اجتمع فيها كل من نجا من

(1) أبو الفدا: المختصر جـ 5، ص 77 ـ 89.
أبو شامة: الروضتين جـ 2، ص 44.
ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 2، ص 83 ـ 84.
ابن الأثير: الكامل جـ 11، ص 412 ـ 431.
ابن الوردي: نفسه جـ 2، ص 93.

(2) أبو الفدا: المختصر، ص 95.
أبو شامة الروضتين، ص 67.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ 6، ص 26 ـ 33.
الأصفهاني: الفتح القسي، ص 15 ـ 35.
ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مجلد 7، مطبعة دار القلم، بيروت 1971، ص174 ـ 183.
أبو اليمن القاضي مجد الدين الحنبلي: كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل جـ 1، القاهرة 1283، ص 284 ـ 286.
ابن جبير: رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة 1955، ص 288.
انظر كذلك مجلة المستقبل العربي: «في ذكرى الانتصار على الصليبيين»، العدد 102، (أغسطس 1987).
Recueil, p. 520.

المعارك السابقة، وعندما أدرك الفرنج أنه لا قبل لهم بالصمود أمام قوة المسلمين طلبوا الأمان، فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك بشروط أوفوا بها. وسلمت إليه المدينة في 27 رجب 583 هـ/ 1187 م وكان يوم جمعة[1]، وبسقوط القدس تصدع البناء الصليبي في بلاد الشام واضطرت المملكة الصليبية اتخاذ عكا مقراً لها، ولم تفلح الحملة الصليبية الثالثة التي خرجت من الغرب سنة 585 هـ/ 1189 م في إعادة ترميم هذا البناء[2].

واتجه صلاح الدين بعد استرجاع مدينة القدس إلى عكا فدخلها المسلمون في 9 يوليو سنة 1187 م/ 583 هـ، واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر، وأطلقوا سراح كل من كان بها من الأسرى المسلمين[3].

وفي أثناء مقام صلاح الدين بعكا أرسل عساكره إلى «الناصرة»

(1) أبو الفدا: المختصر جـ 5، ص 97.
أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي: شذرات الذهب جـ 4، ص 274 ـ 275.
أبو اليمن القاضي: الأنس الجليل جـ 1، ص 290.
سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 33.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 766 ـ 795.
السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبين، ص 217.
H.Lambn: The Crusades, vol 2, p. 69.
P.W.Edbury: William of Tyre, p. 153.
Jean Longnen: L'empire Latin, p. 12.

(2) الأصفهاني: الفتح القسي، ص 130 ـ 186.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ 6، ص 35 ـ 47.
د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ 2، ص 805 ـ 812.
أحمد رمضان أحمد: «حول وسائل الصراع المسلح الإسلامي الصليبي في العصور الوسطى».
المستقبل العربي، العدد 102، (أغسطس 1987)، ص 84.

(3) أبو الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب، ص 285.
أبو اليمن القاضي: الأنس الجليل، ص 286 ـ 287.
السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبين، ص 85.
Jean Longnen: L'Empire Latin, p. 12.

و«قيسارية» وحيفا وصفورية، والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة، فاستولوا عليها ثم استولوا على نابلس وصيدا وبيروت وتسلم جبيل مقابل إطلاق سراح صاحبها، الذي وقع في الأسر يوم حطين ثم سار السلطان إلى عسقلان لما لها من أهمية بسبب وقوعها على الطريق المؤدي إلى مصر فاستولى في طريقه إليها على الرملة، وبيت لحم والخليل ثم اجتمع بأخيه العادل الذي جاء بالعساكر المصرية، وتقرر منازلة عسقلان على أنها لم تلبث أن استسلمت في 583 هـ/ سبتمبر 1187 م مقابل إطلاق سراح الملك «جاي لوزجنان» (من آل لـوزجنان ملوك قبرص) ومقدم الداوية[1]، واستولى صلاح الدين أيضاً على حصون الداوية وهي غزة والبطرون وبيت جبريل، وكذلك أذعنت المدن والحصون الداخلية الواقعة جنوبي بحيرة طبرية ما عدا الشوبك والكرك، إذ بقي هذان الحصنان وحصون كوكب وصفد وشقيف أرنون على المقاومة[2].

بعد ذلك توجه صلاح الدين إلى قلعة صفد فحاصرها وتسلم القلعة في 585 هـ/ 1189 م، ثم استولى على حصن كوكب في يناير 1189 م/ 585 هـ وسار أهله إلى صور، حيث اجتمع بها من الصليبيين عدد كبير، واشتدت شوكتهم وصاروا يطلبون الإمداد من الغرب الذي ما لبث أن قدم إليهم قدر كبير من المساعدات، وبذلك لم يبق من حصون المملكة من غير استسلام سوى حصن شقيف أرنون، وبذلك سقطت كل مملكة بيت المقدس في يد صلاح الدين ما عدا صور وشقيف أرنون، وصمدت طرابلس وبرج

(1) انظر: ملحق رقم (4)؛ سعيد عاشور: أوربا، جـ 1، ص 284ـ285، 450ـ451.
نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام (رسالة القاهرة 1975).
حسن عبد الوهاب حسنين: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون.

(2) الأصفهاني: الفتح القسي، ص 33 ـ 39.
أبو اليمن القاضي: الأنس الجليل، ص 287 ـ 290.
أبو شامة: الروضتين جـ 2، ص 273.
ابن خلكان: وفيات الأعيان مجلد 7، ص 188 ـ 195.
السيد الباز العريني: مصر في عهد الأيوبيين، ص 85 ـ 86.

الطرسوس وحصنان آخران للداوية، وحصن الأكراد للاسبتارية[1]، أما أنطاكية فلم يبق منها سوى أنطاكية ذاتها وحصن المرقب[2] ولا شك في أن فتوحات صلاح الدين أحدثت تغييراً كبيراً في وضع كفتي الميزان بين المسلمين والصليبيين، فخسر الصليبيون تفوقهم الحربي والسياسي، وتحول المسلمون من الدفاع إلى الهجوم، أما الكنيسة الشرقية والرعايا الأرثوذكسية فقد رحبوا بعودة الحكم الإسلامي لما هو معروف عنه من تسامح المسلمين، وللعداء التقليدي بين كنيستي القسطنطينية وروما[3].

قد اهتز الغرب الأوربي لذلك التحول الذي حدث في بلاد الشام فاعتبروا انتصارات صلاح الدين كارثة خطيرة، وانطلق المتحمسون للدعوة لاستعادة ما ضاع من الممتلكات الصليبية في الشرق، وشجعهم على ذلك أن بعض المعاقل والحصون كانت ما زالت صامدة أمام الفتوح الإسلامية، كما أن صور صارت قاعدة قوية للصليبيين.

لم تلبث أن وصلت الأخبار إلى الأراضي المقدسة بأن حملة صليبية في الطريق إلى الشرق بقيادة إمبراطور ألمانيا وملكي انجلترا وفرنسا، فانتعشت آمال اللاتين[4]، وعندما وصلت هؤلاء الصليبيون الجدد إلى عكا وأحكموا

(1) للمزيد عن الفرق الدينية. انظر: ملحق رقم (4)؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 284 ـ 285، 450 ـ 451.
نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام.
حسن عبد الوهاب حسنين: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون.

(2) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٧٤ ـ ١٧٥، ١٨٤ ـ ١٨٧.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص 192 ـ 195.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ 6، ص 38 ـ 50.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 6، ص 44 ـ 75.
السيد الباز العريني: مصر في عهد الأيوبيين، ص 90.

(3) J.Longnen: L'Empire Latin, p. 12.
السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص 91.

(4) الأصفهاني: الفتح القسي، ص 174 ـ 175. =

حصارهم للمدينة، وساعدهم على ذلك توالي الإمدادات عليهم، ومهما يكن من أمر فقد تعذر على هذه الحملة تحقيق كل أهدافها، لذلك أصيب الغرب الأوربي بخيبة أمل بسبب عدم تحقيق الثمار المرجوة من ورائها[1].

لم يتمكن الصليبيون من إنجاز أي تقدم بقية العصر الأيوبي وحتى بداية العصر المملوكي، الذي استطاع فيه بعض القادة إضعاف قوة الصليبيين والقضاء عليهم نهائياً، وهؤلاء هم بيبرس وقلاوون ثم ابنه الأشرف خليل[2]. أما المجاهد الظاهر بيبرس فإنه ما كاد يعتلي كرسي الحكم، حتى أخذ يهاجم الصليبيين وينتزع منهم المدن والحصون مثل قيسارية، وأرسوف وصفد ويافا، والشقيف، وحصن الأكراد، حصن عكا وغيرها عنوة أو مصالحة، وقد توج بيبرس فتوحاته بالاستيلاء على أنطاكية، وما إن توفي بيبرس 676 هـ/ 1227 م حتى انحصرت الممتلكات الصليبية في منطقة ساحلية صغيرة قرب عكا وطرابلس[3]. وقد خلف، بيبرس بعض أبنائه، حتى اعتلى السلطان المنصور قلاوون عرش السلطنة، فقام في 688 هـ/ أبريل 1289 م بفتح طرابلس[4]، وقد خلف المنصور قلاوون ابنه الأشرف خليل

= ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 2، ص 101.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 809 ـ 815.
رنسيمان: الحروب الصليبية، جـ 3، ص 19 ـ 28.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 84 ـ 93.
السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص 92.
Jean Longnen: L'Empire Latin, p. 11.

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 820 ـ 835.
رنسيمان: الحروب الصليبية جـ 3، ص 40 ـ 62.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 84 ـ 93.
Jean Longnen: L'Empire Latin, p 11.

(2) فيليب حتي: تاريخ العرب جـ 3، ص 767.
C.W. Hollister: Medieval Europe, p. 166-170.

(3) محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق، ص 97.

(4) ابن الوردي: تتمة المختصر جـ 2، ص 228 ـ 229. =

689 ـ 691 هـ/ 1290 ـ 1293 م الذي أكمل جهود أبيه الحربية، فجهز جيوشه وخرج على رأسها لفتح عكا[1] فتمكن من فتحها في 690 هـ 18 مايو 1291 م وكانت آخر معاقل اللاتين الكبرى في الشرق[2]، وبعد ذلك لم يستطع الإفرنج الاحتفاظ ببقية المدن الساحلية التي كانت لا تزال بأيديهم فانسحبوا من صور في 18 مايو ومن صيدا في 14 يوليو، واستسلمت بيروت في 21 يوليو ونزل المسلمون طرسوس في 3 أغسطس، وفي منتصف شهر أغسطس، دمر المسلمون قلعة عثليت Atlit بعد أن هجرها الداوية[3]. وبذلك أسدل الستار على الوجود الصليبي ببلاد الشام وعادت تلك البلاد من قيليقية شمالاً حتى غزة والحدود المصرية جنوباً لا يقطنها إلا أبناؤها وأهلها الحقيقيون[4]. على أن طرد آخر البقايا الصليبية من الشام أواخر القرن الثالث

= ابن تغري بردي: النجوم مجلد 7، ص 321.
المقريزي: السلوك جـ 1، ص 747.
سعيدعاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1113 ـ 1119.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 677 ـ 689.
فيليب حتي: تاريخ العرب جـ 3، ص 778.

(1) المقريزي: السلوك. جـ 1 القسم الثالث، ص 756 ـ 760.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ 8، ص 3 ـ 5.
C.W. Hollister: Medieval Europe, p. 166-170.
محمد العروسي: الحروب الصليبية، ص 97.
A.Duggan: The Story of The Crusades, London, 1963, p. 250.

(2) ابن تغري بردي: النجوم جـ 8، ص 4 ـ 9.
المقريزي: السلوك جـ 1 القسم الثالث، ص 763 ـ 775.
أبو اليمن القاضي: الأنس الجليل جـ 2، ص 436.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1119 ـ 1126.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 696 ـ 712.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 277.

(3) ابن تغري بردي: النجوم جـ 8، ص 10.
فيليب حتي: تاريخ العرب جـ 3، ص 779.

(4) = K.M. Setton: AHistory of The Crusades, vol. 3, 1975, p. 4.

عشر لا يعني نهاية الحروب الصليبية، إذ استمرت ذيول تلك الحروب في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ونهضت شعوب ودول البلاد العربية الإسلامية بدورها كاملاً في ذلك الدور الحاسم من أدوار الحركة الصليبية.

انحراف الحركة الصليبية ـ الحملة الرابعة سنة 1204

ولا أدل على انحراف الحركة الصليبية وتغلب الجانب الاقتصادي على الوازع الديني من الإشارة إلى الحملة الصليبية الرابعة سنة 1204 م، وقد أرادت البابوية بهذه الحملة تصحيح العجز الذي أبدته الحملة الصليبية الثالثة في استرداد بيت المقدس، فدعا البابا أنوسنت الثالث (1198 ـ 1216 م) لحملة كبرى تنتقم مما حدث على يد صلاح الدين، حتى إذا ما تم إعداد الحملة سنة 1200 م، استقر الرأي على أن تكون مصر وجهة هذه الحملة باعتبارها زعيمة العالم الإسلامي ومعقل القوى الإسلامية[1]، ولأن غزوها يجعل الصليبيين يستولون بسهولة على فلسطين، وأرسل القادة ضمن خطة عملهم سفارة إلى البندقية وعلى رأسها فلهاردوين لإجراء الترتيبات اللازمة لنقل الحملة بحراً[2] بمقابل مادي[3]، وعجز القائد الجديد عن دفع كل المبلغ المتفق عليه عندما أعد البنادقة السفن اللازمة لنقل الحملة، فعرض عليهم إعفاءه من باقي المبلغ إذا ساعدهم في إخضاع مدينة زارا الواقعة على

= سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1126.
سعيد عاشور: الحركة جـ 1، ص 12.

(1) Donal E. Queller: The Fourth Crusade, Univ of Pennyslvania, 1977, p. 8.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 892 ـ 893.
إسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، ص 7 ـ 45.

(2) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت 1990، ص 215.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 893.
إسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص 52.

(3) J.Godfrey: The Unholy Crusade, p. 23-27.
A. Duggan: The Story of the Crusades, p. 204.

ساحل دالماشيا التي تمردت عليهم وأعلنت خضوعها لملك هنغاريا[1].
وبالفعل اتجه الصليبيون إلى تلك المدينة وحاصروها وسقطت في أيديهم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام 1202 م، غير عابئين بتهديد البابا لهم بالحرمان[2]، وتحقيقاً للهدف الديني الذي أرادته البابوية من خروج هذه الحملة فإن خط سير الحملة بعد سقوط مدينة زارا كان مصر ليحقق لهم من خلالها السيطرة على الأراضي المقدسة، ولكن هذا الهدف لم يتحقق وانحرف سير الحملة إلى مدينة القسطنطينية نتيجة «رشوة مالية» دفعها الإمبراطور الكسيوس، الذي استطاع الهرب من سجنه ولجأ إلى قادة الحملة والصليبيين لمساعدته في استرجاع عرش بيزنطة[3] المسلوب مقابل مائتي ألف مارك، وبتبعية الكنيسة الشرقية للكنيسة الغربية اللاتينية[4] وأن يقدم عشرة آلاف جندي للمساهمة في استرداد الأراضي المقدسة[5] وفي غزو

(1) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 216.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 893.
إسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية، ص 63.

K.M. Setton: History of Crusade, vol. II, p. 168.

(2) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 216.

K.M. Setton: Ahistory of The Crusades, vol.II, p. 168.
ديفز هـ.و: أوربا في العصور الوسطى، ص 198.
عادل زيتون: العلاقات السياسية، ص 391.

A.Duggan: The Story of The Crusade, p. 205.

(3) K.M. Setton: Ahistory of The Crusades, vol. II, p. 168, 178.
J.Godfrey: The Unholy, p. 147.
Marcel Julian: Histoire De La France, Tome II, p. 279.

(4) A. Duggan: The Story, p. 207.
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 205 ـ 206.

Setton: Ahistory of The Crusades, vol. II, p. 174.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، هامش ص 101 ـ 102.

(5) A.Duggan: The Story, p. 206.
J.Godfrey: The Unholy, p. 197.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 102.
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 205.

مصر[1]، ولقد لقيت مهاجمة بيزنطة التأييد من معظم كبار المسؤولين الأوربيين بالإضافة إلى موافقة البابا نفسه على هذا المشروع، طالما أنه يحقق فكرة البابوية العالمية في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيادة زوما بعد قطيعة سنة 1054 م.

كما وافق البنادقة أيضاً لإبعاد الضربة عن مصر بعد أن منحهم الملك العادل الأيوبي امتيازات تجارية قيمة في ميناء الإسكندرية، جعلت جميع التجارة مع ممالك الهند في أيديهم[2]، كذلك رحب قادة الحملة الصليبية بهذه الفكرة لإرضاء البابوية بعد تمردهم عليها عندما هاجموا مدينة زارا، وتم الاتفاق في يناير عام 1203 م على مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية[3].

وفي أواخر أغسطس 1203 أرسل القادة الصليبيون خطاباً إلى البابا وإلى ملوك وسلاطين الغرب يشرحون فيه قرارهم بالذهاب إلى القسطنطينية، موضحين في ذلك الخطاب تجاربهم منذ رحيلهم من مدينة «زارا»، ويعلنون تأجيل الهجوم على مصر حتى الربيع التالي، مناشدين كل الصليبيين في أوربا أن يلحقوا بشرف الانضمام للعمل المجيد ضد الكفرة، ويعتبر هذا الخطاب هو أول كلمة وصلت البابا أنوسنت الثالث منذ رحيلها في أبريل من زارا[4]، وهكذا انحرفت الحملة رسمياً عن هدفها الديني الأصلي، واتجهت صوب القسطنطينية، واستولت عليها في الثالث عشر من أبريل عام 1204 م، وهرب

(1) ديفز (هـ.و): أوربا في العصور الوسطى، ص 199.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص 894.

(2) سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، 217.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 894 ـ 895.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 206.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 103.

(3) Speculum: vol XXVII, No 3, July 1952, p. 281.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 895.

(4) K.M. Setton: Ahistory of The Crusade, vol. II, p. 180.

الإمبراطور البيزنطي الكسيوس[1] الثالث، وجلس على العرش إسحق الثاني 1203 وإلى جانبه ابنه الكسيوس الرابع الذي ما لبث أن انفرد بالعرش، لكنه عجز عن الوفاء بوعوده المالية لقادة الحملة، فانتهى الأمر بعزله وإزالة الإمبراطورية البيزنطية، وإقامة الإمبراطورية اللاتينية التي جلس على عرشها «بلدوين التاسع» كونت فلاندرز، وقسمت الإمبراطورية الزائلة إلى حين على القادة الصليبيين والبنادقة، كما طرد البطرق البيزنطي ونصب بدلاً منه أسقفاً من البنادقة، وأرسلت الأخبار إلى الباب تنبئه بتوحيد الكنيستين، وهو أمل طالما كان يتمناه ويسعى إليه بعد قطيعة 1054[2].

وهكذا أقيمت إمبراطورية لاتينية على أنقاض الإمبراطورية البيزنطية، غير أن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ استطاع ميخائيل الثامن البيزنطي الاستيلاء على القسطنطينية سنة 1261 م، وبذلك انتهت الإمبراطورية اللاتينية التي أقامها الصليبيون سنة 1204 وعادت الإمبراطورية البيزنطية إلى سابق عهدها[3]، ويمكن القول من خلال أحداث هذه الحملة أن توجيه أحداثها كان للمصالح الاقتصادية والأهداف الدنيوية أكثر من الدينية[4]، لهذا فهي

(1) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب، ص 217.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 102.
A.Duggan: The Story, p. 209.
فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص 244.

(2) ابن الأثير: الكامل جـ 12، ص 190ـ 191.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 224 ـ 227.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 102 ـ 103.
محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب، ص 218؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 897 ـ 898.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب جـ 3، ص 160.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 899.
P. Gagnol: Histoire Du Moyen Age, p. 303.

(4) جوزيف نسيم: العرب والروم، ص 77.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 94 ـ 104. =

تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية، إذ فترت بعدها الحماسة الصليبية، واتضح أن المصالح الاقتصادية والتجارية أخذت تحتل المكانة الأولى في تفكير المعاصرين، ثم إن الحملة الرابعة زادت من البغضاء والعداء بين الكنيستين الشرقية والغربية[1]، وحرمت الصليبيين بالشام[2] من مساعدة إخوانهم المسيحيين في القسطنطينية وقت الشدة، وجعلت الطريق البري إلى الشام أصعب منالاً وأشد خطورة على الصليبيين[3].

وهكذا أدت الحملة الصليبية الرابعة بطريق مباشر أو غير مباشر إلى إضعاف مركز الصليبيين بالشام وخراب ديارهم وهي الحملة التي كان مفروضاً منها أن تنجد الصليبيين بالشام وتخفف عنهم وتدعم مركزهم وتعينهم على مقاومة الضغط الإسلامي الواقع عليهم، لذلك لا عجب إذا رأى مجموعة من مؤرخي الحروب الصليبية أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها[4].

د ـ فشل بعض المتدينين من حكام الغرب الأوربي في إحياء الروح الصليبية

وبعد فشل الحملة الرابعة في تحقيق هدفها الصليبي تعددت الحملات الصليبية الأخرى على الشرق الإسلامي، غير أنها لم تنجح في ذلك ولم تفلح كذلك في إحياء الروح الصليبية، حتى كانت الحملة السابعة (1226 ـ 1270 م/ 623 ـ 669 هـ) بزعامة القديس لويس التاسع

W.B. Stevenson: The Crusaders, p.184. =

(1) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 457.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 103 ـ 104.
Speculum: vol XXIX, No 1, January, 1954, p.68.

(2) إسمت غنيم: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص 99 ـ 100.

(3) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 900.

(4) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 901.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 103.
W.B. Stevenson: The Crusaders, p. 103.

(1226 ـ 1270) الذي حاول قدر طاقته إحياء تلك الروح المفقودة[1]، وذلك عقب عودة بيت المقدس للمسلمين للمرة الثانية عام 1244 م/ 642 هـ، فقام بتجهيز حملة صليبية لاستردادها، وخرج على رأسها عام 1248 م/ 646 هـ[2] متجهاً إلى مصر، يرافقه جماعة من أقرب الناس إليه منهم إخوته الثلاثة والسيد جوانفيل مؤرخ سيرته، ومكث في جزيرة قبرص عاماً كاملاً[3] حتى استكمل استعداداته، فاتجه في ربيع 1249 م/ 647 هـ لمهاجمة مصر[4]. ولكن هذه الحملة انتهت بهزيمة الصليبيين ووقع لويس نفسه في الأسر، مما أدى إلى عقد معاهدة تنص على رحيله عن دمياط، وأن يدفع فدية كبيرة مقابل إطلاق سراحه، فرحل عن مصر في منتصف (648 هـ/ مايو 1250 م) مهزوماً منكسراً[5].

(1) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 105، 120 ـ 123.
محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب، ص 306.

(2) J.R. Smith: What Were The Crusades, p. 50.
H.E. Mayer: The Crusades, p. 252-253.
محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 223.

(3) F-Valentin: Abrége de La Histoire, p. 236.
السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص 139.
A.Duggan: The Story, p. 232.
H.E. Mayer: The Crusades, p. 256.
كذلك انظر جوانفيل: القديس لويس، ط 1 ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة 1968.
Joinville: Memoirs of The Crusades, Tran. F-T. Morzials, E. p. dutton and CO, inc. New york, 1958.

(4) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 121.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص ح44 ـ 452.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1004 ـ 1025.

(5) K.M. Setton: Ahistory of The Crusades, vol II, p. 493-495.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 122.
محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا، ص 223.
سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 273. =

ولا شك في أن هذه الهزيمة كان لها أثرها في فقدان الحماسة الدينية في الغرب الأوربي مما أضعف الحركة الصليبية التالية[1].

ذلك أن الحملات الصليبية لم تتوقف، وإن كانت الحماسة الصليبية قد ضعفت فإنها لم تخمد، ولم يلبث لويس التاسع نفسه أن شرع عقب عودته إلى بلاده في الإعداد لحملة صليبية أخرى أطلق عليها بعض المؤرخين الحملة الصليبية الثامنة[2]، وقد اقترح عليه أخوه شارل دانجو توجيه الحملة الجديدة من المشرق الإسلامي إلى المغرب الإسلامي، وبالتحديد تونس التي كان يحكمها حاكم يلقب أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين هو أبوعبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي (647 ـ 676 هـ/ 1249 ـ 1277 م)، وفي ذلك ما فيه من إشباع العاطفة الدينية، فضلاً عن أن تملكها يسهل الوصول إلى الأماكن المقدسة وانتزاعها من أيدي المسلمين[3]. وبمجيء سنة 669 هـ/ 1270 م توجه لويس التاسع بأسطوله تجاه السواحل التونسية،

= سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1024 ـ 1025.
Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 316.
أبو بكر بن عبد الله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ 7، تحقيق د. سعيد عاشور، القاهرة 1972، ص 379، 381.
المقريزي: السلوك ص 377.

(1) K.M. Setton: Ahistory of The Crusades, vol. II, p. 467.

(2) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 129؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1176 ـ 1177.
عبد الناصر جبار: بنو حفص والقوى الصليبية (رسالة) ص 219.
مصطفى حسن محمد: حملة لويس التاسع، ص 15.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 277.
A.Duggan: The Story of The Crusades, p. 468.
مصطفى حسن محمد: حملة لويس التاسع الصليبية على تونس، الإسكندرية 1985.

(3) محمد العروسي: الحروب الصليبية، ص 100.
عبد الناصر جبار: بنو حفص والقوى الصليبية (رسالة)، ص 9.
مصطفى حسن محمد: حملة لويس التاسع، ص 137 ـ 144.

واستبسل العرب المسلمون التونسيون في الدفاع عن تونس، ولجأوا إلى قلاع قرطاجنة الحصينة، ولكنها سقطت في يد الملك في 24 يوليو 1270 م / 669 هـ؛ على أنه لم يقدر لهذه الحملة أن تحقق النجاح المنشود بسبب نقص المؤنة والماء، وارتفاع الحرارة وكثرة الأمراض في صفوف الجيش ووفاة الملك لويس نفسه في 25 أغسطس 1270 م / 669 هـ، فعادت الحملة إلى فرنسا، وطويت أحلام الصليبيين في غزو العالم الإسلامي من جهة الغرب[1] وهكذا فشلت محاولات لويس التاسع في إحياء الروح الصليبية.

مشاريع الدعاة[2] وعدم إمكانية تنفيذها عملياً

على أنه لم يكن من السهل على أوربا أن تستكين أمام انهيار مخططها الصليبي الذي استنفذ الكثير من طاقتها طوال قرنين من الزمان، ضحى فيها الصليبيون بخيرة فرسانهم، والكثير من شبابهم فضلاً عن ثرواتهم وأموالهم، وهو الأمر الذي أدى بالمثقفين والكتاب والأدباء فضلاً عن بعض كبار رجال الدين إلى الاهتمام بكتابة تقارير يرفعونها إلى الباباوات، لشرح وجهة نظرهم في كيفية استعادة الممتلكات الصليبية في بلاد الشام إلى ما كانت عليه، ولم يقتصر الأمر على الجانب النظري، فنادى البعض بفكرة تنصير المسلمين عن طريق التسلل السلمي البعيد عن استعمال القوة، لا سيما بعد أن فشلت

(1) M.Jullian: Histoire De La France, p. 301.
محمد العروسي: الحروب الصليبية، ص 102.

A.Duggan: The Story of The Crusade, p. 245.
K.M. Setton: Ahistry of The Crusades, vol. II, p. 516.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 499 ـ 502.
سعيد عاشور: أضواء جديدة، ص 66.
مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة جـ 3، ص 354.

Atiye:The Crusades in Later Middle Ages, London, 1938, p. 401.
Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 360, 1980.
(2) انظر: أحمد سعد الدين البساطي: (التبشير) وأثره في البلاد العربية الإسلامية، مكتبة الإيمان، القاهرة 1989.

الحروب في تحقيق الأهداف الصليبية في الشرق، كما فشلت في الحوض الغربي بعد فشل حملة لويس التاسع على تونس، وكان سبيلهم إلى ذلك بث الدعاة للتنصير السلمي، الذي يحقق تنصير أكبر عدد من المسلمين[1]، وبذلك يسهل السيطرة عليهم ويتحقق لهم في ضوء ذلك ما لم يتحقق بالحروب، وكان أن تتابع الدعاة لبث أفكارهم التنصيرية، خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر مستهدفين تنصير مسلمي العالم؛ وأعطى القديس لويس دوراً كبيراً للعمل التنصيري آنذاك عندما أرسل في سنة 1252 م/ 650 هـ أحد الرهبان «الفرانسيسكان»[2] واسمه «وليم William of Rulruguiz» إلى الخان الأعظم المغولي في أواسط آسيا لدعوته للدخول في المسيحية. وكان لويس التاسع يرجو أن يؤدي تنصير المغول إلى ضرب البلاد الإسلامية من الشرق، وبذلك تصبح عملية استعادة فلسطين سهلة الإنجاز[3].

(1) مصطفى محمد عبد الخالق: علاقة القوى الصليبية (رسالة). ص ١٢٤.
محمد مورو: المواجهة بين الإسلام والغرب، الدار المصرية للنشر، 1993، ص 48.
أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 341.
أحداث العالم الإسلامي، الجزء الثاني، وكالة الأنباء الإسلامية، دار الاعتصام، القاهرة 1993، ص 9 ـ 10.

Atiya: The Crusades in Later Middle Ages, p. 95.
(2) ظهرت في القرن الثالث عشر منظمات أهمها منظمة الإخوان الفرنسيسكان ومنظمة الإخوان الدومنيكان، وكلها ترمي إلى حياة البساطة وإصلاح الكنيسة وحمايتها من الآراء الهرطقية.
سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 520.

(3) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 325.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 510 ـ 512.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1215.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 126.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 83.

وقد برز بين هؤلاء الدعاة «ريموند لول Raymond Lull» 1232 ـ 1315 م المنصر الأسباني الذي تعلم العربية بنفسه، ودرب إخوانه لإتمام العمل كأتباع مخلصين للمسيح ولرسله الذين كانت أسلحتهم لغزو الوثنيين، وهي فقط «المحبة والصلاة والدموع» على حد قوله، واستمر في عمله التحضيري هذا عشر سنوات متواليات، ثم بدأ بعد ذلك مشروعه التنصيري بنشاط منقطع النظير بين التتار والشعوب الأرمنية في الشرق ومسلمي المغرب الإسلامي[1]، يحثهم على اعتناق الديانة المسيحية في مذهبها الكاثوليكي على اعتبار أنها الديانة الحقيقية وأن ما عداها ليست إلا هرطقات، ولكي ينفذ «لول» هذا الهدف رأى اتخاذ خطوتين على جانب كبير من الأهمية، الأولى تنشيط الدور الصليبي، والثانية تأسيس نظام تنصيري تحت رعاية الكنيسة، يمكن من خلاله كسب العالم الإسلامي بالطريقة السلمية القائمة على الإقناع وتحكيم العقل[2].

وقد بدأ «لول» عمله التنصيري عام 1263 م/ 661 هـ باستعمال أسلوب الكتابة والخطابة في تنفيذ برنامجه وشرح وجهة نظره، واتجه كذلك إلى إنشاء معاهد لتعليم اللغة العربية، بمساعدة الملك «جيمس الثاني» (1291 ـ 1327 م) ملك أرغونة، فشيدت كلية «ميرامار» لتعليم اللغة العربية للفرسان الفرنسيسكان لإعدادهم لمهمة العمل التنصيري وكان ذلك عام 1276 م/ 675 هـ، وبعد ذلك شيدت مدارس لنفس الغرض على غرار كلية «ميرامار»، وعلى أثر سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام سنة 1291 م/ 690 هـ على يد المجاهد الأشرف خليل أبحر «لول» من جنوة إلى

(1) Cam. Med. Hist. , vol. 5, p. 325.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1135 ـ 1136، 1178 ـ 1179.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 723 ـ 724.

(2) Atiye: The Crusades, p. 74-76.
مصطفى محمد عبد الخالق: علاقة القوى، ص 127.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 724 ـ 727.
عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 84.

تونس عام 692 هـ/ 1293 م مدفوعاً بالعاطفة الدينية القوية راغباً في إقناع الأهالي بالتخلي عن العقيدة الإسلامية واعتناق الديانة المسيحية[1]؛ شجعه على ذلك التسامح الديني من جانب المسلمين بالمغرب، حيث مارس نشاطه التنصيري بنجاح فكان يلتقي بالجماهير، ويعقد معهم مناظرات دينية وهو يفيض حماسة دينية وكان يلهبه ويؤجج ناره سقوط عكا وطرد الصليبيين من الشام. غير أنه نفي من تونس دون أن يحقق أمله في دعوته التنصيرية، فذهب إلى نابلي ليحث البابا كلستين الخامس (1294 م/ 694 هـ) على أن يتبنى سياسة تنصيرية جديدة بين التتار، غير أن البابا لم يعبأ بما ذكره «لول» نظراً للمحاولات العديدة السابقة التي بذلها لويس التاسع في الفترة ما بين 1250 ـ 1254 م/ 648 ـ 652 هـ) أثناء وجوده في بلاد الشام، بعد إطلاق سراحه من مصر؛ هذا فضلاً عن المحاولات التي بذلتها البابوية أيضاً لإقناع المغول بقبول الدين المسيحي، لكن النتيجة في كلتا الحالتين كان سلبية[2]، ورغم ذلك فقد استجاب البابا «بونيفاس الثامن» 1294 م/ 694 هـ الذي خلف البابا «كلستين» لمطالب «لول» فأصدر قراراً ينص على أن تعمل الكنيسة على كسب المسلمين وأرضهم بواسطة دراسة لغتهم والتنصير بينهم أولاً، وثانياً بواسطة الجيوش الحربية ضد المسلمين، كذلك لم ينس البابا المذاهب المسيحية في شرق أوربا والدولة البيزنطية، فرأى أن تخرج إليهم الرسل على شكل حملات تنصيرية الهدف منها إقناعهم بالمذهب الكاثوليكي[3]، واستمرت الدعوة لهذه الحملات التنصيرية على يد «لول» حتى قتله المسلمون في إفريقية سنة 1315 م/ 715هـ. بعد أن فشل في الدعوة للمسيحية على الرغم من تمتعه بثقافة واسعة[4]، غير أنه غاب عنه

(1) مصطفى محمد عبد الخالق: علاقة القوى، ص 128 ـ 129.
Atiye: The Crusades, p. 74-89.
Atiye: The Crusades, p. 90.

(2) مصطفى عبد الخالق: علاقة القوى، ص 132.

(3) مصطفى عبد الخالق: علاقة القوى، ص 133.
Atiye: The Crusades, p. 76-91.

(4) = Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 325.

شيء واحد لم يفهمه هو أن الدين الإسلامي دين اعتدال لا يعرف التعصب، ففي الوقت الذي أنكر فيه «لول» ومن تبعه من المسيحيين جميعاً وجود الدين الإسلامي أصلاً فإن المسلمين يعترفون بالدين المسيحي وكرم القرآن الكريم عيسى ابن مريم تكريماً سامياً وبذلك لم تكن هناك نتائج مرجوة لجهود «لول» التنصيرية التي استمرت اثنين وخمسين عاماً (1263 ـ 1315 م)[1].

وبجانب جهود «لول» كانت هناك جهود أخرى قام بها بعض الكتاب ورجال الكنيسة. ومن هؤلاء «مارينو سانودو» (1274 ـ 1343 م) الإيطالي الذي أصدر كتاباً عن سقوط عكا، دعا فيه إلى تكوين حلف عسكري من أمراء أوربا برئاسة البابوية، وعزا سقوط عكا إلى جبن القيادات هناك، وأنهى كتابه بتوجيه النداءات الحارة إلى البابوية وحكام أوربا، وكافة الصليبيين لعمل شيء من أجل الأراضي المقدسة[2]، كما طلب البابوية من «هيثوم» الأمير الأرمني (1307 م) أن يبين رأيه في كيفية استعادة المملكة الصليبية، فقام بتأليف كتاب بعنوان «تاريخ الأراضي الشرقية» نشر سنة 1307 م، اقترح فيه

= عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 83.
رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 724؛ عبد القادر اليوسف: علاقات، ص 229.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1178 عن:
Atiye: The Crusades, p. 88.
وأخيراً عاد «لول» إلى المغرب الإسلامي للمرة الثالثة سنة 1315، ومعه خطاب توصية من جيمس الثاني ملك أرغونة لأمير تونس. غير أنه بعد أن أقام مدة في تونس، انتقل إلى بجاية حيث أعدم رجماً بالحجارة في أوائل سنة 1316 م.

(1) مصطفى عبد الخالق: علاقة القوى، ص 139.
قرآن كريم: المائدة، 75، 110 ـ 111.

(2) Atiye: The Crusades, p.89 - 94.
عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 230.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 85 ـ 86.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1139 ـ 1140.

القيام بحملتين الأولى برية عن طريق القسطنطينية وأرمينية، والثانية بحرية عن طريق قبرص، ثم دعا إلى التحالف مع المغول، وأشار إلى ضرورة احتفاظ الدول الأوربية بأساطيل قوية في المحيط الهندي لقطع طرق التجارة المصرية، ثم قال بضرورة احتلال القسطنطينية كإجراء أول لتأمين الطريق البري[1]، واتفق معه في ذلك «مارينو سانودو» (1274 ـ 1343) حيث قال إنه إذا أمكن تجريد شعب مصر من المصدر الأساسي للميزانية وهو التجارة، فإنه بلا شك سوف يقع في إفلاس مادي وعسكري، ونتيجة لهذا يمكن للصليبيين أن يتغلبوا على جيوشه ويستردوا الأراضي المقدسة بدون مشقة كبيرة[2].

وهكذا تبين لنا أن هذه المشاريع المختلفة التي طرحها الدعاة قد استحال تنفيذها ولم تؤد إلا إلى زيادة حرص القوى الإسلامية في الشرق على تأمين جبهتها ضد هؤلاء الصليبيين مما ساعد على اتجاههم إلى الجبهة الغربية الأندلسية، والمغرب لمحاولة احتلالهما.

هـ ـ اشتداد التيار الصليبي ضد المسلمين في الأندلس والمغرب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

لم يكن معنى طرد آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام في نهاية القرن الثالث عشر وضع خاتمة للحروب الصليبية، إذ الواقع أن هذه الحروب خمدت نارها في الشرق لتستمر بضعة قرون أخرى في المغرب والأندلس، ففي عام 792 هـ/ 1390 م[3]، نظمت حملة مشتركة من جنوة ومملكة

---

(1) عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 230؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1136.
(2) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 86.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1139 ـ 1140، 1142 ـ 1146.
(3) عبد الناصر جبار: بنو حفص والقوى الصليبية، (رسالة) ص، ب. =

فرنسا من أجل أهداف مختلفة، فبينما كان أهل جنوة يهدفون إلى تأديب القراصنة البرابرة الذين كانوا يعترضون سفنهم التجارية في مياه غرب البحر المتوسط، كان نبلاء فرنسا تحت قيادة الدوق لويس الثاني البوربوني[1] يفكرون في مناصرة القديس لويس ضد المسلمين في تونس واتفق الطرفان المتحالفان في تلك الحرب على أن تمد جنوة الحملة بأسطول كامل مجهز بجيش من البحارة، ويمدهم الدوق بالقوة البرية من النبلاء الإقطاعيين والفرسان والجنود المسلحين، وقد بارك البابا كلمنت السابع 1378_1394 م المشروع وأعلن رسمياً قيام الحروب الصليبية، على حين انضم المحاربون من فرنسا وإنجلترا وهينو[2] والفلاندرز، حتى بلغ عددهم 15 ألف إلى جانب قوى الدوق، أما أهل جنوة فقد بلغ عددهم ستة آلاف[3]، وحينما وصلت هذه الجيوش إلى الأراضي الإفريقية تعرضوا لهجمات من الجيوش المشتركة من تونس وبجاية وتلمسان، وكانت تلمسان تتجنب أية معركة منظمة مع أعداء أشد منها قوة، ومن ناحية أخرى استخدم الأوربيون كل وسائل الحرب الحديثة محاولين تخريب جدران المدينة وأبوابها، ومن تلك الوسائل المستخدمة استعمال البارود[4]، ومع ذلك لم يستطع الأوربيون بلوغ هدفهم الرئيسي، وخرجت الدولة الحفصية بقيادة أبو العباس أحمد منتصرة وقوية أكثر من ذي قبل[5].

ومن هذا يبدو واضحاً أن العاملين الديني والسياسي قد لعبا دورهما في تحريك هذه الحملة، إذ أن الدين قد وجه الحملة لإخضاع تونس لما تتميز به من

M.Michaud: Histoire Des Croisades, Tome II, p. 234. =

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1182.
جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص 288.

(2) هينو (Hainault) في جنوب غرب بلجيكا.
عزيز سوريال عطية: العلاقات، ص 92.

(3) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 92.

(4) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 93.

(5) عبد الناصر جبار: بنو حفص والقوى الصليبية، ص،ب.

موقع فريد يسهل السيطرة عليه الوصول إلى الأراضي المقدسة، والعامل السياسي، فقد قصد منه وقف زحف الأتراك المسلمين على أوربا المسيحية، أي أن حملاتها الصليبية تلك كانت (تدافع) بها عن نفسها في محاولة استعادة ما كان بحوزتها منها، بعد أن كانت في موقف الهجوم؛ وقد تحول هذا الدفاع على جبهة أوربا إلى هجوم على جبهة الأندلس مما أدى إلى استمرارية الحروب الصليبية على الرغم من توقف حملاتها[1]. ذلك أن حركة التوسع المسيحي في أسبانيا أخذت تسير بخطى سريعة على حساب المسلمين في القرن الثالث عشر؛ فلم يكد فردناند الثالث ملك قشتالة (1217 ـ 1252 م/ 614_650 هـ) يحقق الوحدة مع ليون سنة 1230 م/ 627 هـ حتى فتح قرطبة 1236 م/ 633 هـ، وحول جامعها إلى كاتدرائية، وفي سنة 1244م/ 642 هـ استولى فردناند الثالث على أشبيلية من المسلمين، كما استولى على قادس وشريش 1250 م/ 648 هـ، واستولى خليفته الفونس العاشر (1252_1284 م) على مرسية 1266 م/ 664 هـ، بمساعدة جيمس (جايم) الأول (1213 ـ 1276 م) ملك أرغونة هذا في الوقت الذي وصلت البرتغال إلى حدودها الحديثة 1262 م / 660 هـ بعد أن انتزعت إقليم الجرف من المسلمين، وهكذا لم يبق للمسلمين في أسبانيا سوى مقاطعة غرناطة[2].

---

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1176.
وانظر: محمد عبد الله عنان: تاريخ العرب في إسبانيا، ط 1، مطبعة السعادة، القاهرة 1924.

(2) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1193.
سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 551 ـ 552.
محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط 1، مطبعة مصر، القاهرة 1949، ص 50 ـ 51.
السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1961، ص 168 ـ 170، 197 ـ 205.
R.Dozy: Spanish Islam: A history of The Moslem in Spain, Trans. Francis G. Stakes, London, Frakn cass, 1972, p. 659-661.
عبد الله بن بلكين: التبيان (مذكرات عبد الله)، تحقيق بروفنسال، دار المعارف، =

وفي هذه المنطقة عاش المسلمون مدة قرنين ونصف من الزمان بعد سقوط ممالك المسلمين الأخرى، ولكن تخلل هذه الفترة الزمنية بعض الحروب، إذ قام الفونس الحادي عشر (1312 ـ 1350 م) بحرب المسلمين في سنة 1340 م/ 738 هـ، ونجح في هزيمتهم واستولى على بعض معاقلهم، وظل الأمر هكذا حتى بدأ الهجوم المسيحي على غرناطة 1481 م/ 879 هـ فأخذت المدن والقلاع الإسلامية تتساقط واحدة بعد الأخرى في أيدي المسيحيين وفي سنة 1488 م/ 886 هـ جدد فردناند الخامس (1474 ـ 1504 م) هجماته على المسلمين فهاجم بسطة التي ظلت تقاوم الحصار ستة أشهر أنزلت فيها جيوشها خسائر فادحة بالمهاجمين حتى سقطت أخيراً سنة 1489 م/ 887 هـ، وبسقوط بسطة أدرك المسلمون أن دولتهم بالأندلس قد زالت[1].

وهكذا لم يبق للمسلمين في الأندلس سوى غرناطة التي أحاط بها المسيحيون من كل جانب دون وصول المساعدات المصرية من جانب المماليك، فسقطت غرناطة سنة 1492 م/ 890 هـ في يد الأسبان وزالت دولة العرب من أسبانيا، وهذه الحروب التي دارت في أسبانيا بين المسيحين والمسلمين كانت تباركها البابوية لإنهاء الوجود الإسلامي بها، ومحاولة لنشر المسيحية داخل ربوعها، مما كان له أثره في إضفاء الصبغة الدينية على حروبهم في الأندلس[2].

= القاهرة 1955، ص 101 ـ 102.

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1195.

(2) عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور الحديثة، ص 575؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1195.
مصطفى حسن محمد: حملة لويس التاسع، ص 128.
محمد أحمد الأنصاري: «الحملات الإسبانية على المشرق الأندلسي»، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة 39، (1991 م)، ص 51.
فيليب حتي: تاريخ العرب المطول جـ 3، ص 660.
كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 343. =

ذيول الحروب الصليبية:

كان لطرد الصليبين من الشام رد فعل عنيف في الغرب الأوربي، فنادى المتحمسون للحروب الصليبية وعلى رأسهم البابوية بأن دولة المماليك في مصر هي السبب، وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا بإضعاف قوة هذه الدولة أولاً، ولما كان معروفاً أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار التجارة بين الشرق والغرب، فقد نادى أصحاب المشاريع الصليبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بضرورة فرض حصار اقتصادي شديد على شواطىء مصر والشام لمنع التجار الأوربيين من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع دولة المماليك لتصاب تجارة الإقليم بالكساد والبوار، وبالتالي يفقدون الأساس الأول لثروتهم وقوتهم[1] وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تُحرم على التجار الأوربين الذهاب بسفنهم إلى شواطىء دولة المماليك، والمتاجرة مع المسلمين، ولكن كثيراً من تجار إيطاليا رفضوا تنفيذ أوامر البابوية حرصاً على مصالحهم الاقتصادية، ومن ثم لم يعد هناك مفر أمام البابوية من إنشاء قوة بوليسية بحرية في شرق البحر المتوسط لمنع هؤلاء من التعامل مع المماليك في مصر، حيث قامت جزيرة قبرص بهذا الدور البوليسي لمراقبة التجار الأجانب والشواطىء الإسلامية في مصر والشام ولشن الغارات على موانيهم من جهة أخرى[2]، ولقد كان لهذه الجزيرة

= أندروهيس: افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، 1986، ص 198.
محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص 144 ـ 197.
انظر مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت السنة 39، (1991 م) «الحملات الإسبانية على الشرق الأندلسي حلقة مغفلة من تاريخ نهاية الأندلسي في السياق العام للحروب الصليبية»، ص 3 ـ 20.

(1) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص 130.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص 131.
سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 460 ـ 461.
سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، القاهرة 1957.

دورها في الحروب الصليبية بعد استيلاء ريتشارد قلب الأسد[1] عليها في الحملة الصليبية الثالثة، وازداد نشاطها في تلك الحروب عقب طرد الصليبيين من بلاد الشام وأواخر القرن الثالث عشر الميلادي، إذ غدت أكبر قاعدة صليبية في شرق البحر المتوسط، وكان لها دورها في مهاجمة المسلمين في آسيا الصغرى والشام ومصر، وبذلك أصبحت هذه الجزيرة ذيل من ذيول الحروب الصليبية، حيث قامت تحت قيادة بطرس لوز جنان بإعداد حملة لمهاجمة الإسكندرية[2] سنة 767 هـ/ 1365 م باعتبارها ميناءً تجارياً مهماً، وللسيطرة على مصر باعتبارها مفتاح الأراضي المقدسة[3]. وبالفعل تم ذلك ووصلت الحملة يوم الجمعة والمسلمون في المساجد، ودولة المماليك تعاني خللاً واضحاً واضطراباً كبيراً باعتلاء سلطان قاصر دست السلطنة هو الأشرف شعبان بن حسين (1363 ـ 1376 م) حفيد الناصر محمد ابن قلاوون، ووصي على العرش اتسم بالخور والغطرسة هو الأمير «يلبغا الخاصكي»، ونائب الإسكندرية خليل صلاح الدين بن عرام متغيباً يؤدي فريضة الحج. هذه الظروف هيأت للصليبيين الفرصة لاحتلال الإسكندرية يوم الجمعة 10 أكتوبر 1365 م[4] 767 هـ وانتشرت قواتهم تحرق المساجد

(1) رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 92 ـ 95.
سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص 21 ـ 43.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 836 ـ 837؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 461.

(2) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص 62 ـ 63.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 90.
نقولا زيادة: دراسات إسلامية، ص 139، سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1187 ـ 1188.
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 743 ـ 751؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 461.

(3) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 744.

(4) رنسيمان: تاريخ الحروب جـ 3، ص 747.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1164 ـ 1165. =

ويهدمون المنازل، ويحرقون الخانات، ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والأطفال والشيوخ، وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال[1].

واستمر الصليبيون في الإسكندرية ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام في تاريخ المدينة، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التي أسرعت من القاهرة لإنقاذ المدينة، واتجه بطرس بعد ذلك بحملة إلى طرابلس الشام سنة 1367 م/ 769 هـ، ولكن لم يكتب لهذه الحملة النجاح، وهكذا تكرر عدوان الصليبيين على موانىء مصر والشام وسفن المسلمين في البحر المتوسط، مما يدل على ضعف هيبة دولة المماليك وعدم وجود قوة كبرى في ذلك الوقت تذود عن البلاد وتثأر للحق[2].

تعتبر مذبحة الإسكندرية التي ارتكبها الصليبيون نهاية لتلك الحملات الصليبية التي جعلت هدفها المباشر استرجاع الأراضي المقدسة، واتجهت الحروب الصليبية إلى مناطق شتى؛ ففي سنة 1344 م/ 742 هـ توجه أسطول لمهاجمة أزمير شاركت فيه البندقية وتوابعها بعشرين سفينة، والفرسان ست سفن، وقدم البابا وملك قبرص أربع سفن، وقاد الأسطول «هنري أستي» بطرق القسطنطينية، واستطاع جند الأسطول انتزاع أزمير من الأتراك[3]، وانعقدت معاهدة في سنة 1350 م/ 748 هـ نصت على أن يتولى الأسبتارية المدينة، وتبقى القلعة في أيدي الأتراك، وظلت المدينة وفقاً لهذه

= عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 90 ـ 91.

(1) سعيد عاشور: قبرس والحروب، ص 66 ـ 67.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 91.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1165 ـ 1166.

(2) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 91.
سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، ص 67 ـ 68.

(3) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 88.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 138.

المعاهدة بأيدي الإسبتارية حتى عام 1402 م حتى فتحها تيمورلنك[1].

في سنة 1366 م/ 768 هـ خرجت حملة صليبية لإخراج الأتراك المسلمين من إقليم (تراقية) تحت قيادة «أماديوس» ووصلت الحملة مضيق الدردنيل، وحاصرت غاليبولي ثم سقطت في 23 أغسطس 1366 م/ 768 هـ، وبدلاً من الاتجاه إلى إقليم «تراقيه» اتجه أماديوس إلى القسطنطينية، وتبين له هناك أن الإمبراطور البيزنطي وقع غدراً في أسر ملك بلغاريا ـ شيشمان الثالث ـ ولهذا وجه «أماديوس» كل جهده لإنقاذ ابن عمه، ولم يتحقق تخليصه إلا بعد أن هاجم أماديوس ميناء فارنا البلغاري[2].

عاد أماديوس إلى وطنه عام 1367م/ 769 هـ وتكاد تكون حملته الصليبية عديمة الفائدة، إذ أن الأتراك المسلمين استولوا من جديد على غاليبولي عقب رحيله مباشرة، وأما أعظم الغزوات الصليبية التي تعتبر من ذيول الحروب الصليبية والتي كانت أكثرها جراً للمصائب في القرن الرابع عشر الميلادي فهي ما قام فيما بعد عام 1396 م لمواجهة الموجة العارمة لتوسع العثمانين في أوربا الشرقية فقد ظهر هذا التهديد الجديد في المجر، وقامت أفخر الاستعدادات، وأعظمها من أجل الحملة العالمية، وانخرط فيها أشهر الرجال، وعدد ضخم من قوات الجيش من النمسا وبوهيميا وبولندا، ومنذ قيام الحرب الصليبية الأولى لم تجتمع مثل هذه الجيوش الكبيرة التي قدر مجموعها بحوالي مائة ألف[3].

سارت هذه القوات المتحدة بمحاذاة نهر الدانوب حتى أورسوفا، حيث

(1) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1190 ـ 1191.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 139.
ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ 3، ص 755.
(2) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 91 ـ 92.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1188 ـ 1189.
(3) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 95؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1190 ـ 1191.

عبروا النهر عند البوابة الحديدية المشهورة التي تؤدي إلى بلغاريا، واستولوا على مدن «ودن» Widdin وراهوفا، وحاصروا نيقوبوليس مدة خمسة عشر يوماً، وفي أثناء تلك المدة لم يحققوا إلا القليل، وقد أضاعوا الوقت في القمار والسُكر والعربدة[1]، وتصدى الأتراك لحصار نيقوبوليس بجيش عدته 100،000 مقاتل. وتقابل الفريقان في حرب لا هوادة فيها، احتدم فيها القتال وجهاً لوجه، فرت أمام جيش بايزيد، القوات المتحدة وانهزمت هزيمة منكرة وبعد هذه الكارثة التي حلت بالفرسان المسيحيين في نيقوبوليس، لم يبق لدى أوربا أي استعداد للدخول في مغامرات خطيرة لهزيمة قوة الإسلام، أو لوضع نهاية لسيطرة الأتراك، وبدأت تخمد ثورة الدعاية القوية التي ظهرت في أوائل القرن بالرغم من وجود بعض الكتاب الذين كانوا ينادون باستئناف الحروب الصليبية وأشهرهم فيليب دي ميزيير «De Meziéres»[2].

هكذا يتبين لنا أن الحروب الصليبية منذ منتصف القرن الرابع عشر قد أخذت مظهراً جديداً إذ أصبحت حرباً دفاعية جرى توجيهها ضد الأتراك العثمانيين للحد من توسعهم في أوربا، لكنهم استطاعوا أن يهددوا ما تبقى من آثار الإمبراطورية اللاتينية في بلاد البلقان، وبقايا الإمبراطورية البيزنطية حول القسطنطينية، وهددوا أيضاً الاسبتارية في جزيرة رودس، وبيت لوزجنان في جزيرة قبرص، ومن الطبيعي أن يحرص البابوات على أن يحاولوا إقامة تحالف بين القوى المسيحية المختلفة التي تعرضت لخطر الأتراك، فكانت الحملة التي اشترك فيها البنادقة والقبارصة والأسبتارية التي استولت على أزمير 1344 م/ 742 هـ، كما سبق وأن أشرت، بعدها مُني الصليبيون بهزائم مريرة من قبل الأتراك، جرى بعدها محاولة لتوحيد

(1) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 95 ـ 96؛ سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1190 ـ 1191.
(2) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 137 ـ 138.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 96 ـ 98.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1179.

الكنيستين الشرقية والغربية سنة 1439 م في مجمع فلورنسة، كيما يواجه العالم المسيحي المتحد الخطر التركي الجديد، والنتيجة الطبيعية لاتحاد الكنيستين لم تكن إلا حملة 1443 م/ 741 هـ التي انتهت بهدنة مع الأتراك لمدة عشر سنوات، نقضها الصليبيون، فحلت بهم الهزيمة في معركة فارنا 1444 م[1] وبعدها استولى محمد الفاتح على القسطنطينية سنة 1453 م، وعند هذا الحد انتهت الحروب الصليبية المعروفة[2]، وبعد سقوط القسطنطينية ورحيل المندوب البابوي إلى أوربا لطلب المساعدة عام 1461 م وفي ذلك الوقت كانت فرصة للدعوة إلى غزوات صليبية قد ذهب إلى أبعد من إمكانية إعادتها إلى سابق عهدها مرة أخرى[3].

التيار الديني في حركة الكشوف الجغرافية:

أثرت الحروب الصليبية بدرجة كبيرة على الملاحة والتجارة حيث أن تلك الحروب أوجدت في الأوربيين حب الانتقال والتجارة وفتحت عليهم آفاقاً جديدة وكبيرة في هذين المجالين[4]. مما كان له أثره البالغ في الاستكشافات الجغرافية فتم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، والأمريكتين، واستراليا، وغير ذلك من بقاع وأقاليم، ولقد فتحت الاستكشافات الجغرافية آفاقاً رحبة أمام الأوربيين في مسيرتهم نحو العلم والثراء والقوة، فقد أثارت في نفوس الدول الأوربية مزيداً من الرغبة في بسط النفوذ

(1) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 137 ـ 141.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 96 ـ 98.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1191؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 631، 655 ـ 656.

(2) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 133 ـ 143.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1189 ـ 1192.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 139 ـ 140؛ سعيد عاشور: أوربا جـ 1، ص 656 ـ 657.

(3) K.M. Setton: A history of The Crusades, vol. 3, p. 5.

(4) P. Gagnol: Histoire Du Moyen Age, p. 354.

والتسلط واستغلال الأرض والشعوب معاً فيما وراء البحار بعيداً عن أوربا[1]، وقد أثارت الكشوف الجغرافية في نفوس كثير من الشخصيات الأوربية روحاً صليبية عارمة ضد المسلمين، فطالب كثير من بابوات روما وملوك أسبانيا ببذل مزيداً من الجهد لتنصير سكان الأقاليم التي تستكشف والحيلولة بينهم وبين إسلامهم[2]، ولقد بدأت هذه الحركة الاستكشافية كنتيجة طبيعية للنهضة الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي، ولقد ساعد على وجودها عوامل عدة، كان في مقدمتها محاولة التخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي كانت تفرضها السلطات الحاكمة في مصر والشام على السلع الشرقية عند مرورها في أراضي هذين القطرين، والرغبة في ضرب الاحتكار الذي كان يمارسه تجار جمهورية البندقية في نقل المتاجر الشرقية من موانىء مصر والشام إلى أوربا كوسيلة لحرمان هذه الجمهورية من مصادر ثرائها، وتطلع التجار من رعايا دول غير البندقية إلى النزول إلى ميدان التجارة الشرقية والحصول لأنفسهم على شطر من أرباحها الوفيرة.

بجانب هذا العامل فهناك العامل الديني وله شقان: الأول الرغبة في تحويل سكان البلاد التي يتم اكتشافها إلى المسيحيَّة الكاثوليكية، وضرب المسلمين ضربة أخيرة من الخلف، وقد استغرق الأوربيون في أحلام اليقظة ـ فراحوا وهم في عزة الكشوف الجغرافية ـ يصنعون المشروعات للقضاء على الإسلام قضاءً مبرماً، وهناك سبب آخر أدى إلى حركة الكشوف الجغرافية وهو الرغبة في زيادة المعلومات الجغرافية بعدما ترامت إلى مسامع الكثير من أخبار الرحلات الطويلة التي قام بها بعض المغامرين الأوربيين في آسيا وتسجيل ما لمسوه من مصادر الرخاء والثراء في هذه البلاد مما ألهب

(1) عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور جـ 1، ص 7، 8.
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق، ص 193 ـ 194.
محمود سعيدعمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 348.

(2) عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور، ص 8.
حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 251.

كثيراً من الناس وبخاصة الذين قاموا يبحثون عن الرزق الوفير[1].

يهمنا من هذه العوامل التيار الديني في حركة الكشوف الجغرافية، فلقد كان الدين قوة دافعة لا ريب فيها وراء حركة الكشوف، فكانت البرتغال وأسبانيا أسبق الدول في إيفاد هذه البعوث الكشفية، وكانت الناحية الدينية تلعب دوراً كبيراً في تخطيط سياسة هاتين الدولتين؛ وكانت تكمن في هذه الناحية الدينية روحاً صليبية جارفة، فالكشوف الجغرافية يجب أن يكون من أهدافها في نظر البرتغال تحويل المسلمين في غرب إفريقية، وفي غيرها من المناطق الآهلة بهم إلى المسيحية الكاثوليكية، والكشوف الجغرافية فيما وراء البحار، يجب أن يكون من أهدافها في نظر أسبانيا نشر الديانة المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي بين السكان الأصليين والوثنيين في تلك الأصقاع البعيدة، على أن هذه الروح الصليبية استهدفت أيضاً تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي وفصلها عن الكنيسة القبطية في مصر[2].

ولما تم إجلاء المسلمين عن الأندلس ازداد مسيحيو شبه جزيرة أيبريا تحمساً وشراهة في مطاردة المسلمين خارجها، وانتقل نشاطهم إلى شمال إفريقية وغربها يتعقبون المسلمين، وراودتهم الآمال في إمكان محاصرة الإسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وسحقه في آسيا وإفريقية، ولذلك فإن الشعور الذي احتوى مسيحيي شبه جزيرة أيبريا بوجوب محاربة الإسلام، كان شعوراً امتزجت فيه الروح الصليبية المتأججة العنيفة بالعاطفة الوطنية،

(1) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 750 ـ 571.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1216 ـ 1217.
فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية، ص 37.
عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع جـ 1، ص 105 ـ 106.
(2) سعيد عاشور: أوربا في العصور جـ 1، ص 570 ـ 572.
فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة، ص 37.
سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1149 ـ 1154.
سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 62 ـ 63.
عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور، ص 110.

وظفرت الكشوف الجغرافية بأعظم اهتمام من البابوية، وأصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة يخولون بها ملوك البرتغال وأسبانيا الحق في ملكية كل إقليم جديد وكل بحر جديد يتم اكتشافه في الحاضر والمستقبل، وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التي كشفت أو سوف تكتشف، وفي نفس الوقت بذلت البابوية نفوذها الأدبي لإغراء البحارة على الانخراط في سلك البعوث الكشفية حين كان الإقبال على العمل في سفن الكشوف الجغرافية فاتراً، وكان الباباوات يعدون المشتركين في تلك الرحلات بالعفو من الحساب في اليوم الآخر والفوز بالجنة والنجاة من النار، وصدرت الأوامر برسم الصلبان على أشرعة السفن، وكان دعاة المسيحية من رجال الطوائف الدينية يرافقون الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة التنصير لنشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي في العالم الجديد[1]. وعندما جاء البابا نيقولا الخامس (1447 ـ 1455 م) تحمس بقوة في مجال الآمال الصليبية واستغرق هذا البابا في خيال خصيب، فوضع خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية لضرب المسلمين ضربة أخيرة للقضاء على الإسلام قضاءً مبرماً، بإعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوربا الكاثوليكية للقضاء نهائياً على الإسلام، بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهدافها، ويتصل البرتغاليون بالملوك المسيحيين سواء في إفريقية، أو في آسيا كي يسهم هؤلاء الملوك في تمويل المملكة الصليبية بالأموال والرجال والعتاد، ويتم تطويق البلاد الإسلامية[2] بغية القضاء عليهم وتخليص الأراضي المقدسة من بين أيديهم[3].

(1) عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور، ص 112.
حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 242 ـ 251.
أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 140 ـ 141.
(2) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1152 ـ 1154.
عبد القادر أحمد اليوسف: العلاقات بين الشرق والغرب، ص 257 ـ 258.
سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص 352 ـ 358.
عبد العزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور، ص 113.
(3) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 140 ـ 141.

في ضوء ذلك اتجه البرتغاليون منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي نحو عمليات الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار، حتى تمكن «بارثلميودياز» من الوصول إلى أقصى نقطة في ساحل إفريقية واكتشاف الطرف الجنوبي لها الذي عرفه (برأس العواصف) Cabo Termentoso والذي أطلق عليه ملك البرتغال «يوحنا الثاني» (1481 ـ 1495) «رأس الرجاء الصالح» تيمناً بالكشف الجديد وذلك عام 1487 م[1].

كذلك تمكن الرحالة البرتغالي «بيرودي كوفلهام» في منتصف سنة 1487 م من الوصول إلى مصر عبر البحر المتوسط، وأبحر منها إلى ميناء سواكن عبر البحر الأحمر ثم اتجه جنوباً حتى وصل إلى عدن ومنها واصل رحلته إلى الهند ثم عاد إلى مصر ثم اتجه إلى الحبشة بعدما جمع معلومات كثيرة عنها بغية استقطابها إلى الكاثوليكية، وبذلك يتم فصلها عن الكنيسة المصرية الأرثوذكسية. وبذلك يتسنى لهم تطويق العالم الإسلامي وانتزاع تجارة الشرق منه، والتي تشكل مصدر قوته آنذاك[2]. وهو ما يفسر ازدياد التيار الديني في تلك الحركات الكشفية؛ أي أنها كانت بمثابة حملات صليبية جديدة، ولكن ليست حربية بل تجارية قصد منها تنصير أهالي تلك البلاد الجديدة وحثهم على تكوين جبهة ضد المسلمين لاسترداد الأراضي المقدسة التي حررها واستعادها المسلمون إلى الوطن الأم.

(1) فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية، ص 39.
سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى جـ 1، ص 572.
سعيد عاشور: الحركة جـ 2، ص 1152 ـ 1153؛ عبد القادر اليوسف: علاقات، ص 257 ـ 258.

(2) فاروق عثمان: أثر تحول التجارة، ص 39 ـ 40.
سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص 358.

الخاتمة

وبعد، فإنه من الواضح أنني في هذه الدراسة عن العامل الديني وأهميته كدافع للحروب الصليبية فقد توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

بالنسبة للعلاقات الثقافية فإنني أوضحت أن العامل الرئيسي وراء ازدهارها هو تغلب الحضارة الإسلامية على ملوك النورمان وحكام صقلية من أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان للاحتكاك السياسي والتجاري والثقافي إبان عصر الحروب الصليبية، بين كل من صقلية ومصر والشام أثر كبير في انتقال كثير من العادات والتقاليد وأنواع كثيرة من المزروعات وكيفية بناء الحصون والقلاع من العالم الإسلامي إلى البلاد المسيحية في حوض البحر المتوسط وغرب أوربا.

ونلاحظ أن الحروب الصليبية لم تنته بخروج الصليبيين من عكا بل استمرت في أشكال متعددة تارة تأخذ المظهر الاقتصادي وتارة أخرى تأخذ شكل الكشوف الجغرافية والطابع الاستعماري المباشر. ونلاحظ أن ملامح التعصب الديني الغربي أصبحت تتضح في كثير من المشكلات التي تواجه الوطن العربي والعالم الإسلامي. والتاريخ الحديث والمعاصر يطفح بالكثير من الأمثلة التي توضح هذا الاتجاه في العلاقات الدولية[1].

ثم إننا أوضحنا في هذا الكتاب أن العلاقات بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي المسيحي الغربي لم تنقطع، وإنما استمرت على أساس دعامتين هامتين هما الحرب والتجارة، وقد لعب البحر المتوسط دوراً هاماً في الوصل بين المنطقتين وساحة للصراع بينهما.

(1) انظر ملحق رقم (8).

كذلك يتضح في هذه الدراسة أن الحروب الصليبية التي شنها الغرب المسيحي على الوطن العربي والعالم الإسلامي لم تقتصر على المشرق فقط بل امتدت إلى المغرب، تشهد على ذلك الحملات على الدولة الحفصية وكذلك بدء وانطلاق هذه الحروب من منطقة الأندلس والمغرب وجزر البحر المتوسط. وهذا يؤكد أن الحركة الصليبية كانت المتنفس الذي عبر به الغرب الأوربي في العصور الوسطى عن حماسته الدينية من ناحية وعن نقمته على الإسلام والمسلمين من ناحية أخرى.

وكذلك أن الحروب الصليبية كانت من العوامل المشجعة لزحف الجيوش المغولية على بلاد العالم الإسلامي، إذ كانت الدول الصليبية الغربية تقف وراء المغول تشد من أزرهم وترسم لهم الخطط وتمدهم بالتقارير، ومن ذلك نخرج بنتيجة وهي أنه لا يمكن الانتصار على المنطقة العربية الإسلامية إلا بالبحث عن حلفاء وأعوان.

يظهر من خلال أحداث الحملات الصليبية أن الأرمن وقفوا إلى جانب القوات الصليبية منذ البداية، وأنهم كانوا من العوامل المحرضة لزحف المغول على عاصمة الخلافة العباسية بغداد 656 هـ / 1258 م، ولا يمكن تفسير هذه الحقائق إلا في ضوء العامل الديني.

ويظهر في هذا الكتاب حقيقة مهمة، هي أنه يتبين من خلال الأحداث وتتبع المسار التاريخي أن الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب كانت تتوفر لهم سبل الأمان من أجل زيارة الأماكن المقدسة باستثناء بعض الفترات التاريخية التي اشتعلت فيها المنطقة نتيجة للحروب الداخلية أو الحروب من غرب أوربا.

وتبين من خلال هذه الدراسة أن المسيحيين الشرقيين كان لهم ما لإخوانهم من المسلمين ولم يظهر قط أي تمييز بينهم إلا ما أقرته الشريعة، وقد استشهدنا بأن الكثيرين من المؤرخين الغربيين يؤكدون أن هؤلاء كانوا يعيشون في أمان وسلام وتسامح في جوف الدولة العربية الإسلامية، ولم يوجه

إليهم أي اضطهاد نوعي ينطلق من سياسة مرسومة، والحالة الوحيدة التي كانت شاذة ومستثناة هي أثناء فترة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي. وكان لهذا التسامح أثره في اعتناق الكثير من سكان البلاد الأصليين للدين الجديد، وذوبان هذه الجموع البشرية في حضارة جديدة، هي الحضارة العربية الإسلامية التي ظلت لها السيادة حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي.

ومن خلال دراسة هذه الفترة التاريخية يظهر أن الخلافات السياسية والمذهبية والصراع على السلطة كانت كلها من أسباب نجاح الصليبيين في تحقيق أهدافهم والاستيلاء على الكثير من المدن في الشرق وتأسيس الإمارات الصليبية، وهذا ما ساعد على أن تنشط الكنيسة وتصحو وتحاول بعث الحماسة في نفوس أمراء الإقطاع وملوك الغرب من أجل تنفيذ البرنامج الصليبي. والخلاصة أن الغرب والمسلمين خرجوا من جهادهم ضد الصليبيين بدرس أهم نتائجه أن عملية بناء وتوحيد القوى العربية الإسلامية مرحلة أساسية في الجهاد الأكبر يجب أن تسبق مرحلة الجهاد الأصغر ضد العدو.

ويلاحظ كذلك من خلال هذه الفترة أن الدولة البيزنطية كانت في صدر الدولة الإسلامية قد اتخذت موقفاً دفاعياً ضد هجمات المسلمين، ولكنها اتخذت بعد ذلك سياسة هجومية ولا سيما عندما شعرت أن قوة الخلافة العباسية في بغداد بدأت في التداعي، بالإضافة إلى أن الدولة البيزنطية استهدفت استعادة الكثير من المدن والأراضي التي كانت خاضعة للدولة قبل ظهور الإسلام، فإن هجمات البيزنطيين في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد اتخذت مسحة دينية واضحة فصار هدفها الاستيلاء على بيت المقدس ووقف المد الإسلامي، وهذا ما اتصفت به سياسة كل من الأمبراطورين نقفور فوقاس وحناتز مسكيس.

وهكذا حتى نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر حيث بدأت الحماسة في فتور نتيجة لمولد النهضة الأوربية والتي سميت بنهضة القرن الثاني عشر للميلاد وانتشارها في الكثير من المناطق، وقد نتج عن هذه

النهضة انتشار النقابات والمدن وبداية المرحلة الأولية في التصنيع والحرية الفردية وبداية التحول نحو عالم جديد وكذلك زيادة الاهتمام بالعامل الاقتصادي وبداية نشأة الدولة القومية.

وقد أوضحنا في هذا البحث كيف أنه كان لفتور العامل الديني وازدياد أهمية العامل الاقتصادي في الغرب ـ في الوقت الذي ازداد الوعي في الشرق ـ أثر في بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، مما أدى إلى انهيار البناء الصليبي وزوال الحلم في بناء مملكة لاتينية صليبية بالمشرق العربي الإسلامي، كذلك أوضحنا أن جهود الدعاة وبعض حكام الغرب المتدينين أصابها الفشل نتيجة ما تقدم من أسباب أسهمت في تغيير روح العصر.

ثم كانت أن ظهرت حركة الكشوف الجغرافية التي باركتها البابوية ورجال الدين في الغرب المسيحي نظراً لما اتصفت به من مسحة دينية، حتى أن الكثير من السفن رسم عليها الصليب بل إن الكثير من الأحداث المعاصرة منذ حركة الاستعمار الحديث حركها العامل الديني؛ ويلاحظ أن ملامح العامل الديني في الغرب أصبحت تتضح بجلاء في إثارة المشكلات المختلفة التي تواجه الوطن العربي والعالم الإسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر الذي يذخر بالكثير من الأمثلة التي توضح هذا الاتجاه الذي يحرك العلاقات الدولية ضد العرب والمسلمين[1].

وهكذا تبين من مجمل الدراسة والنتائج التي توصلنا إليها أن العامل الديني كان ولا يزال من أهم البواعث والدوافع التي حركت وتحرك العلاقات بين الشرق والغرب، وبعبارة أخرى فإن العامل الديني كان العامل الأساسي والرئيسي في تحريك تلك العلاقات، رغم اعترافنا بأن هناك عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية أسهمت في تحريك الأحداث.

---

(1) للاستزادة الاطلاع على ملحق رقم (8).

إن الآراء والنتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة التحليلية لأثر العامل الديني ليست مجرد صدفة. إنما هي ظواهر طبيعية منطقية تنير السبيل أمام الشعب العربي في الوقت الحاضر، وهو يستجمع قواه ويكتل جهوده ويوحد قدراته ويعتصم بالله فوق ترابه الطاهر من خليجه إلى محيطه الذي ارتوى بدماء الشهداء الأبرار ونبتت من فيضه شجرة الحرية الطيبة المعطاءة يستشرف مستقبلاً عزيزاً مشرقاً.

وفي الختام يقول أبو القاسم الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بدَّ أن يستجيب القدرْ
ولا بد للَّيل أن ينجلي ... ولا بدَّ للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوْق الحياة ... تبخر في جوّها واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة ... من صفعة العدَم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات ... وحدَّثتني روحَها المستتر

*

ومدت الريح بين الفجاج ... وفوق الجبال وتحت الشجر
وإذا ما طمحت إلى غاية ... ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم أتجنب وعور الشعاب ... ولا كبّة اللهب المستعر
ومن لا يحب صعودَ الجبالُ ... يَعش أبَدَ الدهر بين الحفر
فعجت بقلبي دماء الشباب ... وضجَّت بصدري رياح أخَر
وأطرقت، أصغي لقصف الرعود ... وعزف الرياح ووقع المطر

وقال الشاعر أحمد شوقي:

يا ويحهم نصبوا مناراً من دمٍ ... توحي إلى جيل الغد البغضاء
ما ضرّ لو جعلوا العلاقة في غد ... بين الشعوب مودة وإخاء

وقال الشاعر ابن القيسراني:

أمــا آن أن يَــزْهَــقَ البــاطــلُ وأن يُنْجِــز العِــدَةَ المــاطِــلُ
إلى كم يغيب ملوكُ الضلال سيفٌ بأعناقها كَافِلُ

وقال الشاعر أبو القاسم الشابي:

إن السـلامَ حقيقـةٌ مكـذوبـةٌ والعـدلَ فلسفـةُ اللهيـب الخـابـي
لا عـدلَ إلا إنْ تعـادلـت القُـوَى وتصـادم الإرهـابُ بـالإرهـاب
....
لا رأي للحق الضعيفِ ولا صدى والـرَّأيُ رأي القـاهـر الغـلاَّب

وصرخ شاعر عربي:

أخـي جـاوز الظـالمـون المدى فحـق الجهـاد وحـق الفـداء

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 32 ـ 33].

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: 17].

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۞ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 135 ـ 136].

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: 3].

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۞ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: 74 ـ 75].

الملاحق

ملحق رقم 1
خطاب البابا أوربان الثاني

اجتمع المجلس التاريخي بمدينة كلير مونت في مقاطعة أوفرني، وهرع إليه آلاف الناس من مائة صقع وصقع، لم يقف في سبيلهم برد نوفمبر القارس. ونصب القادمون خيامهم في الأراضي المكشوفة، وعقدوا اجتماعاً كبيراً لا يتسع له بهو، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة في وسطهم مواطنهم إربان الفرنسي وألقى عليهم باللغة الفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثراً في تاريخ العصور الوسطى:

يا شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار!... لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية، أنباء تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق؛ ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب. وهم يهدمون المذابح في الكنائس، بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين.

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم ـ أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن لكم من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم ـ أمجاد

شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم ـ فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست... لا تدعو شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم. ذلك بأن هذه الأراضي التي تسكنوها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقُلَل الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضاً، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية.

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأراضي من ذلك (الجنس الخبيث)، وتملكوها أنتم. إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج. إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات.

وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس قائلة «تلك إرادة الله» وردد «إربان» هذا النداء ودعاهم إلى أن يجعلوا نداءهم في الحرب وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جبهاهم أو صدورهم. ويقول «وليم مالمزبري William Malmsbury» وتقدم بعض النبلاء من فورهم، وخروا راكعين بين يدي البابا، ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله» وحذا حذوهم آلاف من عامة الشعب، وخرج الرهبان والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ لا بمعناه المجازي. وانتقل البابا النشيط إلى مدن أخرى ـ إلى تور، وبوردو، وطولوز (طلوشة)، ومنبليه، ونيمز Nimes وظل تسعة أشهر يخطب داعياً إلى الحرب الصليبية. ولما بلغ روما بعد أن غاب عنها سنتين، استقبلته بالترحاب أقدم مدن العالم المسيحي تقوى، وأخذ على عاتقه أن يحل جميع الصليبيين من

جميع القيود التي تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين. ولم يلق في عمله هذا مقاومة جدية؛ فحرر رقيق الأرض، وحرر التابع الإقطاعي طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء لسيده؛ ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الإقطاعية، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم. وأمر بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين والمسيحيين ـ وإن لم يقو على تنفيذ أمره هذا، ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعي؛ وهكذا توحدت أوربا كما لم تتوحد في تاريخها كله، ووجد إربان نفسه السيد المرتضى ـ من الوجهة النظرية على الأقل ـ لملوك أوربا على بكرة أبيهم. وسرت روح الحماسة في أوربا كما لم تسر فيها من قبل في أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة[1].

(1) عن: ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الرابع من المجلد الرابع، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة 1957، ص 14 ـ 17.

ملحق رقم 2

موقعة مانزكرت (26 هانيبال 1071)

كان رومانوس الرابع ـ إمبراطور الدولة البيزنطية (1067ـ 1071) رجلاً مخلصاً نشيطاً شجاعاً، بذل جهوداً كبيرة في إصلاح الأوضاع الداخلية في دولته وفي تنظيم الجيش البيزنطي وفي الدفاع عن أراضي الإمبراطورية في آسيا الصغرى، وهي الأراضي التي تعرضت في القرن الحادي عشر لهجمات السلاجقة. ولكن شاء الظروف أن يصاب الإمبراطور رومانوس بكارثة حربية عند اصطدامه بالسلاجقة تحت قيادة ألب أرسلان في موقعة مانزكرت أو ملازكرد في شرق آسيا الصغرى ـ شمالي بحيرة فان ـ سنة 1071. وفي تلك الموقعة تحطم جيش الإمبراطور، ووقع رومانوس الرابع نفسه أسيراً في قبضة السلاجقة الذين لم يطلقوا سراحه إلا بعد شروط قاسية.

وفي الوثيقة التالية التي ترجمها أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور، يصف لنا ميخائيل بسلوس، وهو كاتب بيزنطي معاصر شهير، تولى مناصب كبيرة في بلاط القسطنطينية، الكارثة التي حلت بالإمبراطور وجيشه في مانزكرت:

خرج الإمبراطور رومانوس الرابع للقيام بحملته الثالثة والأخيرة ضد البرابرة (السلاجقة) الذين اشتد عداؤهم عندئذ للإمبراطورية، فغادر العاصمة تصحبه فرق مساعدة كثيرة من الحلفاء وغيرهم، أكثر مما كان في المرات السابقة.

وكان أن أسرع الإمبراطور إلى قيصرية بطريقته المعهودة التي تنطوي على عدم الإصغاء إلى النصيحة والاستخفاف بأمر الناصحين وعند وصوله

إلى قيصرية أحجم عن التقدم وأخذ يتلمس المعاذير للعودة إلى القسطنطينية. وكان المفروض عندما خشي عاقبة التراجع أن يحاول الوصول إلى اتفاق مع السلاجقة ليضع حداً لإغاراتهم السنوية على أراضي الإمبراطورية. ولكنه بدلاً من ذلك انساق وراء الغرور وتقدم لمهاجمة العدو دون أن يعمل حساباً لحماية مؤخرة جيشه. ولما رأى الأعداء اندفاعه، رسموا خطة لخديعته والإيقاع به في شرك. وكان أن تقدم الأعداء تجاهه، ثم تظاهروا بالهزيمة والتراجع، وأجروا هذه المناورة عدة مرات تمكنوا خلالها من أسر بعض قادة جيشنا.

وفي تلك الأثناء أخذ القلق ينتابني، على الرغم من أن سلطان السلاجقة نفسه لم يكن على رأس جيش الأعداء، وإنما أحرز معظم تلك الانتصارات قادة جيشه. أما الإمبراطور رومانوس الرابع فقد رفض أن يستجيب للنصح. وكان في قرارة نفسه لا يجنح للسلم، وإنما ظن أنه يستطيع أن يقضي على جيش العدو في سهولة ودون الالتحام معه في معركة. وشاء سوء حظه وعدم درايته بفن الحرب أن يوزع قوته، فلم يحمل العبء سوى أقل من نصف القوة في حين أحاطت بعض الفرق بشخصه أو تبعثرت في الأماكن القريبة.

وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أن أمتدح مسلك رومانوس الرابع في الأدوار التالية، إلا أنه لا يمكنني أن أذمه أو ألومه. فالحق يقال إنه تحمل بنفسه مرارة الصدمة وخطورتها. ويفسر سلوك رومانوس الرابع تفسيرين، وإن كانت وجهة نظري تشير إلى رأي وسط بين هذين الرأيين. فإذا فسرنا سلوك رومانوس الرابع في ضوء أنه بطل يواجه الأخطار في شجاعة ويقاتل للتغلب عليها، فإنه يجب علينا امتداحه في هذه الحالة. أما إذا تذكرنا أن قواعد الحرب تحتم على القائد ألا يلقي بنفسه في الصفوف الأمامية وأن يظل بعيداً عن خط المعركة يوجه جنوده ويلاحظ سير المعركة، فإنه يجب في هذه الحالة أن نلوم رومانوس الرابع لأنه عرض نفسه للخطر دون إدراك لما يترتب على ذلك. أما أنا فأميل شخصياً إلى امتداح سلوك رومانوس أكثر من لومه.

مهما يكن من أمر، فإن رومانوس الرابع ارتدى عدة الحرب كاملة

مثلما يفعل آي جندي عادي، واستل سيفه لمنازلة الأعداء. وقد بلغني من أكثر من مصدر أنه استطاع أن يقتل كثيراً من الأعداء كما حمل كثيرين على الفرار. ولكن حدث بعد ذلك أن أدرك أعداؤه حقيقة شخصيته، فأحاطوا به من جميع الجهات وكان ذلك مما أدى إلى جرحه وسقوطه عن فرسه. وكان أن قبضوا عليه وسيق إمبراطور الرومان أسيراً، في حين تبعثر جيشه. ولم يستطع الفرار من جيش الإمبراطور سوى النذر اليسير، في حين انتهى أمر غالبية الجيش إلى الأسر أو القتل. وبعد المعركة بأيام قليلة وصل أحد أولئك الذين استطاعوا الفرار يحمل إلى العاصمة أنباء تلك الكارثة، ثم تبعه ثانٍ وثالث. وعندئذ تأكد الخبر. وقد ذكر بعضهم أن الإمبراطور رومانوس قتل في حين قال البعض الآخر أنه قد أسر وأنهم رأوه بأعينهم يقاد مكبلاً بالأغلال إلى معسكر العدو. وبناء على هذه الأخبار عقد مجلس في القسطنطينية وبحثت الإمبراطورة الخطوة التالية الواجب اتخاذها، فاستقر رأي المجلس على أنه يصرف النظر عن كون الإمبراطور قتيلاً أو أسيراً، فإن الإمبراطورة أندوكيا عليها أن تنهض ـ هي وابنها ـ بشؤون الحكم في الإمبراطورية.

أما قائد جيش السلاجقة، فبدلاً من أن يركن إلى الغرور ويبالغ في الطرب والسرور لوقوع الإمبراطور الروماني أسيراً في قبضته غلب عليه التواضع واحتفل بانتصاره احتفالاً يفوق كل ما كان متوقعاً من ناحية الاعتدال. ولم يلبث قائد الأعداء أو واسى الإمبراطور الأسير، ودعاه إلى مشاركته الطعام، وعامله كضيف جدير بالتكريم، وخصص له من يتولى حراسته، وفك أغلال بعض رفاقه ممن عينهم بالذات. وأخيراً فإن قائد السلاجقة حرر رومانوس نفسه، وبعد أن عقد معه معاهدة صداقة وأخذ منه أيماناً بالولاء له، أطلق سراحه وسمح له بالعودة إلى بلاده محاطاً بكل ما يطمع فيه أي إنسان من رعاية وحراسة[1].

(1) عن: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ 1، ط 5، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة 1972، ص 721 ـ 723.

ملحق رقم 3

الكنيسة الكاثوليكية[1]

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [النساء: 171].

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدّٗا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا * وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم: 88 ـ 93].

﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [المائدة: 17].

الكنيسة الكاثوليكية:

لم يكن معنى كلمة الكنيسة Church مقتصراً على دور العبادة المسيحية فقط بل تفيد الكنيسة أيضاً المجتمع المسيحي بأسره بعلاقاته المادية

(1) عن: عبدالقادر اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 1967، ص 239 ـ 243.
وانظر: فشر: تاريخ أوربا ط 6، القسم الأول، ص 105 ـ 111.

والمعنوية. إذ يرتبط أعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الكنيسة الأوحد عن طريق الإيمان[1]. أما كلمة كاثوليكية Catholic فقصد بها الرسالة العالمية. ولم تكن التسمية الأخيرة مقتصرة على كنيسة روما في بداية الأمر إلا أنها أصبحت كذلك تميز روما عن الكنائس الشرقية وخاصة كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية منذ سنة 1054 بشكل قاطع.

يرتكز الدين المسيحي بصورة عامة على ما جاء في العهدين القديم والجديد وعلى ما تناقلته الألسن مما لا يكتب وكون السنة أو التقليد[2]. وتدور العقيدة حول الخطيئة الأولى Original Sin، خطيئة آدم حينما عصى ربه فعوقب بالسقوط إلى الأرض. وتعرض لغضب الله فعوقب بالأمراض والموت ثم شمل الغضب ذرية الإنسان. وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله. هذا وأن كافة الأنبياء والرسل الذين جاؤوا قبل المسيح مهمتهم الإعداد لإنقاذ البشرية Salvation من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح[3].

تعتمد الكنيسة في عملية الإنقاذ على رموز دينية يشار لها بالأسرار السبعة Sacraments. وسميت بالأسرار لأنها صلات الوصل الخفية التي توطد الرابطة الروحية بين المسيح وأتباعه. ولنكن على علم بأن الأسرار السبعة أخذت بلورتها النهائية في العالم الغربي في منتصف القرن الثاني عشر أي حينما عالجها بطرس لمبارد Peter Lombard أحد أساتذة اللاهوت في باريس المتوفي عام 1164 في كتابه الآراء Sentences[4]. وعن طريق ممارسة تلك الأسرار تحتضن الكنيسة الفرن المسيحي من المهد إلى اللحد. وجعلت هذه الأسرار سبعاً حسبما حددها المسيح نفسه ولأن حياة الإنسان الروحية كحياته الجسدية تتطلب هذا العدد. والمتطلبات الجسدية هي الولادة والنمو والغذاء والشفاء والعدالة والتناسل والمساعدة عند الموت. أما المتطلبات

(1) الأب بولس اليسوعي، خلاصة الدين المسيحي (بيروت، 1965) 78.
(2) الأب بولس اليسوعي، نفس المصدر، 7.
(3) نفس المصدر، 8 ـ 10.
(4) J.Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, vol. I (Bostonm 1946) 233.

الروحية السبعة المتناظرة مع المتطلبات الجسدية والتي يشار لها بالأسرار السبعة[1] فهي:

1 ـ التعميد Baptism وهو السر الذي قصد به إزالة الخطيئة الأولى ومنح الولادة الروحية الثانية. ويتم ذلك عن طريق الماء عادة بالرش أو الغسل أو التغطيس[2]. وهناك نوع آخر من المعمودية ألا وهو معمودية الدم أي أن يسفك المؤمن دمه في سبيل الدين[3].

2 ـ القربان المقدس ويشار له أيضاً بسر التناول أو نظرية الحلول Transubstantiation وهو عبارة عن تحول الخبز والنبيذ في جسم المتناول لهما في المراسيم الدينية إلى لحم المسيح ودمه[4]. وأن ذلك السر (يساعد على حضور المسيح بجسده ودمه ونفسه ولاهوته تحت أغراض الخبز والخمر)[5]. ويحتفل بذلك السر لمغفرة ذنوب الأحياء والأموات وفي حالات القحط والوباء[6].

3 ـ التثبيت Confirmation وهو السر الذي يرسخ الإيمان ويمنح الفرد المقدرة للدفاع عن دينه[7]، ويمارس عن طريق مسح الجسم بالزيت[8].

4 ـ التوبة Penance وهي غفران الخطايا التي قد تكتب بعد التعميد[9]. وتمارس التوبة عن طريق الاعتراف أمام الكاهن وإظهار الندم وقد يرافقه التصدق إلى الفقراء أو زيارة قبور الأولياء أو الصوم[10].

(1) الأب بولس، المصدر السابق، 95.
(2) S.Bullough, Roman Catholicism (Middlesex, 1963) 78-91.
(3) الأب بولس، المصدر السابق، 98.
(4) Bullough, op. cit., 92-102.
(5) الأب بولس، المصدر السابق، 99.
(6) Robinson, op. cit., 236.
(7) Bullough, op. cit., 86-91.
(8) C.Hayes, A Political and Cultural History of Modern Europe, vol. I (N.Y., 1944) 142-143.
(9) الأب بولس، المصدر السابق، 103.
(10) Bullough, op. cit., 103-11).

5 ـ مسحة المرضى Extreme Unction وهذه عبارة عن دهن حواس المريض بالزيت من أجل الشفاء أو مساعدته على قابلية تحمل آلام النزاع[1].

6 ـ سر الكهنوت Holy Order وهذا عبارة عن السلطة الروحية التي يمارسها الكاهن أثناء قيامه بواجباته الدينية[2].

7 ـ سر الأمومة Matrimony ويتم ذلك بإجراءات الزواج الدينية برباط الزواج المقدس[3].

اتبعت الكنيسة في تقسيماتها الإدارية الأنظمة التي ورثتها عن الرومان. ففي الحواضر الكبرى يشار إلى الزعيم الديني الأعلى بالبطريق Patriarch وتسمى منطقته الإدارية البطرقية. وتقسم الأخيرة إلى أجزاء أصغر تدعى بالولايات Province يتولاها رئيس الأساقفة Archbishop. وتقسم الولاية إلى وحدات أصغر يشار لها بالألوية Diocese ويرأس كلاً منها أسقف Rishop. ثم هناك أصغر الوحدات الدينية يرأسها القساوسة priest وتدعى الوحدة منها بارش parish[4].

ويقسم المسلك الكهنوتي إلى قسمين رئيسيين هما المسلك الكهنوتي العلماني Secular Clergy والمسلك الروحاني Spiritual Clergy.

ويشتغل الفريق الأول في أعمال الكنيسة اليومية من إدارية وغيرها. وتقتصر مهمات الفريق الثاني في الأديرة والقيام بالواجبات التبشيرية والانقطاع عن الدنيا للتأمل والمغفرة للبشر[5].

ويطيب لبعض المؤرخين تشبيه الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط بأنها أشبه بحكومة ملكية من ناحية إدارية. حيث يقف البابا على قمتها وهو السيد المطلق في الشؤون الروحانية والمشرع الأعلى. وليس هناك من مجلس

(1) Hayes, op. cit., 143.
(2) Bullough, op. cit., 111-120.
(3) Ibid., 121.
(4) Hayes, op. cit., 138.
(5) Ibid., 139.

مهما سمت منزلته له حق أن يشرع قوانين ضد إرادته وأن كل تشريع يعتمد على موافقته. ويمكن للبابا إلغاء أي قانون مهما كان قديماً لم يشر له في الإنجيل أو لم تنص عليه القوانين الطبيعية. كما أن المرجع القضائي الأعلى. ويساعد البابا في القضايا الإدارية المجلس الأعلى المشار له Curia. ويتألف هذا من الكرادلة Cardinals والموظفين البابويين.

ويتم الإشراف البابوي من روما على سائر الجهاز الإداري في العالم المسيحي الكاثوليكي بعدة أساليب. فمثلاً أن رئيس الأساقفة المنتخب حديثاً لمنصبه لا يجوز له ممارسة أعماله إلا بعد أخذه يمين الإخلاص والطاعة للبابا واستلام شعار منصبه منه والمسمى Pallium وهو عبارة عن ملحف Scarf يقوم بنسجه عادة راهبات القديسة آنس Agnes في روما. كما أن موافقة البابوية ضرورية على انتخابات الأساقفة ورؤساء الأديرة. ويمكن للبابا عدم الاعتراف بشرعية الانتخابات لتلك المراكز الدينية فيما لو تأكد من ذلك[1].

وللكنيسة مجموعة شرائع قانونية Canon Law استندت على مقررات المجالس الدينية العالمية منذ مؤتمر نيقيا سنة 325 وما بعده وعلى قرارات البابوات. ويمكن للبابا إصدار عقوبة التحريم Excommunication يقاطع بموجبها الصادرة بحقه دينياً ودنيوياً. وقد يفرض البابا عقوبات التحريم ضد مدن أو أقطار بكاملها Interdict[2].

بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة في آواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر توضحت في سياسة البابا أنوسنت الثالث وظهور فرقتي الفرنسيسكان والدومنيكان ونشاط الأديرة النسائية ومحاكم التفتيش.

(1) Robinson, op. cit., 227-28.
(2) Ibid., 237.

ملحق رقم 4
تشكيلات مملكة القدس اللاتينية[1]

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 109 ـ 110].

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: 14 ـ 17].

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: 13 ـ 14].

الإمارات التابعة:

اتبعت دولة القدس كل من الإمارات الثلاثة ألا وهي الرها وأنطاكية وطرابلس. أسس بلدوين الإمارة الأولى في جهات أعالي الفرات 1098 وهي أولى الإمارات من حيث التأسيس والسقوط سنة 1144. أخذت روابطها

(1) عن: عبدالقادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 86 ـ 92.
وانظر: ستيفن رنسيمان: الحروب الصليبية جـ 1، ص 407 ـ 416.
سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة جـ 1، ص 464 ـ 483.

الإقطاعية مع دولة القدس بالوهن تدريجياً منذ أواخر حكم بلدوين الثاني وقد فصل أميرها جوسلين أن يكون تابعاً مباشراً لأنطاكية بدل القدس سنة 1140. أما إمارة أنطاكية 1098 ـ 1268 التي تأسست في الأقسام الشمالية الغربية من جهات سوريا فتدين بوجودها إلى بوهيمند. وتميز تاريخها في النصف الأول من القرن الثاني عشر بصراع حاد مع الأباطرة البيزنطيين. أما علاقتها بمملكة القدس فكانت تبعية نظرية.

لقد استكملت مملكة القدس كيانها على أثر الاستيلاء على إمارة طرابلس سنة 1109. وكانت هذه تحت حكم فخر الملك أبي علي بن عمار الذي حاول عبثاً الاحتفاظ بإمارته عن طريق التقرب من الصليبيين. إذ مثل ريموند الجيلي الخطر الأكبر على طرابلس في بداية الأمر منذ سنة 1099 حتى وفاته سنة 1105 فقد حاول في التاريخ الأول الاستيلاء على عرقة ووافته الفرصة في أعقاب حملة سنة ١١٠١ الفاشلة. إذ استولى في تلك السنة على طرسوس بمساعدة الأساطيل الجنوية، وراح يهاجم مدينة طرابلس نفسها. لهذا اضطر فخر الملك أن يطلب المساعدات العسكرية من أمير حلب جناح الدولة وأمير دمشق دقاق، إلا أن ريموند شتت تلك الجيوش سنة 1102 ثم استولى على مدينة جبيل سنة 1103 الكائنة جنوب طرابلس.

استمرت المخاطر تحيق بطرابلس بعد وفاة ريموند الجيلي سنة 1105 إذ تولى حركة التوسع الجيلي وليم جردين منذ ذلك التاريخ حتى سنة 1108 ومن ثم تولاها برتراند بن ريموند الجيلي. حيث كان هذا في إمارة طولون عند وفاة والده فغادرها متوجهاً إلى إيطاليا فأجرى اتفاقاً مع حكومة جنوا حول الاستيلاء على طرابلس ثم عرج على القسطنطينية للتفاهم مع الإمبراطور الكسيوس وللحصول على مساعدات مالية. وصل الأراضي المقدسة سنة 1108 فراح يواصل الضغط على تلك الإمارة. فطلب فخر الملك المساعدة العسكرية من أراتقة الجزيرة الفراتية وقاد الملك الأرتقي سقمان جيوشه نحو سوريا إلا أن قواته فضلت الرجوع نظراً لوفاته.

لجأ فخر الملك إلى مصدر آخر أملاً في انقاذه من الخطر الجيلي. فقد

سافر إلى بغداد محاولاً إقناع السلطان السلجوقي محمد في مساعدته عسكرياً ولم يكن هذا ولا خليفة المسلمين في وضع يمكنهما من الاستجابة لذلك الطلب. وأمضى فخر الملك أربعة أشهر في بغداد أضاع فيها إمارته. إذ عهد بحكم الإمارة سنة 1108 أثناء مدة غيابه إلى قريبه أبي المناقب. وقد اتفق أبو المناقب مع قادة طرابلس على توجيه الدعوة للفاطميين. فأرسل الأفضل جيشاً بقيادة شرف الدولة الذي اعتقل كافة المؤيدين لفخر الملك في طرابلس وأرسلهم إلى مصر. ولم يتمكن القائد الفاطمي من الصمود أمام جيوش الصليبيين وأساطيل جنوه التي حشدت ضد طرابلس سنة 1109 فاضطر إلى الاستسلام. وقد عهد بلدوين الأول بإمارة طرابلس إلى برتراند على أن يكون تابعاً له. كما استولت إمارة أنطاكيا في عهد تانكريد الوصي بوهيمند الثاني على آخر المدن التابعة لإمارة طرابلس ألا وهي جبالة الكائنة شمال بانياس سنة 1109 والتي كان قد أقام فيها فخر الملوك عند عودته من بغداد. واضطر إلى الانتقال إلى دمشق حيث عاش ضيفاً على خزينة واليها.

المقومات السياسية والعسكرية:

استند الحكم في دولة القدس على الأسس الإقطاعية والقضائية التي احتواها دستورها Assize of Jerusalem الذي وضعت خطوطه الأساسية في عهد كودفري. إذ قسمت البلاد إلى أربع إقطاعيات كبرى والي اثني عشر إقطاعية صغرى. والكبرى هي يافا والكرك والجليل وصيدا وكونت كل من القدس وعكا وطبرية إقطاعات خاصة بالملك مباشرة. ويمكن لرؤساء الإقطاع بنوعية الكبير والصغير أن يقطعوا أجزاء من أراضيهم لأتباع جدد حسب تعهدات عسكرية ومالية. وكان التملك الإقطاعي في

أما أجهزة الحكم فتألفت من المؤسسات التالية:

أ ـ المؤسسة الملكية: يعتبر الملك القائد العام للجيوش وهو المرجع الأعلى لكافة القضايا الزمنية وله الحق من ناحية نظرية منع الإقطاعيين من بيع أو رهن أراضيهم. وكان المفروض في العرش أن يكون انتخابياً غير أنه أصبح وراثياً ومع ذلك فلم تكن هناك قاعدة منتظمة في اتباع أي من هذين الأسلوبين.

ب ـ المؤسسات القضائية: نظمت هذه بموجب ما جاء في دستور القدس وهي:

أولاً ـ المحكمة العليا: والتي يتولى رئاستها الملك وتمثل أعلى سلطة قضائية ويتكون أعضاؤها من كبار الإقطاعيين أو أتباع الملك المباشرين الذين يستلمون الإقطاع مباشرة منه. وتتخلص اختصاصات المحكمة العليا في توضيح القوانين وتفسيرها والعمل على إزالة المتناقضات بينها وبين التعهدات الإقطاعية وحل المشاكل بين النبلاء.

ثانياً ـ المحاكم الصغرى: وهو محاكم المدن يشرف على رئاستها من ينوب عن الملك من أمراء الإقطاع الكبير يساعده في ذلك اثنا عشر محلفاً يختارهم الرئيس من بين أتباعه اللاتين. وتعقد هذه المحاكم ثلاثة أيام في الأسبوع تنظر في الدعاوى المقامة من قبل غير النبلاء وفي قضايا التجاوزات على الأراضي ومعالجة قضايا العبيد.

ثالثاً ـ المحاكم المحلية أو الطائفية: وتتألف من خمسة أعضاء اثنان منهم من اللاتين والبقية من سكان المحلة أو الطائفة الدينية وتنظر في قضايا عامة الناس حسب تقاليدهم الدينية ويحق لكل فرد تأدية اليمين في تلك المحاكم حسب كتابه المقدس. هذا ويمكن استئناف الدعاوى التي تبت فيها هذه المحاكم من قبل محكمة المدينة.

رابعاً ـ المحاكم التجارية الممتازة: وهذه خاصة بتجار مدن إيطالية يترافعون فيها حسب قوانين حكوماتهم.

هذا مع العلم بأن العقوبات في مختلف الجرائم قد حددت بدستور المملكة، كما أجاز ذلك الدستور طرق المبارزة والتحكيم المحني في تحري الحقائق كما هو الحال في أوربا أثناء عهدها الإقطاعي.

المراتب الإقطاعية. فكبير الوزراء Seneschal هو من أتباع الملك المباشرين المسؤول الإداري الأول. وينوب عن الملك في الوحدات الإقطاعية الكبرى أفراد الإقطاع الكبار viscounts والذين يقومون بدورهم في إسناد الإشراف

الإداري على أتباعهم في أجزاء إقطاعاتهم.

أما بالنسبة لجيش الدفاع الصليبي فقد اعتمد في تكوينه على ما يلي:

1 ـ التعهدات الإقطاعية: إن من أبرز شروط التبعية الإقطاعية هي الخدمة العسكرية. أي أن على الشخص الموهوب إقطاعاً أن يكون فارساً مستعداً للقتال في الجيش المركزي بانخراطه المباشر أو غير المباشر حسب تدرجه الإقطاعي. هذا بالإضافة إلى الخدمة السنوية لعدد من الأسابيع. وإن على الإقطاعي أن يقدم عدداً من الفرسان عند الضرورة يتناسب مع عدد ضياعه ونفوسها ومواردها. كما أن أمراء المدن الكبيرة عليهم تجهيز عدد معين من الفرسان سنوياً وعند الضرورة أيضاً. فيجب على القدس مثلاً أن تقدم واحداً وستين فارساً. ونابلس خمساً وستين وعكا ثمانين. إن الخدمة العسكرية لهذه المدن مقتصرة على النبلاء الذين يشرفون عليها أو الذين يتملكون فيها عقارات. أما التجار فيكتفى منهم بدفع ضرائب معينة كبديل عن الخدمة العسكرية.

2 ـ الحرس الملكي الخاص: ويعتمد في تشكيله على الإقطاعات التابعة للتاج مباشرة ويحتوي أيضاً على جنود أجيرة مقابل رواتب نوعية أو نقدية.

3 ـ فرق الفرسان الدينية: ومن أشهر هذه الفرق هي:

أ ـ فرسان المعبد Knights of the Temple: وهي عبارة عن فرقة ديرية في الأصل. أسسها فرنسي يدعى هيو بايان Hugh of Payen مع سبعة زملاء له سنة 1118 في مدينة القدس بعد موافقة الملك بلدوين الأول. إذ خصص لهم رواقاً في المسجد الأقصى في ساحة معبد سليمان بن داود. اتبعت الفرقة في أول أمرها تعاليم الأديرة البندكتية، ثم تحولت إلى مؤسسة عسكرية ـ دينية بعد أن وافقت البابوية على ذلك سنة 1128.

تألفت الفرقة من ثلاث مجموعات: يشار إلى الأولى بمجموعة الفرسان التي تقتصر على النبلاء الذين يمثلون القيادة. ويشار إلى الثانية بمجموعة عموم المحاربين الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة. أما المجموعة الأخيرة فهي التي تضم رجال الدين. هذا وتميز النبلاء المحاربون

بشعار البدلة البيضاء ذات الصليب الأحمر. أما شعار عموم المحاربين فبدلة سوداء ذات الصليب الأحمر.

لقد أصبحت هذه الفرقة العسكرية ـ الدينية بمرور الزمن تجارية أيضاً. وذلك لما حصلت عليه من عوائد الإقطاعيات ومن النهب، فكونت لها أسواقاً تجارية صيرفية وخاصة في فرنسا. وأصبح همهم الأوحد بعد سقوط عكا [illegible] تعاطي الأعمال التجارية مما حركت أطماع فيليب الرابع [illegible]ي راح يطاردهم ويستولي على ثرواتهم 1307 ثم أمرت البابوية رسمياً بحل الفرقة سنة1311.

ب ـ فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) Hospitallers: وهم أصحاب المستشفيات ويشار لهم بكتب المسلمين بالداوية لاشتغالهم في التطبيب. بدأت الفرقة حياتها الأولى بممارسة الأعمال الخيرية في القدس بالسهر على راحة الحجاج والاعتناء بمرضاهم. إذ أجاز الفاطميون سنة 1070 جماعة من تجار مدينة أمالفي الإيطالية تأسيس دار لهم في القدس من أجل استخدامها للأغراض المتقدمة. وقد أهدى المؤسسون في البداية رمزياً مؤسستهم إلى القديس يوحنا المتصدق وهو أحد بطاركة الإسكندرية الأوائل الذي عاش في القرن السابع. ومارست هذه الفرقة أعمالها الدينية الخيرية تحت إشراف السلطات الديرية البندكتية. إلا أن الفاطميين أجلوهم عن القدس قبيل فرض الحصار الصليبي عليها. ثم عادوا إليها ثانية بعد فتحها. حيث وافقت السلطات الصليبية على استئناف أعمالها كفرقة مستقلة عن الأديرة البندكتية مرتبطة مباشرة بالبابوية. إلا أنها تحولت إلى مؤسسة عسكرية ـ دينية سنة1118 عندما تولى قيادتها ريموند ليوي Raymond of Le Puy ثم اتخذوا الصليب الأبيض شعاراً لهم.

لعبت فرقة القديس يوحنا دوراً هاماً أثناء الحروب الصليبية وما بعدها وبقيت فعالة في جهات البحر المتوسط من قاعدتها الأخيرة في مالطة في سنة 1798.

جـ ـ فرسان التيوتون: وهذه الفرقة ألمانية يرجع تاريخها إلى سنة 1189 أثناء الحصار الصليبي لميناء عكا في الحملة الثالثة. أسسها بحارة السفن الألمانية التي ساهمت في الحصار. إذ حولوا سفنهم إلى مستشفيات للاعتناء بالمرضى والبرص ثم تطورت فعالياتهم عندما أصبحت عكا العاصمة الثانية للدولة الصليبية فكونوا فرقة عسكرية دامت فعالياتها هناك حتى سقوط عكا[1]. حيث تحولوا منها إلى الجهات الشمالية الشرقية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة لمقاتلة الشعب البروسي والاستيلاء على أراضيه.

4 ـ أساطيل المدن الإيطالية: اعتمدت الدولة الصليبية على أساطيل المدن الإيطالية التجارية في فتح السواحل بصورة خاصة لقاء اتفاقات اقتصادية معينة. ومن أوائل هذه الاتفاقات هي التي حدثت قبيل وفاة كودفري سنة 1099 بينه وبين البنادقة. حيث اشترط هؤلاء لقاء مساعدتهم له في فتح مدن الساحل أن يكون لهم في كل مدينة يساعدون على فتحها إحدى الأسواق الرئيسية وكنيسة وثلث الغنائم. أما في حالة الاستيلاء على طرابلس فلهم نصف غنائمها، وأن تكون طرابلس منطقة احتكارية لهم مقابل ضريبة سنوية يؤدونها إلى كنيسة القيامة، وأن تعفى بضائعهم من الرسوم في كافة الأرجاء الواقعة تحت سيطرة كودفري الذي لم يعش لينفذ الاتفاق. وعقد خلفه بلدوين الأول سنة 1101 اتفاقاً مماثلاً مع الجنويين فاستولى بواسطتهم على أرسوف وقيصرية في تلك السنة، ثم اتفق معهم سنة 1103 فساعدوه على الاستيلاء على عكا. وبفضل الأسطول الجنوي أيضاً تمكن الصليبيون من الاستيلاء على طرابلس سنة 1109، وبيروت سنة 1110. وساهمت أساطيل مدينة بيزا في المشاريع التوسعية الساحلية لإمارة أنطاكية منذ سنة 1098 حتى سنة 1108 في العمليات ضد اللاذقية. إذ حصل تجار بيزا بموجب اتفاق مع سلطات أنطاكية على أحد الشوارع الرئيسية في أنطاكية وعلى حي من الأحياء الهامة في اللاذقية. كما ساهمت البندقية في فتح مدينة صور سنة 1124. وبصورة عامة فقد اعتمدت مملكة القدس في قواها البحرية التوسعية والدفاعية على أساطيل مدن إيطاليا التجارية منذ بدايتها.

5 ـ الحجاج المسلحون يكون حجاج المقدس من صغار الفرسان والأمراء مصدراً عسكرياً مؤقتاً. إذا غالباً ما يشترك هؤلاء في مشاريع مملكة القدس العسكرية فيجمعون بين سببي الدين والدنيا. ومن أوائل الأمثلة على ذلك في تاريخ مملكة القدس هو تسخير بلدوين الأول لجموع قوافل الحج البحرية الإنكليزية والفرنسية والألمانية سنة 1102 في معركة يافا ضد الفاطميين. ثم تمكن بلدوين أيضاً من الاستفادة من فرق الحج البحرية الفلمنكية والدانماركية والإنكليزية سنة 1106 في فرضه الحصار على صيدا التي لم يتمكن منها ففضل رفع الحصار لقاء مبالغ أدتها المدينة.

6 ـ الإمدادات الصليبية الأوربية اتخذت هذه شكل حملات صليبية ترسل بين آونة وأخرى كلما دعت الضرورة كما سيتوضح ذلك في سياق البحث.

ونحن ننشر ذلك كي نؤكد أن الصليبيين جاءوا لكي يستقروا لحماية هدفهم الأساسي وهو العامل الديني، رغم الفشل في إقامة حكومة دينية في بيت المقدس، وكذلك لمنع أي اتصال وحدوي بين أنحاء الوطن العربي. ولكن خانهم التوقع حيث إن الوعي بأساليب الغزاة أنضج عوامل الوحدة والتحرير وطردوا من المنطقة.

ملحق رقم 5
كشاف أبجدي[1]

بأسماء المدن والأماكن الجغرافية كما وردت في المراجع الصليبية وما يقابلها في المراجع العربية

Ablastha, Ablastain	أبلستين ـ البستان
Acre	عكا
Adalia	اضاليا
Adana	أدانه
Adiaman	حصن منصور
Adraad	أذرعات
Afamia	فامية ـ أفامية
Afrabala	عفربلا
Afrin	عفرين
Aghmat	أغمات
Aila	أيله
Ain Jalud	عين جالوت
Aintab	عين تاب ـ عينتاب
Akhlat, Ahlat	خلاط ـ أخلاط
Akkar, Gibelcar	عكار (حصن)
Al	عال (حصن ـ تل)

(1) عن: سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ص 1221 ـ 1232.

Alamut	ألموت
Al-Bara	البارة
Albistan. Albasta	ألبستان ـ أبلستين
Aleppo	حلب
Alexandretta	اسكندرونه
Ailaruz	علاروز
Amaissia	أماسية ـ أماسيا
Amastrts	عينوب
Amide	آمد
Amorium	عمورية
Amq	العمق
Ana	عانة
Anab	أنب
Ana Zarba	عين زربة
Ani	آني ـ آنه
Anjarr	عين الجر
Antaradus	أنطرطوس ـ طرطوس ـ انطرسوس
Antioch	أنطاكية
Apamea	فامية ـ أفامية
Archas, Arcas, Arqa	عرقه
Aregh	حارم
Aretuse	الرستين
Arish	العريش
Arsuf, Arsur, Arsnth	أرسوف
Artesium, Artha	أرتاح
Aryma	العريمة ـ حصن عريمة

Arzen	أرزن
Ascalen	عسقلان
Asa	عزاز
Asfuna	أسفونا
Athareb	الأثارب
Atlit	عثليث
Ayas, Lajazzo	أياس
Baalbek	بعلبك
Ba-Buzaah	الباب ـ باب بزاعة
Babain	البابين
Babylon	الفسطاط
Baghras	بغرس
Balance	بانياس
Balat	البلاط
Balatanus	بلاطنس
Balis	بالس
Banynas, Belinas, Caesarea Philippi	بانياس
Barin, Montferrand	بارين ـ بعرين
Baruth, Berytus	بيروت
Basrafuth	بسرفوث
Beavoir, Belvoir	كوكب (حصن)
Beccar, Beqa, Coelesyria	البقاع
Behesni	بهسني
Beit Jibrin, Beth Cibelin	بيت جبرين (جبريل)
Belfort,Beaufort	شقيف أرنون
Betenoble, Bait Nuba	بيت نوبا

Bethelon	البترون
Bethlehem	بيت لحم
Bethsan, Bessan	بيسان
Birejik, Birtha, Bira, Bile	البيرة
Bizaa, Buzaah	بزاعة ـ بزاعا
Blanche Garde	تل الصافية
Bosra, Bostra	بصرى
Boutron, Botron, Batrun	البترون
Bulunyas	بانياس
Bursia, Burzey	برزية
Byblos	جبيل
Caco	قاقون
Caesarea	قيساوية
Caesarea Magna	شيزر
Caiffa, Cayphas	حيفا
Calcaille	قيليقية
Caleph. Calyptus	حلب
Calogenbar	جعبر
Calquis	قنسرين
Camolla	حمص
Capharca, Capharda	كفر طاب
Carep	الأثارب
Cartapeta	خرتبرت
Carram	حران
Cartapte	خرتبرت
Castra Commenon	قسطموني
Cavam	القحوانة ـ الأقحوانة

Cavea de Tyron	شقيف، تيرون
Caymont	قيمون (تل ـ حصن)
Cedron	وادي مريم
Chaco	قاقون
Chamelle	حمص
Chastel-Blanc	برج صافيتا
Chastel-neuf	حصن هونين
Chateau des Kurdes	حصن الأكراد
Chateau Pelerin	عثليث
Coelesyria	اليقاع
Coible	الخوابي
Colist	القليعة
Coquet	كوكب (حصن)
Crac	الكرك
Cursat	القصير
Cyrrhus, Corice, Couris Quuris	قورس ـ قورص
Damascus	دمشق
Damietta	دمياط
Danith	دانيث
Daraiya	داريا
Darbsak, Trapesac	دربساك
Daron, Dar um	الداروم (الدارون) ـ دير البلح
Dausar	دوسر ـ جعبر (قلعة)
Deraad	أذرعات
Doliche, I duk	دلوك
Dustrey	عثليث

Edessa, Ura	الرها
Elyn	أيلة
Emesa, Emissa, Homs	حمص
Epiphania	حماه
Eregli	هرقله
Ermenek	أرمناك
Erzerum	آضروم (أرض الروم)
Esdraelon	مرج ابن عامر
Farmiya	فامية ـ أفامية
Forbelet, Afarbla	كفريلا
Gabes	قابس
Gadres, Gaza	غزتها
Galilee	الجليل
Gargar	كركر
Gaston, Gaston Pagrae	بغراس
Germanica	مرعش
Germanica Polis	أرمناك
Ghor	الغور
Ghuta	الغوطة
Gibel, Gibelet, Byblos	جبيل
Gibeleas, Akkar	عكار ـ حصن ابن عكار
Gibelin	بيت جبرين (جبريل)
Gibellum	جبله
Grayé	جزيرة فرعون
Hab, Haba, Hapa	هاب
Habis Jaldak	حبيس جلدك

Habor	الخابور (نهر)
Haifa, Caiffa, Caiphas	حيفا
Hamah, Hamath, Epiphania	حماه
Hamtab	عين تاب ـ عينتاب
Harenc, Harim	حارم
Harran,Carrhae	حران
Hattin, Hittin, Madon	حطين
Hauran	حوران
Hasart, Hazart	عزار
Hebron, Habrun	الخليل
Heliopolis	بعلبك
Heraclea	هرقلة
Hierapolis	منبج
Hims	حمص
Hit	هيث
Hromkla, Hromgla	قلعة الروم
Hunin	هونين
Ibelin, Jabneel, Jamnia	يبنا ـ يبنى
Iconium	قونية
Idumee	وادي عربة
Inab	أنب
Jabar	جعبر ـ دوسر
Jacobs Ford	مخاضة الأحزان ـ مخاضة يعقوب
Jaffa, Toppa	يافا
Jeulan	الجولان
Jenin	جينين

Jericho	أريحا
Jerusalem, Hierosoyms	بيت المقدس ـ القدس
Jordan	الأردن
Jubail, Byblos, Gibeles	جبيل
kafarbala	كفر بلا
Kafarlatha	كفر لاثا
kafartab	كفر طاب
kaifa	كيفا
kaisun, Kesoun	كيسون ـ كيسوم
kantara	القنطرة
kars, Chorsa	قـرس
kella	كلا
kharput, Kharpert, Harpus	خربوت ـ خرتبرت
khilat	خلاط ـ أخلاط
khiva	خوى ـ خويه
khoros	قورس
krak des Chevaliers	حصن الأكراد
Krak de Moab	حصن الكرك
krak de Montreal	حصن الشوبك
La Chamelle	حمص
La Feve, Afula	الفولة
Laicas	الغليقة
Lailun	ليلون
Lodicea, Latakia	اللاذقية
Laris	العريش
Larissa	شيزر

Latmin	لطمين
Latron: la Toron de Chevaliers	الأطرون
Layas, Laias, Lajazzo	إياس
Lejjun	اللجون
Lichia	اللاذقية
Lydda, Saint George	اللد
Maan	معان
Maarat Masrin	معرة مصرين
Maarat Numan	معرة النعمان
Maiyafariqin Martyropolis	ميافارقين
Majdal	المجدل
Mamistra, Misis	المصيصة
Manbij, Hierapolis	منبج
Maraclea, Maraqiya	مرقية
Marash, Germanicia	مرعش
Mardin	ماردين
Margat	المرقب
Marj-al Suffar	مرج الصفر
Marj Ayun	مرج عيون
Masyaf	مصياب، مصياف، مصياث
Megiddo	اللجون
Mersina	مرسين
Melitine	ملطية
Mesopotamia	العراق
Mirabel	مجدليابا ـ مجدل يابا
Missis	المصيصة

Mombech	منبج
Montferrand	بارين ـ بعرين
Montfort	القرين
Mont Pelerin	قلعة صنجيل
Mont Thabor	الطور
Mopsueste	المصيصة
Muncritira, Le Monestre, Le Moinestre	المنيطرة
Nablus, Neapolis	نابلس
Naqurah, Nanqura	النقورة، النواقير
Nazareth	الناصرة
Neocesarea	نكسار
Nepa	أنب
Nephin	أنفة
Nicaea	نيقية
Nijm	نجم (قلعة)
Nisibe, Nisibis Nisibin	نصيبين
Orfa	الرها
Oronte	العاصي (نهر)
Pagrae	بغراس
Palastina, Palestine	فلسطين
Paneas	بانياس
Pont	البحر الأسود
Pont de Fer	جسر الحديد
Portus St. Simeonis	السويدية
Polemais, Acre	عكا
Pyramus, Chahan	جيهان

Qadmus	القدموس
Qahwana	القحوانة ـ الأقحوانة
Qalqiliya	قليقية
Qara	قارا
Qarram	حران
Qastamuni	قسطموني
Qinnesrin, Calquis	قنسرين
Qoseir	القصير
Quaquo	قاقون
Quartapiet, Quart-Pierre	خرتبرت
Quneitra	قنيطرة
Quwaiq	قويق (نهر)
Raban	رعبان
Rafaniyah, Rephalis	رفنية
Raheba	الرحبة
Rama, Rames, Ramla, Ramala	الرملة
Ramqala, Raneulat	قلعة الروم
Raqqa	الرقة
Ravendal, Ravendan	الراوندان
Restan	الرستن
Riha	أريحا
Roais, Edessa	الرها
Roosseta	رشيد
Ruad, Aradus	أرواد (جزيرة)
Rugia, Ruj	الروج
Rusafah	الرصافة

Rusa, Russa	علاروز
Safed, Saphet	صفد
Safet, Safita, Afitha	صافيثا
Sagitta	صيدا
Saint-Abraham	الخليل
Saint-Sepulcre	كنيسة القيامة
Saint-Simeon	السويدية
Salamiya	سلمية
Salkhad	صلخد ـ صرخد
Samosata	شميساط
Saone	صهيون
Sarafand, Sarepta Zarephath	صرفند
Sardonas, Sadanium, Zardana	زردنا
Sarmata, Sarmeda, Sarmit	سرمدا ـ سرمد
Sarmin, Sermin	سرمين
Saruj, Sorogia, Soroges	سروج
Scandelion	اسكندرونة
Scythopolis, Beisan	بيسان
Sebastae, Samaria	سبسطية ـ سبصطية (بالشام)
Sebatia	سيواس (بآسيا الصغرى)
Sephorie, Sephoris	صفورية
Sermin	سرمين
Shaffran	شفرعم ـ شفر عمر
Shaizar, Sisara,Caesara	شيزر
Shaqhab	شقحب (تل)
Selcath	صلخد ـ صرخد

Shaqif	الثقيف
Shaqif Arnun	شقيف أرنون
Shaqif Tirun	شقيف تيرون
Sidon	صيدا
Siffin	صفين
Silifke	سلوقية
Sinjar	سنجار
Sinn al Nabra	الصنبرة
Sion, Zion	جبل صهيون
Sisara	شيزر
Smyma	أزمير
Subeibe	الصبيبة
Syria	سورية ـ الشام
Tabor, Thabor	جبل الطور (قرب عكا)
Tafnis, Tampnis Tinnis	تنيس
Tarse	طرسوس
Tekrit	تكريت
Tell Mannas	تل منس ـ تلمنس
Templum Domini	قبة الصخرة
Tlabaria Tiberias	طبرية
Theodosiopolis	أرزن
Tibnin, Toron	تبنين
Tigris	دجلة (نهر)
Tiolhamdoum	تل حمدون (حمص)
Tizin	تيزين
Toron, Tibnin	تبنين

Tortosa	أنطرطوس ـ طرسوس
Trapessac	دربساك
Tripoli, Tripolis	طرابلس
Tubanie	الطوبان
Tulupe	دلوك
Turbessel' Turbezel	تل باشر
Tyana	طوانة
Tyre	صور
Tyron	شقيف تيرون
Uliaiqa, Laicas	العليقة
Valania	بانياس
Yabna	يبنا ـ يبنى
Yaghra	يغرى
Yarmuk	اليرموك
Yazur	يازور
Zerdana	زردنا
Zibel	جبلة
Zion	صهيون
Zirin, Jezreel, Le Petit Gerin	زرعين

ملحق رقم 6
عن بعض من بدايات حياة الرهبنة والديرية في الشرق[1]

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: 27].

1 ـ القديس بولس الطيبي (حوالى 251 ـ 356 كان يعيش وحيداً منفرداً في مصر العليا.

2 ـ القديس انطوان وهو معاصر للقديس بولس الطيبي. نظم الكثير من المستعمرات للرهبان في مصر العليا وكانت الحياة هناك تتصف بالعزلة الانفرادية إلا في حالة انتاج الطعام والملابس.

3 ـ باخوم: من مصر السفلى أو الوجه البحري وهو أول من شيد دير في الحياة المسيحية قرب «دندره حوالى 315 ـ 320» فرض على الدريين الطاعة والنظام والعمل اليومي والعبادة ويغلب على نظامه العزلة إلا في أوقات الصلاة وأن كل دير مستقل عن الآخر في نظامه.

---

(1) للاستزادة الاطلاع على:

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 1، ط 5، ص 172 ـ 191.

فشر: تاريخ أوربا، ص 111 ـ 114.

4 ـ باسيل: 329 ـ 379 اطلع على نظام الأديرة السابقة ولم تعجبه فأسس مؤسسة ديرية في قيصرية عام 360 م في آسيا الصغرى وأصبحت تتزعم الحياة الديرية في الإمبراطورية البيزنطية. وقضى باسيل على حياة العزلة واهتم بالطعام الجيد كغذاء للرهبان والعناية بالصحة والنظافة.

وتلقف الحياة الديرية الغرب وارتبطت البدايات الأولى بأربعة رهبان هم:

1 ـ مارتن التوري 316 ـ 397.

2 ـ كاسيان 360 ـ 435.

3 ـ قيصر الأرلي 542 م.

4 ـ بندكت 480 ـ 543.

ملحق رقم 7
بشأن الرد على نظرية المؤرخ البلجيكي المسيحي «هنري بيرين»

«... إن العرب (الإسلام) هم السبب في تدمير وحدة البحر المتوسط»، هذا رأي المؤرخ هنري بيرين Henri Pirenn وقد ورد في كتابيه «تاريخ أوربا الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى» «ومحمد وشرلمان».

فيقول عن ذلك أ.د. محمد شفيق غربال في تقديمه لكتاب المؤرخ أرشيبالد. ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. لقد لخص د. حسين مؤنس نظرية هنري بيرن تلخيصاً حسناً في مقال نشره في المجلة التاريخية المصرية (مايو 1951 المجلد الرابع، العدد الأول) بعنوان المسلمون في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية. [صدر كتاب بعنوان: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993].

حيث إن المؤرخ لويس يقول: رأى المؤرخ «بيرين» ما حلّ بالبحر المتوسط من خراب، ولكنه أخطأ التحري عن المسؤول عن ذلك. كان البيزنطيون لا العرب كما زعم، هم الذين دمروا الوحدة القديمة التي ربطت أجزاء البحر المتوسط بعضها ببعض. وبينما يشرح «بيرين» ما سماه حصار المسلمين الاقتصادي لأوربا فإننا نجده يبين بجلاء، في كتابه «محمد وشرلمان» أن كل ما كان يشغل بال شرلمان ويستحوذ على اهتمامه، كان

علاقاته مع بيزنطة. وأن أقوى الأساطيل أثراً في البحر المتوسط في تلك المدة، هو الأسطول البيزنطي ولست أدري ـ يقول لويس ـ لماذا لم يوصله هذا الكلام إلى استخراج النتيجة المنطقية لها. وكان رانسيمان المؤرخ الوحيد الذي أدرك أن قوة بيزنطة البحرية وجهت التجارة في تلك الفترة طبقاً لما تريد، ومع هذا فإنه لم يعط هذه الحقيقة حقها من التأكيد. وفي رأي المؤرخة «رنيه ديهار» في مقال نشرته في العدد الثاني من المجلد الأول من مجلة التاريخ العالمي أن الذي حدث لم يكن انقطاعاً للصلات بل تغييراً في الطرق وفي الأوضاع.

ويقول المؤرخ «لوپز» في بحث نشره بعنوان «إعادة النظر في محمد وشرلمان» ما ملخصه: يتحدث المؤرخون عن فقدان البحر المتوسط وحدته الاقتصادية، ويستدلون على ذلك باختفاء ما كان يستورده أهل الغرب من البردى ومن المنسوجات الثمينة ومن التوابل ومن السكة الذهبية.

ولم تختف هذه الأشياء معاً وفي وقت واحد، ولا يعاصر اختفاؤها الفتوح العربية.

فالبردى ـ مثلاً ـ كان يصنع في مصر وحدها، ومصر فتحها العرب في عام 639 ـ 641 م ولم يبطل استعمال البردى في فرنسا تحت حكم بني ميروفنج إلا في سنة 692، على أن استعماله لم يبطل في جهات أخرى من غربي أوربا، ولم تكن البردى في الواقع مما يصلح للاستعمال في جو بلاد ذات جو بارد رطب كفرنسا. ولكن القوم مضوا في استعماله احتراماً للتقاليد الرومانية. على أنهم أخذوا يستعملون الرق ابتداء من سنة 670 أي في وقت واحد مع البردى ـ ثم لما أبطل عبد الملك بن مروان تصدير البردى اكتفوا في فرنسا باستعمال الرق وهو أصلح لمناخهم.

وأحب التأكد هنا عما يفيد المؤرخ من استخدام الآثار. ومن هذا القبيل ما يقال عن التخلي عن استعمال السكة الذهبية نهائياً بعد لويس التقي 813 ـ 840 وقد ثبت أن ذلك لا يرجع مباشرة إلى الفتوح العربية، بل إلى

ضآلة شأن الحكومات المتبربرة. وآية ذلك أنه في القرن الثالث عشر عندما تضاءلت قوة الروم والعرب عاد للسكة الذهبية في الغرب شأنها.

والتقلبات التي طرأت على استيراد المصنوعات الشرقية (ربما في ذلك المنسوجات الثمينة) ترجع إلى تطور العلاقات البيزنطية العربية ـ والثابت أن الدولة العربية كانت على أتم استعداد لتصدير المنسوجات من صنع دور الطراز من الروم؛ إذ كان لهؤلاء تدقيق فيمن لهم حق ارتداء تلك المنسوجات من الغرباء.

وعند الحديث عن التوابل لا بد من أن نحسب حساب تغير الأذواق، ولا بد أن نذكر أن التوابل تأتي من أقطار مختلفة فلا يكفي سبب واحد لتفسير ما انتاب التجارة فيها من تقلبات. وقد تتأثر التجارة مثلاً بأحداث تحدث في أقصى الشرق أو في قلب القارة الإفريقية.

ونضيف إلى هذا أن ارتقاء مستوى المعيشة في البلاد العربية أدى إلى استيراد التوابل للاستهلاك المحلي العربي لا للتصدير لأوربا. والظاهر أن الاستيراد دائماً كان لا يتناول إلا كميات قليلة وأن المعروض في الغالب كان أقل من المطلوب.

ونختم هذه الملاحظات بقول المؤرخ «أرشيبالد لويس» كرد واضح عن نظرية «هنري بيرين» إن حركة التجارة بين الشرق والغرب لم تتوقف بسبب حركة الفتح الإسلامي، بل استمرت وإن كان قد تضاءل حجمها نتيجة الظروف التي كان يمر بها العالم وقتذاك، وأن السبب الجوهري لما حل بالغرب هو انهيار الاقتصاد الأوربي في نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط. إذ أصبح اقتصاداً زراعياً يقوم على سياسة الاكتفاء الذاتي غير المتطور، مما قضى على كل نشاط في المجالين الصناعي والتجاري، الأمر الذي أصاب الحضارة الأوربية في الصميم. وقال المؤرخ «لويس» ـ في ثقة كاملة ـ أن ذلك كله حدث قبل ظهور الإسلام وقبل حركة الفتوحات بمئات

من السنين. وبذلك انهارت تماماً دعاوى «هنري بيرين» بعد أن ثبت عدم صحتها، وقيامها على أساس غير سليم[1].

(1) أرشيبالد ر. لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1960، ص 39 ـ 41، 145 ـ 146.
جوزيف نسيم: المسيحية والإسلام وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية 1986، ص 110 ـ 111.

ملحق رقم 8
استمرار التيار الديني في الصراع بين الشرق والغرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: 32 ـ 33].

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 173 ـ 175].

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: 120].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة: 51 ـ 52].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 53].

«صدق الله العظيم»

تمهيـــد

بين أيدينا الكثير من الإشارات والمؤشرات التي تحدث في العالم اليوم والتي تستنتج منها مقاصد أخرى وعلى رأسها العامل أو الدافع الديني وربما يكون السبب في عدم الإشارة إلى الكثير منها في رسالة الدكتوراه إنها إصدارات حديثة أو لأن البعض في حاجة إلى دراسة وبحث معمق للوقوف على الأسباب المختلفة التي أشارت إليها هذه المراجع حيث إننا نعرف أن الكثير من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والطبقية وغيرها وراء الكثير من أحداث العالم بالإضافة إلى عيوب جوهرية في شكل وأساس النظام السياسي الذي تدور في فلكه النظم المختلفة والمتعددة والمتباينة في العالم، كل ذلك ساهم في انفجار العنف الفردي والجماعي والحروب الأهلية والمجاعات والهروب الجماعي وتشتت الأسر من أجل البحث على الأمان والوصـول لشط السلامة ولكن كل ذلك لم يجد حيث إن الملجأ مفقود نظراً للعيوب الجوهرية الأساسية في كل أنحاء العالم تقريباً.

وفيما يلي ندون بعض المؤشرات ـ كأمثلة ـ بالإضافة إلى ما ذكر في ثنايا الكتاب وكذلك في الملاحق التالية ذات الصلة بموضوع الحديث:

1 ـ الحروب المستمرة ضد المسلمين في أوربا وأمريكا سواء كانت تستهدف أفراداً أم جماعات أم دولاً وكمثال على ذلك الحرب ضد البوسنة والهرسك والشيشان والملاحقة المسعورة للمسلمين والعرب في بلغاريا وأسبانيا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا، بل إنه يلاحظ بعد تفكك الاتحاد السوفيتي أن المسلمين كانوا في أسوأ حال وأن مواطنهم أفقر البلاد وكانت خالية من أية مواقع انتاجية تساعد على إيجاد النماء والسعادة واكتشف أن الكثير من

المساجد تحولت إلى كنائس أو في أحسن الأحوال ظلت مغلقة مهجورة والأسوأ من ذلك أن الكثير من المناطق الإسلامية كانت مناطق لتصنيع أسلحة الدمار الشامل مما انعكس على نفسية المواطنين وصحتهم. ورغم اعترافنا بأن هناك أسباباً ساهمت في تفجير هذه الصراعات ومن بينها ضغوطات خارجية وتسوية حسابات سابقة مع الاتحاد السوفيتي نظراً لموقفه النظري المؤيد لحركات التحرير والانتفاضات الشعبية في العالم الثالث وكذلك للانتقام من يوغسلافيا التي تشكل مع غيرها قيادة لدول عدم الانحياز، إلا أننا نتألم ونستغرب من الجور و الطغيان الذي وقع على المسلمين بالتحديد. وربما هذا يجعلنا نقر أن الأوربيين لا يبغون على الاطلاق قيام حكم إسلامي بأي شكل في القارة الأوربية.

2 ـ ربط أية حركة عنف تحدث في أوربا أو أمريكا بالعرب وبالمسلمين مما يترتب عليها شن الحملات العنصرية والاعتقالات والقتل بين صفوفهم وتسخير وسائل الإعلام كافة للنيل من العرب والمسلمين مما جعل المواطنين في أوربا وأمريكا لا يميزون على الإطلاق بين كلمة إرهابي وبين كلمة عربي ومسلم.

3 ـ ترصد وملاحقة أية حركة ثورية تحدث في الوطن العربي والعالم الإسلامي خاصة وإن كانت هذه الثورة تريد الاستقلال والحرية وتتبنى برنامج طموح للنهوض بشعبها ووضعه في موكب التقدم العلمي وتنادي بالإسلام الحقيقي وتفجر المعاني الحقيقية للإسلام الذي لا يعني فقط العبادات كالصوم والصلاة والحج والتمسك بالسلفية بل إن الإسلام عبادة وسلوك وتعامل وتقدم وتطبيق المساواة بين الناس وهو كذلك الاستقلال السياسي والاقتصادي من حيث خلق قاعدة زراعية وصناعية وامتلاك أسباب القوة المادية ومحاربة سياسة الاعتماد على الغير والتحول عن السياسة الاستعمارية الاستهلاكية والسعي حثيثاً للانتاج فإذا ما حصل ذلك فإن آلة الاستعمار الأوربي الأمريكي تنشط ويبدأ الهجوم بوسائله المختلفة كافة وتلبس الكلمات بمعاني تغير مفهومها الأصلي وتطلق العبارات على هذه الثورات فيقولون إنها

تدعم الإرهاب وإنها ضد حقوق الإنسان وغير ذلك من الأباطيل وهذا ما حصل كمثال لثورة 23 يوليو عام 1952 وثورة الفاتح من سبتمبر 1969 م وغيرهما من الارهاصات الوطنية التي أجهضت في الوطن العربي والعالم الإسلامي.

4 ـ الكتابات العديدة التي بدأت القذف والقدح في الإسلام والنبي العربي محمد ﷺ والقرآن، وآخر الصيحات ما حدث في انجلترا حيث أخرجت علينا آلة الحضارة الوثنية الغربية طابع بريد يحمل ما قالوا عنها أنها صورة للرسول عليه السلام وبجواره موسليني حاكم إيطاليا وقالوا إن هناك توافقاً في الميول بين من اختاره الله سبحانه وتعالى لإمامة الأنبياء والرسل وبين الدكتاتور موسليني وهذا التوافق الذي بنوا عليه هذا القياس هو أن كليهما مغرم بحب القطط!؟.

5 ـ ازدواجية المعايير والموازين في هيئة الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية التي تكون غالباً في غير كفة العرب والمسلمين حتى وإن كانا على الحق ويظهر كل ذلك بوضوح في قضية كفاح شعب فلسطين العربي وليبيا والعراق والصومال والبوسنة والهرسك والشيشان والباكستان وإيران وتجديد اتفاقية حظر الأسلحة النووية.

فلسفة الثعبان المقدس

أبو القاسم الشابي[1]:
شاعر العروبة والحب والثورة

فلسفة الثعبان المقدس هي فلسفة القوة المثقفة في كل مكان. وكما تحدث الثعبان في القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة حينما حاول أن يرين له الهلاك الذي أوقعه فيه، فسماه «تضحية» وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس...

كذلك تتحدث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حيثما تحاول أن تسوغ طريقتها في ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها: «سياسة الإدماج وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذي لا معدي عنه لهاته الشعوب، إذا أرادت نيل حقوقها في هذا العالم، وبلوغ الكمال الإنساني المنشود، ولكن الفناء حقيقة شنيعة، مبغضة، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما في التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام».

كان الربيعُ الحيُّ روحاً، حالماً ... غضَّ الشباب، معطَّر الجلبابِ
يمشي على الدنيا، بفكرة شاعرٍ ... ويطوفها، في موكبٍ خلَّاب
والأُفْقُ يملأه الحنانُ، كأنَّه ... قلبُ الوجود المنتجِ الوهَّاب
والكون من طُهْرِ الحياة كأنما ... هُوَ معبدٌ، والغابُ كالمحراب
الشاعر الشحرورُ، يرقص منشداً ... للشمس، فوقَ الوردِ والأعشاب
شعْرَ السعادة والسلام، ونفسُه ... سَكْرَى بِسحْر العالَم الخلَّاب

(1) ولد الشاعر عام 1909 م.

ورآه ثعبانُ الجبالِ، فَغَمَّهُ ... ما فيه من مَرَحٍ، وفَيْضِ شباب
وانقضَّ، مُضْطَغِناً، كأنَّه ... سوطُ القضاء، ولعنةُ الأرباب
بُغِتَ الشقيُّ، فصاح في هول القضا ... متلفناً للصائك المنتاب
وتَدفَّقَ المسكينُ يصرخ ثائراً: ... «ماذا جنيتُ أنا فحق عقابي!»
«لا شيء، إلا أنني متغزلٌ ... بالكائنات، مغرَّدٌ في غابي»
«ألقى من الدنيا حناناً طاهراً ... وأبثُّها نجوى المحبِّ الصابي»
«أيُعَدُّ هذا في الوجود جريمةً؟! ... أين العدالةُ يا رفاق شبابي؟»
«لا[أين؟]، فالشرعُ المقدَّسُ، ها هنا ... رَأْيُ القويِّ وفكرةُ الغلَّاب!»
«وسعادةَ الضعفاء جُرْمٌ..، ما له ... عند القويِّ سوى أشدِّ عقاب!»
«ولتشهد الدنيا التي غَنَّيْتُهَا ... حلمَ الشباب، وروعةَ الإعجاب»
«إن السلامَ حقيقةٌ، مكذوبةٌ ... والعدلَ فلسفةُ اللهيب الخابي»
«لا عدلَ، إلا إن تعادلت القُوَى ... وتَصَادَمَ الإرهابُ بالإرهاب»
فَتَبَسَّمَ الثعبانُ بسمةَ هازىءٍ ... وأجاب في صَمْتٍ، وفَرْطِ كذَاب:
«يا أيها الغِرُّ المثرثر، إنَّني ... أرثي لثورة جهلك التلَّاب»
«والغِرُّ يعذره الحكيمُ إذا طغى ... جهلُ الصِّبا في قلبه الوثَّاب»
«فاكبحْ عواطفكَ الجوامحَ، إنَّها ... شردتْ بُلبِّك، واستمعْ لخطابي»
«إني إلهُ، طالما عبد الورى ... ظلِّي، وخافوا لعنَتي وعقابي»
«وتقدَّموا لي بالضحايا منهمُ ... فَرِحين، شأنَ العابد الأوَّاب»
«وسعادةُ النفسِ التقيَّة أنَّها ... يوماً تكونُ ضحيَّة الأرباب»
«فتصير في رُوح الألوهةِ بضعة، ... قُدُسِيَّةً، خلَصتْ، من الأوشاب»
«أفلا يسرُّكَ أنْ تكون ضحيَّتي ... فتحُلَّ في لحمي وفي أعصابي»
«وتكونَ عزماً في دمي، وتوهُّجاً ... في ناظريَّ، وحِدَّةً في نابي»
«وتذوبَ في رُوحِي التي لا تنتهي ... وتصيرَ بَعضَ ألوهتي وشبابي..؟»
«إني أردتُ لك الخلودَ مؤلَّهاً ... فيي روحيَ الباقي على الأحقابِ»
فكِّرْ، لتدركَ ما أريدُ، وإنَّه ... أسمى من العيش القصير النابي»
فأجابه الشحرورُ، في غُصَص الرَّدى ... والموتُ يخنقه: «إليكَ جوابيَ»

«لا رَأْيَ للحقِّ الضعيفِ، ولا صدًى، والـرَّأيُ، رأيُ القـاهـر الغـلَّاب»
«فـافعـلْ مشيئتـكَ التـي شئتَهـا وارحمْ جلالَكَ من سماع خطابي. .»

* * *

وكـذاك تتخـذ المظـالـمُ منطقـاً عـذْبـاً لتخفـي سَـوْءَةَ الآراب

* * *

ألا أيُّها الشادي الذي أطربَ الورى[1] بحلـو حـديـثٍ عـن حقـوقٍ وآمـالِ
وقـال لنـا: فـي عـالـمِ الغـدِ جَنّـةٌ غـزيـرةُ أنهـارٍ وريفـةُ أظـلالِ
سمعْنا، خُدِعْنا، وانتبهنا، فحسبُنا لقد مَلَّتِ الأسماعُ قيثارك البالي
ويـا أيُّهـا الغـربُ المـواعـدُ لا تـزِدْ كفى الشرقَ زاداً من وعودٍ وأقوال
شبعنـا وجعنـا مـن خيـال مُنَمّـقٍ ومنه اكتسينا، ثم عُدْنا بأسمالِ
فلا تندبِ الضَعفى وتغصبْ حقوقهم فتلكَ إذاً كانت، شريعة أدغال!!

إنه لمن[2] دواعي اعتزازنا وفخرنا الانتماء إلى أمةٍ عظيمة، وحمل هويتها الخالدة. فأمتنا العربية كانت منذ فجر التاريخ الإنساني، وما زالت، أمة معطاء، حملت مشعل الحضارة الإنسانية، وتفاعلت مع غيرها تفاعلاً حضارياً خلاقاً مبدعاً. . أخذت من غيرها، كما قدمت وأعطت لغيرها، وحملت للعالمين الكثير الكثير من العطاءات الحضارية الخالدة. إن إنجازات أمتنا المعطاء ما تزال شاخصةً شامخةً، وشواهد أبدية على عظمة إنسانها العربي وإنسانيته الرفيعة. إن بصمات أمتنا العظيمة ما تزال حاضرةً للعيان ماثلةً للرؤى في كافة مجالات الحياة والحضارة الإنسانية؛ ما تزال خالدة خلوداً أبدياً باقياً ما بقي الأثر في الحجر، نحتاً ونقشاً وبناءً يطاول النجوم، ويعبر المسافات اللامتناهية في التاريخ بين الأزل والأبد.

إنساننا العربي هو الذي قدم للإنسانية أول أبجدية كتبت بها، وتطورت بها وانتشرت بها المعارف والعلوم، والفنون، وحملها الإنسان العربي أمانةً في عنقه إلى أخيه الإنسان في كل مكان من المعمورة، فكانت الأبجدية بذلك

(1) الشاعر علي محمود طه.

(2) من: عبدالوهاب زيتون: الحروب الصليبية هل انتهت؟ ص 5 ـ 13.

أعظم إنجازٍ حضاري عرفته البشرية ليومنا هذا. إنساننا العربي هو الذي أشاد الأهرامات العملاقة، وبنى القناطر، والحدائق المعلقة في بابل، والبتراء، وصنعاء، وإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد. . وهو الذي عمّر الأرض فسماها بالمعمورة. أمتنا العربية العظيمة هي التي جادت على البشرية بالأنبياء العظام جميعهم، الذين حملوا كلمات السماء من أجل إقامة الحق في الأرض، وبعث الدفء في الكون، وإشاعة السلام، ورفع ظلم الإنسان عن أخيه الإنسان، وحمل الفضيلة ودفع الرذيلة ونشر المحبة بين البشر ولكافة بني البشر.

أمتنا العربية لم تعرف حدوداً للإنسانية تقف عندها، أو عصبية تتحجر عليها، أو كرهاً تُحِلّه للغير.

إنساننا العربي عُرِف منذ الأزل بنزعته الإنسانية الصادقة إلى بين جنسه من كافة بني البشر دون تمييز بين عرق أو جنس أو لون؛ لنقرأ معاً كلمات حمورابي أول مشرّع حضاري عرفته الإنسانية ومنذ ما يزيد على أربعة آلاف عام خلت:

«إذا لم تكن أنت ربي فماذا يكون. أنا الأسير الطائع لك، إنك أنت خالقي، وأنت الذي حكّمتني في جيوش العباد.

بَدِّل قوتك الرهيبة حباً ورحمة، وابعث في قلبي الاحترام لربوبيتك، وهبني ما ترى فيه الخير لكلّ الناس».

(انظر قصة الحضارة الجزء الثاني صفحة 322 ترجمة دكتور زكي نجيب القاهرة 1965).

وهذا دليل أبدي على تطلّع الإنسان العربي منذ التاريخ الموغل في القدم، نحو أفقٍ رحبٍ فسيح للأسرة الإنسانية الواحدة. وقد تجددت نزعتنا الإنسانية وترسخت على مرّ الزمن، وعلى لسان الأنبياء العظام جميعهم عليهم السلام. ولنقرأ معاً كلمات النبي محمد (ص): «الخلق كلهم عيال الله، وأقربهم إلى الله، أحبهم إلى خلقه. .

الناس سواسية كأسنان المشط.. لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.. كلكم لآدم وآدم من تراب».

ولنقرأ معاً قوله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

وليس غريباً بعد ذلك أن تكون التحية فينا، كما لغيرنا بـ: السلام عليكم.. وسلام الله عليكم.. وسلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وأن تترادف رسالة الإسلام، وكلمة الإسلام، معنى ولفظاً بمفهوم «السلام» لفظاً ودلالةً أيضاً، وفي ذلك عظمة أمتنا ورسالتها الحضارية الخالدة.

..إن أمتنا العظيمة قديمةٌ في التاريخ، قَدِم التاريخ الإنساني ذاته، أصيلةٌ في الحضارة، أصالة الحضارة الإنسانية ذاتها، عريقةٌ في هويتها، لا تضاهيها أمةٌ من الأمم عراقةً وأصالةً وهويةً، خالدة على مرّ الزمن.

وإذا كان لنا أن نشمخ ونفخر أن أمتنا حافظت على عروبتها وأصالتها وعراقتها وهويتها العربية الخالدة رغم كل المستجدات وغوائل الأحداث العاتية العظيمة التي مرت بها، فإننا في ذلك كله لسنا بدعاةٍ عنصريين، أو لنظرةٍ عرقيةٍ فينا، كتلك التي عرفتها أوربا من نازية وفاشية، وصهيونية توراتية لئيمة حاقدة. نحن ننشد السلام والمحبة لنا ولغيرنا دون تمييز.

إن أمتنا العربية حافظت على أصالتها وعراقتها وهويتها لأسباب تاريخية وموضوعية، حية ماثلة لكل ذي بصيرة.

إن وطننا العربي الفسيح بحدوده الطبيعية الشامخة التي تفصله عن غيره من الأوطان هو أولى وأهم تلك الأسباب كلها، وإن كانت بقية الأسباب الأخرى توالدت عن هذا السبب المادي والموضوعي في آن واحد، فجاءت كافة المقومات الأخرى للهوية العربية كنتيجةٍ وسبب في نفس الوقت لتوالد العروبة وتجددها وتدفقها وديمومتها الأبدية الخالدة في أرضنا ووطننا العربي العظيم من المحيط إلى الخليج.

إن الوطن العربي الرحب الفسيح بحدوده الطبيعية من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي وقمم جبال فارس وزغروس شرقاً، ومن جبال طوروس وحوض البحر المتوسط شمالاً وغرباً، إلى البحر العربي وهضبة الحبشة ومنابع النيل والصحراء العربية الكبرى في إفريقيا جنوباً.. كل ذلك شكل الوعاء المادي، والرحم المكين الذي حوى الجنين العربي، والهوية العربية منذ فجر التاريخ الإنساني، ومنذ أن عرفت الإنسانية الحياة على الأرض. وأياً كانت أصول وتسميات تلك القبائل الأولى التي عاشت وترعرعت بين جدران الوطن العربي الفسيح، وتنقلت بين وهاده وأكماته وسهوبه شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، سواء اتفق المؤرخون وعلماء الأنساب فيها أم اختلفوا، وسواء قالوا إنها انطلقت من الجنوب في جزيرة العرب، أم نزلت من الشمال في وادي الرافدين.. كل ذلك ليس مهماً، ولا يشكل عائقاً أمام حقيقة وجود الهوية العربية ورسوخها منذ فجر التاريخ.. أمام ثبوت العروبة وكينونتها في كل حبة رمل من صحارينا، وكل شبر من شواطينا، وفي كل رابيةٍ خضراء من بلادنا الغناء.. في الشمال، كما في الجنوب، وفي الشرق كما في الغرب، لقد تحركت القبائل العربية الأولى في هذا الوطن العظيم، فتمازجت، وتماثلت، وتصاهرت، وتوالدت بعضها من بعض، تماماً كما يحدث لقطرات الماء بعضها مع بعض في وعاءٍ أو في قدر واحد. ومع تلك القبائل الأولى التي سكنت هذا الوطن العظيم ولدت الهوية العربية مع ولادة الإنسان في الكون. لقد مرت الأمة العربية عبر تاريخها الموغل في القدم بتجارب قاسية ومحنٍ دامية، وواجهت عوادي الدهر والطبيعة معاً وصمدت لعواطف عابقة، وجحافل غازية كثيرة وكثيرة.. كل ذلك مما منحها هويتها، وثبت فيها معالم عروبتها، وأكسبها أصالتها وعراقتها، وصهرها مع بعضها البعض في بوتقة التاريخ، أو قُلْ في مرجل بخاري عظيم لوطن عربي عظيم. هكذا تفولذت أمتنا العربية ومدت جذورها بعيداً، بعيداً في جنبات الوطن العربي العظيم مثلها في ذلك مثل شجرة سنديان عظيمة تسر

الناظرين، وتأخذ بقلوبهم في ذرى جبالنا الشامخة، وقد استعصت على عواصف الطبيعة.

لقد تعرضت أمتنا العربية خلال تاريخها الإنساني الموغل في القدم، لهزات وهزات، استهدفت في كل مدة استلاب الهوية العربية، ومصادرتها، وكانت في كل مرة ترد على هجمات الغزاة الذين استغلّوا ضعفاً عارضاً فيها أو خلاقاً فتجزئة في صفوفها، باستعادة وحدتها القومية، واستنفار كمونها الحضاري اوصيل، ودحر الغزاة، وجعله أثراً بعد عين، حتى أصبح وطننا العربي بحق يعرف لدى كافة مؤرخي العالم وباحثيه باسم «مقبرة الغزاة».

.. لنمعن النظر في كلمات بن غوريون: ما يسمى رئيس أول حكومة للعدو عندما نزل أرض فلسطين لأول مرة عام 1945:

«نحن هنا في فلسطين مثل فصائل الإنكليز والإسبان الذين قضوا بالحديد والنار على الهنود الحمر في أمريكا».

وفي كلمات مناحيم بيغن في خطابه الجوابي في الكنيست الإسرائيلي في 1977/11/20 في الرد على الخائن أنور السادات:

«نحنُ لم نأخذ أرضاً عربية، بل عدنا إلى أرضنا، والصلة بيننا وبين هذه الأرض هي صلة أبدية، وهي ثابتة في جذور التاريخ الإنساني» وفي كلمات إسحق شامير في 16 حزيران 1982 م على شاشة التلفزيون الفرنسي إثر الاجتياح الصهيوني للبنان:

«نحن لم نضم أراضي عربية محتلة.. كيف نضم ما هو ثابت تاريخياً لنا، ولأجدادنا.. ولا أرى داعياً لتحديد حدود إسرائيل.. إنها محددة في التوراة».

وفي وقت تشابكت فيه الأوراق واختلطت الأحداث وعظمت الهجمة الشرسة، على أمتنا العربية من كل صوب..

.. وفي وقت تتغير فيه الوقائع، وتستجد المستجدات على الساحة الدولية وفي وطننا العربي قبل أن يجف مداد القلم الذي تكتب فيه. وفي وقت تحوم فيه البوم وهي تنعق شؤماً ويأساً، وتصول فيه الذئاب وقد كثرت

من حولنا، وتتعاظم فيه قوى الشر والعدوان وقد بلغت مبلغاً لم تبلغه من قبل لبسط الفاشية الصهيونية على أمتنا العربية، بفرض ابتلاعها وإيداعها تحت كابوس الاحتلالات السافرة، في خطة همجية كتلك التي صاغها أسلافٌ لهم من قبل.. وفي الوقت الذي ينتصب فيه شعبنا العربي عملاق في أرضنا المحتلة في فلسطين، وجنوبي لبنان وذرى الجولان، تماماً كما انتصب أسلافٌ لنا من قبل في مواجهة جحائل الصليبيين والمغول والتتار والفرس والروم.. تماماً كما انتصب الإنسان العربي عملاقاً في القادسية واليرموك وحطين وعين جالوت.

.. وفي الوقت الذي جعل فيه أطفالنا في فلسطين من الحجارة رمزاً حضارياً خالداً للكفاح الإنساني، وتسابقوا إلى الشهادة على عربات الاحتلال الصهيوني ومختبراته، كما تتسابق الفراشات والعصافير إلى أزهار المروج.. وفي الوقت الذي يسيطر فيه اليأس على البعض، ويُطبق الظلام الدامس على البعض الآخر، وسط صيحات الحرب النفسية للفاشية الصهيونية التي ما فتئت تزرع أسطورة «إسرائيل لا تقهر» تماماً كما كان يشيع ذلك أباطرة الصليبيين، وملوك المغول والتتار في كل حملة، وهجمة، استهدفوا فيها استلاب وجودنا، واجتياح وطننا العربي..

.. في هذا الوقت، ووسط هذا الزحام من الأحداث اللاهبة، حري بنا العودة إلى التاريخ العربي؛ إلى ماضي أمتنا؛ إلى تجارب وجودها الأزلي فسنجد في ثنايا تاريخنا الذي مازال مشرقاً رغم كل حملات التشكيك والتضليل، سنجد فيه ما يبعث الأمل، ويجدد الإرادة، ويصلّب العزيمة في مجابهة مغولٍ جدد، وتتارٍ جدد، وصليبيين جدد! لا سيما وأن أمتنا العربية وقد تأصلت عراقةً على مر الزمن، وجابهت مثل ذلك، وأعتى من ذلك.. إن إنساننا العربي ما زالت تتدفق فيه دماء آبائه وأجداده «الذين صنعوا ملاحم ذي قار، والقادسية واليرموك وحطين، وعين جالوت، وغيرها من ملاحم المجد والفخار».

في الوقت الذي تنظر فيه الأمم والشعوب إلى تراثها الوطني، وتاريخها القومي نظرتها إلى أمنها القومي، ومستقبلها الاستراتيجي.. في الوقت الذي

يبني فيه أعداؤنا تراثاً زائفاً لهم، وتاريخاً خرافياً من الأباطيل التي تثير سخرية كل ذي عقل وبصيرة..

حري بنا أن نعود إلى تراثنا القومي الكفاحي، إلى جذور أمتنا الخالدة التي تملك في ذاكرتها الوقّادة ما لا تملكه غيرها من الأمم.. لا بفرض التشبث بالماضي، والانفصال عن الحاضر؛ بل بفرض استلهام الصبر والدروس لمعالجة الحاضر والانطلاق لصنع المستقبل العربي المشرق، وصنع حكم التاريخ الذي لا يحيد أبداً.

وإنني إذ اخترت الكتابة في موضوع شائك ومعقد، فما ذلك سوى لإيماني المطلق بعدالة قضيتنا القومية، وثقتي الراسخة بالنصر الأكيد في المعركة المصيرية الفاصلة التي نكتب سطورها بأيدينا، بدماء قوافل الشهداء من أبنائنا؛ ببنادقنا، وأجسادنا وحجارة أطفالنا؛ وبكل كلمات الأيام التالية وإن لم يكن في جيلنا نحن، فعلى يد أجيالنا القادمة بكل تأكيد.

وإنني كعربي ملتزم تجاه أمته، غيورٌ على طهر ترابها وحفظ تراثها من التشويه والتشكيك؛ أؤمن بالنضال وسيلةً وحيدةً لاستعارة الحقوق، وتحرير الأرض، وقيادة الجماهير في معركة خلاصها..

وإن النضال والكفاح يكون بالقلم، كما بالبندقية.. بل إن الكلمة الصادقة الهادفة عندما تكشِف الحقيقة وتجلي الشك باليقين وتخلق الرؤيا السليمة الواضحة أمام الجماهير، لا تقل وقعاً عن الرصاصة التي تخترق جسم العدو.

وسواء[1] كان التاريخ يعيد نفسه أو لا يعيد، فمن الواضح أن الأوضاع التي تُحيط بالوطن العربي والعالم الإسلامي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي عاش فيه أجدادنا العرب منذ عدة قرون، الأمر الذي يتطلب منا دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية عميقة.

فإذا كنا نقف في الوقت الحاضر أمام خطر ما يسمى بإسرائيل التي أقامها الاستعمار الغربي في الأرض العربية الفلسطينية والتي يحرص الغربيون دائماً على دعمها والتسابق على إمدادها بكافة وسائل العدوان حتى أصبحت

(1) عن: سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ 1، ص 7 ـ 16 (بتصرف).

القوة الوحيدة التي تملك الرؤوس النووية التي تهدد كل المنطقة بالدمار الشامل فإن الأجداد وجدوا أنفسهم في نهاية القرن الحادي عشر أمام كيان دخيل غربي في الأرض نفسها، وصنع الغربيون معها ما يصنعون مع الكيان الصهيوني الآن. والصهاينة يردون إقامة دولة لهم تمتد من النيل إلى الفرات، بل السيطرة على كل المنطقة العربية بشتى السبل رغم المحاولات التي تجري في المنطقة لما يسمى بالحل السلمي، فإن الحلم الصهيوني مستمر ولن يؤخرهم أو يمحق أحلامها إلا امتلاك الأمة العربية لأسباب القوة المختلفة، كذلك نجد أن الصليبيين في العصور الوسطى لم يكادوا يثبتون أقدامهم في فلسطين حتى أخذوا يتوسعون شرقاً في إقليم الجزيرة والفرات وجنوباً في اتجاه مصر والنيل، بل لقد ركبوا البحر الأحمر ووصلوا إلى شواطىء الحجاز لهدم الكعبة في مكة ومقام الرسول ﷺ في المدينة.

وإذا كان أغلب أقاليم الوطن العربي قد تحكم فيها اليوم حفنة من الحكام الأميين في السياسة ومعرفة نوايا العدو والذين دفعهم الحرص على مصالحهم الأنانية إلى الاعتراف بالعدو، فإننا نسمع في عصر الحروب الصليبية عن أمثالهم ومنهم معين الدين أنر حاكم دمشق وكذلك ضرغام وشاور ـ وهما من وزراء الخلافة الفاطمية في مصر ـ والصالح إسماعيل الأيوبي، وكلهم حالفوا الغزاة الصليبيين وطلبوا معونتهم ضد قضية التحرير والوحدة.

وإذا كان الاستعمار الغربي قد حرص بعد الحرب العالمية الأولى على الفصل بين العراق والجزيرة العربية والشام ومصر، وبذلك يحول دون قيام أية وحدة عربية في المنطقة، ويجعل الوطن العربي دائماً أبداً ممزق الأوصال خائر القوى كغثاء السيل، فإن الصليبيين ما كادوا يقيمون في المنطقة حتى قاموا بالمحاولة نفسها فسعى ملكهم بلدوين إلى السيطرة على شرق فلسطين (الأردن) ووادي عربة، وشيد حصن الشوبك جنوبي البحر الميت، ومن هذا المركز سعى الصليبيون دائماً إلى قطع الاتصال بين مصر والجزيرة العربية والعراق والشام.

وبفضل الإيمان بوحدة الهدف والتمسك بوحدة الصف، أمكن للعرب المسلمين أن ينتصروا في معارك الحروب الصليبية. وعندما ينضج هذا الوعي سينتصر العرب في معركة الوحدة والتحرير ضد ما يسمى بإسرائيل ومن وراءها من الاستعمار.

إن أهم ما يسترعي انتباهنا عند دراسة الحركة الصليبية هو ذلك التوافق القوي بين غرب وشرق الوطن العربي، وتلك الاستجابة السريعة التي أحس بها كل عضو من أعضاء الجسد العربي الكبير نحو بقية الأعضاء. وهذا هو السر في انتصار العرب في معارك الحروب الصليبية، ونجاحهم في طرد الدخلاء من الأراضي العربية الطاهرة والإلقاء بهم في البحر بين هارب في السفن وغارق في أمواج البحر المتوسط الغاضب كما يقول المؤرخون العرب الثقاة.

. . وفي[1] وقت تشابكت فيه الأوراق، واختلطت الأحداث وعظمت الهجمة الشرسة على أمتنا العربية من كل صوب. .

وفي وقت تتغير فيه الوقائع، وتستجد المستجدات على الساحة الدولية وفي وطننا العربي قبل أن يجف مداد القلم الذي تكتب فيه. وفي وقت تحوم فيه البوم وهي تنعق شؤوماً ويأساً، وتصول فيه الذئاب وقد كثرت من حولنا، وتتعاظم فيه قوى الشر والعدوان وقد بلغت مبلغاً لم تبلغه من قبل لبسط الفاشية الصهوينة على أمتنا العربية، بفرض ابتلاعها وإيداعها تحت كابوس الاحتلالات السافرة، في خطة همجية كتلك التي صاغها أسلافٌ لهم من قبل. . وفي الوقت الذي ينتصب فيه شعبنا العربي عملاقاً في أرضنا المحتلة في فلسطين، وجنوبي لبنان وذرى الجولان، تماماً كما انتصب أسلافٌ لنا من قبل في مواجهة جحافل الصليبيين والمغول والتتار والفرس والروم. . تماماً كما انتصب الإنسان العربي عملاقاً في القادسية واليرموك وحطين وعين جالوت.

. . وفي الوقت الذي جعل فيه أطفالنا في فلسطين من الحجارة رمزاً

(1) من: عبدالوهاب زيتون: الحروب الصليبية هل انتهت؟، ص 10 ـ 12، 94 ـ 95، 218 ـ 256.

حضارياً خالداً للكفاح الإنساني، وتسابقوا إلى الشهادة على عربات الاحتلال الصهيوني ومختبراته، كما تتسابق الفراشات والعصافير إلى أزهار المروج. .

وفي الوقت الذي يسيطر فيه اليأس على البعض، ويُطبق الظلام الدامس على البعض الآخر، وسط صيحات الحرب النفسية للفاشية الصهيونية التي ما فتئت تزرع أسطورة «إسرائيل التي لا تقهر» تماماً كما كان يشيع ذلك أباطرة الصليبيين، وملوك المغول والتتار في كل حملة، وهجمة، استهدفوا فيها استلاب وجودنا، واجتياح وطننا العربي. .

. . في هذا الوقت، ووسط هذا الزحام من الأحداث اللاهبة، حري بنا العودة إلى التاريخ العربي؛ إلى ماضي أمتنا؛ إلى تجارب وجودها الأزلي فسنجد في ثنايا تاريخنا الذي مازال مشرقاً رغم كل حملات التشكيك والتضليل، سنجد فيه ما يبعث الأمل، ويجدد الإرادة، ويصلّب العزيمة في مجابهة مغولٍ جدد، وتتارٍ جدد، وصليبيين جدد! لا سيما وأن أمتنا العربية وقد تأصلت عراقةً على مر الزمن، وجابهت مثل ذلك، وأعتى من ذلك. . إن إنساننا العربي ما زالت تتدفق فيه دماء آبائه وأجداده «الذين صنعوا ملاحم ذي قار، والقادسية واليرموك وحطين، وعين جالوت، وغيرها من ملاحم المجد والفخار».

في الوقت الذي تنظر فيه الأمم والشعوب إلى تراثها الوطني، وتاريخها القومي نظرتها إلى أمنها القومي، ومستقبلها الاستراتيجي. . في الوقت الذي يبني فيه أعداؤنا تراثاً زائفاً لهم، وتاريخاً خرافياً من الأباطيل التي تثير سخرية كل ذي عقل وبصيرة. .

حري بنا أن نعود إلى تراثنا القومي الكفاحي، إلى جدور أمتنا الخالدة التي تملك في ذاكرتها الوقّادة ما لا تملكه غيرها من الأمم. . لا بفرض التشبث بالماضي، والانفصال عن الحاضر؛ بل بفرض استلهام الصبر والدروس لمعالجة الحاضر والانطلاق لصنع المستقبل العربي المشرق، وصنع حكم التاريخ الذي لا يحيد أبداً.

وفي غفلة من التاريخ، وعندما تراخت عظمة الدولة في بابل، ووادي النيل، وقعت أمتنا تحت هيمنة الغزاة من فرس وإغريق وروم؛ وتقاسموا أرضنا ولقرونٍ طوال؛ ولكن دون أن تغيب هويتنا العربية يوماً عن هذه الأرض رغم كل ما تعرضت له من عمليات التذويب، وأشكال القهر والاستلاب.

ومع مطلع القرن السابع الميلادي حدث تغير جذري في بنية المجتمع العربي في الجزيرة العربية، إثر ثورة كبرى صححت مسار التاريخ الإنساني وأعادت الأمة العربية إلى مكانها الطبيعي الذي سبق لها أن تبوأته في الحضارة الإنسانية. هذه الثورة نسفت كافة أركانات المجتمع القديم. مما مَكّن العرب من طرد الغزاة من فرس وروم وتحرير أرجاء الوطن العربي في غضون عشرين سنة فقط، مما ما يزال يتحوذ اهتمام وإعجاب مؤرخي العالم أجمع، وباحثيه ليومنا هذا.

فبين «دعوته الثورية والإنسانية في عام الهجرة 622 م، وبين تحرير كامل الأرض العربية في شبه جزيرة العرب وشمالي إفريقيا مدة وجيزة جداً لا تزيد عن عشرين عاماً، حيث أنهى العرب الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها إثر معركة نهاوند عام 642 م في فارس ذاتها، وحرروا مصر وشمال إفريقيا في نفس العام، وحرروا سوريا وحتى جبال طوروس قبل ذلك بسنوات.

إنه من الإجحاف بمكان حق التاريخ القومي والإنساني معاً، النظر إلى دعوة النبي العربي محمد (ص) المتمثلة برسالة الإسلام العظيم، على أنها مجرد دينٍ جديد في إطار من الروحانيات التي تاقت إليها النفس الإنسانية المعذبة. فمع أنها شكلت ثورةً في الجانب الإنساني، فإنه لا يمكن فصلها عن إطارها الزمني والمكاني الذي تمخضت عنه في شبه جزيرة العرب وما حولها، والتي كانت تخضع لقوى الاحتلال الأجنبي من فرسٍ وروم معاً. وليس من قبيل المصادفة أن تتزامن وترافق شخصيته الفذة التي لم يعرف

التاريخ الإنساني مثيلاً لها بعد محمد (ص)، مع النفحات الأولى للتمرد العربي الذي ثار في ملحمة، أو قل في بركان ذي قار حوالى عام 604 م، والتي قال فيها محمد (ص): «هذا أول يوم فيها انتصفت العرب من العجم وبي نصروا». ولنمعن التفكير في قوله: «وبي نصروا» أليس ذلك كل التأكيد على أن محمد (ص) كان يمثل الحق العربي والتمرد الثوري العربي، في مواجهة الغزو الأجنبي الذي جثم لقرونٍ طوال على صدر أمتنا، ناهيك عما حمله الحق العربي الذي تجسد آنذاك في رسالة الإسلام العظيم من جوانب حضارية وإنسانية مضيئة للبشرية بسرها دون تمييز.

وبقيام دولة عربية فتية في صدر الإسلام اندفع العرب يحملون راية ثورتهم في إقامة دولة عالمية جديدة تعم الكون وينتفي فيها الظلمُ الإنساني بكافة صوره، وتذوب فيها كافة الأمم في صرح دولة أممية إنسانية منشودة أطلق عليها أجدادنا اسم «دار السلام» في مواجهة «دار الحرب» لدى خصومهم غزاة الأمس.

(حول مفهوم دار السلام كدولة أممية إنسانية عامة ـ انظر القانون الدولي الخاص طبعة 1987 ص 90 ـ 93 لمؤلفه دكتور فؤاد ديب، وكذلك كتابه أيضاً تنازع القوانين طبعة 1986 صفحة 44 جامعة دمشق).

صليبيون جدد

لقد صقلت الغزوات والحملات هوية الأمة العربية عبر تاريخها الموغل في القدم، فازدادت أصالة وترسخت عراقةً فمدّت جذورها بعيداً في أغوار الأرض العربية، كما في أغوار الإنسان العربي ذاته، الذي التصق بأرضه؛ بترابها، كما بتاريخها وأمجادها.

إن تلك الغزوات والمحن التي نزلت بالأمة العربية في فترة ضعف عارضٍ ألمّ بالجسد العربي، مع كثرتها وشراستها لم تتمكن يوماً من أن تفتُك بالهوية العربية وتكسر إرادة الوجود لدى الإنسان العربي.. بل على العكس

تماماً، أُكسِبت الهوية العربية مناعةً وصلابةً أمام تحديات الوجود المستقبلية وفي مواجهة كافة الأخطار المصيرية اللاحقة. . مَثَلُها في ذلك مثل لقاحات المناعة التي يتم أخذها بغرض إكساب الجسم القدرة على مواجهة الجراثيم والأوبئة بشكل مسبق قبل الأصابة بها، مع فارق وحيد هو أن لقاحات المناعة تتكون في حد ذاتها من جراثيم تم إضعافها بغرض تهيئة الجسم على التصدي لها؛ أما أمتنا العربية فقد صلب عودها، وازدادت مناعتها، فتفَولَذت في مواجهات حقيقة مع أخطر وأشرس الحملات والغزوات والتي أوردنا جانباً منها.

ومن الثابت أن الوحدة الكفاحية العربية كانت دائماً هي الجدار الفولاذي الذي ترافقه الجماهير العربية في كل مرة تتعرض فيها لغزوٍ خارجي؛ وكان هذا الجدار يقام ويشاد في أتون معارك التحرير والكفاح المشترك ضد عدو مشترك. وإذا كان الباحثون والدارسون لتاريخ المشرق العربي، قد قَسّموا الحروب الصليبية إلى حملات ثمانية، طبقاً لهجماتها الشرسة التي تلاحقت في مواجهة مسيرة التحرير العربي التي تعاظمت في خضم المواجهة مع الغزاة، وصنعت التحرير، عندما طوت آخر صفحة في سجل الحروب الصليبية المعروفة. . فإن الحروب الصليبية هي في حقيقتها حملة واحدة، وإن تباعدت أحداثها ودفعاتها مع شقة الزمن، وإنها مازالت مستمرة ليومنا هذا، وإن لبست ثوب اليهودية أو قُلْ ثوب الصليبية اليهودية في مواجهة جماهير أمتنا العربية. كما أن الأحداث المتتالية والتي ما تزال تعصف بالوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه تكشف لنا، كما لغيرنا حقيقة ثابتة ساطعة، هي أن أرضنا العربية هي الأكثر غنًى وجمالاً ونضـرة، وأهمية استراتيجية في العالم، وأنها ما زالت تستهوي كافة لصوص وقراصنة الأمم على اختلاف مشاربهم؛ وأن التسلط والنهب والسلب ما زالت هي الدوافع الحقيقية لكافة الغزوات والحملات التي شهدتها أمتنا العربية وليومنا هذا. كما أن تلـك الهجمات والحملات ما زالت تنشط في كل مرة تصاب بها الأمة العربية بعارض الضعف والتجزئة وأنها انحسرت وتنحسر في كل مرة رفعت فيها العربية جدارها الفولاذي المنيع في وحدتها الكفاحية القومية،

التي تحطمت على جنباتها وتبددت كافة الحملات والاحتلالات. ويحضرني في هذا السياق هرقل ملك الروم وهو يغادر مرغماً سوريا، وقد تمّ تحريرها على أيدي العرب من جند محمد وأصحاب محمد (ص)، فيقول وهو يطلق الزفرات الثقال:

«ويحك أرضاً؛ وما أنفعك أرضاً»؛ وما أنفعك لعدوك لكثرة ما فيك من العشب والخصب!

«سلام عليك يا سورية، سلام مودعٍ لا يرجو أن يرجع إليك أبداً»

(انظر معجم البلدان لمؤلفه ياقوت الحموي ـ دار صادر بيروت مجلد ثالث صفحة 280).

هذا وإن البواعث التي تعلّق بها الروم أيام هرقل تجاه مشرقنا العربي بقيت هي ذاتها لدى الصليبيين الجدد والاستعماريين كافة، وإن كثرت مشاريعهم، وتعددت أخلاقهم، وتجملت أسماؤهم.

فقد جاء في مشروع إيزنهاور عام 1957 م «من الأمور التي تؤكد أهمية الشرق الأوسط ـ كما يطلقون ذلك في تسمياتهم الاستعمارية على وطننا العربي ـ احتواؤه على ثلثي مصادر البترول المعروفة في العالم. إن هذا المصادر البترولية ـ والكلام للرئيس الأمريكي السابق إيزنهاور نفسه ـ لا تقل أهمية عن حلف الأطلسي. بل إن هذا الحلف يفقد معناه وهدفه إذا فقدنا مصالحنا البترولية في الشرق الأوسط».

(انظر مجلة المعرفة العدد 107 كانون الثاني 1971 ص 14 ـ دكتور حنا عبود). إن المدينة الإنسانية، ومع التقدم اللامحدود للعلم والتكنولوجيا المعاصرة، لم تستطع حتى اليوم لجم دوافع التسلط الاستعماري والنهب العدواني والقهر الإنساني، لدى دول أوربا والغرب عموماً، كما أن تلك الدوافع الخسيسة التي حركت الحروب الصليبية وغيرها من الحروب، ما زالت هي نفسها التي تحرك الغرب منذ قيام الثورة الصناعية التي عرفتها أوربا حتى اليوم.

وليس غلواً أن الحملات الصليبية التي تعرضت لها أمتنا مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، هي في حقيقتها حملة واحدة، وأنها ما زالت مستمرة اليوم، وأن النهب والاستلاب هي البواعث ذاتها، كما أن الهمجية وحروب الإبادة والوحشية هي السمات الغالبة التي تربط بين الصليبيين والاستعماريين قديمهم وحديثهم.

أمّا تعاليم سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام ـ رائد المحبة الإنسانية، والذي شجب العنف والقهر والعدوان ـ فإنها تحولت لدى أساطين أوربا وجلاّديها إلى مجرد سلعة تجارية، وبواعث عنصرية عدوانية بفرض استباحة كافة المحرمات لدينا ولدى الغير، وتصويرنا أمام شعوبهم بأننا الكفرة الملحدون للرب، بغرض تسويغ قتلنا، وإحلال دمائنا وأعراضنا ومقدساتنا!

ولقد ظلّت نزعة العودة العدوانية، وبواعث الحملات الصليبية الأولى تراود نفوس قادة أوربا وجلاديها وإن تبدلت أسماؤهم، وتلونت مدارسهم السياسية في البرلمانية وحمل مشعل المدنية الإنسانية. ومع أنهم أعلنوها من على منبر عصبة الأمم المتحدة في تسويغ الانتداب على أقطارنا أن «رقي وحضارة تلك البلدان التي كانت خاضعة لتركيا، تشكل أمانة تاريخية في أعناقهم، ورسالة مقدسة عليهم حملها تجاه الإنسانية جمعاء» ومع ذلك فإنهم بقوا على عدوانيتهم، وما زالوا على همجيتهم التي عرفها أجدادنا في أسلافهم.

(انظر مبادىء ويلسون للسلام، وميثاق عصبة الأمم المتحدة).

وإذا ركبنا قطار الأحداث العاصفة، التي عصفت بوطننا العربي من البوابة الأوربية، وقمنا باستعادة شريط الحملات والاحتلالات التي انطلقت من الغرب الأوربي واستهدفت قهرنا ونهبنا وإركاعنا لكان علينا أن نتوقف ملياً نُجيل النظر في المحطات التالية:

أولاً ـ الغزو الأوربي الذي شمل الوطن العربي من مغربه إلى مشرقه،

بدءاً من غزو الإغريق بزعامة الإسكندر المكدوني وهو يطارد فلول الفرس حوالى 335 ق.م، إلى اجتياح الرومان لقرطاجة عام 146 ق.م، وانتهاءً بانكفاء وتقهقر الرومان إثر ثورة القائد العربي والنبي العربي محمد (ص)، وجنده وأصحابه من القادة العظام، وما أكثر الذين قادوا مسيرة التحرير العربي المظفرة الأولى، وصنعوا التحرير العربي الكامل للوطن العربي خلال عشرين عاماً فقط.

ثانياً ـ ما عُرِف بالحملات الصليبية، والتي أعطاها اسمها هكذا بالصليبية هم أصحابها الصليبيون ملوك وأمراء وأساقفة أوربا أنفسهم عن سابق جشع عدواني، وحقد عنصري دفين، منافٍ لتعاليم سيدنا المسيح عليه السلام.. تلك الحملات التي استمرت زهاء قرنين من الزمن بدءاً من عام انطلاقها عام 1095 م باتجاه المشرق العربي، وحتى تحرير عكا، وسقوط آخر معاقل الصليبية الاستيطانية وتصفية كافة أوكارها وجيوبها على الساحل السوري عام 1293 م. ولا بد هنا من إبراز حقيقة ثابتة وهي أن إطار «الصليبية» شكّل غطاءً دينياً زائفاً للمسيحية، وخفى خلفه بواعث استيطانية تسلطية ظهرت بكل جلاء منذ أيامها الأولى، وممارساتها الهمجية في النهب والقتل، بشكل يصح فيه القول إن «الصليبية» هي غير المسيحية إطلاقاً. تلك الحملات الصليبية التي بادت وتكسرت على يد رُوّاد مسيرة التحرير العربي الثاني التي بزر فيها قادة عظام مثل عماد ونور الدين الزنكي وصلاح الدين، والسلطان قطز، والأشرف قلاوون وابنه خليل قلاوون.

وهنا تحضرني كلمة من أطلقوا عليه القديس أرناط، وهو رينادي شانيون، وقد فاضت به صليبيته العدوانية، وتعطشه لسفك دماء العرب المسلمين من أجدادنا، وهو يُعْمِل السيف في رقابهم مستهزئاً في وقاحة ما بعدها وقاحة بقوله: «فليأت محمدكم ليخلصكم!».

وفي المقابل تحضرني كلمة صلاح الدين بطل حطين، وهو يخاطب أسراهم، وقد أحسن وفادتهم، وأطلق سراحهم بقوله:

«لقد خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه أبداً».

ثالثاً ـ معاودة أوربا سيرتها الأولى صوب وطننا العربي في غزوها الاستيطاني بدءاً من عام 1535 م في معاهدة الصداقة والتعاون بين فرنسا والدولة العثمانية التي وقعها السلطان سليمان القانوني وملك فرنسا فرانسوا الأول، والتي كانت في حقيقتها بوابة العبور لحملات صليبية جديدة من خلال سيل الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا بموجب المعاهدة المذكورة في المشرق العربي، ومروراً بعدها فيما عرفته الدبلوماسية الغربية آنذاك بالمسألة الشرقية التي عكست التنافس الأوربي الاستعماري على اقتسام وطننا العربي إلى مناطق نفوذ والحلول فيه مكان السلطنة العثمانية التي شاخت وهرمت آنذاك.

وهنا تبرز حملة نابليون على مصر والشام ما بين 1799 م، 1801 م ومن ثم حملة فريزر الإنكليزية عام 1807 م، والتسابق في اقتناص الامتيازات المالية والاقتصادية والسياسية في الشام ومصر والمغرب العربي، بالإضافة إلى ما أعطوه لأنفسهم من حق التدخل لحماية الأقليات المسيحية، واليهودية.. كل ذلك شكّل جسراً استعمارياً جديداً عبرت عنه أوربا مع مطلع القرن التاسع عشر إلى الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه بدءاً من احتلال فرنسا للجزائر ثم تونس فالمغرب، فاحتلال إيطاليا لليبيا، واحتلال بريطانيا لمصر، ثم بعدها اتفاقية سايكس ـ بيكو عام 1916 م التي أودعت المشرق العربي تحت المظلة الصليبية من جديد بعد زهاء ستة قرون من انكفائهم في ذيول الهزيمة منه. وهنا تحضرني كلمة الجنرال اللنبي القائد العام لجيوش الحلفاء لإرادة أرض العدو ـ كما أطلقوا ذلك على أرضنا ـ وقد فاضت به صليبيته الاستعمارية الحاقدة وهو يقول عندما دخل القدس في التاسع من كانون أول 1917:

«الآن انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين!» مع أنها ـ عزيزي القارىء ـ لم تنته بعد.

وبعد الجنرال اللنبي بثلاث سنوات وقف ذئبٌ آخر هو الجنرال غورو وقد دخل دمشق على أجساد شهدائنا في ميسلون غروب شمس الرابع والعشرين من تموز عام 1920 م، حيث وقف ظهر اليوم التالي أمام ضريح بطل حطين، وقد ركله برجله ركلة جبانٍ أرعن هازئاً:

«ها نحن عدنا يا صلاح الدين!» وذلك رداً على كلمة بطل حطين «لقد خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه أبداً».

مع أنهم ـ عزيزي القارىء ـ لم يخرجوا منه بعد عودتهم الثانية إليه على أن مثل تلك الصيحات الحاقدة لم تكن لتمثل أفراداً، وجماعات، بقدرما تزال تمثل التوجه الاستعماري الصليبي الجديد تجاه أمتنا العربية بفرض قهرها وإركاعها ونهب ثرواتها.

رابعاً ـ لما أُجبِرت جيوش أوربا الاستعمارية على الانكفاء والتقهقر من معظم أرجاء الوطن العربي، وأقطاره التي حققت استقلالها الوطني، وبعد أن أصبح مستقبل الوجود الاستعماري الأوربي في وطننا العربي قاب قوسين أو أدنى من اللاوجود وذلك تحت ضربات قواعد المد الثوري العربي، وتعظم مسيرة التحرير الثالثة التي عبرت إلى صنع التحرير العربي من خلال قوافل الشهداء.. عندها لجأ الغرب إلى إنقاذ وجوده ومستقبله الاستيطاني بحملةٍ صليبية جديدة، كما في كل مرة كان يتهدد فيها وجوده بالانهيار والتقهقر. وقد تمثلت تلك الحملة في إيجاد وخلق كيان استيطاني أوربي، يشكل امتداداً سرطانياً خبيثاً لمملكة بيت المقدس الصليبية البائدة وفي نفس المكان من المشرق العربي، وأريد هنا أن أُبرِز من غير إسهاب الدور الخبيث الفعال الذي قام به كافة أباطرة وملوك أوربا ورؤساؤها منذ مطلع الغزو الاستعماري، وفي سنوات الحربين العالميتين، وما تلاهما من جهدٍ دؤوب وعمل متشعب منظم، وتخطيط متواصل بينهم وبين الطغمة اليهودية المرابية في أوربا وأمريكا؛ ناهيك عن اللقاءات وما أكثرها، بين حاخامات اليهودية، وقادة المؤسسة الصهيونية في العالم من جهة، وبين البابوية المتصهينة في

روما ذاتها من جهة ثانية، مما يعيد إلى الأذهان لقاءات وتحالفات بيزنطة أيام الإمبراطور قسطنطين الخامس مع مملكة الخزر اليهودية، وزواج هذا الأخير من أخت كاجان (ملك الخزر)؛ أو قُلْ تحالفات مملكة بيت المقدس الصليبية مع المغول أيام هولاكو وأحفاده.

هكذا تحالفت وتلاقت النزعة الصليبية الاستعمارية مع اليهودية الصهيونية الاستيطانية، بدءاً من إيجاد موخلق إسرائيل ذاتها، إلى تأمين ديمومتها واستمراريتها كرأس حربةٍ في الجسد العربي ورأس جسرٍ لأوربا وأمريكا يشكل امتداداً صليبياً استيطانياً لقلاعهم الصليبية البائدة. أما ما يثبت ذلك من أدلة ووقائع فهي أكثر من أن نُحيط بها في هذه العجالة. ونكتفي بالثوابت التالية:

لقد وجدت بريطانيا الاستعمارية، في المؤسسة الصهيونية التي نشطت وتزامنت مع موجة الامتداد الاستعماري الأوربي، ضالتها المنشودة والوسيلة والهدف معاً. لقد عبر ونستون تشرشل عن هذه الوجهة الاستعمارية أحسن تعبير بقوله:

«إن الصهيونية تشكل مطلباً حيوياً ملحاً لبريطانيا؛ ولو لم تكن موجودة لكان علينا أن نخترعها اختراعاً».

على أن هذه الحقيقة الثابتة أكدها دون خَفَاء قادة الكيان الاستيطاني الصهيوني قديمهم وحديثهم، كما عبر عنها القادة الإمبرياليون في أوربا وأمريكا دون موارية، فوضعوا كامل ثقلهم، وكل ما في ترسانتهم الحربية للحفاظ على أمن وسلامة إسرائيل، وقد ربطوا في ذلك وما زالوا كذلك يربطون بين أمنهم وأمن مصالحهم اللامحدودة في وطننا العربي، وبين أمن إسرائيل؛ الكيان العنصري المنافي لكافة شرائع بني البشر على الأرض.

لقد قدمت المؤسسة الصهيونية نفسها منذ قيامها أواخر القرن التاسع عشر على أنها الامتداد الصليبي لأوربا في المشرق العربي، وإنها السور الأوربي ـ كما وصفها ذلك مؤسسها تيودور هرتزل في كتابه عن مشروع

الدولة اليهودية في فلسطين عام 1902 م المرفوع في وجه آسيا.

لقد اتصل هرتزل ببسمارك ألمانيا، واضعاً المشروع الصهيوني تحت تصرف الإمبراطورية الألمانية الموحدة، ثم قابل القيصر غليوم الثاني عام 1898 م على الأرض الفلسطينية بمناسبة حضور تدشين مشروع السكة الحديدية بين القدس وبغداد الذي قامت بتنفيذه الاستثمارات الألمانية.

ومما قاله هرتزل أثناءها إلى الإمبراطور غليوم الثاني:

«إن الدولة اليهودية التي نطمح ببنائها في فلسطين، ستشكل جسراً بين الشرق والغرب، ونقطة انطلاق للمجهود الحربي والحضاري الأوربي العظيم في آسيا.. إننا في حاجة إلى حامٍ يصون دولتنا اليهودية في فلسطين. ونحن نرحب بالحماية الألمانية أكثر من أي حماية أخرى».

وبعدها تقدّم هرتزل بمشروعه الاستيطاني إلى وزير المستعمرات في الحكومة البريطانية شامبرلن بقوله:

«حينما يجيء الوقت الذي نعيش فيه تحت ظل العلم البريطاني في العريش فمن المؤكد أن فلسطين ستقع بكاملها في فلك النفوذ البريطاني».

وفي عام 1903 عرض هرتزل خدماته على قيصر روسيا نيكولاي الثاني في موسكو وقابل وزير داخليته بليهف حيث طالبه، والتمس لديه مساعي حكومته لدى السلطان العثماني بشأن الاستيطان اليهودي في فلسطين مقابل قيام هرتزل بضمان الأمن وعدم إثارة الشغب من قبل العناصر اليهودية في روسيا تجاه حكومة القيصر في موسكو، بعد أن شهدت البلاد موجة عنف واضطرابات أثارها اليهود الروس بشكل خاص.

وقبل الحرب العالمية الأولى توجه وايزمن عام 1914 إلى الحكومة البريطانية بقوله: «إذا سمحت لنا بريطانيا بالإقامة في فلسطين فسوف يقوم هؤلاء اليهود بتطوير البلاد وإنمائها وسيعيدون إليها الحضارة كما أنهم سيشكلون خير دفاع عملي لقناة السويس».

ويعرض حاييم وايزمن في مذكراته وضع حجر الأساس للجامعة العبرية

على جبل الزيتون المطل على المسجد الأقصى فيقول:

«لقد وضعنا إثنا عشر حجراً بعدد أسباط بني إسرائيل بحضور الجنرال اللنبي الذي لما دخل القدس فاتحاً عام 1917 م قال كثيرون في أوربا اليوم انتهت الحروب الصليبية!».

كما يصف وايزمن رحلته الاستطلاعية الاستكشافية إلى فلسطين، قبلها وقد اختلجت في نفسه الطموحات الاستعمارية فيقول:

«فقمنا بتطواف واسع ننتقل من مكان إلى آخر، ونحن نجتاز الحدود وتوقفنا في عدة مواقع ونحن نرى المستعمرات النائية. وكأن كل تلة من التلال، وكل صخرة من الصخور برزت تستنطقني في هذه اللحظات وتوحي إلي في كل ثنيةٍ من ثنايا الطريق، ما علينا إنفاقه في هذه الأرض من عمل وجهد وتخطيط ومال قبل أن تصبح صالحة ليستوطنها العدد الكبير من اليهود» (انظر بروتوكولات حكماء صهيون مجلد أول. عجاج نويهض منشورات دار طلاس صفحة 123).

وعندما تلبدت غيوم الحرب العالمية الثانية عام 1938 م وانغمست بريطانيا في دراسة المواقع الاستراتيجية في الشرق الأوسط لإقامة أُسس الدفاع الإمبراطوري، بعث حاييم وايزمن بمذكرة إلى سيرجون شكبره الوزير البريطاني جاء فيها:

«اسمحوا لي أن أقول كلمة موجزة تتعلق بالمسألة الاستراتيجية: إن هناك بعض الحقائق المحسوسة التي لا يصعب على عالم كيمياء مثلي فهمها، إن خطوط أنابيب البترول في حيفا، والمطارات وجبل الكرمل.. كل هذا لا يمكن نقله إلى جزيرة قبرص، ولا سكك الحديد بين فلسطين ومصر وبغداد»، وهو في مذكرته هذه يجذب وجهة النظر البريطانية إلى توسيع نفوذها الاستراتيجي في فلسطين، وما يتبع ذلك من إيلاء المزيد من الدعم إلى المشروع اليهودي الاستيطاني فيها. (المصدر السابق صفحة 130).

هكذا كانت المؤسسة الصهيونية بمشروعها الاستيطاني موجودة

جاهزة، في متناول يد من يريد تسخيرها واستثمارها من قبل دعاة الاستعمارية من الصليبيين الجدد.

وكما تحالفت بيزنطة مع مملكة الخزر في مواجهة الزحف العربي؛ وكما تحالفت البابوية الصليبية في روما، مع المغول أيام هولاكو من أجل كسر صمودنا، وتكريس وجودهم الاستيطاني العدواني في أرضنا..

كذلك عاودت أوربا سيرتها الأولى، فتحالفت البابوية الصليبية في روما، مع اليهودية التوراتية في أوربا ذاتها، وجرت بينهما لقاءات ولقاءات منذ مطلع القرن العشرين من أجل نفس الغرض العدواني الذي انطلقت من أجله الحملات الصليبية البائدة. وهنا أورد بعضاً من لقاءات الأفاعي:

اللقاء الأول بين هرتزل حاخام المؤسسة الصهيونية مع البابابيوس العاشر في روما عام 1903 م بغرض الحصول على دعم ومساندة الكرسي البابوي في روما للمشروع الاستيطاني اليهودي في فلسطين.

ومما قاله البابا بيوس العاشر في إجابته على طلب تيودور هرتزل:

«إن الدين اليهودي هو أساس ديننا.. أنتم اليهود إذا استطعتم الاستيطان في فلسطين، فجل ما نقدر على مساعدتكم به هو الكنائس، والقسس لتعميدكم!» وكأنه أراد القول:

«إن وجودكم اليهودي يجب أن يكون وجوداً صليبياً يشكل امتداداً لمملكة بيت المقدس. عندها نكون معكم» وهكذا كان.

اللقاء الثاني بين البابا بن ديكت الخامس عشر، وحاخام المؤسسة الصهيونية سوكولوف أحد عتاة صهاينة روسيا وبولونيا، في 1917/5/10 م في الفاتيكان بغرض كسب حماس الكرسي البابوي للمشروع الصهيوني ذاته في فلسطين. ومما عرضه سوكولوف على البابا المذكور:

«نريد أن نشيد في فلسطين مركزاً حضارياً يستطيع اليهود أن يعلّموا أولادهم المثل اليهودي، ويُنشؤوهم على الروح اليهودية، وأن يبذلوا غاية

جهدهم في أن يجعلوا وطنهم القومي في فلسطين مظهراً للمدنية الأوربية وآدابها». . وكان جواب البابا على طلبه بقوله:

«أعتقد أننا سنكون جيراناً جيرة حسنة».

اللقاء الثالث بين البابا بن ديكيت الخامس عشر أيضاً، وكبير حاخامات المؤسسة الصهيونية حاييم وايزمن عام 1921 م، لتعزيز مواقف كل منهما تجاه المشروع الاستيطاني في مشرقنا العربي.

(انظر بروتوكولات حكماء صهيون المجلد الأول. عجاج نويهض منشورات دار طلاس صفحة 766).

أما عن دور أوربا وأمريكا في إيجاد وصنع إسرائيل، كقاعدة عدوانية وقلعة استيطانية متقدمة مثلها مثل أختها من قبل ـ مملكة بيت المقدس ـ الصليبية البائدة، فإن أحداً لا يستطيع أن لا يقر بذلك. ويكفي الإشارة هنا إلى وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني عام 1917 م الذي شكّل بحد ذاته عدواناً صارخاً، واستلاباً وغزواً سياسياً فاضحاً سبق الغزو والاحتلال العسكري البريطاني لفلسطين، كما شكّل خرقاً فاضحاً لكافة المواثيق والأعراف الدولية التي عرفتها الأمم المتحضرة، وجسّد التحالف العدواني المشترك في مشروع استيطاني استعماري مشترك بين ورثة الصليبية البائدة من الاستعماريين الأوربيين من جهة، وبين المؤسسة الصهيونية وطغمتها المالية اليهودية المرابية من جهة أخرى.

(للتفصيل في ذلك انظر كتابنا: توراتُهم هَلْ قَرَأتْ؟! صفحة 58 وما بعدها ـ منشورات دار المعرفة دمشق 1989 لمؤلفه عبد الوهاب زيتون).

ومع قيام إسرائيل عام 1948 م، وضع قادة هذا الكيان أنفسهم في خدمة الغرب الاستعماري ومصالحه اللامحدودة في أرضنا العربية، مما جعل هذا الكيان ـ كما أراد له صانعوه أن يكون ـ مخفراً متقدماً لهم من أجل قمع مسيرة التحرير العربي، ورأس جسر للعبور منه إلى آسيا وإفريقيا، وقلعة صليبية جديدة تخلف إمارة بيت المقدس التي بادت أيام صلاح الدين

الأيوبي. وهنا يحضرني ما أعلنه على الملأ بن غوريون أول رئيس حكومة لكيان العدو الإسرائيلي بقوله:

«نحن هنا مثل فصائل الإنكليز والأسبان الذين قضوا بالسلاح والنار على الهنود الحمر في أمريكا».

وكما كانت الإمارات الصليبية البائدة خليطاً غير متجانس من كافة الأمم والشعوب الأوربية وقراصنتها، كذلك هو واقع الكيان العنصري إسرائيل في مزيج استيطاني من كافة الشعوب الأوربية ولصوص العالم الذين يجمعهم قاسم مشترك في الاستيطان القسري ونهب ثروات أمتنا الحربية، وقهرها، وإركاعها، ومنعها من النهوض الثوري، وامتلاك مصيرها بيد أبنائها.

وكما كانت الزعامات الأوربية من ملوك وأباطرة أوربا وقسسها وأساقفتها، تتسابق وتقف بكل ثقلها لنجدة وإنقاذ إمارات الصليبية وقلاعها في مشرقنا العربي. . كذلك تماماً نجد اليوم كافة الزعامات الأوربية والأمريكية بلا استثناء تضع إمكانيات دولها وشعوبها للحفاظ على هذا الكيان الاستيطاني إسرائيل، وحمايته، وتكريسه، ومده بكل أسباب البقاء. . ولا غرو في ذلك لأنه يشكل امتداداً صليبياً استعمارياً جديداً لوجودهم على أرضنا. هذا الكيان الذي التقت فيه وتحالفت به كافة قوى الشر والبغي والعدوان.

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، التي أسفرت عن بروز الولايات المتحدة كقائدة للمعسكر الإمبريالي العالمي، أخذت المؤسسة الصهيونية في تركيز ثقلها ونقل ولائها إلى تلك الزعامة الجديدة للقوى الاستعمارية الأخرى في نطاق التحالف الغربي الاستعماري والمصالح المشتركة. وبعد وضوح الأهمية الاستراتيجية البارزة للوطن العربي، وخاصة بعد أن تكشفت الاحتياطات النفطية الهائلة التي تحتويها هذه المنطقة الأهم من العالم، ازداد اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالمشروع الاستيطاني الصهيوني، وزاد دعمها للمؤسسة الصهيونية، بل أصبحت الداعمة الرئيسية لهما، وهو ما حدا

بحاييم وايزمن أول رئيس لدولة العدو الصهيوني بأن يبعث برسالة شكر وامتنان عشية إعلان دولة إسرائيل في 31 أيار 1948 إلى الرئيس الأمريكي ترومان جاء فيها:

«إن دور القيادة الذي قامت به حكومتكم بوحي منكم ـ على صعيد الهجرة اليهودية وداخل الأمم المتحدة وعلى كافة الأصعدة ـ جعل قيام الدولة اليهودية أمراً ممكناً».

(لمزيد من الايضاح انظر كتاب القضية الفلسطينية لمؤلفه الدكتور عزيز شكري جامعة دمشق 1982 م).

لقد تجلّى الدعم الهائل الذي قدمته الولايات المتحدة للمشروع الاستيطاني اليهودي عقب الحرب العالمية الثانية في الضغوط والابتزازات السياسية التي مارستها على بريطانيا، وداخل إطار الأمم المتحدة من أجل إنهاء الانتداب وإعلان قيام الكيان الصهيوني اللامشروع، الذي كانت الولايات المتحدة أول من اعترف به.

وجاء البيان الثلاثي في 25 أيار 1950 م الذي أعلنته الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وتعهدت بموجبه بالحفاظ على أمن وسلامة إسرائيل؛ جاء ليجسد التحالف المشترك بين كافة القوى الحاقدة، والمعادية للأمة العربية. وقد أخذت مؤشرات الارتباط الكلي والعضوي للمؤسسة الصهيونية وإسرائيل بالولايات المتحدة في التصاعد السريع بعد عام 1967 م، حيث أصبحت الأخيرة هي الداعم الأساسي بالمال والسلاح.

وقد أخذت أرقام المساعدات المالية وإرساليات السلاح الأمريكي إلى هذا الكيان تتضاعف عاماً بعد عام، حتى وصل حجم المساعدات إلى ما يزيد عن أربعة مليارات من الدولارات سنوياً، إضافة إلى المساعدات الطارئة وصفقات السلاح الأعلى تطوراً في الترسانة الأمريكية، مما جعل العديد من الزعامات الأمريكية ينظر إلى ذلك بعين القلق. وقد دخل هذا الارتباط مرحلة السفور والانكشاف الكامل بعد إعلان التوقيع عن معاهدة تعميق التحالف

الاستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل، والذي جاء بصدده من قبل موقعيه أن مدى هذا التحالف لا يشمل المنطقة العربية فحسب، بل يتجاوزها إلى مناطق أخرى في آسيا وإفريقيا. هذا ولم يترك القادة الأمريكيون والصهاينة مناسبةً إلا ويتحدثون فيها عن الأهمية الكبيرة للكيان الاستيطاني اليهودي في إطار الاستراتيجية الكونية للإمبريالية العالمية عموماً والأمريكية خصوصاً.

بل إن الولايات المتحدة قامت في السنوات الأخيرة بإشراك إسرائيل كشريك أساسي في برنامج حرب النجوم، وقدّمت لها في حزيران 1989 مبلغ 158 مليون دولار لتصنيع صواريخ (السهم) المضادة للصواريخ العربية ضمن برنامج حرب النجوم.

عزيزي القارىء.. لقد أصبح واضحاً أن إسرائيل ليست أكثر من أداة في يد الإمبريالية العالمية، ومُكَوّن أساسي من مكونات عملها، مثلها في ذلك مثل مملكة بيت المقدس البائدة لدى أوربا صاحبة الحملات الصليبية.

.. وإن الذي صنع إسرائيل كامتدادٍ استيطاني أوربي غريب في مشرقنا العربي، هم الاستعماريون الإمبرياليون جميعهم.. أو قُل الصليبيون الجدد!

الحروب الصليبية لم تنته بعد!

إن الحروب الصليبية التي أراد لها الإمبرياليون، أو قل الصليبيون الجدد، أن تنته يوم أن دخلت جيوشهم مشرقنا العربي بقيادة الجنرال اللنبي القدس، والجنرال غورو دمشق على أجساد شهدائنا الذين سقطوا في ميسلون.. والتي رددوها في وقاحة ما بعدها وقاحة في أرضنا ذاتها، كما لدى غيرهم من قادة أوربا وفي عواصم أوربا في حقدٍ دفين بقولهم:

«الآن انتهت الحروب الصليبية.. وها نحن عدنا يا صلاح الدين!»..

إن كل المؤشرات، والأحداث المتلاحقة بعدها، تُثبت يوماً بعد يوم أنها لم تنته بعد، وإن توهم الصليبيون الجدد بذلك.

ولكن الأصح أن أوربا والغرب الاستعماري عموماً قد استأنفوا الحملات الصليبية من جديد، وصنعوا فصلاً دامياً فيها، يضاف إلى حملات أسلافهم من الصليبيين الذين بادوا وانقرضوا على أرضنا، وإننا نحن الذين نخوضها اليوم حرب وجود، لا حرب حدود مع الكيان الاستيطاني إسرائيل ومن صنعها من الصليبيين الجدد. . نحن الذين نكتب نهايتها، أو قل الأجيال التالية ـ إن لم يكن ذلك في جيلنا نحن ـ ولو بعد حين. لقد بلغ عدد الحملات الصليبية التي بادت وتبددت على أرض مشرقنا العربي في الشام ووادي النيل ثماني حملات في زهاء قرنين من الزمن. وكان كل حملة تأتي لنجدة أختها من قبلها في أعقاب ما تحققه مسيرة أجدادنا من انتصارات رائعة على جبهة البناء العربي الداخلي، والتحرير والاسترداد معاً.

وإن قيام إسرائيل وغرسها ـ كما أثبتنا ذلك في متن هذه الدراسة ـ شكّل حملة صليبية جديدة جاءت في إطار تحالف الصليبيين الجدد مع المؤسسة الصهيونية والجماعات اليهودية الأوربية؛ تماماً كما تحالفت أوربا من قبل أيام بيزنطة مع أسلافهم من يهود الخزر، ثم مع المغول والتتار لتكريس وحماية مملكة بيت المقدس.

هذا وإن الهجرة اليهودية الكثيفة التي بدأت طلائعها في الوصول إلى فلسطين المحتلة مع مطلع عام 1990، لتستوعب ما يزيد على مليون مهاجر يهودي أوربي قبل نهاية 1991 م.

بالإضافة إلى أعداد أخرى من أوربا الشرقية ويهود الفلاشا في الحبشة ـ كما صرح بذلك قادة العدو أنفسهم. . هذه الهجرة أو قل التهجير العداوني لجماعات اليهود الأوربيين من بقايا يهود مملكة الخزر الأوربية البائدة والتي يشارك في تنظيمها ودعمها وقيادتها كبار قادة أوربا وأمريكا معاً من الإمبرياليين أو قل من الصليبيين الجدد. لتشكل حملة صليبية جديدة، كتلك التي كان يقودها ملوك وأباطرة أوربا.

ولسنا هنا بصدد الإسهاب في ذلك، ويكفي بنا الإشارة إلى خطاب

الرئيس الأمريكي جورج بوش أمام الكونجرس في مطلع نيسان، العام 1990 م، والذي وصف فيه الهجرة اليهودية الواسعة.

بقوله:

«إنها الخروج الديمقراطي الذي يشهده العصر الحديث لليهود في العالم. إنها حدث بارزٌ كبيري، وانتصارٌ حضاري لكل من يبتهج ويناضل من أجل حرية الإنسان ـ والحديث لجورج بوش ذاته ـ إننا نشعر بالفخر والاعتزاز لأننا قدّمنا يد العون والدعم على مدى سنوات كي نجعل هجرة هؤلاء اليهود ممكنة».

وقد جاء خطاب الرئيس الأمريكي إثر موافقة الكونجرس الأمريكي على منح إسرائيل أربعمائة مليون دولار لصالح توفير السكن لموجات المهاجرين الجدد، إضافة إلى 75 مليون دولار أخرى كمعونات تُصرف للمهاجرين اليهود السوفييت مباشرة.

أما وزير خارجية الولايات المتحدة جيمس بيكر، فقد أعلن في لقاء صحفي مشترك في برلين مع وزير خارجية الاتحاد السوفييتي إدوارد شيفارنادزة في شهر حزيران 1990 م جاء فيه:

«إن إبرام اتفاق تجاري بين واشنطن وموسكو هو رهنٌ بصدور القانون الذي يُعزز الهجرة اليهودية عن مجلس نواب الشعب السوفييتي».

كل ذلك في الوقت الذي تصر به الولايات المتحدة على ضرورة إلغاء قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 3379 لعام 1975 م الذي يساوي الصهيونية بالعنصرية، وتهدد بالانسحاب من هيئة الأمم المتحدة إذا لم تسارع الدول الأعضاء إلى إعادة النظر في القرار المذكور بعد التغيرات الدولية في أوربا الشرقية، والتي كانت الولايات المتحدة والمؤسسة الصهيونية وراءها وهي المستفيدة الأولى منها.

وفي الجانب الآخر من أوربا الشرقية حيث انطلقت أكبر حملة من المهاجرين اليهود مع مطلع عام 1990، والتي تعيد إلى الأذهان تماماً

حملات الرعاع الصليبيين، نجد الرئيس السوفييتي ميخائيل كرباتشوف يعلن على المجتمع الدولي في أيار 1990 من أن:

«بلاده ستعيد النظر في مسألة السماح لليهود السوفييت بالهجرة إلى إسرائيل، إذا لم تتقدم إسرائيل بضمانات دولية لعدم السماح للمهاجرين اليهود الجدد بالاستيطان في الأراضي المحتلة بعد عام 1967 م». هذا في الوقت الذي يعلم فيه الرئيس السوفيتي قبل غيره أنه لا توجد في إسرائيل شرطةٌ دولية تقوم بضبط أو تنظيم المرور بين إسرائيل عام 1948 م وبين ما احتلته إسرائيل في عدوان حزيران 1967 م من أراضٍ عربية محتلة بلغت مساحتها ثلاث أضعاف مساحة إسرائيل.

ومع ذلك فقد سارع قادة الكيان الاستيطاني الصهيوني وعلى رأسهم إسحق شامير رئيس حكومة العدو إلى الرد على الرئيس السوفيتي في صفاقة ما بعدها صفاقة، وفي استخفاف بالعرب وبالمجتمع الدولي وبالاتحاد السوفيتي ذاته حين أعلن على كافة وكالات الأنباء:

«إن المهاجرين الجدد هم الذين يختارون أمكنة إقامتهم في إسرائيل بدون تمييز، بما في ذلك القدس بشطريها ـ العاصمة الأبدية لإسرائيل. إن المهاجر اليهودي يصبح إسرائيلياً منذ أن تطأ قدماه أرض إسرائيل!»

وقد سبق إسحق شامير في تصريحه هذا، قرار مجلس الشيوخ الأميركي كما قرار مجلس النواب الأمريكي أيضاً، في اعتبار القدس الموحدة بشطريها عاصمة إسرائيل، وفي «حق المهاجرين اليهود السوفييت الاستيطان فيها دون تمييز بين شرقية وغربية، وفي أي مكان آخر تقوم به إسرائيل».

هذا وإذا كانت حملة تهجير اليهود المكثفة من الاتحاد السوفييتي ومن أوربا الشرقية ـ ، بغرض تغيير البنية السكانية في الأراضي العربية المحتلة، وتهيئة إسرائيل لاحتلالات استيطانية جديدة. إذا كان ذلك يشكل حلّة صليبية جديدة توازي في همجيتها وعدوانيتها، حملة قيام وغرس إسرائيل ذاتها عام 1948 م، فإن التظاهرة الحربية الأضخم من نوعها في تاريخ العالم

المعاصر، والتي أخذت من الأرض العربية في الجزيرة العربية والخليج مسرحاً لها، تشكل في إطارها كما في مضمونها حملة صليبية جديدة متأخرة جاءت لحماية وتغطية أختها، وقد تزامنت معها، كما بغرض تكريس التجزئة العربية وتمزيق الأمة العربية ونهب ثرواتها النفطية، ولف الوطن العربي وتطويقه بحزامٍ من القواعد العسكرية أو قُلْ باحتلالات عسكرية سافرة. كل ذلك تحت ذريعة حماية القانون الدولي، وإعادة الشرعية إلى الكويت الشقيق من جرّاء الاجتياح العراقي للقطر العربي في الكويت. هذا الاجتياح الذي تثبت الوقائع والقرائن أنه مسرحيةٌ أخرجت فصولها، وتهيأت شروطها بدقة متناهية لدى دوائر أوربا وأمريكا ذاتها، ليشكل غطاءً وقناعاً، أو قُلْ أصبح ستاراً دخانياً دخلت خلفه جحافل جيوش غازية. ويحضرني هنا موقف القائد حافظ الأسد في مؤتمر القمة الطارئة في القاهرة، وقد كشف بعبقريته المعهودة حجم المؤامرة التي تستهدف مجمل وجودنا العربي، فقال:

«إن أعداء الأمة العربية يَهيؤون، منذ وقت ليس بقريب، لعمل هدفه تمزيق الأمة العربية، وجعل قضية الصراع العربي الصهيوني هي آخر القضايا. ويخطىء كثيراً من يظن أو يعتقد بأنه قد يكون في منأى عن هذا الخطر».

إذا كان الغرب الأوربي والأمريكي يدّعي الولاء لمبادىء سيدنا المسيح عليه السلام، وقيم وأخلاقية المسيحية المنافية للحرب والعنف والعدوان. وإذا كانوا في الغرب ينصّبون من أنفسهم حرّاساً للمسيحية والمسيحيين خارج أوربا وأمريكا؛ عندها كيف يمكن لنا أن نفهم ويفهموا هذا الحماس المنقطع النظير لإسرائيل التوراتية العدوانية، مع أن إسرائيل ما انفكت يوماً تقتل العرب مسلمين ومسيحيين معاً دون تمييز. وتاريخها حافل بالمذابح الهمجية بدءاً من مجزرة دير ياسين إلى كفر قاسم إلى صبرا وشاتيلا وليس آخراً مجزرة عين قارة بحق العمال العرب في 1990/5/21، ومذبحة المسجد الأقصى التي سقط خلالها صرعى المصلون العرب في باحة المسجد الشريف في 1990/10/8. وإسرائيل ما انفكت تقصف العرب في مدنهم

وقراهم، وتستبيح أقداسهم وتهدم المساجد والكنائس دون تمييز وتعربد في المسجد الأقصى وكنيسة القيامة معاً دون تمييز؛ مما هو وقائعه ثابتة ومعروفة في العالم قصيه ودنيه، . . كل ذلك والتناقض ثابتٌ، والعداء متأصلٌ بين اليهودية العدوانية، ومسيحية عيسى اليسوع في التسامح والمحبة والإنسانية. . كل ذلك وتعاليم المسيح والمسيحية خرجت من أرضنا؛ من فلسطين، لتشكل ثورة إنسانية آنذاك في مواجهة طاغوت روما، واليهود واليهودية معاً.

وإذا كان الأمر كذلك لدى الغرب الذي ما انفك يوماً منذ قياصرة روما، يقذف في بلادنا الخراب، ويعمل القتل والدمار، ويساند ويبارك اليوم وبالأمس همجية إسرائيل ويكرس احتلالاتها، ويرفض حتى اتخاذ قرار إدانة في مجلس الأمن يَدين فيه عدوانيتها، مما هو وقائعه معروفة وثابتة أيضاً. . وإذا كانوا في الغرب كذلك يذبحون معها أطفال الإنسانية في نفس المكان من العالم الذي ذاق فيه سيدنا المسيح عيسى عليه السلام ألوان العذاب والاضطهاد، ومن قبل أسلافهم من الجلادين الرومان واليهود معاً، مما هو وقائعه ثابتة ومعروفة أيضاً؛ في الوقت الذي تبطش فيه أوربا وأمريكا التي تزعم المسيحية، وتثور حميتها كذباً ورياءً لحماية المسيحيين في العالم ولبنان خصوصاً؛ فتذبح شعب المسيح في أرض المسيح في فلسطين. . كل ذلك إرضاءً لجشعهم اللامحدود في نهبنا وقهرنا وإركاعنا، أمام كل ذلك آن لنا أن نفهم ويفهموا أنهم صليبيون جدد مثلهم مثل أسلافهم، وليسوا بمسيحيين إطلاقاً، وأن المسيح منهم براء. آن لنا أن ندرك أن مسيحنا هو غير مسيحهم! وأن إنجيلنا هو غير إنجيلهم، وأن ربنا هو غير ربهم؛ وأن ربهم هو خاصٌ بهم دون غيرهم، وهو الجشع العدواني، والتسلط الاستيطاني والحق العنصري، ونهب الأمم والشعوب من غيرهم، وأنه لا مكان عندهم إطلاقاً لرب آخر في الوجود. . هكذا التقت في الكيان الاستيطاني الصليبي الجديد إسرائيل، توراتهم في إنجيلهم، وتلاقت فيه الممارسات الشريرة لكافة قوى البغي والعدوان.

إنها الحروب الصليبية التي عاودت فيها القوى الشريرة في العالم سيرتها الأولى؛ تلك الحروب التي تَوهّم الغرب بأنها انتهت يوم أن عادوا إلى أرضنا بعربات الاحتلال الأوربي، وغرسوا الكيان الصهيوني كامتدادٍ صليبي جديد لمملكة بيت المقدس البائدة. . ولكنها لم تنته بعد!

وستطوي هذه الأرض غطرستهم، كما طوت من قبل عظام أسلافهم النخرة.

إسرائيل. . أم مملكة بيت المقدس؟ وحتمية السقوط

إن المتتبع للأحداث التاريخية، وللعواصف الثورية التي عصفت، وتعصف بالأوراق الخريفية الصفراء للإمبرياليين والاستعماريين من الصليبيين الجدد، وتقتلع جيوبهم وتصفي أوكارهم يوماً بعد يوم من أرضنا العربية، يستطيع أن يربط بدقة وبكل وضوح بين ما جرى ويجري في مشرقنا العربي من انتصارات رائعة وإنجازات ثورية حاسمة، تصنعها قوافل الشهداء ومسيرة التحرير العربي المعاصرة؛ وبين ما تتعرض له منطقتنا العربية من هجمات شرسة متلاحقة، وحملات شريرة حاقدة، إثر كل هزيمة تنزلها أمتنا العربية بساحة التحالف الإمبريالي الصليبي الجديد وملحقاته الصهيونية.

إن نظرة سريعة إلى شريط الأحداث في الوطن العربي، والتي تتغير بسرعة فائقة، مع ما تحمله من مستجدات كل يوم، قبل أن يجف مداد كتابتها أو تخرج لنشرها؛ تبرز لنا حقيقة ثابتة قد ترسخت في خضم الأحداث ذاتها وهي تكمن في التلازم العضوي والترابط الحتمي بين الانتصار العربي على جبهة البناء والتحرير من جهة، وبين ردة الفعل السريع، والهجمة الشرسة المعاكسة لقوى الثورة العربية من جهة أخرى. ولنذكر في هذا السياق جانباً من ذلك، مما هو وقائعه معروفة لنا ولغيرنا:

1 ـ الانتصار العربي الذي تمثل بإنهاء الاحتلالات الأوربية لمعظم الأقطار العربية بعد الحرب العالمية الثانية، فكان الرد على ذلك سريعاً بغرس الكيان العنصري الاستيطاني، إسرائيل، كرأس حربة في خاصرة الوطن العربي.

2 ـ الشموخ العربي في ثورة عام 1952 م التي قادها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، والتي اقتلعت جيوب الرجعية المحلية المتحالفة مع القوة الاستعمارية، فربطت بين معارك البناء الداخلي وبين معارك تحرير البلاد والأقطار العربية الأخرى من الاحتلالات الأجنبية، فاحتضنت منذ أيامها الأولى ثورة الشعب العربي الجزائري في معركته المظفرة ضد الاحتلال الفرنسي؛ وأينعت ثمارها في تصفية القواعد العسكرية البريطانية، ثم في تأميم قناة السويس واستردادها من ربقة الكابوس الأجنبي. . فكان الرد شرساً وواسعاً في العدوان الثلاثي عام 1956 م من قبل أساطير وجيوش بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وباءت تلك الحملة كما نعلم بالفشل الذريع.

3 ـ اللهيب الثوري في سوريا في التصدي للمشاريع الاستعمارية، ووقوفها إلى جانب الشقيقة مصر في دحر العدوان الثلاثي على بورسعيد.

فكان رد الغرب سريعاً بما عُرِف بمشروع أيزنهاور عام 1957، وما رافقه من حشود عسكرية أمريكية أطلسية على طول الحدود مع تركيا من الشمال كما بفرض حصار بحري على طول الساحل السوري مع تهديدات سافرة بالغزو والاحتلال العسكري. . وباءت الحملة الشرسة بالفشل الذريع وطرحت الجماهير العربية في مصر وسوريا مشروع الوحدة في معمعان التصدي البطولي لأساطيل وجيوش حلف الأطلسي.

4 ـ الانتصار القومي العظيم بقيام الوحدة (الجمهورية العربية المتحدة) بين مصر وسوريا في 22 شباط 1958، وما رافق ذلك من خطر اندلاع الحريق الثوري إلى أقطار عربية أخرى، فانتصار ثورة تموز في بغداد في العام ذاته وما رافقها من سقوط حلف بغداد الاستعماري. .

فكان الرد سريعاً، والهجمة شرسة وتمثل ذلك في إنزال القوات الأمريكية في لبنان، والبريطانية في الأردن، وإغراق المنطقة بسيل من الأحداث الدامية في لبنان والأردن والعراق، ثم في تنفيذ جريمة الانفصال الأسود في 28 أيلول 1962 م بين مصر وسوريا.

5 ـ قيام ثورة الثامن من شباط في بغداد والثامن من آذار عام 1963 م في دمشق، مع ما رافق ذلك من تحولات قومية جذرية، وتقارب وحدوي مع ثورة الزعيم انراحل جمال عبد الناصر في مصر، ودعم الأنظمة والحركات التحررية في الوطن العربي وعلى رأسها المقاومة الوطنية الفلسطينية، وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية لقيادة الكفاح المسلح للشعب العربي الفلسطيني، هذا بالإضافة إلى الانتصارات الرائعة التي حققتها سوريا على الشركات والاحتكارات النفطية. . فكانت الهجمة بعدها شرسة وواسعة في حملة صليبية جديدة تمثلت بعدوان الخامس من حزيران 1967 م، كانت أداته المباشرة إسرائيل والترسانة العسكرية الأمريكية الفخمة في المتوسط.

6 ـ لقد أفاقت الجماهير العربية على جم الكارثة التي نزلت بها أو قُلْ الأصح ـ أُنْزِلت بها، ووضعت يدها على أبعاد المؤامرة الكبرى التي استهدفت إجهاضها، وإركاعها، ونسف قضيتها الأولى، القضية الفلسطينية. وكما في كل كارثة في تاريخ أمتنا، وإثر كل اجتياح، فقد وُلِد الإنسان؛ المارد العربي من جديد وسط العاصفة والأعاصير، وشب الفدائي العربي الفلسطيني وصَلُب عوده في وسط الأنقاض، ومن بين مخيمات الشعب الذي اقتُلع من أرضه فلسطين. . وتلمست الجماهير في مصر وسوريا طريق الخلاص والتحرير، وتهيأت لمعركة حاسمة تثأر بها لكرامتها الجريحة من نكسة حزيران 1967. . فكانت حرب العاشر من رمضان. . السادس من تشرين عام 1973 م التي امتزج فيها الدم العربي بعضها مع بعض، من مشرق الوطن العربي ومغربه؛ من شماله وجنوبه في وحدة كفاحية كانت دائماً هي الجسر الذي عبرت منه أمتنا لتحقيق أعظم انتصاراتها عبر التاريخ كله. . تماماً كما في ملحمة حطين؛ وعين جالوت. لقد كانت حرب تشرين انتصاراً رائعاً لقوى التحرر العربي، التي أنزلت ضربات موجعة كادت أن تكون هي القاضية على الكيان الاستيطاني الصهيوني، لولا أن وَجَد طوق نجاته في استنفار كافة قوى الشر والعدوان في العالم وخصوصاً لدى الولايات المتحدة وأوربا من أجل الحفاظ على حياته، حفاظاً في ذلك على مصالحهم. ويكفي أن أشير هنا

بشيء من الإيجاز إلى ما حققته حرب تشرين من آثار عميقة ما زالت بصماتها ظاهرة للصديق والعدو على حد سواء لقد حطمت أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر؛ فقُهر، وتجرّع مرارة الهزيمة حتى ثمالتها. . كما نسفت حرب تشرين نظرية الحدود الآمنة التي طالما تبجح بها العدو بأنها لا يمكن اختراقها، فتمزقه مزقاً، وتبددّت نُتَفاً تحت ضربات المقاتل العربي، الذي لم يَنَم قط على ضيم هزيمة إلاّ وثأر لأمته ولنفسه منها. لقد كان حرب تشرين بحق الزلزال الذي دمر هيبة الغرب عموماً، ومؤسسته الاستيطانية إسرائيل خصوصاً.

إزاء هذا الانتصار العظيم للأمة العربية في حرب تشرين. . تحركت قوة الإمبريالية أو الأصح قوى الصليبية الجديدة، متحالفة بعضها مع بعض من أجل إعادة ترتيب الأوضاع في المنطقة، وما حولها، بشكل يتم فيه إنقاذ سريع للكيان الصهيوني، كما يتم فيه الالتفات والتطويق على الجماهير العربية بغرض امتصاص حماسها الثوري، وشق وحدتها الكفاحية التي صنعت أمجاد تشرين، ومنعها من قطف ثمار انتصاراتها. . تماماً كما كانت تفعل القوى الصليبية البائدة إثر كل انتصار حققه أجدادنا، مما أوردنا بعضاً منه في متن هذه الدراسة، وهكذا كان بعد حرب تشرين، لقد تحركت القوى المعادية للأمة العربية بسيل من الهجمات الشرسة المتلاحقة وعلى جبهات ومحاور عديدة نذكر منها:

محور تفكيك التضامن العربي الذي كان له أبلغ الأثر في حرب تشرين. وقد تجلى ذلك في إحداث شرخ عميق بين سوريا ومصر، توأمي النضال العربي المشترك من خلال طرح ما عُرف في الدبلوماسية الغربية «بسياسة الخطوة خطوة» أو الحل على مراحل بدءاً من مفاوضات الكيلو متر 101 م على طريق القاهرة، مروراً باتفاقية سيناء 1976 م التي كانت محطة العبور إلى اتفاقيات كامب ديفيد الخيانية، فاتفاقية الصلح بين مصر وإسرائيل التي أنهت حالة الحرب بينهما، مع أنها لم تنه أصل النزاع الذي بقي موجوداً متأججاً، طالما بقي الكيان الاستيطاني الصهيوني جاثماً على أرض فلسطين.

تعريب الصراع بين الأمة العربية وأعدائها بشكل يصبح فيه الصراع بين العرب بعضهم مع بعض، ويتم فيه جعل الصراع العربي الصهيوني هو آخر الصراعات في المنطقة، مع ما يتضمّن ذلك من إغراق المنطقة بسيل من المؤمرات الدامية، وافتعال الأزمات والخلافات وتسعيرها بين الأشقاء العرب ووضعهم في مواجهة بعضهم البعض بشكل يطلب فيه كل طرف عربي الاستنـ[illegible] الأجنبية في مواجهة أخيه العربي الآخر. . تماماً كما كانت تفـ[illegible] تلك القوى الصليبية البائدة، عندما كانت تحقق بالمكيدة، ما كانت تعجز عن تحقيقه في ساحات القتال. . بل إن تعويم وإغراق الوطن العربي بعد حرب تشرين في مسلسل الحروب الأهلية والاقتتالات العشائرية والطائفية البغيضة أصبح هدفاً معلناً في الدبلوماسية الغربية. هكذا أعلن على الملأ الدولي بكل صفاقة بريجنسكي مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي جيمي كارتر بقوله:

«إن إثارة النعرات، والتيارات الدينية في بلدان الشرق الأوسط من شأنها، أن تجعل تلك الدول تصل إلى وضع تشعر فيه أن الخطر الآتي إليها من الداخل، يفوق الخطر الآتي إليها من الخارج».

وضمن هذا السياق تم تفجير مسلسل الرعب والأحداث الدامية في لبنان بدءاً من عام 1975 م. . وكم من مرة أعلن قادة العدو الصهيوني أنهم يرقبون عن كثب ما يجري في لبنان؟ وأنهم كانوا يتابعون بقلق بالغ كل بادرة أمل لخلاص لبنان من محنته. . لأن أمنهم في إسرائيل موجود في تمزيق لبنان إلى كيانات طائفية هزيلة كما في تصدير الأزمة اللبنانية إلى الأقطار العربية المجاورة لتمزيقها أيضاً. وهكذا جرى خلال خمس سنوات متتالية بدءاً من عام 1978 في محاولات مستميتة ويائسة لتفجير الأوضاع الداخلية في سوريا عبر مسلسل الاغتيالات والانفجارات وتفجير المؤسسات العامة، ووسائط نقل المواطنين.

وضمن هذا الاتجاه قامت القوى المعادية للأمة العربية بخبث ودهاء في

جرّ العربة إلى صراعات هامشية بعيدة تماماً عن بوابة الصراع مع العدو الصهيوني. هكذا أُخرجت الحرب العراقية ـ الإيرانية والتي استمرت ثماني سنوات، وكانت على حساب العرب وأصدقاء العرب، وليست لحسابهم.

ولم تكن المكيدة هي كل شيء. بل لم يتركوا فرصة للقمع والعدوان إلاّ واستخدموها والمكيدة معاً في آن واحد. هكذا كان الاجتياح الأول للبنان من 3/15 وحتى 1978/3/21 م والذي كان الغرض الأساسي منه اختبار مدى نجاح اتفاقيات كامب ديفيد في تجميد وإخراج مصر من جبهة القتال ضد العدوان الصهيوني.

وهكذا كان أيضاً الاجتياح الثاني للبنان عام 1982 م الذي وصل إلى احتلال عاصمة دولة عربية، بيروت، على مرأى ومسمع من العالم المتحدث كله دون أن يحرك ساكناً، أو تأخذهم الغيرة على حماية القانون الدولي، كما يحلو ذلك لهم كلما ضربت أو تأثرت مصالحهم.

مع العلم أن اجتياح حزيران 1982 م كان قد تزامن مع تفجير الأوضاع الداخلية في لبنان إلى مستوى الذروة، ولم ينته إلاّ بعد فرض نظام وصاية وحماية على لبنان تمثلت باتفاقية السابع عشر من أيار عام 1983 م والتي تعيد إلى الأذهان اتفاقية الحماية الصليبية التي فرضها عموري الأولى ملك بيت المقدس صيف عام 1167 م، على مصر والتي كان من شأنها إيداع مصر تحت حماية الحراب الصليبية من خلال نظام الوزير الخامس شاور آنذاك؛ والذي قضى عليه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين. وضمن مسلسل الاحتلالات والاجتياحات وتوجيه الضربات الانتقامية للأمة العربية أيضاً كان الغزو المسلح السافر للقطر الليبي الشقيق في نيسان عام 1986 الذي كانت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا رأس الحربة فيه.

كل ذلك يُبرز لنا مدى ما أحدثته حرب تشرين عام 1973، من شروخ عميقة لدى العدو الصهيوني، وحماته، من الصليبيين الجدد؟ مما جعلهم في سباق مع الأحداث في وطننا العربي، للوقوف في وجه الرياح العربية العاتية

التي هبّت في تشرين قبل أن تجرف في وجهها حواجز وحدود التجزئة، وتُسقط المستوطنات الصهيونية أو قُلْ قلاع الصليبية الجديدة وأوكارها.

7 ـ في خريف عام 1987 م كانت الجماهير العربية على موعد مع انتفاضة شعبنا في فلسطين.. مع إرادة الطفل العربي والإنسان العربي، الذي شمخ بإرادته فكان أقوى من كافة أسلحة العدو، ووسائطه الهمجية في الإبادة والتذويب والاضطهاد.. وفي خريف عام 1989 م كانت عودة مصر إلى أختها سورية، لتأخذ دورها الطبيعي الذي كانت فيه عبر التاريخ في مواجهة التحديات المصرية. وكان ذلك أيضاً انتصاراً عظيماً للأمة العربية تتوج في لقاءات القمة بين الرئيس حافظ الأسد وحسني مبارك في ربيع عام 1990 في كل من دمشق والقاهرة.. وكان الرد سريعاً في هجمة معاكسة شرسة هي الأخرى أو قُلْ في حملة صليبية جديدة ذات شقين تزامن كل منهما مع الآخر ليكمل الغرض ذاته. فكانت حملة تهجير اليهود الأوسع من نوعها في تاريخ أوربا، من الاتحاد السوفيتي خصوصاً وأوربا الشريفة عموماً باتجاه فلسطين المحتلة مع مطلع عام 1990 م.. وفي نفس الوقت تقريباً تم تفجير الأوضاع العربية في الخليج من جراء اجتياح العراق للكويت في مطلع شهر آب 1990 م.. فكان بذلك الذريعة الكبرى التي طالما عملوا من أجلها، لزج واستجرار جحافل الجيوش الأجنبية الغازية إلى الوطن العربي بغرض إيداعه تحت مظلة الاحتلالات الأجنبية السافرة، والحفاظ على الأوضاع المؤاتية لهم فيه والتي تسمح لهم بنهب ثروات الأمة العربية، وتمزيقها، وكسر إرادة المقاومة فيها.

عزيزي القارىء.. بعد أن قمنا معاً في متن هذه الدراسة بالتطواف والتجوال بين فصول تاريخنا العربي الزاخر بالتجارب والمحن، المشرق بالملاحم والأمجاد، فإننا نستطيع أن نجزم حقيقة راسخة، وهي أن العرب سيقفون كتلة واحدة بغض النظر عن أي خلاف..

وسيتجاوزون كل خلاف موجود بينهم في حال احتدام صراع مسلح بين أي قطر عربي وبين العدو الصهيوني إسرائيل أو أية قوة أخرى من العالم

يمكن أن تعتدي على أي جزء من الأرض العربية. ولا يمكن لأحد من العالم ممن يعرف تاريخ هذه المنطقة أن يتصور غير ذلك.

إن بعض الحكام اليوم قد يساومون بالقضية، كما ساوم أسلاف لهم من قبل.. إن الأمة العربية اليوم تدفع ثمن تخاذل البعض من حكامها، المتاجرين بشرف قضيتها، وبمصير أرضها؛ من دماء شهدائها ومناضليها؛ ومن شظف وعرق الملايين من أبنائها.

أولئك المتخاذلون ممن أصبحت السلطة لديهم غاية في حد ذاتها، يدفعون ثمن بقاء نُظِمهم كل القيم والمبادىء، بما في ذلك استجرار الجيوش الأجنبية، وتدنيس الأماكن المقدسة، وإغراق الأرض العربية في بحر من الدماء.. ولكن إرادة البقاء العربي التي تواجه تحديات الفناء؛ الإرادة المتفجرة في ضمير الملايين الواسعة من أبناء أمتنا ومناضليها، النابعة من ماضي الأمة وتراثها الثر وتقاليدها الكفاحية، والثقة الأكيدة بالمستقبل لأننا نملك الحق الساطع والشعب الواسع.. كل ذلك لن يسمح للمساومة أن تستمر طويلاً في التمكين للعدو في شبر من أرضنا العربية.. والويل للغزاة من الصهاينة والصليبيين الجدد حين تهب الرياح العاتية، وتهدر أمواج الكفاح القومي العربي من كل جانب، وتلفحهم شمس أرضنا بنار محرقة.

إن استمرارية الصراع بين العرب وبين الصهاينة ومن يقف معهم من الصليبيين الجدد، مع ما تشهده الساحة العربية من تمايز في القوى والمواقف كل ذلك يجب أن لا يخيفنا. إنه دليل صحة وعافية، ولولا ذلك لكان من الممكن أن يكون الوطن العربي بشموليته وكليته مستسلماً متخاذلاً تحت وطأة التآمر، وكابوس الاحتلالات.

إن إسرائيل مثلها مثل أختها مملكة بيت المقدس من قبل، لا تستند في وجودها إلى شيء سوى إلى قانون القوة، والظلم، مع أن الحق لا يولد من الظلم، كما أن الظلم لا يدوم.

وليس الزمن مهماً فقد تستمر إسرائيل، كما استمرت أختها مملكة بيت المقدس القرن والقرنين.. وقد يتنازل بعض الخونة من العرب ممن أغوتهم

شهوة السلطة، وتحت وطأة الضغوط الأجنبية، وبغية الحفاظ على عروشهم، ولو تغمست بدماء آلاف الضحايا، كما فعل أسلاف لهم من قبل.. ولكن كل ذلك لن يغير شيئاً من حتمية السقوط والانهيار لكل من الغزاة، والطغاة معاً. لقد قامت مملكة بيت المقدس، وقلاع صليبية أخرى حولها امتدت شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً؛ وزالت وزالوا لأنهم شكلوا ممالك غازية استيطانية ظالمة؛ والظلم لا يدوم.

ولم تعرف أرضنا الثورات إلاّ في كل مرة نزل بها ظلم الغزاة أو ظلم الطغاة، وليس هناك أدنى سبب يجعل من إسرائيل الصليبية اليهودية والتي قامت على نفس الأساليب والأصول والمذابح وحملات الإبادة الهمجية التي قامت أخت لها من قبل وعلى نفس الأرض.. ليس هناك من شيء يجعل من إسرائيل مثالاً لا يخضع لمنطق التاريخ منطق الحق الأزلي الذي يدوم حكمه إلى الأبد.

وإذا كان ذلك هو حكم التاريخ الذي لا يحيد أبداً، فإن علينا أن نعلم أن هذا الحكم سوف لن يَسْقط جاهزاً من السماء، أو تأتي به الطير.. بل يجب أن نُخرجُه من أرضنا اللاهية، وأمتنا الغاضبة.. يجب أن نصنعه بأيدينا، ونجبله بدماء شهدائنا وعرق وشظف جماهير أمتنا. لنصنع بذلك تاريخاً مشرقاً جديداً ونعيد بذلك بناء صرح مجتمع عربي موحد جديد. عندها يجب أن تخفق قلوب جماهير هذه الأمة العملاقة من المحيط إلى الخليج، كما خفقت أيام حروب التحرير العربي وعلى يدي قادة التحرير العربي، وما أكثرهم، بشعور وطني متدفق يكون سدّاً منيعاً عاتي القوة يصمد لكل جارف. والذي يشعر بذلك ويدركه هو إنساننا العربي، الذي هو الأمل والرجاء، وهو الوسيلة والهدف معاً في مسيرة الثورة العربية، وهو درعها الفولاذي الذي لا يمكن اختراقه.. وهو في نهاية المطاف الجماهير العربية صاحبة الحق ومالكة القرار العربي وجدار الوطن العربي.

ويجب أن لا يغرب عن بالنا أن كفاحنا القومي المشترك ضد الغزاة قديمهم وحديثهم كان دائماً الجسر العظيم الذي عبرت منه الجماهير العربية لصنع وحدتها القومية، وأن وحدتنا الكفاحية كانت دائماً الجدار الفولاذي

المنيع الذي يبنى ويشاد في خضم معارك التحرير. لقد شكلت الحملات الغازية عبر التاريخ، وما زالت كذلك اليوم في إسرائيل خليطاً شتى من أقوام وأمم شتى، ولم تتفق يوماً ولم تتحالف مع بعضها البعض إلاّ من أجل غزونا وقهرنا واحتلال أرض لنا، في فترة ضعف عارض فينا.

ونحن لم نتفق يوماً، ولم نتوحد يوماً إلا في معمعان التحديات لدفع عدوانهم ودحر طغيانهم؛ وأرضنا لم تشهد الثورات إلا في كل مرة نزل بها ظلم الغزاة أو ظلم الطغاة. هكذا خلقنا الله، وهذا هو تاريخنا المديد الحافل بالذكريات والأمجاد.

إن مسيرة التحرير والثورة العربية المعاصرة هي بالضرورة الحتمية بناء وحدوي وكفاح مشترك دائم ودؤوب في مواجهة الاحتلالات والقوى الغازية، كما في مواجهة الظلم الاجتماعي واجتثاث كافة أشكال الهيمنة والتسلط والتبعية الأجنبية. وإن الاعتماد على الذات العربية في مواجهة الأخطار المصيرية، وبناء وحدتنا القومية هو خيارنا الاستراتيجي الذي لا عودة عنه، وهو الضمانة الأولى في مسيرة البناء والتحرير معاً. وهذه الحقيقة الثابتة وعتها الجماهير العربية ـ صاحبة المصلحة الأولى في هذا الوطن ـ عبر كفاح أمتنا المديد في مواجهة الغزاة قديمهم وحديثهم، وهي تشكل مركز الثقل لدى كافة الطلائع الثورية في الوطن العربي الكبير.

والخلاص نبغي في أمة عربية عظيمة واحدة، في دولة عظيمة واحدة تُرهب ولا تَرْهب، تحمل رسالتنا الحضارية الخالدة كما حملها أجداد لنا من قبل.

يشكل[1] الصراع بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من: عدل وتوحيد ومساواة وحرية وبين الحضارة الأوربية بما تمثله من: وثنية وقهر وعنف ونهب وعنصرية مساحة واسعة من التاريخ والجغرافيا حيث لم يهدأ هذا الصراع قط.

ومن خلال الاستجابة والتفاعل بين مبادىء وقيم الإسلام ونظمه

(1) من: محمد مورو: المواجهة بين الإسلام والغرب، الدار المصرية، القاهرة 1993، ص 7 ـ 33، 50 ـ 51، 109 ـ 120.

السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهديه في شتى المجالات وبين جماهير المسلمين الذين أسلموا، وغير المسلمين الذين دخلوا في الثقافة الإسلامية نشأت حضارة ذات سمات خاصة ومتميزة شغلت مساحة تاريخية وجغرافية هائلة، وخاضت تلك الحضارة المعارك على كل مستوى، دفاعاً عن قيمها أو نشراً لها أو أداء لدورها الأخلاقي في الدفاع عن المظلومين والمضطهدين والمستضعفين.

وعلى مر التاريخ تعرض المنحنى الحضاري الإسلامي للعديد من حالات الصعود والهبوط إلا أنه لم يصل قط إلى حالة الانهيار، ونحن الآن في حالة هبوط حضاري، وننتعرض لضغط هائل من الحضارة الغربية، بهدف القضاء على تميزنا الحضاري واستلابنا، وتحويلنا إلى تابع حضاري ذليل للحضارة الغربية.

ولا شك أننا نحتاج لقدر هائل من الوعي والإيجابية لتحقيق الصمود الحضاري تمهيداً لتحقيق التعادل الحضاري ثم الصعود مرة أخرى، وهذا يحتاج بالضرورة إلى معرفة طبيعة حضارتنا وطبيعة الحضارة الغربية، وبعث روح الجهاد والوحدة في صفوف أمتنا.

وبرغم حالة الضغف الحضاري التي تمر بنا، فإننا نؤمن بأن الحضارة الإسلامية ستشهد صعوداً مرة أخرى، لأنها مثل الشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: 24 ـ 25].

ونؤمن أيضاً بأن الحضارة الغربية ـ برغم غطرسة القوة التي تعيشها ـ هي حضارة هشة وضعيفة من الداخل وأنها سوف تنهار حتماً لأنها مثل الشجرة الخبيثة ليس لها قرار. ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: 26].

إن المسلم مطالب بعدم الخضوع لعملية الذوبان الحضاري بل عليه النضال ضد حضارة الغرب المستكبرة، وأن يقود العالم إلى حضارة الإسلام العادلة، لأن العالم بحاجة ماسة إلى ذلك. وإلا استمر العالم في الشقاء بل ربما انتهى إلى كارثة بسبب سيادة الحضارة الغربية.

يقول المفكر الإسلامي محمد إقبال:

«إن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشري حيث سار، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدينة، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقيني، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه ومقام الآمر الناهي. وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه ويناضله، ويظل في صراع معه وعراك حتى يقضي الله في أمره، إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاصرة والأوضاع القاهرة، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد».

ويقول المفكر الإسلامي الدكتور مصطفى محمود: «إن صراع الحضارات حقيقة، وحينما تلتحم الجيوش في ساحات القتال فإنها لا تكون أفراداً تتقاتل وإنما تكون حضارات ومبادىء ومثلاً وسلوكيات ومعتقدات وأفكاراً تلتحم ليمتحن الله أيها قد صنع إنساناً أقوى وأفضل وأكثر علماً وأعمق إيماناً».

ويضيف: «حينما حارب المسلمون في بدر وأحد والخندق وتبوك والقادسية واليرموك، فإنهم لم يكونوا مجرد فرسان يستعرضون شجاعتهم، وإنما كانوا حملة رسالة وممثلي حضارة جديدة، وكانوا يحملون إلى الناس مبادىء التوحيد، وحقوق الإنسان، وقدسية العلم ومشعل الحرية، وحكم الشورى ومكارم الأخلاق».

ويرى الدكتور مصطفى محمود أن الحضارة الغربية تسير نحو نهايتها المحتومة قائلاً:

«وكعادة كل حضارة مترفة تزدهر فيها فنون الانحلال وغرور القوة الذي يورث التمرد على كل شيء، حتى على الله وقوانينه وسننه فإن مآلها الموت الذي سيأتيها من الداخل، من داخل البدن الذي تهرأ وأصبح خواء من فرط التلذذ، ولا أعرف كيف ومتى يأتي هذا الموت، ربما بعد ظلم عميم وإسراف وخيم وغفلة مردية، وربما يرى تلك النهاية من يطول عمره منا، وربما يراها أولاده أو أحفاده».

أما المفكر الإسلامي الأستاذ منير شفيق فيقول:

«إن الحضارة الغربية تحمل في داخلها الكثير من نقاط الضعف التي ينبغي الصمود أمامها واستثمار هذه النقاط الضعيفة فيها، أو الصمود وانتظار أن تؤدي تلك المواقع الضعيفة في جسد الحضارة الغربية إلى انفجار داخلي، فالإنسان في الحضارة الأوربية مثلاً يفتقد التوازن بين حاجاته المختلفة ويفتقد التوازن في علاقاته مع الجماعة، وهذا يؤدي إلى انتشار الأمراض النفسية والجريمة والانحراف والشذوذ الجنسي وزيادة استهلاك الخمور والمخدرات إلى حدود أصبحت تهدد حياة مئات الملايين من السكان في أوربا وأميركا، وهو ما يمكن أن يؤدي على المدى المتوسط أو الطويل إلى انهيار الحضارة الغربية من داخلها، أضف إلى ذلك أن الرغبة في تحقيق أقصى قدر من النهب وبالتالي عدم التورع عن استعمال أقصى قدر من العنف، ومع تزايد قوة الأسلحة الفتاكة يجعل العجلة العسكرية تدور بلا توقف مما يجعلها في النهاية قابلة للانفجار من داخلها، أو بالتصادم مع بعضها البعض، وإذا كانت الحرب العالمية الثانية التي نشأت بسبب التنافس على الربح بين دول كلها تنتمي إلى الحضارة الغربية قد أدت إلى قتل 62 مليون إنسان معظمهم من الأوروبيين فكم يا ترى سوف يقتل في المعركة القادمة؟ إذا ما احتدمت هذه المعركة بنفس السبب السابق بين نفس الدول

السابقة، مع العلم أن القدرات التدميرية لتلك الدول أصبحت هائلة بالمقارنة إلى مثيلتها أثناء الحرب العالمية الثانية، وبالإضافة إلى ذلك فإن الرغبة في الربح بدون وازع أخلاقي، وبدون مراعاة للتوازن البيئي يمكن أن تؤدي إلى كارثة تهدد كوكب الأرض بأكمله».

ويلخص الأستاذ منير شفيق في كتابه «الإسلام في معركة الحضارة» نقاط الضعف في الحضارة الغربية كالتالي:

ـ التطور العام غير المتوازن بالنسبة إلى مختلف المجالات، فقد تكثف في المجالات المادية واختل على مستوى العلاقات الإنسانية والأخلاقية مما يؤدي في النهاية إلى الإسراع بسقوطها. لأن حالها يصبح كحال من يقف على قدم واحدة، فمهما بلغت قدمه من القوة إلا أنها ضعيفة حين يتعرض الجسد كله إلى هزة قوية.

ـ اتساع الهوة بين تلك الحضارة والغالبية العظمى من شعوب العالم، مما دفع بها إلى مواجهة قوى لا قبل لها بمواجهتها، فالأقلية الظالمة مهما قويت وتمكنت تظل ضعيفة أمام قوى الأغلبية المظلومة صاحبة الحق فالتضاد مع حقوق أغلبية الشعوب ومصالحها يؤدي إلى انهيار تلك الحضارة مهما طال الزمن.

ـ التآكل الداخلي الذي يشكل سمة أساسية مميزة لمجتمعات الحضارة الغربية، سواء أكان ذلك على مستوى المجتمع منفرداً ـ داخل النسق الواحد بين طبقاته ومستوياته المختلفة ـ أم على مستوى صراع تلك المجتمعات فيما بينها، إن الصراع على امتلاك القوة والسيطرة والتنازع لامتلاك الثروة يستحضر عملية التآكل الداخلي.

ـ إن إطلاق الغرائز والنزعات البهيمية، وانتشار الفساد والانحلال قد يُحدث في تلك الحضارة ضعفاً داخلياً شديداً يجعلها غير قادرة حتى على الإفادة من قوتها المادية، مما قد يكرر صورة الجندي الروماني الذي ربط بالسلاسل لكي لا يفر في المعركة «معركة اليرموك» على الرغم من الكثرة

العددية للرومان في تلك المعركة، وقوة دروعهم وطول رماحهم، ومضاء سيوفهم وقوة خيولهم.

لأسباب كثيرة جداً منها ما هو عقائدي وما هو تاريخي وما هو سياسي واقتصادي؛ فإن التناقض بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية هو تناقض جوهري كان وما يزال وسيستمر يشكل أبعاد الوجود الإنساني في كوكب الأرض، وإن ظهرت بعض التناقضات الثانوية لتأخذ مساحة في الزمان والمكان مثل التناقض بين الشيوعية والرأسمالية مثلاً فسرعان ما تتلاشى هذه التناقضات الثانوية أمام التناقض الجوهري؛ فالغرب كل الغرب وثني صليبي: الرأسمالي منه والشيوعي والنازي والاشتراكي والفاشي والليبرالي. والإسلام والمسلمون هما العدو الرئيسي للغرب بكل إفرازاته الأيديولوجية والمذهبية.

فالرئيس السوفييتي السابق ميخائيل جورباتشوف، عندما أراد أن يقدم أوراق اعتماده إلى أوربا وأميركا تكلم عن وحدة المصير المسيحي والحضارة المسيحية، وهي حضارة وثنية ذات قشرة مسيحية وهي إغريقية في جوهرها وليس فيها شيء من المسيحية الحقة، ولا حتى المسيحية المزيفة اللهم إلا القشور.

والرئيس الأميركي السابق جورج بوش، في إطار حملته الانتخابية لعام 1992 قال باللفظ الواحد: «إني هنا أمثل أميركا التي تمثل بدورها الحضارة اليهودية المسيحية التي تقود عالم اليوم بلا منافس»[1].

ونائب الرئيس الأميركي السابق دان كويل يقول: «إن أخطر ثلاث حركات في القرن العشرين هي النازية والشيوعية والحركة الإسلامية»[2].

وإذا كانت النازية والشيوعية قد انهزمت فلم يبق أمام السيد دان كويل إلا تصفية الحركة الإسلامية!.

وقد نشر «عاموس بيرلماتر» الكاتب الصحفي الأميركي في صحيفة

(1) الأهرام: 1992/9/5.
(2) الأهرام: 1992/9/10.

الواشنطن بوست يقول: «إنه لا يمكن حدوث مصالحة بين العالم المتمدن والإسلام؛ لأنه دين ثوري وعدواني وعنيف ومتشدد، مثل البولشفية والفاشستية والنازية»[1].

أما بيتر رومان الكاتب الأميركي بمجلة «ذي ناشيونال ريفيو» فيقول: «إنه بنهاية الحرب الباردة فقد انتصر العرب، ولكن الآن نحن أمام تحد من قوى إسلامية تقودها الكراهية للأفكار السياسية الغربية بما يعيد إلى الأذهان الظلم الذي تعرضت له المسيحية في زمن سابق»[2].

ويواصل رومان حديثه قائلاً: «نحن لا نظلم الإسلام عندما نعتبره عدونا الجديد الذي يحل محل شيوعية الاتحاد السوفييتي، ولا يمكن الحكم على الإسلام بالمقاييس التقليدية للسياسة الخارجية»[3].

أما ريتشارد شيفتر مساعد وزير الخارجية الأميركي السابق فيقول: «إن الإسلام يمثل تهديداً كبيراً للاستقرار العالمي»[4].

أما إسحاق شامير ما يسمى رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق، فإنه يظهر عداءه للإسلام والمسلمين بالطريقة اليهودية فيقول: «بعد ذهاب الاتحاد السوفييتي فإن الأسس الجديدة للعلاقات الأميركية الإسرائيلية أهمها معارضة الصحوة الإسلامية»[5].

أما زعماء الصرب فأكثر وضوحاً، فوزير الإعلام الصربي يعلن: «إن القوات الصربية التي تذبح المسلمين وتبيدهم ـ تؤدي دور فرسان الصليب

(1) الأهرام: 1992/9/10.
(2) هذه بالطبع مغالطة فالمسيحية لم تتعرض للاضطهاد على يد المسلمين بل العكس هو الصحيح.
(3) بل تظلمونه ولا تفهمونه يا سيد رولان.
(4) الأهرام: 1992/9/10.
(5) قد يقول البعض: إن العداء للإسلام في الغرب يرجع للنفوذ اليهودي السياسي والإعلامي في الغرب، ولكن هذه حقيقة جزئية، لأنه لو لم تكن الأرضية الثقافية الغربية معادية للإسلام لما أمكن اليهود من إحداث هذا الأمر.

الذين ذهبوا لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين إبان الحروب الصليبية»[1].

وزعيم الصرب في كوسونو يقول: «الصرب حاربوا هنا لإنقاذ أوربا من الإسلام، وما زلنا نحارب لمنع الإسلام من الانتشار في قلب أوربا»[2].

وتحت عنوان ـ الإسلام السياسي والغرب إشكالية صناعة العدو في النظامين الدولي والإقليمي الجديدين ـ كتبت جريدة الأهرام القاهرية تقول: «ولكن المرشح ليكون عدو النظام الدولي والغرب هو الإسلام السياسي والأيديولوجيات الثورية الراديكالية وجماعاته في الشرق الأوسط أو الإسلام الآسيوي في باكستان وأفغانستان»[3].

وبالطبع فإن الأهرام تخجل من ذكر الحقيقة عارية وهي عداء الغرب للإسلام واعتبار الإسلام هو العدو في النظام العالمي الجديد، وإلا كان على الأهرام وحكومتها أن تتخذ موقفاً، ولذا غلفت الحقيقة بكلمات من أمثال: الإسلام السياسي أو الأيديولوجيات الثورية الراديكالية أو الإسلام الأسيوي أو غيرها من الكلمات.

والرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون يقول: «إن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة، وأنه مع التزايد السكاني والإمكانيات المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي، ومما يرجح هذا الأمر أن الإسلام والغرب متضادان، وعلى الغرب أن يتحد ليواجه الخطر الإسلامي الداهم»[4].

وفي تعليق لمجلة المصور القاهرية ـ والتي لا يمكن اتهامها بالتطرف الإسلامي ـ قالت في مقالها الافتتاحي تعليقاً على كتاب نيكسون: «صورة

(1) الشرق الأوسط: 1992/9/7.
(2) الأخبار: 1992/9/7.
(3) جريدة الأهرام: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية عدد 1991/11/1.
(4) ريتشارد نيكسون: الفرصة السانحة، ترجمة أحمد صدقي مراد، دار الهلال، القاهرة 1992.

المسلم في العقل الأميركي كما يقدمها نيكسون تقول: «إنه غير متحضر ودموي»[1].

وتضيف نفس المجلة: «في الفصل الخامس من كتاب ريتشارد نيكسون وعنوانه: «العالم الإسلامي» فكرة تنطلق من أنه بعد سقوط الشيوعية فإن المسلمين في العالم هم العدو الجديد»[2].

وتضيف أيضاً: «إن الغرب يرى أن المتعامل مع العالم الإسلامي يشبه وضعه وضع الشخص الذي يعيش في حفرة ضيقة، ومعه مجموعة من الثعابين السامة»[3].

وأصبح هذا المضمون سلسلة مترامية الأطراف في أيدي قادة الغرب في أوربا وأميركا. والمتتبع لتاريخ الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، يجد أن تشويهات الغرب للإسلام والحضارة الإسلامية مستمرة منذ ظهور الإسلام، وعلى وتيرة واحدة، فهي صورة ثابتة لم تتغير، وتكمن التغيرات فقط في الوسائل لتوصيل المضمون والصورة، سواء وسائل بشرية (قادة ـ إعلاميين ـ مستشرقين)، أو مادية.

تقول رئيسة وزراء بريطانيا السابقة «مارجريت تاتشر» تقول: «يجب المحافظة على حلف الأطلنطي لمواجهة الخطر الإسلامي»[4].

وكرر نفس المضمون عدد كبير من قادة الغرب، فها هو وزير خارجية إيطاليا يقول: «ما تزال مهمة حلف الأطلنطي قائمة بل ضرورية، فإذا كان الخطر الشيوعي قد انتهى، وإذا كان حلف وارسو قد ذهب فإن الخطر الإسلامي باقٍ ولم يذهب»[5].

(1) مجلة المصور عدد 1992/4/22.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) نفس المصدر السابق.
(4) د. محمد مورو: الإسلام وأميركا حوار أم مواجهة، دار الروضة، القاهرة 1992.
(5) صحيفة النيوزويك، نقلاً عن د. عبد الودود شلبي: عرب ومسلمون للبيع، المختار الإسلامي، القاهرة 1992.

والمعلق الروسي الشهير فاسيليف يقول: «إن أميركا الآن تنظر إلى العالم الإسلامي بوصفه إمبراطورية الشر الجديدة»[1].

أما البابا يوحنا بولس الثاني ـ بابا الفاتيكان ـ فقد اعتبر انهيار الشيوعية فرصة مناسبة للبدء في تنصير المسلمين والقضاء على الإسلام. فحمل عصاه وجاء إلى إفريقيا وآسيا لإقامة الصلوات، والتبشير في بلاد لا يسكنها مسيحي واحد، وكان البابا يوحنا بولس الثاني قد أرسل منشوراً إلى جميع القساوسة الكاثوليك يأمرهم فيهم بانتهاز الفرصة التي سنحت لسيطرة الغرب وأميركا على العالم، ونشر المسيحية في كل بقاع العالم، وخاصة البلاد الإسلامية»[2].

ولم تستهدف الحركة التبشيرية أبداً تنصير المسلم، ولكن تسعى هذه العملية التبشيرية لإخراج المسلمين من دينهم وتركهم بدون ملة أو هوية دينية، لاعتبار أن الدخول في المسيحية هو شرف لكل مسلم لا يستحقه!.

والموجة العنصرية الصليبية التي تتصاعد في أوربا وأميركا لا تخص كبار القادة وحدهم، ولا تخص اتجاهات سياسية معينة بل هي موجة للجميع، كتعبير عن وجدان صليبي متغلغل في الغرب، وعلى سبيل المثال فإن مجلة «دير شبيجل» الألمانية[3] واسعة الانتشار حملت على صدر غلافها الصادر في 30 سبتمبر عام 1991 عنواناً واحداً ضخماً يلخص الموجة العنصرية التي تجتاح ألمانيا ضد العرب والمسلمين يكون هذا العنوان من كلمة واحدة فقط هي «الكراهية» (Hass).

وقدمت الصحيفة بعض الأعمال العنصرية التي يقوم بها الألمان ضد المسلمين، وفي هذا الإطار يمكننا أن نسجل مثلاً أن نشرات الأخبار في شهر

(1) نقلاً عن د. محمد مورو: الإسلام وأميركا ـ مرجع سابق.
(2) نشر البابا هذا المنشور في جريدة «النيوزويك تايمز» الأميركية في عدد 1991/1/23.
(3) عدد 30 سبتمبر 1991.

أغسطس عام 1992 قد حفلت بأنباء المظاهرات الألمانية ضد العرب والمسلمين المهاجرين في ألمانيا، وقيام المتظاهرين بإحراق أو إلقاء الحجارة على معسكرات المهاجرين أو الفنادق التي يقيمون بها.

ومن ناحية أخرى ـ فإن المتاعب التي واجهها السفير الألماني في المغرب بسب تحوله إلى الإسلام تكشف عن روح عنصرية حادة في الوجدان الألماني.

وقد نقلت وكالة رويتر عن أحد أعضاء البرلمان في ولاية بادن فورتمبرج الألمانية قوله: «على المساجد أن ترحل من ألمانيا»[1]. ونقلت الوكالة ذاتها عن عضو في برلمان شتوتجارت الألمانية قوله: «إن الكيل قد فاض بالناخبين الألمان بسبب مسجد يجري بناؤه على أطراف المدينة من أجل العمال الأتراك»[2].

أما في فرنسا فالموجة العنصرية ضد العرب والمسلمين تشتد يوماً بعد يوم، بل إن التصريحات المعادية للإسلام والمسلمين أصبحت الطريق السهل أمام الساسة الفرنسيين الذين يريدون العودة إلى الأضواء من خلال العزف على وتر يمس الوجدان الفرنسي، ألا وهو وتر العنصرية ضد الإسلام، «فجاك شيراك» زعيم الحزب الديجولي يصف العرب والمسلمين: «بالوساخة والرائحة النتنة وافتعال الضجيج المتواصل»[3] والرئيس الفرنسي الأسبق «جيسكار ديستان» شن بدوره هجوماً ضارياً على الجزائريين والأتراك والمسلمين عموماً، وطالب بطردهم، بل طالب بسحب الجنسية الفرنسية من الجزائريين الذين حصلوا عليها[4].

أي أن العداء العقائدي للإسلام في فرنسا لم يعد قاصراً على جان ماري لوين زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية، بل امتد فطال كافة الاتجاهات السياسية،

(1) جريدة الشرق الأوسط عدد 19924/12.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) د. محمد مورو: الإسلام وأميركا، مرجع سابق.
(4) نفس المرجع السابق.

ويلاحظ في هذا الصدد ـ أن جان ماري لوين يكسب كل يوم أنصاراً جدداً مما يعكس تزايد الوجدان العنصري الصليبي في فرنسا.

والفرنسيون في هذا الصدد لا يتورعون عن استخدام المصطلحات الدينية المباشرة بلا خجل، فرئيس مكتب الهجرة الدولية بفرنسا «جاك مكود بارو» يقول في مقابلة صحفية: «إن الديانة الإسلامية هي الأكثر انغلاقاً وتشدداً، ويشترط على المهاجرين المسلمين إلى فرنسا أن يتخلوا عن الإسلام كشرط لاستيعابهم في المجتمع الفرنسي»، ويضيف: «إن فرنسياً من أصل توجولي استطاع الوصول إلى مركز وزير دولة لأنه تنصر وأصبح يذهب باستمرار إلى الكنيسة»[1].

وشاركت الجرائد والمجلات الفرنسية بدور كبير في شن الحرب الدعائية المعادية، ضد العرب والمسلمين، وأبدعت قصصاً ونوادر للعرب المقيمين في الأحياء الفرنسية، بما يوافق الميول والاتجاهات العدائية لدى الجمهور الفرنسي تجاه العرب. حتى أصبحت هذه الجرائد أكثر شعبية وأكثر توزيعاً... وكذلك انتهجت محطات الإذاعة الفرنسية هذا النهج، وسمحت لنفسها «بدبلجة» قصص لأبطال عرب ومسلمين، يعترفون فيها بمغامراتهم الجنسية ولياليهم الدموية وشذوذهم الأخلاقي.

وفي بلجيكا أصبحت السجون مكتظة بالمهاجرين العرب والمسلمين الذين ألقي القبض عليهم في حملات مكثفة قامت بها الشرطة البلجيكية مما أدى إلى تظاهر هؤلاء واشتباكهم مع الشرطة، ومن المعروف أن بلجيكا من أكثر الدول اضطهاداً للمسلمين، ونذكر أنه خلال النصف الأول من عام 1991 كانت بلجيكا قد طردت خمسة آلاف شخص مسلم.

وفي بريطانيا شهد عام 1991 موجة من العنف الدامي ضد المسلمين. خصوصاً في المدن التي تشهد تجمعات إسلامية كبيرة، مثل مانشستر وليڤربول وبرمنجهام، فقد ألقيت ثلاث قنابل على المساجد في تلك المدن،

(1) نفس المرجع السابق.

وأحرق مسجد رابع في بلدة «ووكينج» غربي لندن. بالطبع لم تشذ أميركا عن هذه القاعدة، فتصاعدت خلال نفس العام أيضاً أعمال العنف الجسدي والنفسي ضد العرب والمسلمين، بل إن فروع مكتب التحقيق الفدرالي قد استدعت عشرات الألوف من الشبان العرب والمسلمين، وكان أغرب تصريح في هذا الصدد قد جاء على لسان ويليام شستر رئيس مكتب التحقيق الفيدرالي قال فيه: «إن من هؤلاء المسلمين إرهابيين محتملين». وقد علق محام أميركي من أصل آسيوي على ذلك التصريح بمرارة قائلاً: «إنني لم أسمع في حياتي، ولم أقرأ في كتب القانون عن مشروع مجرم أو مشروع إرهابي»[1].

وفي الانتخابات الأوربية التي أجريت أوائل عام 1992، ارتفعت النبرة العنصرية وزاد عدد مؤيديها المباشرين، فقد زادت الأصوات الممنوحة لليمين المتطرف في كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وقد علق الأستاذ سلامة أحمد سلامة في مقال له بالأهرام على ذلك قائلاً: «في أوربا يزحف اليمين المتطرف الآن نحو المقدمة، وهذا إيذان بازدياد العداء تجاه العالم الثالث، ونمو روح الكراهية والاستعلاء والأنانية تجاه الأجانب، ويهدد الجاليات الإسلامية في أوربا»[2].

والأستاذ سلامة أحمد سلامة ـ وهو لا يمكن اتهامه بالتطرف الإسلامي مثلاً ـ ليس وحده الذي رصد ذلك، بل إن مفكرين علمانيين معروفين بعدائهم للاتجاه الإسلامي، لم يجدوا بداً من الاعتراف بهذه الحقيقة، فالأستاذ محمد حسنين هيكل مثلاً صرح مندهشاً لصحيفة الأندبندنت البريطانية قائلاً: «إنه يندهش من روح العداء الصليبي التي تنتشر في الغرب الآن»[3].

(1) نفس المرجع السابق.
(2) الأهرام: 1992/4/12.
(3) نشرت جريدة مصر الفتاة ترجمة لهذا التصريح في عدد 1992/3/16 وكذا صحيفة الشعب في عدد 1992/3/17.

والأستاذ لطفي الخولي قال: «إن روحاً صليبية واضحة تحرك السلوك الغربي تجاه العرب»[1].

والأستاذ محمد سيد أحمد ـ وهو شيوعي مصري معروف ـ قال نفس الشيء في أكثر من مقال بجريدتي الأهالي والأهرام.

ولأن الأمر أصبح من الاستفزاز والوضوح فإنه لم يلفت نظر الكتاب السياسيين فقط، بل لفت نظر الشعراء أيضاً، فها هو الشاعر الكبير فاروق جويدة يقول: «مواقف الغرب الآن تعيد إلى أذهاننا الوجه القبيح للغرب حين امتهن مقدساتنا وأوطاننا واستباح خيرات بلادنا واعتبرنا شعوباً من الدرجة العاشرة»، ويتساءل الأستاذ فاروق جويدة قائلاً: «هل هي عودة لدق طبول الحروب الصليبية الملعونة؟»[2].

* * *

وما رصدناه فيما سبق من موجة عنصرية صليبية عارمة في أوربا وأميركا يختص على وجه التحديد بعامي 1991، 1992، وهما العامان اللذان تليا عملية انهيار الشيوعية وانفراد أميركا بقيادة العالم، فهل يرجع الأمر إلى أن الغرب بدأ يبحث عن عدو بديل للشيوعية مثلاً. فرجع إلى عدائه للإسلام؟ أم أن الأمر أعمق من هذا التفسير السطحي؟ خاصة بعد أن أصبحت أميركا تكيل بمكيالين لقياس الأمور.

وفي الحقيقة فإن المنطق العلمي والموضوعي يقول: إن انهيار الشيوعية لا يؤدي بالضرورة إلى العداء للإسلام، وإن بحث الغرب عن عدو بديل للشيوعية ـ ربما لأنه يحتاج إلى عدو دائماً! ـ لا يمكن أن يكون مبرراً لاختيار الإسلام بالذات ليكون هو العدو الجديد، ما لم يكن هناك استعداد ذاتي في الوجدان الغربي لتقبل هذه الفكرة؛ أي ما لم يكن العداء للإسلام أصلاً موجوداً وعميقاً في الوجدان الغربي قبل الشيوعية ذاتها صعوداً وانهياراً.

(1) الأهرام عدد 1992/3/15 صفحة الحوار القومي.
(2) الأهرام عدد 1992/4/26 مقال تحت عنوان «الغرب وعودة الوجه القبيح».

وعلينا أن ندرك بداية الشيوعية ما هي إلا أحد أوجه الحضارة الغربية أو هي إحدى إفرازات الأرضية الثقافية للحضارة الغربية التي أفرزت: الرأسمالية والنازية والفاشية والاشتراكية الديمقراطية وغيرها. والتناقض الذي كان قائماً بين الدول الرأسمالية وبين الشيوعية لم يكن إلا تناقضاً بين طرفين خرجا من حضارة واحدة «الحضارة الغربية»، ويحملان السمات الأساسية لتلك الحضارة، وهذا الأمر معروف، بل ويعترف به مفكرو الغرب أنفسهم حتى قبل انهيار الشيوعية، يقول المؤرخ الإنجليزي «أرنولد توينبي».

«إن المنافسة بين الاتحاد السوفييتي وبين الولايات المتحدة على زعامة العالم، وبين المذهب الحر والشيوعية هو موضوع نزاع عائلي داخل أسرة المجتمع الغربي»[1].

وقبل ظهور الشيوعية، وأثناء صعودها، وبعد انهيارها كان وما يزال التناقض الرئيسي في هذا العالم هو التناقض بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، الذي أدى بدوره إلى صراع استمر في الزمان والمكان في التاريخ والجغرافيا وشغل مساحة كبيرة من تاريخ الصراع في هذا العالم منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم، وإن كل القوى الغربية بلا استثناء، وكل إفرازات الحضارة الغربية بلا استثناء، وكل دول الغرب تدخل في الطرف المعادي للحضارة الإسلامية.

وصحيح أنه يمكن أن يحدث تناقض بين بعض الدول الغربية أو بعض المذاهب السياسية الغربية أو بين الشيوعية والرأسمالية مثلاً أو المعسكر السوفييتي والمعسكر الأوربي الأميركي، إلا أن ذلك يظل في إطار التناقضات الثانوية، بل ويمكن لهذه التناقضات الثانوية أن تقفز في بعض اللحظات لتأخذ مكاناً كبيراً في التاريخ، إلا أنها تظل رغم حدتها تحمل سمات التناقضات الثانوية التي سرعان ما تذوب وتتلاشى أمام التناقض الجوهري.

فبرغم حدة الصراع الثانوي بين إنجلترا وفرنسا في نهاية القرن التاسع

(1) أرنولد توينبي: تاريخ الحضارات.

عشر، نرى هذا التناقض يتلاشى مع ظهور الثورة العرابية في مصر، فنجد فرنسا تضحي بمصالحها في مصر، وتسلم الكعكة كلها لإنجلترا خوفاً من خطر الثورة العرابية على المشروع الاستعماري الغربي برمته[1]، ونرى التناقض بين أميركا والاتحاد السوفييتي يتلاشى في قضية فلسطين، ونحن نعلم أن الدولتين اعترفتا بإسرائيل فور قيامها سنة 1948[2].

إذاً فالتناقض الغربي مع الإسلام تناقض جوهري امتد في الزمان والمكان منذ ظهور الإسلام حتى اليوم أياً كان النظام السياسي الغربي الكائن، سواء كانت أوروبا تحت حكم الإقطاع والكنيسة أو الرأسمالية أو مع ظهور المذاهب الفاشية والنازية والشيوعية.

والسلوك الغربي تجاه المسلمين هو نفس سلوك البابا أربان الثاني ـ مفجر الحروب الصليبية ـ الذي وقف خطيباً عام 1095 م في مجمع كليرمونت الكنسي بفرنسا قائلاً: «أيها الجنود المسيحيون... اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار المسلمين، اذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك المسلمين الكفار»[3].

نعم قبل أن تظهر أو تندثر الشيوعية بزمان بعيد، كان الإسلام دائماً وأبداً هو العدو. فالكاردينال لاتيجوري يحدد أهداف الاستعمار الفرنسي في الجزائر قائلاً: «علينا أن نخلص هذا الشعب، وأن نحرره من القرآن، وعلينا أن ننشىء أطفالهم على مبادىء غير التي نشأ عليها أجدادهم، إن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو إبادتهم»[4].

ويقول الجنرال كليمونت تونير وزير الحربية الفرنسية عام 1830 أي

(1) د. محمد مورو: صفحات من كفاح شعب مسلم، الجزء الثالث «الثورة العرابية الإسلامية» ـ الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة 1992.

(2) د. محمد مورو: التحدي الاستعماري الصهيوني وجهة نظر إسلامية، دار الفتى المسلم، القاهرة 1986.

(3) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحروب الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية.

(4) بسام العسيلي: جهاد شعب الجزائر، دار النفائس، بيروت.

عام احتلال الجزائر: «إن الحملة على الجزائر هي حرب صليبية هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الفرنسي الذي اختاره الله للثأر من أعداء المسيحية»[1].

والجنرال بيجو ـ القائد العسكري في الجزائر ـ كان يعمل عل جمع الأطفال الجزائريين وتسليمهم للقسيس الأب «بريمون» قائلاً: «حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين»[2].

ويقول الجنرال بيجو أيضاً: «إن أيام الإسلام الأخيرة في الجزائر قد ماتت ولن يكون في الجزائر كلها بعد عشرين عاماً من إله يعبد سوى المسيح»[3].

وفي الذكرى المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر قال خطباء الفرنسيين: «إن احتفالنا اليوم ليس احتفالاً بمرور مائة سنة على احتلالنا الجزائر، ولكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام فيها»[4].

وفي نفس الاحتفال وقف أحد المستوطنين الفرنسيين في الجزائر يقول: «إن عهد الهلال قد ولى وأن عهد الصليب قد بدأ وأنه سيستمر إلى الأبد»[5].

وكتبت جريدة فرنسية سنة 1926 تقول: «لقد استسلم عبد الكريم الخطابي من غير شرط وخضع لحماية فرنسا، ذلك ما كنا نبغي فالحادث مهم، فهو يضرب الإسلام في الصميم وبوسعنا الآن أن نفتك بهذا الدين الفتك الذريع»[6].

---

(1) نفس المصدر السابق.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) نفس المصدر السابق.
(4) أبو الصفصاف عبد الكريم: جمعية العلماء المسلمين في الجزائر ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، دار الهدى، الجزائر 1987.
(5) نفس المصدر السابق.
(6) La Depeche de Constantine 28-5-1926.

وحين دخل الجنرال اللنبي القدس يوم 9 ديسمبر عام 1917 قال قولته المشهورة: «الآن انتهت الحروب الصليبية»[1].

وحين دخل الجنرال جورو دمشق يوم 21 يونيو 1920 توجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ووقف أمامه قائلاً: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»[2].

وما قاله اللنبي أو جورو ما هو إلا تعبير عن الموقف السياسي والثقافي الأوربي في ذلك الوقت، فنشرت الصحف البريطانية صور اللنبي وكتبت تحتها العبارة التي قالها، وهنأ لويد جورج وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت الجنرال اللنبي في البرلمان البريطاني لإحرازه النصر في آخر حملة صليبية من الحروب الصليبية التي سماها لويد جورج الحملة الصليبية الثامنة[3].

والجندي الإيطالي الذي كان يذهب إلى ليبيا لاحتلالها كان ينشد لأمه: «أماه.. أتمي صلاتك.. لا تبكي.. بل اضحكي وتأملي.. أنا ذاهب إلى طرابلس... فرحاً مسروراً.. سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة... سأحارب الديانة الإسلامية... سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن»[4].

ويقول لورانس براون: «إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي»[5].

ويقول رئيس الوزراء البريطاني الأسبق: «ما دام هذا القرآن موجوداً في

---

(1) د. عبد العزيز الشناوي: الخلافة العثمانية، مكتبة الأنجلو المصرية.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) د. وليم سليمان: مقال في مجلة الطليعة القاهرية، عدد ديسمبر عام 1966. ولعل استدلال د/ وليم سليمان بها على دليل على مدى استفزازها، وكذلك نشرها في مجلة الطليعة اليسارية، أي أن التعصب الصليبي الأوربي لا ينكره حتى المسيحي المصري، ولا يستطيع حتى أن يبتلعه ذوو الميول اليسارية.
(4) محمد جلال كشك: القومية والغزو الفكري.
(5) د. عمر فروخ، ومصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار.

أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق»[1].

ويقول المستشرق جاردنر: «إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوربا»[2].

ويقول «أنطوني ناتنج»: «على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهنا عبر المتوسط»[3].

ويقول مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية سنة 1952:

«ليست الشيوعية خطراً على أوربا فيما يبدو لي، إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً وعنيفاً هو الخطر الإسلامي»[4].

ويقول فيليب فونداس:

«إن من الضروري لفرنسا أن تقاوم الإسلام في هذا العالم وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام، وأن تحاول على الأقل إيقاف انتشاره»[5].

ويقول كيمون المستشرق الفرنسي:

«من الواجب إبادة خمس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر»[6].

ويقول أبو حسن روستو رئيس قسم التخطيط في الوزارة الأميركية ومساعد وزير خارجية الأميركية ومستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط حتى عام 1967: «يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب بل هي خلافات بين

(1) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق.
(2) د. عمر فروخ، ومصطفى الخالدي: التبشير والاستعمار.
(3) وليم بولك: الولايات المتحدة والعالم العربي.
(4) سعيد حوى: جند الله ثقافة وأخلاقاً.
(5) فيليب فونداس: الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء.
(6) د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة القاهرة.

الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية»[1].

(بل إن الصهيونية، التي تدرك مدى العداء الأوربي للإسلام استخدمت شعار «قاتلوا المسلمين» لدعوة الأوربيين للتبرع لإسرائيل)[2].

حتى أنصار الديكتاتورية والشيوعية في الغرب كان لهم نصيب من العداء للإسلام؛ فما زال ديكتاتور البرتغال يقول:

«إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون»[3].

وجريدة الحزب الشيوعي تقول في عدد 22 مايو 1952:

«من المستحيل تثبيت الشيوعية قبل سحق الإسلام نهائياً».

إذاً فالعداء للإسلام أمر طال كل إفرازات الحضارة الغربية، وهو وجدان أوربي عميق قبل ظهور الشيوعية، وبعد انهيارها، وليس أمراً طارئاً على العقل والوجدان الأوربيين.

الحضارة الغربية المعاصرة، والتي بدأت مسيرة صعودها منذ أربعة إلى خمسة قرون، وشملت أوربا، ثم أميركا فيما يعرف بعصر النهضة الأوربية، وهو العصر الذي تم فيه بعث الثقافة والتراث والقيم الإغريقية القديمة والتراث السياسي اليوناني والروماني. وشيئاً فشيئاً سادت الثقافة الإغريقية كل شيء، واختلطت بالثقافة السكسونية والجرمانية وشكلت الحضارة الأوربية المعاصرة، وهي تعكس القيم الإغريقية القديمة من وثنية، وقهر، وعنف، ومنفعة لا أخلاقية، وعنصرية، وإن كانت قد حملت قشرة مسيحية خارجية مع جوهرها الوثني الإغريقي.

وفي الحقيقة فإن المسيحية الأوربية لم تكن قط مسيحية، بل هي

(1) جلال العالم: قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، المختار الإسلامي القاهرة.
(2) محمد جلال كشك: طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية.
(3) سعيد حوى: جند الله ثقافة وأخلاقاً.

إغريقية في جوهرها، ووثنية في أصلها وفرعها مع قشرة مسيحية خارجية.

ويكفي أن نعرف أن طقوس تنصيب بابا الفاتيكان هي نفسها طقوس تنصيب كهنة المعابد الإغريقية القديمة.

يقول السيد أبو الحسن الندوي: «ليست الحضارة الغربية الآن وليدة القرون المتأخرة التي تلت القرون المظلمة في أوربا أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين، فهي سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومية، فقد خلفتهما في تراثها السياسي والعقلي والمدني، وورثت عنهما كل ما خلقنا من ممتلكات ونظام سياسي وفلسفة اجتماعية، وتراث علمي وعقلي، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما، بل انحدرتا إليها في الدم.

فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر حفظه التاريخ للعقلية الأوربية وأول حضارة قامت على أساس الفلسفة الأوربية التي تجلت فيها النفسية الأوربية، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية التي تحمل روحاً واحدة هي الروح الأوربية.

وظلت الشعوب الأوربية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها حتى برزت بها في القرن التاسع عشر في ثوب براق يوهمك بطلاوته وزهو ألوانه أنه جديد النسج، ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان»[1].

وإذا تتبعنا مسيرة الحضارة الأوربية منذ عهدها اليوناني والروماني نجد أن الدولة الرومانية عكست مثلاً الانحطاط الأخلاقي، واستعمرت البلدان الأخرى، ونهبتها، واضطهدت غير الوثنيين، وعندما ظهرت المسيحية تعرضت للاضطهاد الواسع على يد الدولة الرومانية، وعندما دخلت المسيحية الوثنية الرومانية، أصبحت «وثنية»، ولم تصبح الوثنية الرومانية «مسيحية».

(1) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الكتاب العربي، بيروت 1967.

وبدأ الرومان يضطهدون المسيحيين المخالفين لهم في المذهب واشتدت عمليات الإحراق والقتل للمسيحيين المخالفين لمذهب الدولة حتى أنه في بلد مثل مصر سقط آلاف القتلى لدرجة أن الكنيسة المصرية أطلقت على هذا العصر «عصر الشهداء».

وتحولت الكنيسة إلى مؤسسة للقهر والنهب بحد ذاتها فمارست الاضطهاد، ونهب الأتباع، والتحالف مع الأمراء، والدخول في الصراعات المستمرة داخل أوربا، وظهرت محاكم التفتيش، واضطهاد المسيحيين في الأندلس واليهود وغيرهم وحتى أصحاب الرأي الأوربيين أنفسهم، ويكفي أن نعرف أن هناك مئات المذابح التي وقعت للمذهب البروتستانتي على يد الكاثوليك، وعندما تمكن البروتستانت في بعض البلدان قاموا بدورهم بتنظيم المذابح للكاثوليك... وهكذا، بل هناك حروب دينية استمرت عشرات السنين، فالاضطهاد الديني سمة مميزة للحضارة الغربية في كل مراحلها[1].

ثم توجهت أوربا بعد ذلك إلى اضطهاد وقهر ونهب الشعوب الأخرى، فمع الكشوف الجغرافية التي بدأت في بلاط الملوك وخاصة الأسبان والبرتغاليين، ومع اكتشاف الأميركيتين واستراليا قامت الحضارة الأوربية بإبادة الهنود الحمر في الأميريكتين وهم سكانها الأصليون، وكذا قامت بإبادة أهل أستراليا الأصليين المعروفين باسم «الأبوريجين» ثم احتلت آسيا وإفريقياً ونهبتهما بلا هوادة، واسترقت من أهل إفريقيا حوالى 100 مليون إفريقي جلبوا من إفريقيا، وبعضهم مات في الطريق لسوء المعاملة والآخرون وصلوا إلى أوربا وأميركا، مع العلم أن هذا العدد في ذلك الوقت كان يماثل أكثر من 30 ضعف سكان إنجلترا، أي أن الحضارة الغربية استرقت أو أبادت في إفريقيا وحدها 30 ضعف عدد سكان إنجلترا[2].

(1) د. توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1991.

(2) محمد خليفة: حوار معرفي شامل مع أحمد بن بيلا، مجلة البديل الباريسية.

وهؤلاء الأرقاء وكذا الثروات المنهوبة استخدموا في دفع عملية اقتصادية هائلة تمخضت عن ظهور الرأسمالية ثم الثورة الصناعية[1]، وذلك لتستخدم هذه الآلية الجديدة السياسية والعلمية «الرأسمالية والثورة الصناعية» في المزيد من النهب والاسترقاق، وكانت المحصلة النهائية هي الرخاء والرفاهية المادية لجزء من العالم «أوربا وأميركا» على حساب 80٪ من سكان العالم «عالم الجنوب عموماً» وحتى سكان الشمال لم يحظوا جميعاً بالرفاهية، بل قطاع صغير منهم على حساب الأغلبية.

وفي الجزائر مثلاً تم إبادة مليونين من السكان في وقت كانت الجزائر فيه 4 ملايين أي أنهم أبادوا نصف السكان، وقياساً على ما حدث في الجزائر من الممارسات الأوربية تكرر في المغرب وليبيا والهند وأندونيسيا وفيتنام، ولعل من أهم هذه الجرائم جريمة إقامة إسرائيل على حساب شعب فلسطين، وما يتعرض له هذا الشعب من اضطهاد وقتل وتهجير ـ ثم آخر الجرائم الأوربية الآن وهي عملية التطهير العرقي المتمثلة في الإبادة والتهجير لمسلمي البوسنة والهرسك.

إذن فالوثنية والعنف والقهر والنهب هي سمات ثابتة للحضارة الغربية، وبمناسبة العنف فإن الحضارة الغربية قائمة على الصراع لذا لا تستطيع أن تكف عن العنف لأنه في صميم تركيبتها الداخلية، وهي تمارسه حتى مع نفسها، وما يؤكد هذا الأمر اندلاع حربين عالميتين ما بين سنوات 1914 ـ 1945 والتي راح ضحيتها أكثر من 62 مليون إنسان معظمهم من الأوربيين أنفسهم وبالإضافة إلى تلك السمات هناك سمة العنصرية، وهي سمة أساسية في تلافيف العقل الأوربي.

والتمييز العنصري والتطهير العرقي من الأشياء المتواترة في السلوك

(1) نشأت البنوك الربوية وهي عصب الرأسمالية على مقاهي أرصفة الموانىء التي كانت تجلب إليها الرقيق والموارد المنهوبة عن طريق عمليات تمويل جلب الرقيق والموارد المنهوبة على أرصفة هذه الموانىء، وهذا يؤكد أن الرأسمالية نشأت نتيجة الاستعمار، وليس العكس كما يدعي الماركسيون السلفيون.

الأوربي فضلاً عن إبادة أجناس كاملة مثل الهنود الحمر والأبوريجين «سكان استراليا الأصليين» واسترقاق 100 مليون إفريقي، وإقامة إسرائيل على حساب شعب فلسطين.

فضلاً عن هذا كله هناك التمييز العنصري في إفريقيا وفي الولايات المتحدة الأميركية الذي ظل سياسة رسمية لمدة طويلة، وما زال سياسة رسمية في جنوب إفريقيا، وما زال موجوداً في الولايات المتحدة الأميركية كسلوك ووجدان ولعل في أحداث لوس أنجلوس الأخيرة سنة 1992 ما يؤكد هذا، ولعل وصول هذا الأمر إلى سلوك القضاة الأميركيين حيث انحازوا إلى الأبيض على حساب الأسود ما يؤكد أن الأمر يدخل في تلافيف العقل الأميركي، لأن إصابة مؤسسة القضاء بسمات عنصرية هذا يعني أن العنصرية موجودة في كل شيء في أميركا، والأمر نفسه يظهر في ازدواج المعايير الغربية حيال القضايا في العالم.

وهذا الازدواج في المعايير يظهر في قضية فلسطين، ويظهر في استحلال إسقاط طائرة إيرانية مدنية ومصرع ركابها، وتحريم ذلك ـ على فرض صحته ـ على ليبيا المتهمة بإسقاط طائرة أميركية، وكأن أرواح المسلمين لا قيمة لها، ويظهر في ذلك جلياً السلوك الغربي تجاه عمليات التطهير العرقي في البوسنة والهرسك.

ومن السمات الأساسية في الحضارة الغربية مسألة المنفعة اللاأخلاقية وعدم المسؤولية تجاه البيئة، فمن أجل الربح يمكن إنشاء كل شيء، فالآلة الصناعية الغربية أدت إلى إعدام الزراعة في كثير من بلدان العالم، والتلاعب في أسعار الخامات أدى إلى إفقار كل الدول النامية، والبنك الدولي نفسه يعترف أن هناك الآن 41 دولة مفلسة لا تستطيع حتى أن تدفع فوائد ديونها، وأن هناك 75٪ من سكان الأرض تحت مستوى خط الفقر، وهناك خمسون مليون من البشر يموتون سنوياً في العالم بسبب الجوع بينهم خمسة عشر مليون طفل.

فمن أجل الربح يمكن عمل أي شيء، هذه هي أخلاق الحضارة الغربية لا مانع من تدمير التوازن البيولوجي في الأرض.

فهناك مثلاً 17 مليون هكتار من الغابات يتم تدميرها سنوياً، وهي عنصر التوازن البيئي الأول، وقد دمر بالفعل 40٪ من الغابات الاستوائية، وفي ألمانيا ذاتها الغابة السوداء الشهيرة ستنتهي خلال عدة سنوات كما انتهت بالفعل غابات في البرازيل وسويسرا وغيرهما، وهناك زحف الصحراء، ثم التلوث البيئي، وثقب الأوزون بسبب الانتاج الصناعي غير المأمون والتجارب النووية، وأصبحت الأرض كلها ومستقبل الحياة البيولوجية في خطر بسبب سلوك الحضارة الغربية القائمة على فكرة المنفعة اللاأخلاقية وغير المسؤولة.

* * *

إذن فالحضارة الغربية هي حضارة الوثنية والعنف والقهر والنهب والعنصرية والمنفعة اللاأخلاقية، وهي خطر على العالم وعلى نفسها ولا سبيل إلى إصلاحها. وإذا أخذنا على سبيل المثال الإفرازات السياسية والاجتماعية والمذاهب الفكرية التي أفرزتها الحضارة الغربية نجدها كلها إفرازات إجرامية، وهي كلها تحمل السمات المتميزة والثابتة للحضارة الغربية؛ فالنازية والفاشية مثلاً معروفتان بممارساتهما الوحشية تجاه شعوب العالم، وتجاه الأوربيين أنفسهم، وسجلهما في انتهاك حقوق الإنسان أشهر من أن يعرف، والرأسمالية أبشع نظام اقتصادي ظهر في التاريخ، ونشأ أصلاً نتيجة تراكم الثروات المنهوبة، واسترقاق الأيدي العاملة من إفريقيا، وتسبب في نهب العالم بصورة منظمة بدأت بالاستعمار التقليدي وانتهت بالبنك الدولي، واتفاقية «الجات» والتلاعب في أسعار الخامات.

والشيوعية انتهت (كنظام) بعد أن ارتكبت أبشع الجرائم في حق شعوب الاتحاد السوفييتي السابق الذي ضم جمهوريات بالقوة إليه، مثل أذربيجان

وطاجيكستان وغيرهما من الجمهوريات الإسلامية وكذا جرائمه في المجر وتشيكوسلوفاكيا وأفغانستان.

وعلى كل حال فإن انهيار الشيوعية، وثبوت فشلها النظري والتطبيقي لا يعني صحة الرأسمالية، بل يعني بالضرورة فساد كل الإفرازات السياسية للحضارة الغربية، لأن الشيوعية مثل الرأسمالية خرجت من الأرضية الثقافية للحضارة الغربية ومعنى سقوطها الدولي أن تلك الأرضية فاسدة، ولا تنتج إلا القبح والصديد، وفساد الأرضية الثقافية للحضارة الغربية هو فساد الحضارة الغربية برمتها.

أما الاشتراكية الديموقراطية ـ وهي التي يحلو للبعض أن يروج لها أو ينخدع بها فهي مثل غيرها من إفرازات الحضارة الغربية لا تشذ عن القاعدة، وانظر إلى ممارستها في الواقع، ففي بلد مثل الجزائر مثلاً تعرض الشعب للإبادة والتعذيب إبان كل العهود الفرنسية من ملكية وجمهورية، رأسمالية واشتراكية ـ يمين ويسار، بل إن معدل الإبادة والتعذيب كان يرتفع إبان الحكومات الاشتراكية في فرنسا.

ولا ننسى في هذا الصدد أن الاشتراكية الديموقراطية هي أكبر من يدعم ما يسمى (بإسرائيل)، بل إن (إسرائيل) عضو نشط بها، وأن العدوان الثلاثي على مصر جاء من ثلاث دول كانت تخضع وقتها لحكومات اشتراكية وديموقراطية هي حكومة حزب العمال البريطاني، وحكومة الحزب الاشتراكي الفرنسي، و (حكومة حزب العمل الإسرائيلي).

* * *

وقد يقول قائل: «إن الحضارة الغربية يمكن أن تعالج انحرافاتها ونقاط ضعفها؛ وبالتالي تجدد نفسها وتحسن سلوكها، وهذا القول يعكس جهل أصحابه بطبيعة وجوهر الحضارة الغربية، لأن الانحرافات هنا عبارة عن قيم أصلية وثابتة داخل جسم الحضارة الغربية وليس أمراً عارضاً عليها أو ناشئاً من انحراف الممارسة، إنها تنبع من داخلها بطريقة تلقائية وضمنية بحيث

يصبح من المستحيل عليها معالجتها أو التخلص منها، وإذا حاول أهل الحضارة الغربية التخلص من تلك القيم المنحرفة فإنهم سيتخلصون من الحضارة الغربية ذاتها.

فمثلاً إن السعي لتحقيق أقصى درجات القوة المادية من أجل السيطرة على العالم ونهب ثرواته بلا حدود يجعل تلك الحضارة تدوس على كل القيم والمعايير التي تتعارض مع هذا السعي، أو بتعبير آخر إن ذلك السعي يسخر كل شيء من أجله، وهذا في حد ذاته يسمح بالتفوق في مجالات محددة، وهذه نقطة قوة أساسية في الحضارة الغربية، وهي أيضاً سبب فسادها في المجالات اللاأخلاقية والإنسانية والنفسية واندلاع أشد الصراعات الداخلية والخارجية مما يشكل بدوره نقطة السوء المركزية في هذه الحضارة. وهذه النقطة بالتحديد هي التي سببت ازدهار الحضارة الغربية وسببت في الوقت نفسه شقاء الآخرين، بل إنها النقطة التي ستصل بالحضارة الغربية إلى الانهيار في نهاية المطاف إن لم تعرض مستقبل الإنسانية كلها إلى خطر قريب من خطر الإبادة الجماعية»[1].

وكذلك إذا حاول نظام حكم عنصري التخلص من عنصريته فإنه في الحقيقة يتخلص من نفسه، لأن العنصرية هنا هي التي شيدت بناءه، وهي التي سمحت له بالازدهار على حساب الآخرين، فلولا النهب والاسترقاق والفصل العنصري لما كان هذا النظام قد نشأ أصلاً ولما كان قد حقق لنفسه هذا الرخاء ولما استطاع أن يستمر لحظة بعد التخلص من العنصرية.

الحضارة الغربية في صورتها الأميركية

أميركا بالطبع جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية، بل هي تمثل أسوأ مراحل تلك الحضارة، بل هي أكثر الدول تمثيلاً للقيم المنحطة لتلك الحضارة، والأميركيون أنفسهم لا يكفون عن تأكيد أن الولايات المتحدة

(1) منير شفيق: الإسلام في معركة الحضارة.

الأميركية هي جزء من الحضارة الغربية، ويعتبر نيكسون أن هناك وطناً مشتركاً عبر المحيط الأطلنطي[1].

يقول نيكسون: «علينا أن نسعى لبناء وطن مشترك عبر المحيط الأطلنطي من كاليفورنيا حتى كمشاته»[2]، ويضيف نيكسون: «إن القيم الحضارية للغرب خلقت روابط فلسفية أقوى بكثير من جغرافية القارة»[3].

وأميركا التي هي جزء لا يتجزأ من الغرب نشأت أساساً من خلال جريمة ضخمة ارتكبتها الحضارة الغربية ألا وهي إبادة شعب الهنود الحمر واستلاب أرضه والعيش فيها رغم أنفه وعلى حسابه.

أباد الأميركيون أكثر من مائة مليون من الهنود الحمر، وهو رقم كبير جداً بحساب وقت تنفيذه، أي أن كل مهاجر قد أباد أربعة من الهنود الحمر، وبالتالي فقد عاش فوق جماجم أربعة من البشر، وهؤلاء الذين سلبوا أميركا وأنشأوا على أنقاض أهلها دولتهم، كانوا أساساً من حثالات المهاجرين والمغامرين والآفاقين الأوروبيين، أي أنهم أسوأ إفرازات الحضارة الغربية التي هي بدورها سيئة.

وبعدها بدأ بناء أميركا باستجلاب الرقيق الإفريقي، ومن خلال استعباد الرقيق في العمل ازدهر الاقتصاد الأميركي، وتم بناء أميركا، أي أن أميركا قامت من خلال جريمتين، جريمة إبادة الهنود الحمر وجريمة استرقاق السود، وبالتالي فإذا كانت الحضارة الغربية حضارة منحطة فإنها في صورتها الأميركية، أكثر انحطاطاً، وهذه الصورة الأميركية للحضارة الغربية تمثل أقبح صور هذه الحضارة.

(1) أفرد نيكسون: في كتابه الفرصة السانحة، فصلاً تحت عنوان «الوطن المشترك عبر المحيط الأطلنطي» تحدث فيه عن الوحدة الحضارية بين أميركا وأوربا.

(2) ريتشارد نيكسون: الفرصة السانحة، ترجمة أحمد صدقي مراد، دار الهلال مصر 1992.

(3) نفس المصدر السابق.

وبالطبع فإن من المتوقع أن تكون ممارسات أميركا مماثلة لممارسات أمها ـ الحضارة الغربية ـ في سلوكها المنحط، وفي النهب والقهر والقهرية والعنصرية والإبادة والمنفعة اللاأخلاقية، بل علينا أن نتوقع المزيد من التفنن في هذا الإطار، وهكذا وجدنا أميركا تنهب الشعوب، وتعتدي عليها في أميركا اللاتينية وڤيتنام وليبيا والخليج، ونجدها الأكثر انحيازاً للكيان الصهيوني على حساب الشعب الفلسطيني، ونجدها تمثل أقبح صور ازدواج المعايير في سلوكها الدولي.

وأخطر ما في الأمر أنه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق، وانتهاء الحرب الباردة فإن أميركا تريد الهيمنة الكاملة على العالم من خلال ما أسمته هي: النظام العالمي الجديد، وهذا يعني إدخال العالم طوعاً أو كرهاً في دائرة الهيمنة والتبعية لأميركا والخضوع لما تريده قيمياً ومصلحياً، وهذا معناه أن العالم في أسوأ فتراته حيث هذه القوة المنفردة الجديدة تحمل كل القيم المنحطة، ولن تتورع عن استخدام أشد الوسائل عنفاً وقسوة في سبيل تحقيق أهدافها.

تناقضات ثانوية وأخرى جوهرية

ينبغي في إطار فهمنا للحضارة الغربية، أن ندرك أنه وفقاً لتركيبتها الشيطانية الصراعية فإنها لا تتوقف عن الصراع مع غيرها أو مع نفسها، ويمكننا أن نتوقع حدوث صراعات وصدامات صغيرة أو كبيرة، طويلة أو قصيرة بين قوى الحضارة الغربية أنفسها ـ الدول الأوربية وبعضها ـ كما حدث سابقاً وبين أوربا وأميركا كما يمكن أن يحدث في المستقبل القريب!.

وعلينا أيضاً ألا ننخدع بهذه الصراعات فنعمل فقط انطلاقاً من العداء الجوهري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وأن ندرك أن الصراعات بين قوى الحضارة الغربية لن تكون أبداً إلا على الغنيمة وليس من أجل إنصاف الغنيمة أو إعطائها حقها، حتى إذا ادعى هذا الطرف أو ذاك من أطراف الحضارة الغربية أنه يعمل من أجل الحرية أو حقوق الإنسان أو غير ذلك.

ونحن إذ نرصد الصراع بين قوى الحضارة الغربية لا نمانع من الاستفادة منه، في إطار أنه صراع ثانوي بين هذه القوى يختفي ويتلاشى مع ظهور التناقض الجوهري بينهم جميعاً من طرف وبين الحضارة الإسلامية من طرف آخر.

مع التقدم الهائل في وسائل الاتصال والمواصلات، وبعد أن أصبح العالم بمثابة قرية الكترونية صغيرة، تولدت مبررات وضروريات للحديث عن مصير إنساني واحد، وعن حتمية وجود معايير دولية واحدة، أو ما يسمى بالنظام العالمي الجديد.

فسرعان ما أدرك الغرب ضوررة التواجد، للتأهل لقيادة العالم، بعد عصور مظلمة عاشها في عهد الكنيسة، وهنا تقدم الغرب وعملاؤه بالتبشير بأن الحضارة الغربية بقيمها وخصائصها هي هذا النظام العالمي الجديد، على أن تكون أميركا هي القائد في هذا النظام العالمي الجديد، وبالطبع فإن هناك دعماً إعلامياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً يريد أن يفرض هذه المقولة.

وإذا كنا نقبل وندعو إلى المشاركة الإنسانية الشاملة، لأن العالم أصبح شديد الترابط فإننا لا نجد أن هناك ارتباطاً شرطياً بين ذلك وبين إخضاع هذا العالم للمنظومة القيمية للحضارة الغربية. وأمامنا في هذا الصدد عدة مسائل.

أولها: إن هناك رأياً قوياً لدى مفكرين وعلماء يقول بأن الحضارة الغربية في سبيلها إلى الزوال والانهيار، وأنها إذا لم تزل فستشكل خطراً ماحقاً على مستقبل الحياة البشرية على الأرض، حيث إنها حضارة غير مسؤولة، وتعلى قيمة المنفعة اللاأخلاقية.

ثانيها: إن هناك من يدعو إلى الاندماج الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وهي دعوة غير علمية بل ومشبوهة لأسباب كثيرة.

ثالثها: إن الحضارة التي ينبغي لها أن تسود العالم لا بد أن تكون عالمية المعايير. وهذا لا ينطبق على الحضارة الغربية حيث إنها عنصرية في

جوهرها، بل ينطبق فقط على الحضارة الإسلامية، وبالتالي فليس هناك بديل عالمي صالح إلا الإسلام.

وفي إطار المستقبل القائم للحضارة الغربية ـ يقول المفكر الشاعر محمد إقبال:

«إن أوربا تنتحر والروح تموت عطشاً في سرابها الخادع. فيها حضارة نعم، ولكنها حضارة تحتضر، وإن لم تمت حتف نفسها فلسوف تنتحر غداً وتذهب؛ لأن أساس الحضارة منهار، ولا يحتمل أية صدمة، وأنت أيها المسلم فارس الأمل والخلاص والمستقبل»[1].

ويعلن العالم الروسي «تروجا نوسكي» إفلاس الأيديولوجيات الغربية في قوله: «إن الثورتين الفرنسية والشيوعية قد فشلتا، وأن العالم في حاجة إلى ثورة قادمة تستطيع أن تصحح من مسارات الحركة الإنسانية، وأن هذه الثورة لن تأتي إلا من العالم الإسلامي»[2].

وتنبأ كل من «شبيلنجر» و«أرنولد توينبي» بقرب انهيار الحضارة الغربية، وكذلك اليستر كوك الذي أشار إلى ظهور قرينتين على اقتراب النهاية وهما: «التحلل من كافة القيم وعدم تمكن القانون والمحاكم في الغرب من كبح جماح الانحدار السريع للسلوك العام والقيم»[3].

ويقول ألبرت شفاتيرز: «إن الحضارة الأوربية المعاصرة تعاني من أعراض التحلل والانهيار»[4].

ويقول ألكسيس كاريل: «إن الحضارة الغربية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية إلا أنها

(1) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار القلم الكويت.
(2) نقلاً عن د. عبد الودود شلبي: عرب ومسلمون للبيع، المختار الإسلامي، القاهرة 1992.
(3) نقلاً عن نفس المرجع السابق.
(4) نقلاً عن د. توفيق الواعي: الحضارة الإسلامية، دار الوفاء، القاهرة 1988.

غير صالحة بالنسبة لنا ولحجمنا وشكلنا»[1].

ويقول «بيتريم سوركن» رئيس قسم الاجتماع بجامعة هارفارد: «أزمة الثقافة الغربية الراهنة سببها انحلال الثقافة الغربية الحسية الخالصة، وقد سادت هذه الثقافة قروناً عدة، وفرضت نفسها على كل ناحية من نواحي الحياة، فهي حينما يدركها الخلل، ويدب فيها التسمم، يسري الداء إلى مختلف أجزائها، وتشيع الفوضى بنواحيها المختلفة»[2].

ويضيف: «إن أميركا سائرة بسرعة إلى كارثة فهي تتجه نفس الاتجاه الذي أدى إلى سقوط الإمبراطورية الإغريقية، ثم الإمبراطورية الرومانية في الزمان القديم»[3].

ويقول جون كينيدي سنة 1962 محذراً:

«إن مستقبل أميركا في خطر لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات، لا يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه، وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، لأن الشهوات التي غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية»[4].

وإذا كانت أميركا تمثل أقوى مراحل الحضارة الغربية فإنها تعاني من السير في اتجاه الانهيار السريع، ومع نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط الشيوعية وجدنا مفكرين أميركيين وغيرهم من الأجناس يحذرون من مصير قاتم بالنسبة لأميركا.

يقول المفكر الأميركي «أندرو هاكر»: «إن الولايات المتحدة في طريقها للانقسام والتفتت وعلى نحو مفاجيء غير متوقع»[5].

(1) كاريل: الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد، مؤسسة العارف، بيروت.
(2) نقلاً عن د. توفيق الواعي: مرجع سابق.
(3) نفس المرجع السابق.
(4) نفس المرجع السابق.
(5) نقلاً عن د. عبد الودود شلبي: عرب ومسلمون للبيع، المختار الإسلامي، القاهرة 1992.

ويقول بول بروكجمان:

«إننا نعيش في عصر التوقعات المتلاشية، وفي الوقت الذي ينفق فيه الشعب الأميركي سبعة مليارات دولار سنوياً على إطعام الكلاب وعلاجهم يوجد 37 مليون أميركي لا يتمتعون بنظام التأمين الصحي، وأن ربع الأطفال يعيشون تحت مستوى الفقر، وأن 2 مليون أميركي يتركون مدارسهم الابتدائية قبل تعلم القراءة والكتابة سنوياً»[1].

وفي الإحصائيات[2] التي تنشر في الصحف والمجلات الأميركية تقول مجلة التايم:

«قبل نهاية هذا القرن سيكون في الولايات المتحدة الأميركية عشرة ملايين مواطن مصابون بالإيدز، وأنه في كل عام تحمل أكثر من مليون بنت أميركية مراهقة بمعدل أربعة من كل خمسة منهن تحمل سفاحاً، وأنه هناك 13 مليون طفل أميركي بدون آباء، وأن عدد المصابين بالشذوذ الجنسي بين أفراد القوات المسلحة الأميركية يصل إلى 200 ألف، وأنه تقع في الولايات المتحدة جريمة في كل خمس ثوان، وأنه لا أحد يخرج من بيته في بعض المدُن الأميركية بعد غروب الشمس خوفاً من السرقة والقتل، وأن الأمر وصل إلى الكنيسة نفسها؛ حيث إن عدداً كبيراً من الكرادلة يمارسون الشذوذ الجنسي فيما بينهم بل وتبارك الكنيسة زواج الشواذ!».

ويقول المؤرخ البريطاني «بول كيندي»: «إن أميركا في حالة انهيار وأنها لم تعد قادرة على فعل شيء للحفاظ على كيانها وبين لحظة وأخرى ستأتي الكارثة»[3].

* * *

(1) نفس المرجع السابق.
(2) نفس المرجع السابق.
(3) نفس المرجع السابق.

ولذا فإن الانهيار هو المصير المنتظر للحضارة الغربية بحكم تركيبتها غير العالمية، وبحكم أحوالها سوف تنهار. ولأنها أصلاً لا تصلح لتكون المعيار القيمي العالمي، وإلى أن يحدث هذا الانهيار فإن علينا أن نصمد أولاً أمامها، ولا نقبل المقولة الخائنة التي تدعونا إلى الاندماج في حضارة الغرب، لأن هذا معناه ضياعنا وخضوعنا، وخيانة في نفس الوقت لمستقبل البشرية لأن الحضارة الغربية سوف تفسد العالم، وتسبب له كارثة.

ويبقى أن نناقش المقولة التي تقول: إن الحضارات تتفاعل مع بعضها البعض وأن الحضارة الغربية ليست غربية فقط بل إنسانية أي أنها استفادت من كل الحضارات التي سبقتها، وتفاعلت وتزاوجت معها، وخرجت في النهاية لتكون حضارة الإنسانية كلها، وهذا الرأي خطير وبراق، ولكنه خطأ، وينبغي هنا أن نفرق بين أمرين: أحدهما التفاعل والتزاوج والثاني التعاون، فالتفاعل والتزاوج لا يتم إلا بين حضارات أو إبداعات حضارية من عائلة واحدة مثل: الحضارة الإغريقية والرومانية واليونانية والجرمانية والسكسونية... وهكذا.

وهذا التفاعل والتزاوج لا يمكن أن يتم بين حضارات وعائلات مختلفة نوعياً وكمياً. فلا يمكن مثلاً الحديث عن تفاعل وتزاوج حضاري بين حضارة تقوم على الوثنية كالحضارة الغربية وبين أخرى تقوم على التوحيد كالحضارة الغربية وبين أخرى تقوم على التوحيد كالحضارة الإسلامية، والأمر هنا أشبه بعمليات التطعيم التي تتم في النباتات، ولكي تنجح عملية التطعيم هذه فلا بد أن تكون بين أنواع معينة من النباتات، تنتمي إلى عائلة واحدة أو عائلات متقاربة، ولكن هذا التطعيم يفشل تماماً إذا ما تم بين شجرتين لا ينتميان إلى عائلة واحدة أو عائلات نباتية متقاربة.

وفي الحقيقة فإن إمكانية التزاوج والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية أمر مستحيل، لأن أية دراسة متعمقة للأساسات التي قامت عليها كل من عائلة الحضارة الإسلامية وعائلة الحضارة الأوربية لا تترك مجالاً للشك في أن لكل منهما طريقاً مختلفاً وسياقاً خاصاً، لهذا فإن الحديث عن التواصل الحضاري أو التفاعل الحضاري أو التزاوج الحضاري

يستهدف ـ في الحقيقة ـ الإلحاق الحضاري والتبعية الحضارية باعتباره جزءاً أساسياً في عملية الإلحاق الاقتصادي والسياسي والثقافي والسيطرة العسكرية.

وينبغي في هذا الصدد أن نلتفت إلى مجموعة من النقاط، فالداعون إلى الاندماج في الحضارة الغربية ينسون حقيقة أساسية، وهي أن الحضارة الغربية نفسها لن تقبل أن نندمج بها، وأن نصبح جزءاً منها يستمتع بنفس الحقوق الحضارية مع الأوربيين على قدم المساواة، لأنهم فقط يعنون بالاندماج أن نظل خاضعين وتابعين، وأن نظل مجالاً للنهب دون مقاومة، ففرنسا مثلاً التي أدمجت الجزائر إبان احتلالها وجعلتها جزءاً من فرنسا، لم تقبل أن تعطي الجنسية الفرنسية للجزائريين مثلاً، ولم تقبل أن يكون لهم نفس حقوق الانتخاب التي للفرنسي.

والداعون إلى التزاوج والتفاعل مع الحضارة الغربية يتناسون الظروف المشبوهة التي ظهرت فيها مثل هذه الدعوة، فهذا الموضوع لم يطرق بعيداً عن غايات ذات علاقة بالصراع الدائر بين القوى الاستعمارية والشعوب المقهورة والمستضعفة، فعندما طرح منظرو أوربا هذا الموضوع كانوا في أغلبهم يرمون إلى سيادة الحضارة الأوربية على العالم بكل ما تحمل من فلسفات وقيم معايير ومفاهيم، وذلك من خلال الترويج للحضارة الأوربية، وضرب الحضارات الأخرى، أو طمسها، أو الانقاص من قدرها أو خلطها بما يلغيها، وهو أمر يؤدي بالشعوب إلى فقدان هويتها ومقومات شخصيتها الأساسية وإلى ضرب عوامل وجودها المادي والثقافي المستقل، لتصبح مكشوفة أمام طغيان المستعمرين، ثم تتحول إلى تابع ذليل يلتقط الفتات، ويقف على العتبات دون السماح له بالدخول إلى صدر البيت[1].

والشيء الوحيد الممكن في العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ولو من الناحية النظرية هو التعاون، على أساس استقلال كل منهما،

(1) منير شفيق: الإسلام في معركة الحضارة.

وعلى أساس انفراد كل واحدة منهما بخصائصها الذاتية المتميزة دون أن تحاول السيطرة أو ظلم ونهب الأخرى.

وهو الأمر العسير بالنسبة للحضارة الغربية التي أقامت أيديولوجيتها على مبدأ الاستعمار منذ عهده بنا، وإن لم نكن نعاني الآن من الاستعمار بمعنى الاحتلال، فإننا نعاني من استعمار أخطر على الحضارة الإسلامية، وهو استعمار عقل وفكر وليس استعمار أرض ووطن.

والإسلام بالطبع يرحب بالتعاون، ويدعو إليه في إطار الاحترام المتبادل والعلاقات المتكافئة، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية التخلي عن النهب والظلم والعنصرية من أجل هذا التعاون.

ولنأخذ مثلاً مجال العلوم الطبيعية، وهذه تنقسم إلى قسمين: قسم خاص بالحقائق العلمية والمكتشفات العلمية، وقسم خاص بتوجيه هذه العلوم لاتجاه معين أي لإنتاج سلعة ضرورية أو كمالية للقضاء على مرض أو لنشر مرض، لإنتاج أدوات تسعد الإنسان أو لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، لإصلاح البيئة والمحافظة عليها أو لتخريبها وتلويثها.

أي أن هناك شقاً علمياً وشقاً قيمياً، في حين أن الحضارة الإسلامية عندما كانت متقدمة علمياً، كانت توجه هذه العلوم لخدمة الإنسان، ولإسعاد وتلبية حاجات كل البشر، بل وكانت تسعى سعياً لنشر العلوم ولا تحجبها عن الآخرين، لأن حبس العلم جريمة في الفقه الإسلامي.

أما الحضارة الغربية عندما تقدمت علمياً استخدمت منجزات العلم في تحقيق أكبر وأبشع وسائل النهب والقهر والظلم، بل إنها تحجب العلم عن الشعوب الأخرى وتحاكم من يجرؤ على نقل شيء من هذا العلم إلى بلاده[1] بل تغتال كل من ينجح علمياً في البلاد الأخرى أو تغريه لترك بلاده والعمل بها.

(1) قضية الدكتور مهندس عبد القادر حلمي مثلاً، وهو مهندس مصري تمت محاكمته وحبسه في أميركا بتهمة سرقة أسرار التكنولوجيا.

على أية حال من الناحية النظرية يمكن التعاون مع الغرب في الاستفادة من العلوم الطبيعية ونقلها دون ربط ذلك بغايات وأهداف استخداماتها، أي في الشق العلمي دون الشق القيمي، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية ذلك؟.. وهي التي تغتال العلماء وتحرم نقل العلم وتحاكم من يفعل ذلك، بل وتضرب أي نهضة علمية في أي مكان خارج دائرتها الحضارية.

ونؤكد مرة أخرى أن الإسلام يحض على التعاون ويحرص عليه، ولكن التعاون غير الاندماج والتزاوج والإلحاق، التعاون القائم على استقلال حضاري كامل.

والحضارة الغربية عندما نقلت العلوم الطبيعية عن الحضارة الإسلامية عن طريق المعابر ووسائل الاتصال المختلفة، أخذتها دون شقها القيمي، أخذتها وهضمتها ووجهتها وفقاً لمعاييرها الحضارية، وجهتها للتدمير والتلويث والإفساد وتحقيق أكبر قدر من آليات النهب.

ونحن بدورنا علينا أن نأخذ العلوم الطبيعية من الغرب دون شقها القيمي، وهذا لا يتم إلا انتزاعاً لأن الغرب يرفض ذلك، وأن نهضم هذه العلوم ونجعلها جزءاً من شخصيتنا الحضارية المستقلة فنوجهها طبقاً لمعاييرنا وقيمنا الحضارية في إسعاد الإنسان وتحقيق الرفاهية لكل البشر.

* * *

وبما أنه لا يمكننا أن نقبل الإلحاق الحضاري والتبعية للغرب، ولا يمكن أن يحدث تزاوج وتفاعل حضاري بين الحضارتين الغربية والإسلامية لأنهما تابعتان لعائلات حضارية مختلفة تماماً، وبحكم طبيعة الحضارة الغربية وبحكم الروح العنصرية تجاه المسلمين التي تسودها وبحكم التاريخ المفعم بالصدام بين الحضارتين فإن فكرة التعاون نفسها تبدو مستحيلة.

إذن فالمعركة حتمية، ولا سبيل هناك إلا المواجهة، أو الموت، والمواجهة مع الهزيمة أفضل من الخضوع؛ لأن المواجهة مع الهزيمة ربما تعطي الفرصة في الصمود والحفاظ على البذور صالحة تحت التربة لتعود من

جديد لتثمر في مرحلة أخرى، ولكن الانصياع والخضوع، لا يعني فقط خسائر فادحة في الحاضر، بل يعني أيضاً تدمير المستقبل لأنها تصيب البذور الكامنة تحت التربة، والمعركة هنا معركة حضارية شاملة، أي سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية وثقافية، والغرب يستخدم معنا كل الوسائل السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية أيضاً.

ما دام الغرب يشن علينا حرباً شاملة فلا بد من مواجهته بحرب شاملة أيضاً، لا بد من مواجهته بالكفاح المسلح والحرب الشعبية ومواجهته بالوسائل السياسية ورفض الخضوع لوسائل النهب التي يمارسها، من خلال بناء نمط اقتصادي مستقل وغير تابع يعتمد على قوانا الذاتية ويقطع خيوط التبعية الاقتصادية مع الغرب تماماً، ونواجهه أيضاً بتصفية كل مراكز الثقافة المغتربة، وكل أشكال الاختراق الثقافي، بثورة ثقافية شاملة تعتمد على تأكيد قيمنا الحضارية، ونواجهه بالوحدة ورفض التجزئة التي فرضها علينا، بتعبئة شعبية شاملة، فنواجهه بحرب حضارية شاملة في مواجهة حرب حضارية شاملة.

ويجب أن ننتبه إلى نقطة خطيرة في هذا الصدد ـ وهي أن أخطر المواجهات هي ما تكون على الجانب الثقافي، لأن الاختراق الثقافي يدمر حيويتنا من الداخل، ويقلل قدرتنا على المواجهة، ويضرب في داخلنا القيم الإيجابية مثل الجهاد والوحدة وبالتالي يجعلنا عاجزين عن المواجهة في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية، ولا بد أن ننتبه إلى أنه ما دامت الحرب حضارية وشاملة فليس من المعقول مثلاً أن نستخدم قيماً ووسائل واستراتيجيات مستمدة من الغرب لمحاربته بها، مهما كانت براقة فإنها لن تجدي في مواجهته، فكيف أواجهه على أرضيته الحضارية والثقافية، لا بد أن أواجهه بأساليب وقيم ووسائل مستمدة من ذاتنا حتى تظل قادرة على الاستمرار.

* * *

هناك من يروجون بأنه لا قدرة ولا سبيل إلى مواجهة الغرب، وأن توازن القوى مختل تماماً لصالحهم، ولذا فإن المواجهة لن تفيد ومن الأفضل

الخضوع أو البحث عن سبيل التفاهم، وإذا كنا ندرك أنه لا سبيل للتفاهم فإن المتاح وفقاً لمنطق هؤلاء هو الخضوع فقط.

وحتى إذا سلمنا بصحة المقدمة وهي أن الغرب قوي بدرجة لا يمكن مواجهتها فإن النتيجة التي توصلوا إليها بناء على هذه المقدمة نتيجة خاطئة، لأن معنى مثل هذه القوى الهائلة للغرب أنه لا مناص من الخضوع، ناسين أن الخضوع سيؤدي إلى النهاية، والموت والاندثار، وأن هذا الخضوع لن ينقذنا، ولن يحقن دماءنا، بل إن الخضوع يتسبب في خسائر أكثر كثيراً من المواجهة، حتى لو كانت غير متكافئة، على الأقل المواجهة سوف تقلل الخسائر أو سوف تسمح للبذور الكامنة تحت التربة بالبقاء بعيداً عن يد الغرب فتعود لتثمر في فرصة أخرى مستقبلية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحضارة الغربية تحمل في داخلها الكثير من نقاط الضعف التي ينبغي استثمارها أو الصمود وانتظار أن تتحول تلك النقاط من مرحلة الضعف في جسد الحضارة الغربية إلى مرحلة انفجار داخلي يؤدي إلى انهيارها، وهو أمر متوقع إن شاء الله تعالى.

ففي[1] أواخر القرن العشرين وفي زمن تكشفت فيه كل الحيل والألاعيب التي تستخدم من أجل الإطاحة بدول وحكومات وأفراد، في زمن أصبحت فيه الأحداث كاشفة، تتحدث عن نفسها دون الحاجة إلى مستندات لإثباتها، لم يعد خفياً على أحد ـ اليوم ـ أن القضية الحقيقية ليست مجرد صراع العالم الغربي ضد العالم العربي فحسب وإنما هي بكل أسف صراع التعصب ورياحه ضد الإسلام.. إنها قضية تعصب ديني سياسي بعيدة المدى، متعددة الأشكال واستخدم فيها الغرب كل ما يمكن وما لا يمكن تصوره من وسائل لتحقيق أغراضه.

ولن نبدأ بسرد كل ما تعرض له الإسلام منذ بداية انتشاره من حملات

(1) من: زينب عبدالعزيز: محاصرة وإبادة: موقف الغرب من الإسلام، المؤسسة الجامعية، بيروت 1993، ص 15 ـ 27، 177 ـ 188، 202 ـ 203، 209 ـ 216.

تشويهية في مختلف المجالات، وصلت إلى الترجمات المغلوطة لمعاني القرآن. إذ إن معظم ما قام به الغربيون من ترجمات، محرف ومليء بالمغالطات التي تتمشى مع حملة التشهير للحد من انتشار الإسلام، ولا نشير هنا إلا إلى آخر ما ظهر منها وهي ترجمة المستشرق جاك بيرك.. ولن نتناول كل ذلك الدس الفظ للنّيل من مكانة سيدنا محمد (ص) ـ وكلها حملات امتدت طويلاً ولمَّا تزل قائمة بل إنها تتضاعف في يومنا هذا، ويكفي أن نشير إلى ما طالب به مجمع الفاتيكان الثاني ليكف الغرب عن حملات التشويه المغرضة القديمة الأزل والمسؤولة عن الصورة الباطلة للإسلام في الغرب.

لا.. لن نتناول تلك المحاولات الدؤوب التي بدأت منذ ظهور الإسلام للحد من انتشاره، ويكفي أن نضرب مثلاً لموقف الغرب المتعصب بآخر الأحداث التي تشغل الساحة العالمية وهي:

- غرس الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.
- حرب الخليج المفتعلة.
- حرب الإبادة الدائرة في البوسنة والهرسك.

فعلى الرغم من مضي أكثر من أربعين عاماً على احتلال أرض فلسطين وطرد الفلسطينيين والعمل على طمس معالم وجودهم لم يتخذ الغرب أي موقف حاسم فعال لطرد غزاة متعصبين ومنعهم من إقامة دولة عرقية دينية ـ حتى وإن كانت إقامة هذا الكيان تناقض ما تنص عليه تعاليم الإنجيل الذي يتبعه الغرب، بل حتى وإن جاء ذلك على حساب المسيحيين في الشرق الذين يحاول الغرب «امتصاصهم» في الكنيسة الغربية طمساً لعملية الانشقاق والخلافات الدينية القديمة، والذي يحاول استخدام المتعصبين منهم في فتن طائفية داخلية.

إن الكيان الصهيوني في فلسطين ليس مجرد تحقيق لوعد سماوي مزعوم، وإنما هو نتيجة لصراعات المصالح الاستعمارية في المنطقة ودرءاً لما يطلقون عليه «عقدة الذنب» التي شعر بها الغرب ـ أو التي تشعر بها

الكنيسة البروتستانتية حيال الكنيسة الكاثوليكية، كما أن الكيان الصهيوني هو بمثابة الحربة التي يوجهها الغرب في قلب الشرق الأوسط بمساندة كاملة من الولايات المتحدة الأمريكية، فلم يعد خفياً على أحد أن الصهيونية السياسية تستخدم الإنجيل كدعامة أيديولوجية لتنفيذ أغراضها..

وقد أصبح الشعب الذي طردته شعباً بلا اسم ولا أرض، وتم إخفاء العملية برمتها تحت غلالة مفضوحة من العصرية والديمقراطية والعدالة ـ فلقد تم حذف فلسطين من المعاجم الجغرافية الحديثة، كما تم حذف اسمها من الطبعات الجديدة من الكتاب المقدس راجع الطبعة الحديثة من Pierres Vivantes.. وبعدما كان الحديث يدور حول تحرير يافا والضفة فقد توارت يافا في طي الكتمان ولا تتناول المحادثات حالياً سوى موضوع الضفة.

فهل يدرك الغرب فداحة ما يقترفه ضد المسلمين والعرب، بل وضد العقيدة التي يعتنقها، وبخاصة أن هناك من بينهم قلة لمّا تزل لا تأبه لغير الحق، وبعضهم من رجال الدين المسيحي فها هو الأب جان لاندوزي، وهو واحد من رجال اللاهوت يؤكد كيف أن إقامة دولة إسرائيل المزعومة في العهد القديم تناقض ما ورد في العهد الجديد وأنه بوفاة المسيح قد أصبحت الأرض المقدسة ملكاً للجميع (...) وأن حق الملكية قد انتقل إلى كل الذين يعيشون عليها وكانت هذه النقاط الرئيسية التي تناولها مؤتمر «المسيحيون في العالم الغربي» المنعقد في باريس في شهر سبتمبر عام 1987.

ورغم ذلك للأسف يستمر الغرب في نشر مغالطاتهم السياسية والدينية ويتمادى في تطرفه لدرجة تكوين حركة في سويسرا باسم «المسيحيون الصهاينة» بل ويستمر في مساندة دولة عنصرية حتى وإن كان في ذلك إنكار لحياة السيد المسيح ولمعنى تجربته على الأرض.

لقد كتبت الأديبة سيمون فيل Simone Well قائلة: «لا يمكنني أن أكون مسيحية لأن الديانة المسيحية ما زالت تعبد إله إسرائيل» ولم يُرَدَّ عليها

ليفند رفضها هذا أي من رجال اللاهوت (**خطاب إلى أحد رجال الدين**)..

إن الحركة الصهيونية ـ بعد مؤتمر بلتيمورا عام 1942 ـ قد تلفعت بالعصرية والحداثة بنفس المنطق الذي استخدمه «منبوذو أوربا» لغزو القارة الأمريكية وانتزاعها من أصحابها الهنود الحمر، تحت زعم العصرية والحداثة ويستمر الصمت في الغرب إخفاءً لجرائم تتكرر ولا يتصدى لها أحد طالما أنها تدور مع «الآخر» مع من يطلقون عليه «العالم المتخلف»!. ألا يبدو الأمر وكأن الحركة العنصرية تقول للولايات المتحدة الأميركية: «لقد صمت العالم على فعلتك وعليه أن يصمت على فعلتي» وذلك تحت شعار «الأمريكانية = الصهيونية» المعلن آنذاك؟!.

ولا يتسع المجال هنا لتناول حرب الخليج بتفاصيلها وكيفية نسج خيوطها وتنفيذ مخططها اللاإنساني تلك الحرب التي انتقمت فيها أمريكا لفضيحتها في فيتنام، فالمجتمع العالمي يعرف كيف استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية حكومة العراق لضرب إيران، ثم للتواجد في لبنان ثم لتحتل الكويت وكيف تذرعت الحكومة الأمريكية بذلك التدخل «المرسوم» لتسحق جيش العراق وتضرب الشعب العراقي والمنشآت المدنية العراقية في سرعة بانتقامية لا رحمة ولا منطق فيها سوى منطق «رعاة البقر» التي نشأت عليها.. ويتضافر الغرب ليشارك في لعبة التعتيم والترويج الإعلامي الذي قام بدور رئيسي في هذه الحرب.. ويزداد الصمت صمتاً طالما تم تنفيذ المطلوب.. والمطلوب هو: ضرب القوى العسكرية في العالم العربي لإضعافه وتقسيمه وبذر الشقاق بين أبنائه واستنزاف أمواله والتحكم في ثرواته النفطية والمعدنية والبشرية، وباختصار: استعماره بشكل عصري متحضر! على أن يتم ذلك كله على حساب العرب بأموال العرب وبأيدي العرب!!.

أما حرب الإبادة الأخرى الدائرة في يوغسلافيا والتي تشنها الصرب ضد شعب البوسنة والهرسك، فإن متابعة أحداثها ومظاهر التعصب فيها تغني عن أي تعليق ويكفي أن نذكر كيف سارع الغرب بالتدخل لإيقاف الصراع فوراً عندما كان الأمر يتعلق باستقلال كرواتيا الدولة المسيحية.. وكيف أنَّ نفس

ذلك الغرب ـ بكل ما يلوكه من شعارات الحرية والعدالة والمساواة قد تلفع بالصمت والتواطؤ عندما أصبح الاستقلال يتعلق بشعب البوسنة والهرسك المسلم.. وذلك لأن استقلالها سيؤدي إلى وجود دولة إسلامية في قلب أوربا، وهو ما يرفضه الغرب ويتكاتف للحيلولة دون وقوعه.. وللغرب موقف سابق مماثل تقريباً إذ إن واقعة تركيا ليست ببعيدة عن الأذهان..

ولا يتسع المجال هنا لتناول الحروب الصليبية التي كانت سلاحاً ذا حدين للحد من انتشار الإسلام وانتعاش التجارة والاقتصاد معاً، إلى جانب أنها كانت «أكثر الوسائل فعالية لجمع العناصر المسيحية المشاغبة في الغرب تحت سيادة البابا للقيام بمهمة جريئة شاسعة هي الاستيلاء على الأماكن المقدسة» (جورج تيت: **الشرق والحروب الصليبية**)، وإنما سنشير إلى الصلات الحديثة بين الغرب والشرق، الممثلة في حملة نابليون عام 1798 ـ تلك الحملة التي يرجع إليها البعض بداية «النهضة» في مصر والعالم العربي.. وذلك على الرغم من أن نابليون قد أعلن من ضمن ما أعلنه أنه قد أتى لتحرير العرب وقلبهم ضد الأتراك» (راجع: **العرب والإسلام وأوربا**).. أي أنها كانت حملة سياسية إلى جانب كونها حملة صليبية جديدة، مقنّعة بفريق من العلماء يحمل لافتة «عصر التنوير».

بل إنها في حقيقة الأمر كانت تمثل جانباً سياسياً أكثر أهمية، ذلك أن احتلال مصر آنذاك يعني في نظر الغرب الفرنسي إمكانية تمهيد الطريق إلى الهند عن طريق البحر الأحمر والخليج الفارسي.. مما سمح لفرنسا بعد ذلك الحصول على مواقع تجارية متينة في الشرق الأوسط، وتعويض ضياع جزر الأنتيل التي احتلها البريطانيون..

«وقد بدأت هذه الحملة الصليبية الفلسفية في أواخر القرن الثامن عشر تحت حماية علم الثورة الثلاثي الألوان، باسم الحرية والمساواة والأخاء.. كما أن التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر قد تم أيضاً تحت اسم مثاليات الحرية والتطور وتقدم أوربا الغربية» (المرجع السابق).

وفي واقع الأمر ـ إن هذا التوسع الاستعماري لم يبدأ بحملة نابليون

فحسب، وإنما بدأ بالفعل عقب معاهدة باريس عام 1763، التي وضعت حداً لحرب السنوات السبع وحرمت فرنسا من ركيزتين بعيدتين هما كندا والهند.. فاتجهت إلى السياسة التوسعية بناء على تقارير شوازول Choiseul وتاليران Tallayrand لاحتلال الأراضي القريبة منها من شمال إفريقيا.. وقد تم ذلك تحت شعار «الحماية» قبل أن تكشف فرنسا صراحة عن تعبير «الاستعمار».

وليس الغرض من هذا السرد الخاطف للأحداث والوقائع إلاّ لتوضيح أنه على الرغم من كافة عمليات التورية والتعتيم، وعلى الرغم من المظاهر البراقة أو حتى المهينة منها، فإن الغرب لم يكن أميناً أبداً في موقفه من الإسلام والمسلمين، وإنه منذ البداية، ومع انتشار الإسلام، لجأ الغرب إلى حروب صليبية مختلفة، تنوعت مسمياتها ومجالاتها لكن هدفها لم يتغير.. فحرب الأيديولوجيات وحرب الثقافات، وحرب الإعلام، وحرب القيم والأخلاق، وحرب التجسس والتعذيب، بل وحرب الميكروبات والمجاعات والمخدرات على سبيل المثال لا الحصر، باتت من الأمور التقليدية المفضوحة التي يستخدمها الغرب سواء مباشرة أم عن طريق أجهزة معينة أم حكومات عميلة.. ويكفي أن نقرأ آخر ثمانية كتب ظهرت في فرنسا في شهر مايو وحده من هذا العام (1992)، وكلها تكشف تواطؤ الإعلام الغربي في حرب الخليج.

وتستمر لعبة الألفاظ والإسقاط على الأخر.. والمغالطات...

إن حججاً وتعبيرات من قبيل «التعصب» و«التطرف» المقرونة بالإرهاب والتي يفرضها الغرب على العرب تماثل في جوهرها حجة الستار الحديدي قديماً ذلك الستار الذي زعم الغرب أن الاتحاد السوفييتي كان قد أحاط به نفسه، ثم تكشف مع الوقت أن الغرب هو الذي فرضه من حوله.. والنتيجة التدميرية التي آل إليه الاتحاد السوفييتي بأيدي زعامته العملية ليست بخافية على أحد.. وليس المجال هنا مناقشة هذا الموضوع الذي كشف عنه الغرب بالتفاصيل الفاضحة لأكبر المتواطئين فيها، وإنما لفت الأنظار إلى أن الغرب

لم يغير من المخطط الذي وضع منذ القرن السابع إذ يصنعون ستاراً من صنعهم يبررون به محاربة الإسلام ونبيه ومحاربة العرب لارتباطهم بالإسلام الذي أتى مكملاً ومصوباً لنفس العقيدة التوحيدية. فعلى حد قول نابليون بونابرت وبالرغم من موقفه الاستعماري إلا أنه أدرك «أن الديانات الثلاث التي نشرت معرفة أن الله دائم غير مخلوق، سيد وخالق البشر، قد خرجت من بلاد العرب إن موسى، وعيسى المسيح، ومحمد: عرب ولدوا في ممفيس، وفي أريحا، وفي مكة» (الحملة الفرنسية).. إلا أن كنيسة روما قد جاهدت لتعتيم هذه الحقيقة وحجبت ما حجبت تمسكاً بالسلطة وطمعاً في السيطرة..

وخلاصة كل هذا القول من جهة أن الغرب الذي قامت نهضته وحركة تنويره ـ ضمن ما قامت ـ على مواجهة الكتاب المقدس والسلطة البابوية ومناهضتهما، ها هو يتقبل الكتاب المقدس بعهديه، القديم والجديد، بكل ما أجراه فيهما من تعديل وحذف ليصرّ على توقف الرسالة عند السيد المسيح، بكل ما في ذلك من تحريف ثابت تاريخياً ووثائقياً.. ومن جهة أخرى، فإن الإسلام يعترف بالديانتين السابقتين ويستكمل المسيرة ليتمها. وهذا التعنت في الرأي لا مخرج منه بالنسبة للغرب إلا بأحد أمرين:

أما محاربة الإسلام واستبعاده. وأما الاعتراف به وقبوله.. أما عن استبعاد الإسلام من الساحة العالمية، فقد بدأه الغرب بالفعل منذ القرن السابع، بل وما زال هناك من يواصلون محاربته وبمزيد من العنف لحسم الموقف، مثل القس السابق جان كلود بارو Jean. Claude Barreau الذي صدر كتابه في شهر ديسمبر عام 1991، وحصل على جائزة أدبية لنفس ذلك العام، إذ يقول بعد أن زايد في تجريح الإسلام طوال كتابه:

«أنه لا بد من إعادة صياغة القرآن والحديث والسنة خلال عقد أو اثنين، بمفاهيم عصرية، أو على الإسلام أن يختفي»..! (**عن الإسلام والعصر الحديث**) وهو ما يتمشى مع ما «وضعه الغرب من مخططات لاستبعاد المسلمين من البلدان العربية وإذابة هويتهم وتحطيم انطلاقتهم

وإلغاء عروبتهم لامتصاصهم أو إذابتهم في دولة اندماجية» (راجع: **أقباط العالم العربي**).

وأما عن الاعتراف بالإسلام، وقبوله فكيف يتفق هذا مع كل ما وثقناه في بحثنا ـ وهو قليل من كثير ـ ورغم ذلك ليس أمام الغرب إلا أن يتخلى عن أنانيته ومخططاته التي لا بد وأن تنعكس آثار مدمرة لها عليه، إلا إذا أدرك أنه يمثل جزءاً مكملاً في عقيدة توحيدية واحدة، لا تقتصر على الأنبياء الثلاثة فحسب وإنما تمتد جذورها في أعماق مصر القديمة، حاملة مشعل الحضارة والتي عاش فيها موسى وتشرب حكمتها.. وإنما ترجع إلى أخناتون الذي كان أول من هاجم الوثنية وتعدد الألهية وأقام عبادة الإله الواحد الأحد الذي خلق الكون ولم يخلقه أحد..

ومع هذا السرد الخاطف، لا بد أن نشير إلى أن هذا التوجه العام للغرب من الإسلام والعالم العربي، لم يخل من بدرة من علماء ورجال دين كانوا أمناء في فضح موقف الغرب هذا، بل وناصروا الإسلام وموقفه الحضاري وكشفوا حقيقة دور الغرب.

وبإزاء ذلك كله لا نملك إلا أن نقول: لا. لا لكل الألاعيب الخفية والأياديي العابثة التي لا تضمر لنا ـ مسلمين وعرب ـ غير التعصب من أجل تأكيد زرع الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وتقسيم العالم العربي، وضياع هويته وتحويله إلى دولة علمانية عملية أو تابعة للغرب ـ على أحسن الفروض ـ وبخاصة بعد نشر بذور التحريف في عقيدتنا وتراثنا بل وقرآننا، باسم العصرية حيناً والحداثة وما إليها حيناً آخر.. وذلك كله حتى نفقد هويتنا وأصولنا..

أن على الغرب، ونقولها بلا تجريح أو تعصب، أن يعيد النظر في كل ما اقترفه من تزييف في نصوصه الدينية لتشويه صورة الإسلام وأن يلتزم بالمبادىء التي يتشدق بها، مبادىء الحرية والعدالة والمساواة، وأن يكف عن حروبه الصليبية المستمرة والمختلفة تجاه العالم الإسلام والعربي والتي يجد

فيها متنفساً ليحقق أطماعه وسيطرته وترويج تجارة سلاحه واقتصاده بعامة، وأن يكف عن تقسيم العالم والمجتمعات لسادة وعبيد وشمال وجنوب، وليته هنا يلتزم بما جاء في حديث العشاء الأخير الذي بشر فيه بمجيء محمد ﷺ. ومع رَفضِ ذلك كله من جانب الغرب، فليجاهد علماؤنا ومفكرونا في مشروعهم الحضاري على فضح دور الغرب، وأن نعمل على أن يدرك المواطن الغربي أن الدين لله والأرض للجميع، وأنه لا إله إلا الله، وموسى وعيسى والمسيح ومحمد هم رسل الله لتحقيق ديانة وحدوية واحدة لصالح البشر أجمعين، وأن نعمل على أن يكون لنا مخططنا الفكري والثقافي العام، القائم على إلقاء الضوء على الجذور الفكرية والثقافية والفنية لحضارتنا واستلهامها في بناء أي مشروع حضاري حتى نمحو عن جبيننا الفكري الحضاري وصمة التبعية للغرب وأن تعود لنا شخصيتنا المستقلة المتميزة.

وعلى الرغم من أن الديانة المسيحية تنص صراحة في وصاياها: «ولن تقتل أبداً»، ذلك لأن الذي يتم قتله هو مخلوق من مخلوقات الله وجزء من نوره إلاّ أن تاريخ الغرب مثقل بأنهار من الدماء التي انسابت باسم الدين حيناً، وباسم التطهير العرقي حيناً آخر، وكلاهما باسم نفس ذلك الرب الذي حرم القتل.

ولا يسع المجال هنا لتناول مجازر الحروب الصليبية والحروب الطائفية أو اغتيالات عصر الرعب أيام الثورة الفرنسية، كما لا يسع لسرد قوائم الإبادة الجماعية التي يذخر بها تاريخ الاستعمار في القارة الأمريكية والقارة الأسترالية أو في غزوه للقارة الإفريقية واحتلاله لجزء كبير من آسيا، فكلها مذابح تمت في الماضي، وإن كان بعضها لما يزل قائماً، فهي برمتها تمثل أكبر عمليات إبادة جماعية في التاريخ.. إلاّ أن المرير فيها أن نقرأ عنها: «ولقد كانت الإبادة مستمرة، تتم في وضح النهار، مع مباركة كافة الكنائس» (روجيه كاريتاني R. Caritani: **قوة الضعفاء** صفحة 27).

وما يعنينا في عمليات الإبادة هذه هو ما يتم حالياً من محاولات دائبة متواكبة في كافة القارات لمحاصرة الإسلام وإبادته بصورة لا تخطئها العين..

بل والأكثر غرابة أن يتم ذلك ـ في كثير من الأحيان ـ بأيادٍ عربية مسلمة!! وإن كانت الغارة على الإسلام قد بدأت منذ بداية انتشاره، أو هي للحق قد بدأت قبل مجيء سيدنا محمد ودعوته للإسلام، ووصلت هذه الغارة إلى ذروتها ـ قديماً ـ في محاكم التفتيش التي قامت أساساً لإبادة المسلمين في جنوب أوربا وإسبانيا والبرتغال بحيث لم يبق مسلم واحد، لذا فإن ما يدور حالياً من محاصرة الإسلام على الصعيد العالمي إنما هو عود لبدء لم يتوقف، ويحتاج إلى وقفة حاسمة لا هوادة فيها.. فالأمر لا يتعلق بإبادة شعب مسلم في البوسنة مثلما أبيد الإسلام في إسبانيا، وإنما هي عملية إبادة للإسلام برمته أينما كان، وإبادة لا رحمة فيها للشعوب الإسلامية أينما كانت. وأن كان ذلك يتم بمسميات مختلفة وبمحاولات وأساليب متنوعة..

بل لقد أعلن أكثر من مسؤول في الغرب ومنهم نيكسون أن العدو الباقي والذي يتعين مواجهته الآن إنما هو الإسلام ـ وذلك بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بتضافر جهود المخابرات المركزية الأميركية والجهاز السياسي الديني للفاتيكان، وهي نفس الأجهزة التي تتصدر العمليات حالياً.

إننا نلاحظ عدم جدوى محاولة اللجوء إلى المؤسسات الدولية الغربية، فكلها متواطئة بصورة أو بأخرى في تلك اللعبة الدائرة حالياً من محاصرة مميتة للإسلام والمسلمين، يتوقع لها البابا يوحنا بولس الثاني أن تتم قبل الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر عام ألف وتسعمائة وتسع وتسعين!! (جوردون توماس وماكس مورجن ويت: **في دهاليز الفاتيكان** 1983). وعشر سنوات، من تاريخ صدور هذا الكتاب، وتضافر الأحداث وسرعة إيقاعها حتى يومنا هذا غنية عن أي تعليق..

وبصرف النظر عن ردود الأفعال المختلفة حيال هذا التنبؤ، والثمان سنوات الباقية لإتمامه واندلاع الهجمات الضارية على الإسلام في كافة البلدان، تعد من المؤشرات التي لها مغزاها كما أن تتبعها في أهم أماكن الصراعات الدائرة حالياً تكشف عن ترابط أبعاد هذا المخطط. ولن نتناول هنا إلاّ أهمها وباقتضاب حيث إنها تعد من أحداث الحياة اليومية ووقائعها

مطروحة على الملأ بالرغم من عمليات التعتيم والتمويه.. وإن كان الغرض منها واحد ألا وهو: فرض الوصايا الغربية المسيحية على العالم الثالث الذي وصموه بتعبير البلدان النامية ـ متناسين أن تخلفه ناجم عن استعمارهم له وامتصاصهم لثرواته البشرية والطبيعية والاقتصادية بعامة.. وهنا يقول رينه ديمون R. Dumont: «في العشرين سنة الماضية تم استخراج ثروات العالم أكثر مما تم استخراجه طوال القرن الماضي (**تلك الحرب التي تخزينا** 1992، صفحة 180).. وكلها مخططات تتم بواسطة تعديل البنيات الاقتصادية التي يفرضها «صندوق البنك الدولي» و«البنك الدولي»، إلى جانب الإجراءات السياسية والعسكرية والتبشرية.. وخاصة تلك الحروب والقلاقل التي لم تهدأ في العالم العربي منذ غرس الكيان الصهيوني الاستيطاني في قلب فلسطين المحتلة عام 1948.

لقد بدأت حرب العراق/ إيران يوم 1980/9/22 واستمرت ثمانية أعوام، لم تكف خلالها فرنسا عن إمداد العراق بالسلاح «بموجب أكبر اتفاقية عسكرية عرفها القرن العشرين» (المرجع السابق صفحة 25). وقد ساند الغرب والمؤسسات البترولية العالمية هذه الحرب التي لم يكف البترول خلالها عن التدفق إليها.. وإذا ما كان الغرب قد استخدم صدام حسين لضرب لبنان قبل ذلك، فها هو يسانده مرة أخرى طالما أن الضارب والمضروب بلدان عربيان!.

واستغلت إسرائيل هذه الأحداث لضرب المفاعل النووي العراقي في يونيو عام 1981، ثم لتغزو لبنان في العالم التالي.. وأياً كانت الأسباب والمزاعم فالنتيجة هي إبادة وجرح ملايين من العرب وهدم القوى العسكرية التي تجاوز إسرائيل.. وتكديس الثروات في خزائن الغرب..

وفي الثاني من أغسطس 1990 اندلعت حرب العراق/ الكويت. ولم يتح للعقل العربي أن يتروى الأمر، إذ أن الولايات المتحدة بادرت بإرسال قواتها لتفرض ما أطلقت عليه «عاصفة الصحراء».. تلك العاصفة التي تضافر فيها الغرب لاغتيال الشعب العراقي البريء من حرب أجمع كل

المعلقين السياسيين في الغرب على أنه كان من الممكن بل وكان لا بد من تفاديها!!.

وكانت صرخة قائدها المسعورة لقواته: «دكّوهم حتى يعودوا إلى العصر الحجري»!. (المرجع السابق).

وتم دك البنية الأساسية للعراق وكافة مؤسساته ومنشآته المدنية. وذلك بواسطة تسعين ألف طن من القنابل التي تولى قادة الولايات المتحدة العسكريين توجيهها بغلٍ عشوائي متعمد لا تفسير له إلاّ الرغبة الدؤوب في إبادة شعب من الشعوب العربية والتخلص من أية إمكانيات عسكرية تجاوز إسرائيل.

ولا يمثل الحظر الجوي والعقوبات المفروضة حالياً على العراق إلاّ امتداداً مُقنعاً لحالة الحرب واستمراراً للقتل البطيء لشعب بأسره، فأياً كان الموقف من حاكمه، فهو فرد واحد، ولم تكن الولايات المتحدة بكل جبروتها ومخابراتها لتعجز عن التخلص منه ـ الأمر الذي يكشف حقيقة الموقف.. ذلك الموقف الذي يقول عنه رنيه ديمون: «إن حرب العراق عبارة عن تحذير لبقية البلدان العربية في المنطقة لتذكرها بأنه لا يمكن تحدي القوى العظمى الأولى العسكرية/ الصناعية وإلاّ لواجهت نفس المصير»!، ذلك إذا غضضنا الطرف عن اللعبة القذرة التي باتت أوراقها مكشوفة عن الدور الأمريكي في تحريك صدام حسين للاستيلاء على الكويت.. مع الإصرار على تقسيم العراق بشكل مقنّع بضرب الجنوب حيناً وتوصيل المعونات للشمال حيناً آخر.

وها هي نفس عملية الموت البطيء (في وجهة نظرهم) تفرض على ليبيا منذ شهر إبريل عام 1992 بسبب حادثة طائرة مشكوك في مصداقية التهمة الملصقة بفاعليها وليس الدليل الذي وجده الغرب في «زرار بدلة» وسط أنقاض الطائرة المتفحمة المتناثرة، ليتعرف من خلاله على شخصية ليبيين إلا ذريعة رخيصة ساخرة لفرض الحظر على الشعب الليبي، ليعاني نفس المصير

بصورة مختلفة.. مع فرض تأكيد قوة النظام العالمي الجديد بزعامة أمريكا وتواطؤ منظماتها المتعددة..

أما عن حرب الإبادة الدائرة في البوسنة، أو تلك الفضيحة الدولية التي تعجز الكلمات عن وصفها والتي لا تشهد على تواطؤ الغرب فحسب، وإنما على امتداد تواطؤه إلى حكام أمة الإسلام الخاضعين له، لتصفعهم فرداً فرداً.. فقد أعلن ليفنستون، الرئيس السابع لمفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في البوسنة «أن اغتصاب النساء المسلمات لم يعد نوعاً من الجرائم التي يرتكبها الأفراد على نطاق واسع فحسب، وإنما أصبح جزءاً في السياسة الصربية وأحد المحاور الأساسية لعملية التطهير العرقي.. الذي يجري تنفيذه ضمن الأساليب الأخرى المعروفة: الفصل من العمل والقتل في الشوارع والإعدام على الملأ، فضلاً عن ترويع الناس بإحراق البيوت وهدمها... إن مسألة الاغتصاب المنتظم يجب ألاّ ينظر إليها منفصلة عن سياق التطهير العرقي التي عمد إليها الصرب أو استهدفوا إجلاء أكبر عدد من السكان المسلمين من الأراضي وتدمير معنوياتهم» (**الأهرام** 5/1/1993 نقلاً عن جريدة **الجارديان** البريطانية في 27/12/92).. ولن يتمكن إدراج كل ما تقدم ـ علماً بأنه يدور على الملأ وفي وضح النهار ـ لإدانة قائد الصرب بموجب معاهدة جنيف، فلن تخرج الإجابة عن أنه لم يكن في «نيته» أن يقوم بما اقترفه!..

وفي خطابه السنوي بمناسبة الاحتفال بعيد الميلاد المجيد، في الرابع والعشرين من ديسمبر 1992، أعلن نيافة البابا يوحنا بولس الثاني إدانته للمعارك الدائرة في يوغسلافيا ثم ناشد المسؤولين السياسيين في العالم بأسره «أن يسمعوا لصوت المسيح في السهر على مصير الشعوب.. اسمعوا صوت الحب الحنون القوي يا من تشهرون أسلحة العنف والقتال»!!! (جريدة **ليموند** 27 ـ 28/12/1992).. وكان سكرتير الدولة الفاتيكاني قد أعلن «أن الفاتيكان سوف يؤيد نوعاً ما من الإجراءات لوقف القتال في البوسنة».

وقبل ذلك بيومين كان «سفاح صربيا يعلن رفض العالم قيام دولة

مسلمة في البوسنة قائلاً: إنه من غير المقبول وجود دولة مسلمة في قارة أوربا كلها «(**الوفد** 27/12/92) وكان قد أعلن ذلك مراراً من قبل.

ولا تعليق لنا على تلك الأنشودة التي ترنم بها نيافة البابا ولا على «صوت الحب الحنون» الذي يوجه بها قداسته عمليات القتل والإبادة الدائرة باسم المسيحية، واغتصاب خمسين ألف مسلمة أعمارهن ما بين سن السادسة إلى ما فوق الستين، واغتيال الأطفال فيما فوق العاشرة أو تنصيرهم جماعياً..

ترى هل نسي نيافته مساعيه وتصريحاته للحد من الصراع الدائر في إيرلندا عندما زارها عام 1979؟ أم أن رفضه للعنف ومساعيه للسلام التي تتجاوز دور الكلمات قاصرة على النزاع بين دولتين مسيحيتين؟!.

ولا تعليق لنا إلى كافة المسلمين الأجباس القُعدد، المتواطئين إلاّ أن نقول لهم: إن الإسلام يغتصب في مسلمات البوسنة، ورجولتكم تنتهك في صمتكم البهيم..

ولا يمثل تدخل الغرب في مجاعة الصومال ومنازعاتها التي تم تدبيرها منذ أعوام، إلاّ ستاراً يتلفع «بعودة الأمل» لإقامة قاعدة عسكرية جديدة في إفريقيا عند مدخل البحر الأحمر، يستكمل بها قواعده الحربية التي تمثل استعماراً جديدة «يدك» به أية محاولات استقلالية أو إسلامية في المنطقة وليعود بها إلى العصر الحجري.. إلى جانب قيام أشهر أربع شركات أمريكية بنهب أكبر مستودع بترولي تم اكتشافه في تلك المنطقة!

وها هي الحقيقة تتكشف سريعاً: فما كاد العراق يوم 27/12/92 يخترق مجاله هو نفسه الجوي، المحظور عليه اختراقه منذ 27 أغسطس 1992، ويخترقه لأول مرة، حتى تم «دك» الطائرة وإسقاطها فوراً، وبادر بوش في اليوم التالي (28/12/92) بإرساله حاملة طائرات أمريكية من طراز س.س هوك عليها أكثر من سبعين طائرة حربية، قادمة من الصومال ـ ولا نعتقد أن مجاعة الصومال كانت بحاجة إلى كل هذا الحشد العسكري ـ وهي

حاملة طائرات «على استعداد للرد حسبما تأتي التطورات»!!.

ولا نملك إلاّ أن نسأل السيد بوش ـ الذي قام رمزي كلارك، وزير العدل الأمريكي الأسبق، باتهامه كمجرم حرب ووجه إليه تهمة «جرائم ضد السلام، وجرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية وأفعال أخرى إجرامية تمت وتعد خرقاً لميثاق الأمم المتحدة، والقانون الدولي، ودستور الولايات المتحدة والقوانين التي تتبناها سياساتها» (**تلك الحرب التي تخزينا** صفحة 99) ـ ترى أين حماسه الحاسم الباتر وضميره المتيقظ حيال العدد الذي لا يحصى لاختراق الصرب المجال الجوي للبوسنة؟! أو اختراقهم قرارات الأمم المتحدة؟ ومواصلة ارتكاب إسرائيل لمختلف أنواع جرائم الحرب التي تحتم محاكمة مرتكبيها، واستمرارها اختراق قرارات الأمم المتحدة باحتلالها القدس وفلسطين والأراضي العربية؟!.

أن كل ما نطالعه أنه «مازال يفكر».. وساسة الغرب «ما زالت تفكر».. وها هو وزير خارجية فرسنا يعلن أن تحذير بوش للعراق «يمكن» أن يكون «ذات يوم» تحذيراً للصرب في الأيام القادمة.. وما زال الكل يفكر ويسوّف، والسيد «الأمين» العام **يحذر من اتخاذ أي قرار** أو من محاولة استخدام القوة ضد الصرب!!. وبين التخاذل والتسويف والتلويح والتشدق بالعبارات تتم إبادة أمة بأسرها ذبحاً واغتصاباً..

وها هو خليفة بوش الجديد يسارع بالتعهد ـ حتى قبل أن يتولى مهام منصبه رسمياً ـ بتنفيذ الحظر والتوعد الذي تم فرضه على العراق، ومواصلة نفس النهج في استنفاد موارد الدول العربية وامتصاصها حتى لا تترك إلاّ وهي نخرة!.

أما عن بؤرة الصراع الجديدة/ القديمة الدائرة في الهند، تلك الهند، التي قسمها الاستعمار البريطاني تقسيماً يرمي إلى عزل المسلمين وإقامة الحروب العرقية التي لا تكف عن التطاحن.. فليست مسرحية هدم مسجد بابري الاستفزازية إلاّ من قبيل ما يطلق عليه الموسيقيون «البروفة جنرال» أي

البروفة الأخيرة. وذلك في ظني الذي أتنبأ به ـ لجس نبض المسلمين ودراسة ردود أفعالهم عندما يقوم الغرب الصهيوني بهدم المسجد الأقصى!!. فلقد أعلن كلينتون في حملته الانتخابية أنه سيعترف بالقدس رسمياً عاصمة لإسرائيل على الرغم من أنها جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية، وعلى الرغم من قرارات الأمم المتحدة.. كما تسربت الأخبار ـ سواء من باب الخطأ أو العمد ـ بأن هيكل سليمان قد تم بناؤه بنظام المباني السابقة التجهيز حتى لا تستغرق إقامته إلاّ سويعات!.. وهو ما يتفق مع استمرارهم القيام بتقويض بنيان المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة..

ومن سياق الأحداث ندرك مدى تدخل البابا في الساحة السياسية العالمية، على الرغم من أن الديانة التي يترأسها ديانة أخروية لا علاقة لها بالشؤون الدنيوية. لذلك نتناول باقتضاب ذلك الدور الذي تقوم به الكنيسة بعامة والدور الذي يقوم به قداسته بصفة خاصة.. فمن المعروف أنه منذ أن تولى الأسقف البولندي كارول ڤويتيلا رئاسة الفاتيكان تحت اسم يوحنا بولس الثاني فإن ذلك لم يضع حداً للسيطرة الإيطالية على البابوية منذ أكثر من أربعة قرون فحسب، وإنما يكشف عن مدى توغل المخابرات الأمريكية وسيطرتها على الكرسي الرسولي الذي له علاقات سياسية دبلوماسية في جميع أنحاء العالم..

ويقول جوردون توماس مرجان ـ ويت في كتابهما الثاني المشترك عن **رسل الفاتيكان** (1985): «إن العلاقات مع الأمريكان قد تحسنت. وإن رجال الكهنوت الأمريكان قد أقاموا علاقات وطيدة مع يوحنا بولس الثاني لم تكن قائمة مع سابقيه» (صفحة 9).

وعلى الرغم من إعلان الصحفيين عدم توغلهما في تفاصيل الفضيحة المالية ـ الماسونية التي ألقت بظلالها على نيافته وعلى علاقات الكنيسة بالدولة وبالماسونية (صفحة 9)، فهما يؤكدان على الدور السياسي الدبلوماسي الذي يقوم به نيافته بدءاً برئيس حرسه الرسمي، وهو من رجال الدين الذي يحمل جهازاً للإنذار أحد أزراره الثلاثة متصل بالبوليس والآخر

متصل بمسؤول المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) بالسفارة الأمريكية في روما (صفحة 13)، وأن جهاز المخابرات المركزية يمثل أحد أهم مستشاري الفاتيكان في شؤون المعلومات بالإضافة إلى تعاونهما مع جهاز الموساد!!. ولقد تأصلت العلاقات وتوطدت بين الكيانين (الأمريكي والفاتيكاني) لضرب عدوهما المشترك في بولندا أولاً في عقر داره، حيث انتهى الأمر بانهيار الاتحاد السوفياتي في أواخر عام 1991.

ولا يسع المجال هنا لتناول الدور الذي لعبه البابا في قلب نظام الحكم في بولندا ولا تدخله شخصياً للإفراج عن ليخ فاليسا عندما اعتقل في بداية مشواره السياسي عام 1982 تحت راية حزب «التضامن».. وهو الاسم المأخوذ من إحدى خطب البابا بعد استئذانه ـ وكانت تدور حول ضرورة «التضامن الجماعي».. وبذلك قد أعلن نيافته عن موافقته على تدخل الكنيسة في الشؤون السياسية الخارجية (صفحة 36 ـ 37).. وكانت بولندا آنذاك بمثابة حقل التجارب أو التجربة العامة قبل تطبيقها على البلدان السوفيتية فيما بعد.

بعد أن أوضحنا موقف الغرب من الإسلام، بالوثائق الغربية الرسمية، والاستشهادات الدينية والعلمية، وكيف أنه على الرغم من الشعارات الدارجة والأحاديث السيارة التي يضحك بها على الشعوب والحكومات أو يقنعها بها بالخدع والتحايل.. فحقيقة الموقف هي: أن الغرب لا يعترف بالإسلام وأنه لا يأخذ في الاعتبار أية ديانة بعد المسيحية. بل إنه يعتبر «الإسلام خطأ مطلقاً لا بد من رفضه لأنه يمثل خطراً بالنسبة للكنيسة ولا بد من محاربته» ـ على حد قول الأب روبير كاسبار في الجلسات التمهيدية لمجمع الفاتيكان الثاني.. كما أوضحنا كيف أن قرار هذا المجمع العالمي فيما يتعلق بالمسلمين قد تمت صياغته بحيث «لا يعتبر حلاً للمسائل الصعبة والتي دار حولها الجدل طويلاً من قبيل سلالة العرب من إسماعيل وخاصة ربط الإسلام بالرسالة الإنجيلية»!.

وبذلك تم غلق النبوة أمام سيدنا محمد بتأليه عيسى ابن مريم وجعله

هو الله أو مساوياً له.. فبعد الله لا يمكن لإنسان أن يتبوأ أية مكانه.. ومن هنا كانت ضرورة استبعادهم للآيات التي تشير إلى محمد أو إلى مجيئه..

كما رأينا كيف قام التيار المتعصب بتزييف الإنجيل بعهديه على مر العصور حتى يتفق وما يضمره من أطماع سياسية وسلطوية، وكيف أصبحت المجامع أدوات هدم مزدوج: هدم المسيحية الأصلية التي بشر بها السيد المسيح لنسج تعاليم جديدة أبعد ما تكون عن تعاليم السيد المسيح لكنها تتفق والأغراض السياسية والتوسعية؛ وهدم الإسلام الذي أتى مكملاً وخاتماً للرسالة التوحيدية بعد انحراف المسيحيين عنها.. وبذلك أصبح هذا الهدم المزدوج مخططاً يتوارثه الغرب عبر العصور ويقوم بتنفيذه من خلال كافة المجالات وبشتى الوسائل، بغية ضرب الإسلام من الداخل وضرب جوهره وكيانه المنزّل بفرض العلمانية على القرآن لفصل الدين عن الدولة.. والغريب أن ترفض الكنيسة هذه العلمانية وتمنع تطبيقها على نصوص قامت هي بنسج خيوطها وتفرضها قهراً على أتباعها رغم تناقضها..

بل وها هو كتاب تعليم الدين الكاثوليكي الجديد، الصادر في نوفمبر 1992، والذي يعد بمثابة توجيه عام للحكومات المسيحية، يتضمن كيفية ضرب الشعوب التي لم تعتنق المسيحية بعد، وكيفية التوغل فيها بصبر وأناة.. وذلك بتضافر جهود المتعصبين والسياسيين وتداخل جهودهم لتوجيه ضربة تتزامن على الصعيد العالمي لاقتلاع الإسلام..

كما أوضحنا ما تم من تحريف في الإنجيل بعهديه وما تم استبعاده من نصوص أساسية لاستبعاد إسماعيل وإنكار أنه الابن البكر لإبراهيم، لاستبعاد العرب من نسب إبراهيم ونسله واستبعادهم عن جوهر ديانة التوحيد، وعن أية شرعية لهم خاصة حقهم في ضعف الميراث.. ميراث الأرض التي وعد الله بها إبراهيم ونسله ـ حينما كان يحق للإسرائيليين نصيباً في الوعد قبل أن يحنثوه وقبل أن يلعنهم الله ويشردهم.. وبالتالي لم يعد لهم أي حق فيها فلا يوجد أي دليل ديني على استمرارية مقولة «شعب الله المختار» ولا على زعم «أرض الميعاد».. فما من وعد أتى إلاّ وكان مشروطاً

بالالتزام والاستقامة والابتعاد عن الوثنية. وما من مرة إلاّ وحاد اليهود عن هذا الشرط.. وكيف أن الغرب وأتباعه يتناسون هذه الحقيقة الجوهرية ويكسبون الوقت لاستتبابها بالتفاوض في تفاصيل تعد هامشية بالنسبة للموضوع الذي هو: اغتصاب أرض لا حق لهم فيها؟

ولقد أوضحنا زيف موقف الفاتيكان المتواطىء مع المخابرات المركزية الأمريكية لتبرئة اليهود من قتل المسيح للاعتراف بالكيان الصهيوني الاستيطاني في فلسطين المحتلة والتحالف معاً لضرب الإسلام والعرب.. وتم تبرير هذا الاعتراف على أنه ديني بحت، في حين أنه تم لأغراض سياسية بحتة، ففي واقع الأمر، لم يتم أي تقارب ديني بين العقائد المسيحية واليهودية.. وإنما المطلوب هو إبادة شعب لاستيطان شعب آخر، وأنه على حد قول ديان: لا مكان للفلسطينيين في فلسطين.. بينما يعد البابا بالبحث عن بلد آخر لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ مع إغفاله أو إسقاطه الشعب الفلسطيني من الحساب..

ولقد دأب الغرب على غرس كراهية العرب واحتقارهم بفضل تلاعبه في الألفاظ، وتعريف العرب بأنهم «أولاد الجارية» أو «أولاد سفاح».. وهو ما تتشربه أجيالهم من كافة الوسائل التعليمية والدينية.. على الرغم مما في ذلك من ظلم حقير ومن مساس بمكانة سيدنا إبراهيم كأب لأنبياء التوحيد.. ويعد هذا التجريح المهين من السمات الرئيسية التي يكاد لا يخلو منها مرجع من المراجع التي تتناول القضايا العربية والإسلامية. وهو ملمح من ملامح الاستعمار الذي يمثل بديلاً شكلياً واستمراراً للحروب الصليبية.. لذلك يقوم الغرب بضرب محاولات الاستقلال بشراسة ولا يغادر مستعمراته إلاّ بعد غرس المؤسسات الاقتصادية والتبشيرية التي يواصل تواجده من خلالها.

ومما تقدم أوضحنا السبب الحقيقي لذلك الغلّ الدفين والعنف اللحوح في كراهية الغرب للمسلمين والعرب، لأنهم ـ في واقع الأمر ـ يمثلون جسم الجريمة التي اقترفها ذلك الغرب المتعصب: جريمة استبعاد إسماعيل من نسل إبراهيم، وجريمة غلق باب النبوة أمام سيدنا محمد.. ومن المعروف أن

أي جريمة تتم لا يهدأ بال مرتكبها إلاّ بإبادة معالمها وبخاصة أن الإسلام أتى بمفاهيم سمحة تصحح وتعيد للسيد المسيح إنسانيته ونبوته، وإن خالفت حشداً من التحريفات التي زيفوا بها أباطيلهم.. وهذا هو التفسير الحقيقي، المخزي والمرير، في موقف الغرب من الإسلام، وفي كل ما يدور حالياً من تضافر بمختلف الأسباب والأساليب والحجج لضرب الإسلام والمسلمين على الصعيد العالمي وامتصاص ثرواتهم والتحكم في مخزونهم النفطي.. وهو ما يفسر كل ما يدور من تضافر شرس ومن صمت متواطىء بلا ضمير للعمل على تدمير أمة الإسلام، واغتصاب المسلمات باستيلاد أطفال من صلب الصرب ومن نطفة التعصب.. الأمر الذي يتوافق مع ما يقوم به البابا يوحنا بولس الثاني من فرض لمنع الإجهاض على المسيحيات ومن تحريم لوسائل منع الحمل عليهن لتعمير الأراضي المسلمة بعد إخلائها من المسلمين!! ولعل ذلك ما يحلم به نيافته.

فالأرض بلا شعب هي المطلوبة لمخطط الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وهو ما يدور حالياً في البوسنة والهرسك، وهو نفسه ما يدور في الهند وبورما والفيليبين وغيرها من البلدان.. تقسيم الدولة، ثم القتل والطرد والإبادة، مع فرض تغيير العقيدة وامتصاص الهوية في غياهب التعصب.. وهو ما يتم حالياً مع البوسنويات اللاتي «أنقذهن» الصليب الأحمر في لندن ـ الأمر الذي أعلنته شبكة الـCNN مساء يوم السبت 1993/1/9. وهو ما تحاول فرنسا القيام به تحت لواء وزيرها لويني أو جان كلود بارو وغيرهما لامتصاص هوية المسلمين المقيمين بها وتغيير دينهم أو المطالبة بطردهم..

لقد تضافرت جهود الثلاثي الاستعمار عام 1956 لضرب مصر وحماية إسرائيل، كما تضافرت جهوده لدكّ العراق.. ولا يسع المجال هنا لسرد كل ما قاموا به من مواقف عنصرية مخزية، ولا كل ما يقومون به حالياً.. فها هي التصاريح تتسابق في أولى لحظات هذه الضربة الجديدة التي يصوبونها للعراق مع سبق الإصرار.. وها هو الزعيم الأمريكي الجديد يعلن عن تأييده

وتدعيمه الكامل لقرار جورج بوش وتصميمه على سحق العراق، بل ويعلن في نفس هذا التصريح عن مزايداته بتصرفات أكثر حسماً عند توليه مهام منصبه في 1993/1/20!!.

ولا يحق لنا أن نسأل أعضاء هذا الثالوث الغاشم الظالم والمتعصب: أين ضميركم وعدلكم من انتهاكات الصرب وانتهاكات كل من تحركونهم، ومن انتهاكات رأس الحربة التي زرعتموها منذ عام 1948 في فلسطين المحتلة ومئات المرات التي تم فيها عدم الانصياع لقرارات الأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو غيرها من المنظمات؟! أين هذا الجسم الباتر من ذلك التخاذل المائع الذي تواجهون به بجاحة الصهاينة وطردهم 418 من صفوة الفلسطينيين منذ أوائل ديسمبر 1992 وذلك الوعد المتبلّد بمحاولة حل قضيتهم قبل العشرين من شهر فبراير القادم.. أي بعد أن يكون البرد والجوع والمرض قد أتى عليهم بعد ثلاثة أشهر في العراء.. بينما «الأمين» المتخاذل المتواطىء يصمت ويرفض التعليق على هذه الغارة الأخيرة على العراق بزعم أنه لم يتلق أي معلومات رسمية بشأنها.. مثلما ظل وما زال يتملص أو يحذر من اتخاذ أي قرار لوقف مجازر الصرب ومذابحها.. بل ها هي فرنسا تمنحه درجة الدكتوراه الفخرية وكأنها تكافئه على مواقفه المخزية..

لا يحق لنا أن نتساءل.. لأن جزءاً مما يقوم به الغرب المتعصب يتم اعتماداً على ما اتخذه من قرارات تبشيرية «لضرب الإسلام من الداخل» و«أن قطع الشجرة يجب أن يتم بمعرفة أحد أفرادها».. وضرب الإسلام من الداخل يعني الاعتماد على حكومات عميلة تحت أي مسمى، وعلى وسائل الإعلام متواطئة، وعلى أفراد ومؤسسات مختلفة، سواء أكانت تبشيرية أو اقتصادية أم مدنية لهدم الإسلام أخلاقياً وعقائدياً وتشريعياً وسياسياً.. وكل ذلك لم يعد خفياً على أحد فالمراجع والأبحاث والتقارير بل ووسائل الإعلام تتناقلها شرقاً وغرباً.. لكنني هنا لا أملك إلاّ أن أتوجه إلى المسلمين أينما كانوا.. إلى المسلمين الذين أفقدهم الغرب البصر والبصيرة وجرفهم

في زيف حضارته المنهارة وإفلاسه الذي يداويه ويداريه ببيع أسلحة مكدسة تمتص ثروات العرب وتحرث أبناءهم..

وهنا لا بد من وقفة قصيرة نوضح فيها باقتضاب ما قام به علماء الغرب من تحريف لكلمات أساسية في القرآن وفي التراث الإسلامي عندما قام بترجمتها فريق مستشرقيه.. ومن أهم هذه الكلمات كلمة الإسلام ذاتها، وكلمة ال[illegible]تي منها أحمد ومحمود ومحمد، وكلمة الجهاد التي قصروها على معنى القتل فحسب لتأكيد معنى العداوة في القرآن، وكلمة الكفر التي قصروها على اليهود والمسيحيين وحدهم لتأكيد معنى الكراهية ضدهم، وفي حين أنها تنطبق على أتباع الديانات التوحيدية الثلاث الذين أتاهم الكتاب ثم كفروا به أو حادوا عنه.. وكلها وغيرها كلمات بحاجة إلى دراسات لغوية لتصويب معانيها في عيون الغرب، ولكنا لن نتناول هنا إلاّ معنى كلمة الإسلام لتصويب المنظار الذي ينظر منه الغرب إلى المسلمين بعد أن زيف نسبهم وابتلع حقهم وشرعهم وها هو يحاول إبادتهم أو امتصاصهم!.

فلقد دأب الغرب على ترجمة كلمة إسلام بكلمة Soumission، والتي لا تقف عند معنى الاستسلام والخنوع فحسب بل، وتتضمن معنى من فجر وأتى أمراً قبيحاً فخجل منه ونكس رأسه، إنه الخنوع والخضوع ذلاً ومهانة.. في حين أن كلمة إسلام مشتقة من سَلِمَ، أي برىء وخلص، ومنها سلم أي أخلص، ومنها السلام، وهو أحد أسماء الله الحسنى، وهو التحية عند المسلمين، وهو الوفاق الذي يجب أن يسود العالم ومنها السلامة أي البراءة من العيوب والأمان والصلح.. وكلمة إسلام لغوياً هي فعل تفضيل من سلم وسلام، وتعني في الشرع قبول ما أنزل الله من تعاليم بصدق وإخلاص.. ومنها قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي من أخلص لله وحده. فمن أسلم هو من أخلص. .ذلك لأن للعمل المتقبل شرطين كما يقول ابن جبير: أن يكون خالصاً لله وحده وأن يكون صواباً موافقاً للشريعة..

وانطلاقاً من هذا المفهوم الكريم الحقيقي لكلمة إسلام نورد آية: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]. أي أن الإسلام هو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد. فالإسلام كعقيدة ليس إلاّ الحلقة المتممة والأخيرة للرسالة التوحيدية التي جاءت في سيناء ولاحت في سعير قرب القدس، وتلألأت في جبال فاران بمكة.. وهو ما يتفق وآية: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: 78]. أي أن الذين اتبعوا ما أنزل إليهم على أيدي موسى من توحيد بالله في وصاياه العشر بصدق وإخلاص، دون أي ابتغاء سوى مرضاة الله هم مسلمون لله مخلصون له. ومن اتبعوا ما أنزل إليهم على أيدي عيسى من توحيد في وصاياه العشر التي زاد من تساميها الإنساني، بصدق وإخلاص دون أي ابتغاء سوى مرضاة الله هم مسلمون لله مخلصون له. ومن اتبعوا ما أنزل إليهم على أيدي محمد من توحيد بالله وتفضيل صنع الخير بعشرة أمثال والتزموا بشرعه وتعاليمه بصدق وإخلاص دون أي ابتغاء سوى مرضاة الله هم مسلمون لله مخلصون له..

وبهذا المعنى يمكن فهم آية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67].. فهو أول من حطم أصنام والده وابتعد عن الوثنية وأخلص لله وحده.. لذلك كان على المسلمين أن يقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84]. أي أن المسلمين يؤمنون بكل ما أنزل من توحيد قبلهم وهم له مخلصون.. فهم يؤمنون بالله وما أنزل على أنبياء التوحيد كما يؤمنون بيوم الحساب واليوم الآخر.. ويطلق عليهم «أهل الكتاب».

لذلك نتوجه إلى المتعصبين والمنحرفين من أهل الكتاب أينما كانوا، قائلين: لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون... لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون.. لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون؟!.

لقد تكشفت اللعبة بكل أبعادها وخباياها دينياً وسياسياً.. لذلك لا نملك إلاّ أن نضم صوتنا إلى كل الأمناء المخلصين في الغرب الذين طالبوا الفاتيكان بالاعتراف بكل ما قام به من تزييف كما نطالب الكنيسة الشرقية بالانضمام لهذا المطلق فإن ما يتهددها ليس بخفي على أحد فهو الخطوة الثالثة في مخطط البابا يوحنا بولس الثاني بعد أن ضرب الشيوعية ويقوم حالياً بضرب الإسلام.. نطالب الكنيسة الشرقية وخاصة أقباط مصر باتخاذ موقف إيجابي فعال بدلاً من الصمت أو رفع الشعارات غير المجدية، أن يتخذوا موقفاً إيجابياً برفضهم أن يكونوا رأس حربة أخرى في الوطن العربي.. وليس المطلوب من أحد أن يغير دينه فسماحة الإسلام معروفة على مر التاريخ ومعروفة خاصة لأقباط مصر فهو الذي حماهم من مذابح التعصب الغربي، ومعروف أن من مبادئه: «ألاّ إكراه في الدين»..

إن تضامن المسلمين والمسيحيين ليس قاصراً على مصر وحدها. فها هو المطران إيليا خوري ـ راعي الكنيسة الأسقفية في رام الله والذي اعتقلته السلطات الإسرائيلية عام 1969، وقد انضم لمنظمة التحرير الفلسطينية وأصبح عضواً باللجنة التنفيذية ليكافح ضد أعمال القهر والقمع وانتهاكات الكيان الصهيوني لمقدسات القدس المحتلة.. وهو الذي أطلق صيحته الشهيرة في مؤتمر «حماية المقدسات في فلسطين المحتلة» المنعقد في القاهرة في نوفمبر 1988 قائلاً: «ما أحوجنا اليوم إلى صلاح الدين لكي يقف المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب ضد الغزوة الصهيونية الاستعمارية البشعة لتحرير المقدسات من الظلم».. وما أكثر النماذج الوطنية المشرفة والتي لا يسع المجال هنا لعدها..

ولقد جاهد أنبياء الرسالة التوحيدية الثلاثة ليضعونا على الصراط المستقيم، وألاّ نعبد إلاّ الله، وألاّ نكفر بنعمته علينا.. فإذا ما كنا ـ بعد كل ما توصلنا إليه من فهم وعلم، وبعد كل ما تكشف لنا ما زلنا غير قادرين على مواجهة التعصب الغربي والحد من أنانيته لنتعايش سلمياً، فتلك هي الساعة الخامسة والعشرون، والساعة بعد الأخيرة، التي يستحيل معها وبعدها أي

صلاح!! لذلك لا نملك إلاّ أن نضم صوتنا إلى كل المؤمنين المخلصين في أنحاء العالم، لنصيح بكل ما أوتينا من قوة: يا أيها المسلمون يا أصحاب الحق.. يا من يساء لدينكم وشرعكم ومقدساتكم وتنتهك أعراض نساءكم.. يا من تستباح أراضيكم ويضربونكم بأياديكم، بل وتتخذ من بقاعكم قواعد لضرب إخوة لكم في الدين.. ليس أمامكم إلاّ أن تنسوا خلافاتكم المفتعلة التي يوقعكم فيها الغرب.. يا أيها المسلمون.. يا أصحاب الحق.. جاهدوا لرؤية ما أنتم مساقون إليه.. فليس أمامكم مرة أخرى إلاّ ما فعله عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين.. ليس أمامكم إلاّ توحيد صفوفكم سياسياً لفك الحصار المضروب حول الإسلام على الصعيد العالمي ولصد الهجوم الضاري الذي يرمي إلى إبادته.. لا تطيعوا المتعصبين الكافرين وجاهدوهم و ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

لماذا هذه التأملات[1]

لا أظن أن منطقة واجهت في تاريخها من تحديات خارجية مثل ما واجهته منطقتنا العربية. فلم تظهر دولة قديمة أو حديثة تطمح في أن تكون قوة عالمية إلا وحاولت أن تصل إلى هذه المنطقة بشكل من الأشكال. كلها حاولت أن يكون لها وجود ما في هذه الدرة الفريدة بين الأوطان. وتنوعت هذه المحاولات واختلفت الأشكال التي اتخذتها بحيث لا يعرف التاريخ شكلاً من أشكال النفوذ الأجنبي إلا وعانت منه أرضنا العربية في فترة من الفترات.

عرف وطننا محاولات الاستيطان السكاني والاحتلال العسكري والسيطرة السياسية التي تنوعت بدورها من الحكم المباشر إلى الحماية إلى الانتداب إلى المعاهدات الثنائية إلى الأحلاف المتعددة الأطراف. بل إن

(1) من: أنيس قاسم: تأملات في الاحتلالين الصليبي والصهيوني، الدار العربية للكتاب، تونس ـ طرابلس 1974، ص 5 ـ 7، 22، 250 ـ 251، 262 ـ 267، 274 ـ 275، 286.

محاولات السيطرة على وطننا في ظروف لم تكن تسمح بالاستعمار المباشر هي التي أضافت إلى القانون الدولي نظرة الانتداب وساهمت إلى حد كبير في نظرية الحماية. وإذا كانت الظروف غير مواتية لأي من هذه الأشكال المباشرة، كانت هناك المحاولات غير المباشرة مثل نظام الامتيازات والمحاكم المختلطة في أواخر الحكم العثماني والإرساليات التبشيرية، ثم محاولات إحداث انقلابات عن طريق عملاء وإقامة حكومات موالية أو صديقة إلى غير ذلك من الأشكال التي لا يمكن حصرها، لأنها تتنوع وتتشكل بتنوع الظروف وتشكلها، بحيث أصبحت حتى المساعدات التي تبدو في ظاهرها متكافئة وغير مشروطة أصبحت هي الأخرى من بين وسائل محاولات بسط النفوذ والتحكم.

وكذلك وبسبب هذه الأطماع فقد كان وطننا العربي ولا يزال منطقة الصراع الأولى في العالم كله. فحيث تلتقي الأطماع يكثر الصراع ويحتد وتتبادل الأدوار والمواقف والمواقع.

هذه الظاهرة ما زلنا نعيشها حتى اليوم وسيظل مقدراً لهذا الوطن أن يظل درة تتصارع دول العالم لاقتنائها إلا إذا عرف أصحابها كيف يواجهون التحديات ويحافظون على درتهم من الطامعين.

هذا الوضع لوطننا يفرض على أبنائه التزامات محددة إذا أرادوا المحافظة على هذا الوطن حراً مستقلاً قادراً على مواجهة التحديات التي تتربص به وتنتظر أية غفوة أو كبوة لتفرض نفسها عليه. ربما تستطيع شعوب أن تغفو فلا يفطن لها أحد إلا ربما الجار المباشر. ربما تستطيع شعوب أن تتخلف أو أن تضعف أو تعيش في فوضى سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية دون أن تلفت الأنظار.

ولكن وطننا منذ أقدم العصور وحتى اليوم والغد وبعد الغد لا يستطيع أن يغفو أو يتخلف أو يضعف. فما من مرة غفا أو تخلف أو ضعف إلا وانقض عليه الجار القريب والطامع البعيد.

وإذن لا مفر لهذا الوطن من أن يكون دائماً مستعداً.

ولكن، ما هو نوع الاستعداد؟

الذين يقولون إن الاستعداد يجب أن يكون كاملاً وفي كل شيء يتهمون عادة بالمغالاة. ولكن هذه هي الحقيقة. يجب أن يكون الاستعداد كاملاً وفي كل شيء. هذه المرة لا مغالاة في هذا القول. فمثلاً عندما ضعفت قواتنا البحرية وتهدمت الرباطات ودخل الغرب عصر البخار وتحطمت حتى أشرعتنا صارت شواطئنا نهباً لكل قرصان سواء كان فرداً أو كانت دولة. وأصبحت شواطئنا كلها محمية أو مستعمرة. وعندما تخلفنا سياسياً واضطرب النظام السياسي الداخلي بدأنا نخسر المعارك الداخلية أمام العناصر التي كانت طامعة في السيطرة على الدولة العربية التي رسمنا حدودها بدماء الشهداء. وأصبحنا في دولتنا محكومين لا حاكمين، من أيام المعتصم على أقل تقدير حتى العصر الحديث. وعندما تخلفنا في ميدان العلم ـ في الطب، في الهندسة، في الكيمياء، في الصيدلة، في التقنية، في الجبر والرياضة، عندما تخلفنا في العلوم النظرية والتطبيقية وجدنا أنفسنا نواجه نوعاً آخر من الاستعمار. إذا أردنا أن نتقدم بسرعة فلا بد من الاستعانة بهم. وهم يعطون بقدر ما يريدون وبثمن لا نستطيع نحن تحديده. حتى الطرق الحديثة والبناء، نأخذ منهم المستشار الهندسي والمقاول في أحيان كثيرة. مواردنا الاقتصادية لا نستطيع أن نستغلها الاستغلال العصري، وبعضها لا نستطيع استغلاله على الاطلاق، إلا إذا وافقوا وبشروطهم مهما أظهرنا من مهارة في المفاوضات.

وهكذا وهكذا.

كل غمضة عين وكل كبوة وكل استخفاف بالمسؤولية ـ له ثمن غالٍ دفعناه وما زلنا ندفعه من حريتنا ومن كرامتنا ومن أموالنا، ومن شخصيتنا المتميزة وتراثنا الفريد.

إننا نرجو أن يضيء هذا الحديث شمعة واحدة في درب التحرير والبناء الذي ما زال في حاجة إلى الكثير من الشموع التي يجب على كل عربي أن

يمسك بواحدة منها على الأقل لتصبح الرؤية واضحة.

وأخيراً ومهما قيل ويقال فإن الكلمة الأخيرة تظل للنضال من أجل التحرير، النضال على جميع المستويات العسكرية والسياسية والاقتصادية والحضارية، والنضال على المستوى الوطني والمستوى القومي من أجل بناء وطن عربي يكون قادراً بأبنائه وإمكانياته على القضاء على العدوان ومواجهة التحديات المتكررة التي يتعرض لها وطننا العربي. وعندما نتحرك بإيمان ونعمل بمثابرة وموضوعية فإننا سنغير مجرى الأحداث ونحقق ما يتحدثون عنه من حتمية تاريخية. فالتاريخ يتحرك في الاتجاه الذي يحركه العاملون المخلصون الواعون.

لقد كانت الغاية من هذه التأملات أن نسلط بعض الأضواء على الاحتلالين الصليبي والصهيوني بحيث يتضح إلى أي مدى يصح الاعتماد على ما يسمونه بالحتمية التاريخية لزوال دولة العدوان من وطننا على الوجه الذي زال به الاحتلال الصليبي.

ونرجو أن يكون قد اتضحت عدة أمور من هذه التأملات.

أولاً نرجو أن يكون قد اتضح أن الاحتلال الصهيوني ليس كالاحتلال الصليبي وإنما يختلف عنه من عدة نواح أساسية بحيث تقف المشابهة عند نقطة وهي أن كليهما يمثل وجوداً أجنبياً غريباً في وطننا. وبعد هذا فلا تماثل.

ونرجو ثانياً أن يكون قد اتضح أن الاحتلال الصليبي قد وقع واستمر:

1 ـ بسبب التجزئة التي كانت تسود الوطن العربي الإسلامي وبسبب سوء الحكم واضطرابه والصراعات المتواصلة بين أمراء المسلمين.

2 ـ وبسبب عدم وجود مؤسسات ـ دستورية تضمن انتقال السلطة بصورة سليمة وتحكم وفقاً لقواعد ثابتة ومستقرة ومقبولة وتحمي الوطن من الاضطرابات والانقلابات وتوفر له الاطمئنان والاستقرار وتدخر جهده وماله ورجاله للبناء من جهة ولطرد الغزاة من جهة ثانية.

3 ـ وبسبب غياب السلطة الموحدة القادرة على حشد جميع الجهود وتوجيهها وجهة واحدة.

ونرجو ثالثاً أن يكون قد اتضح أن هذه الأوضاع الداخلية كان لها أسوأ الأثر في حياة المواطنين بحيث انتهكت الحريات والحرمات وتدهورت الأوضاع الاقتصادية والعمرانية والعلمية فتوقف النمو الحضاري وأخذت الأوضاع كلها في الانحطاط ففقد المجتمع تماسكه وبددت طاقته.

ونرجو رابعاً أن يكون قد اتضح أن الصراع العقائدي إلى جانب الصراع السياسي على السلطة كان من أسباب التدهور والتجزئة بحيث استراح العدو عشرات السنين وصلت المائتين قبل أن تبدأ نهايته.

ونرجو خامساً أن يكون قد اتضح أن الاحتلال الصليبي لم يزل من تلقاء نفسه وإنما أزيل عندما ظهرت العوامل الموضوعية القادرة على إزالته. وتجمعت هذه العوامل في الانقلاب الذي حققه صلاح الدين على صعيد أخلاقيات الحكم والوحدة. واستطاع صلاح الدين أن يصل إلى ذلك بالتزامه المطلق بأخلاقيات الحكم في الإسلام وبالعمل الدؤوب لتوفير أسباب النصر. فأثبت قدرة هذه الأخلاقيات على توحيد الأمة وحشد طاقاتها والسير بها في طريق النصر.

والوطن العربي والمواطن ليسا في حاجة إلى الدولة القدوة، الدولة المثل، في هذا الاتجاه فقط، وإنما هما في حاجة إليها لترد الاعتبار والكرامة للمواطن العربي الذي ذاق في تاريخه الكثير من الهوان والامتهان. فليس أسهل على السلطة في غالبية الأقطار العربية من اعتقال المواطن وحبسه واستجوابه لأتفه الأسباب. حتى الحبس الاحتياطي الذي وضعه المشرع لأهداف محددة صار يستعمل عقاباً بسبب التهاون في استعمال هذا الحق. وقد يتضرر الوطن، بل من المؤكد أن حبسه يجلب له ضرراً معنوياً ومادياً، ثم قد يطلق سراحه فلا يعوض عما أصابه من ضرر.

[سجون الحكام] تمتلىء بأفواج كثير من الأحرار والمناضلين الشرفاء

الذين يجب أن يكونوا طلقاء يساهمون في بناء الوطن [وفي تقريب يوم الوحدة والتحرير لكامل التراب العربي..] وذنبهم هو عدم رضا الحاكم عن كلمة منهم أو تصرف من تصرفاتهم.

هذا فإن الدولة القدوة، الدولة المثل، التي تؤمن برسالة محددة أوسع من النطاق المحلي، يتحتم عليها أن تسلك مسلك صلاح الدين حيال غير رعيته من المسلمين. فالدولة التي تدعو إلى الوحدة العربية وإلى القومية العربية مطالبة بأن تنهج حيال المواطنين العرب سياسة تعبر عن مضمون الوحدة والقومية ضمن الحدود التي تستطيع هذه الدولة أن تضعها في الإطار الإقليمي السابق للوحدة، بحيث تكون هذه الدولة هي بالفعل دولة الوحدة.

معنى هذا أن الدولة القدوة، دولة الوحدة، مطالبة بألا تميز بين عربي وعربي سواء كان من رعاياها أو من غيرهم ما دام عربياً. المواطن العربي ما زال أجنبياً في الوطن العربي. إنه يعامل معاملة الأجنبي في غير قطره من أقطار الوطن العربي. الدخول بتأشيرة والإقامة بتأشيرة والعمل بإذن والتملك ممنوع أو مقيد. ومهما طال به المقام فإنه يظل أجنبياً، بل إن الأجانب من غير العرب يلقون في بعض الأقطار العربية من حسن المعاملة والرعايا ما يتمناه المواطن العربي لنفسه.

إن الدولة القدوة، دولة الوحدة، لا تقيس مواقفها بمعايير الدول العادية. فهي تعتبر كل مواطن عربي مواطناً فيها وتعامله على هذا الأساس. إنها لا تطبق قاعدة المعاملة بالمثل، فهذه القاعدة تطبق بين رعايا دول لا ينتمون لقومية واحدة ولا مجل لتطبيقها في الإطار القومي.

لا جدال في أن الدولة التي ستنتهج هذه السياسة ستواجه بعض المشاكل الداخلية، وربما بعض المشاكل الخارجية. ولكن صدق الدعوة وهدفها العظيم جديران بأن تحتمل دولة الوحدة من أجلهما بعض المشاكل.

هاتان الخطوتان: وهما رد الاعتبار للمواطن العربي في قطره، ورد الاعتبار له في وطنه لا يكونان فقط دليلاً ملموساً على صدق الدعوة إنما

سيكون لهما أيضاً أبعد الأثر في التمهيد لقيام الوحدة. وكما رحبت الشعوب بصلاح الدين بعد أن أثبت عملياً رعايته للمواطن الإقليمي وللمواطن المسلم (القومي)، فإن الشعب العربي سيرحب بخليفة صلاح الدين عندما يرى الشعارات الوطنية والقومية توضع موضع التنفيذ في حدود دولة الوحدة. ولا بد من التأكد أنه لا بديل لنقل هذه الشعارات للواقع الملموس في حياة المواطن العربي. لا يغني عن ذلك مخاطبة الحكومات الأخرى ومطالبتها بانتهاج هذه السياسة ثم انتظارها لتتحرك حتى تستطيع دولة الوحدة أن تتحرك. إذا فعلت دولة الوحدة فإنها تربط مسيرتها الوحدوية بمواقف الدول غير الوحدوية فشل هذه الدول حركة دولة الوحدة.

يجب أن تقوم الدولة التي تحرج بسياستها الداخلية وسياستها القومية الدول الأخرى وتضرب للمواطن العربي المثل العملي الملموس على التطبيق العربي للمفهوم القومي. وهكذا يتولد الضغط الجماهيري وتنتعش الآمال بقيام الحكم الصالح المنضبط بمبادىء وقواعد عميقة الجذور في تراثنا وضمائرنا، وكذلك بقيام دولة الوحدة.

ما أحوجنا إلى الدولة القدوة وإلى دولة الوحدة، هاتين الدولتين، أو الدولة الواحدة، التي تحقق الانسجام بين الأمل والواقع وتزيل التناقضات القائمة حالياً بينهما.

ولعل من المفيد أن نتذكر أسلوب صلاح الدين في التعامل مع غيره من الحكام من أجل تحقيق الهدف الأكبر الذي كان يسعى إليه. كان يريد أن يوحد من أجل ذلك الهدف. وأدرك صلاح الدين أنه بالأخلاق، الأخلاق الكريمة، يستطيع أن يكسب من القلوب أكثر مما يستطيع أن يكسبه بالخصومة. كان متسامحاً وعفيفاً لا يبحث عن الأسباب التي تفرق وإنما يحرص على البحث عن العوامل التي توحد. كان وفياً لا يحنث بعهد قطعه ولا بوعد التزم به. فقد سلم المدينة بكنوزها لأمير تعاهد معه على ذلك في مقابل نصرته ضد الصليبيين. كان في مقدور صلاح الدين طبقاً لسياسة عصره أن يأخذ الكنوز ويبقى في المدينة. ولكنه لم يفعل بل احتل المدينة وسلمها بكنوزها وانسحب.

ولكن صلاح الدين لم يتهاون في الحق. تسامحه كان في حدود الالتزام بالهدف. فهو لم يتسامح مع من كانوا يتعاونون مع الأعداء حتى أنه، بالرغم من حدبه على الرعية، نقل قبيلة مصرية بأكملها من منطقة الدلتا إلى الصحراء لأنه قد ثبت له تعاون القبيلة مع الصليبيين. لم يجامل حتى إخوته على حساب الحق.

لم يبدأ صلاح الدين مواجهته الشاملة إلا بعد أن بذل أقصى الجهد المخلص في الإعداد والاستعداد. بل لقد اضطر إلى عقد الهدنة مع الصليبيين من أجل أن تتاح له الفرصة لاستكمال استعدادته ولتثبيت أقدامه في دمشق وتوحيد سوريا ومصر والموصل. وفي أثناء تلك الاستعدادات حاول صلاح الدين أن يختبر قوته فنازل الصليبيين في عسقلان عام 1177 فهزموه هزيمة شديدة كاد يؤسر فيها، ولكنه عاد فهزمهم عندما حاولوا غزو دمشق بعد ثلاث سنوات عام 1180 وطلبوا عقد هدنة معه فوافق. ولا شك أن موافقته على الهدنة مع أنه انتصر في تلك المعركة كانت بسبب إدراكه أن استعدادته لم تكتمل بعد وأنه لا يزال في حاجة إلى بعض الوقت قبل أن يكون مؤهباً للمواجهة الشاملة. فمثلاً لم تكن تحصينات دمياق والاسكندرية قد انتهت بعد ولم تكن قد انتهت عملية إنشاء المراكز المحصنة في شبه جزيرة سيناء، ولم يكن صلاح الدين قد استكمل بناء أسطوله البحري وثبت أقدام الوحدة.

فالهدنة كانت لهدف يخدم مصلحة المواجهة واستغلها صلاح الدين استغلالاً كاملاً حتى أنه كان يشرف بنفسه مباشرة على الاستعدادات، بل وخطا خطوة لم يسبق إليها حين عين وزيراً خاصاً يتولى أمور التحصينات فقط. ويقول المؤرخون إنه أنفق على تحصين دمياط وحدها حوالى مليون دينار.

كانت الهدنة وقفاً لإطلاق النار ليس إلا ولم تكن تسوية ولم تنه حالة الحرب ولم تعترف بشرعية الاحتلال الصليبي ولا بحق المملكة الصليبية في الوجود ولا بأي حدود لها آمنة أو غير آمنة.

والواقع أن جميع ما عقد من هدنات أثناء فترات الحروب الصليبية كان في حقيقته وقفاً لإطلاق النار ولمدد محددة. لم تكن هناك هدنات دائمة أو غير مرتبطة بفترة زمنية محددة. وفي هذا إشعار كاف على أن حالة الحرب لم تنته وأن موقف كل طرف من الطرف الآخر لم يتغير وأن الحرب ستنشب من جديد.

وكذلك فإن صلاح الدين لم يسكت مرة واحدة على إخلال العدو بشروط أي هدنة. وكان يواجه عمله العسكري بأعمال عسكرية مماثلة بحيث لا يشعر العدو بأنه سيد الموقف ولا يشعر المسلمون أنهم عاجزون. ولم يقتصر عمله العسكري على رد العدوان وإنما نجد أنه كان أحياناً يقوم بعمليات حربية مستقلة في مواقع غير المواقع التي حل بها العدوان إشعاراً للعدو بحرية الحركة والقدرة عليها.

كل هذا قبل خوض المواجهة الشاملة. لم تكن الهدنة عنده فرصة للاسترخاء أو لتعطيل القوة المقاتلة عند الشعب بحيث لا يجرؤ أحد على القيام بأي عمل ضد الصليبيين.

إن من الأمور التي قد يتوهمها البعض أن مقاومة الاحتلال الصليبي قد انحصرت في مواجهة الحملات النظامية التي تختصر لها الحروب الصليبية وأن الهدوء كان يخيم فيما بين تلك الحملات. فالواقع هو أنه لم يكن هناك هدوء بين الحملات. حقاً لم تكن الجيوش النظامية بقيادة الحكام والأمراء في حالة قتال مستمر. ولكن الهجمات على المواقع الصليبية لم تتوقف. كان يشنها الفرسان وكافة أبناء الشعب على الغزاة وهي ما تعرف بالمقاومة الشعبية.

وكما بدأنا هذه التأملات بالحديث عن ضرورة الاستعداد المستمر الدائم المتصاعد لمواجهة التحديات المستمرة الدائمة المتصاعدة فلا مفر من اختتامها بالتأكيد مرة أخرى على هذه الضرورة. الاستعداد الذي يجعلنا دائماً أقوياء ذاتياً لا نخشى أن ينقطع عنا السلاح ولا أن يهددنا الغير بقطع رغيف

الخبز عن موائدنا أو باحتلال مصادر الثروة في وطننا أو فرض الشروط علينا ثمناً لهذه الثروة أو لاستغلالها.

الاستعداد الدائم المتصاعد في كل اتجاه والبناء المتعاظم في كل ميدان وعلى أساس قومي شامل والمراجعة المتواصلة الواعية لأوضاعنا وخططنا ومواقفنا وأساليبنا وبناء المواطن العربي القوي في وطنه وفي كرامته وحريته وانتمائه المطلق لوطنه وعروبته وقوميته بحيث ينمو ويبني ويعطي في حرية وسخاء نمو الأحرار وبناءهم وعطاءهم.

إنه الوطن العربي الذي نريده قوياً عزيزاً أبياً موحداً سباقاً في الحضارة بأبنائه الأقوياء الأعزاء الأباة البناة الموحدين وطناً وهدفاً ونضالاً وانتماءً.

عندئذ سنكون وسيكون وطننا.

الجـــداول

جدول رقم 1

بطاركة بيت المقدس اللاتيني[1]

أرنولد اوف شوكس	1099 م بضعة شهور
دايمبرت اوف بيزا	1099 ـ 1101
افريمار اوف شوكس	1102 ـ 1108
جبلين اوف أرلز	1108 ـ 1112
ارنولف أولف شوكس	1112 ـ 1118
جرموند اوف بيكيني	1118 ـ 1128
ستيفن الشارتري	1128 ـ 1130
وليم الأول	1130 ـ 1145
فوشيه	1145 ـ 1157
عموري اوف نسل	1157 ـ 1180
هرقل	1180 ـ 1191
عمري الراهب	1197 ـ 1202
صوفرد	1203
البرت اوف فيرسيل	1205 ـ 1214
رالف اوف ميرنكورت	1215 ـ 1224
جيرالد اوف لوساني	1225 ـ 1239

(1) عن: سعيد عبد الله البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1990، ص 461 ـ 462.

روبرت اوف نانتس	1254 ـ 1240
جيمس بانتاليون	1261 ـ 1255
وليم الثاني اوف اجن	1270 ـ 1262
توماس اجنى اوف لينتينو	1277 ـ 1272
الياس اوف بريجو	1288 ـ 1279
نيقولا اوف هانابس	1291 ـ 1288

جدول رقم 2

الفاطميون[1]

المهدي	934 ـ 909
القائم	946 ـ 934
المنصور	952 ـ 946
المعز	975 ـ 952
العزيز	996 ـ 975
الحاكم بأمر الله	1021 ـ 996
الظاهر	1035 ـ 1021
المستنصر	1094 ـ 1035
المستعلي	1101 ـ 1094
الآمر	1130 ـ 1101
الحافظ	1149 ـ 1130
الظافر	1154 ـ 1149
الفائز	1160 ـ 1154
العاضد	1171 ـ 1160

(1) عن: عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1969، ص 289.

جدول رقم 3

الأيوبيون في مصر[1]

شيركوه	1169
صلاح الدين	1193 ـ 1169
العزيز	1198 ـ 1193
المنصور محمد	1199 ـ 1198
العادل	1218 ـ 1199
الكامل	1238 ـ 1218
العادل الثاني	1240 ـ 1238
الصالح أيوب	1249 ـ 1240
طورانشاه	1250 ـ 1249

(1) عن: عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 289.

جدول رقم 4

المماليك البحرية[1]

بيبرس	1277 ـ 1260
بركة خان	1279 ـ 1277
سلامش	1290 ـ 1279
خليل	1293 ـ 1290
الناصر	1294 ـ 1293 (المرة الأولى)
كتبغا	1296 ـ 1294
لاجين	1298 ـ 1296
الناصر	1308 ـ 1298 (المرة الثانية)
بيبرس الثاني	1309 ـ 1308
الناصر	1340 ـ 1309 (المرة الثالثة)
أبو بكر	1341 ـ 1340
كجك	1342 ـ 1341
أحمد	1342
إسماعيل	1345 ـ 1342
الكامل شعبان	1346 ـ 1345
المظفر	1347 ـ 1346
الحسن	1351 ـ 1347 (المرة الأولى)

(1) عن: عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 290.

الصالح	1354 ـ 1351
الحسن	1354 ـ 1361(المرة الثانية)
محمد	1361 ـ 1363
الأشرف شعبان	1363 ـ 1376
علاء الدين علي	1376 ـ 1381
الصالح حاج	1381 ـ 1382(المرة الأولى)

جدول رقم 5

سلاجقة إيران والعراق[1]

طغرلبك	1063 ـ 1037
ألب أرسلان	1072 ـ 1063
ملكشاه	1092 ـ 1072
محمود	1094 ـ 1092
برقياروق	1104 ـ 1094
محمد	1118 ـ 1104
أحمد سنجر	1157 ـ 1118
محمد بن محمد بن ملكشاه	1131 ـ 1118
داود بن محمود	1131
طغرل الثاني	1133 ـ 1131
مسعود	1152 ـ 1133
ملكشاه	1153 ـ 1152
محمد بن محمود	1159 ـ 1153
سليمان شاه	1161 ـ 1159
أرسلان شاه	1177 ـ 1161
طغرل الثالث	1194 ـ 1177

(1) عن: عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 291 ـ 292.

جدول رقم 6

الحمدانيون في حلب[1]

أبو الحسن علي، سيف الدولة الحمداني	333_356هـ/ 944_967م
سعد الدولة، أبو المعالي شريف الحمداني	356_381هـ/ 967_991م
سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد الحمداني	381 ـ 392 هـ/ 991_1001م
أبو الحسن علي أبو المعالي شريف الثاني	392 ـ 394 هـ/ 1001 ـ 1003 م

(1) عن: صابر محمد دياب: المسلمون وجهادهم ضد الروم، مكتبة السلام العالمية، القاهرة 1984، ص 232.

جدول رقم 7

ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية[1]

جود فري دي بايوان (وصي على الدولة)	1099 ـ 1100
بلدوين الأول (أول ملك متوج)	1100 ـ 1118
بلدوين الثاني	1117 ـ 1131
فولك الأنجوي	1131 ـ 1144
بلدوين الثالث	1144 ـ 1162
عموري الأول	1162 ـ 1174
بلدوين الرابع	1174 ـ 1185
بلدوين الخامس	1185 ـ 1186
جاي لوزجنان	1186 ـ 1192
كونراد دي مونتفرات	1192
هنري دي شاميني	1192 ـ 1197
عموري الثاني	1197 ـ 1205
ماري (ابنة كونراد تحت الوصاية)	1205 ـ 1210
حنا دي برين	1210 ـ 1225
الإمبراطورفريدريك الثاني	1225 ـ 1250
كونراد الرابع ملك ألمانيا (ملك اسمي)	1250 ـ 1254

(1) عن: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ 2، ط 4، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1982، ص 1239.

كونرادين (ملك اسمي)	1268 ـ 1254
هيو الثالث ملك قبرس (الثاني)	1284 ـ 1269
حنا الأول ملك بيت المقدس	1285 ـ 1284
هنري الثالث ملك قبرس (الثاني)	1291 ـ 1286

جدول رقم 8

(أ) أتابكة الموصل[1]

عماد الدين زنكي بن آقنسقر	1146 ـ 1127
سيف الدين غازي الأول بن زنكي	1149 ـ 1146
قطب الدين مودود بن زنكي	1170 ـ 1149
سيف الدين غازي الثاني بن مودود	1176 ـ 1170
عز الدين مسعود الأول بن مودود	1193 ـ 1176
نور الدين أرسلان شاه الأول بن مسعود	1210 ـ 1193
عز الدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه	1218 ـ 1210
نور الدين أرسلان شاه الثاني بن مسعود الثاني	1233 ـ 1219
ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود الثاني	1233 ـ 1219
بدر الدين لؤلؤ وابنه ركن الدين إسماعيل	1259 ـ 1233

(ب) أتابكة الشام

العادل نور الدين محمود بن زنكي	في حلب 1146 ـ 1174
	في دمشق 1154 ـ 1174
الصالح نور الدين محمود بن إسماعيل	في حلب 1174 ـ 1181

(1) عن: محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، دار النهضة المصرية، القاهرة 1990، ص 352.

ضم حلب إلى أتابكة الموصل وسنجار	1181 ـ 1183

(جـ) أتابكة سنجار

عماد الدين أبو الفتح زنكي الثاني بن مودود	1170 ـ 1197
قطب الدين محمد بن زنكي الثاني	1197 ـ 1219
عماد الدين شاهنشاه بن محمد	1219
جلال الدين محمود بن محمد	1219 ـ 1220

جدول رقم 9

أماكن العبادة[1]

الجامع الأزهر	كنيسة بوفيس
جامع السيدة نفيسة	كنيسة بيزا
جامع عكا	كنيسة بيزاسون
جامع الفتح	كنيسة دورتيم
الجامع الكبير بالحسينية	كنيسة رافينا
الجامع الكبير بدمياط	كنيسة السيدة
جامع القدس	كنيسة غاميراي
جامع القس	كنيسة الفتيان الأبرار
المسجد الأقصى	كنيسة القديس بطرس
مسجد تبر	كنيسة القديس ديونيسيوس
المسجد الحرام	كنيسة القديس مرقص
مشهد إبراهيم الخليل	كنيسة القديسة مريم
مشهد الحسين	كنيسة القديس يوحنا المعمدان
مشهد الدكة	كنيسة القيامة
مشهد زكريا عليه السلام	كنيسة الكاتدرائية
كنيس اليهود (في القسطنطينية)	كنيسة كانطوباري
كنيسة آيا صوفيا	كنيسة اللد
	كنيسة نويلي سورفارنا

(1) عن: سيد علي الحريري: الحروب الصليبية، ص 315.

جدول رقم 10

الحصون والقلاع الحربية[1]

الأثارب	دارون	القرين
افاميا	داكري	الكرك
الأكراد	دربساك	كركر
ألبان	دمشق	الكهف
آيلة	الرملة	كوكب
باراه	سرمانية	كيفا
بانياس	السلع	مجدل بابا
برزية	الشفر	المرقب
بزاعة	الشقيف	المقس
بعرين	الشوبك	الملك
بغراس	شيزر	المناقير
بكاس	الصبية	المينقة
بكسرائيل	صفد	نابلس
بلاطنس	صنجيل	سرفوب
بيت الأحزان	صهيون	هرمز
بورجس	طبرية	هونين
بيسان	الطور	وادي ابن الأحمر

(1) عن: سيد علي الحريري: الحروب الصليبية، ص 312 ـ 313.

تبنين	الطومار	الوعيرة
الجبل (القاهرة)	العامودين	يورك
جبله	العبد	
جعبر	عرقة	
الجماهيريين	العريمة	
حارم	عزاز	
حلب	عقربلا	
حمص	عكا	
الخواني	العليقة	
خرتبرت	فامية	
الداروم	القدموس	

جدول رقم 11

المجامع المسكونية (العالمية) في تاريخ المسيحية[1]

325 مجمع نيقية الأول
381 مجمع القسطنطينية الأول
431 مجمع أفسوس
451 مجمع خلقدونيا
553 مجمع القسطنطينية الثاني
680 مجمع القسطنطينية الثالث
787 مجمع نيقية الثاني
869 مجمع القسطنطينية الرابع
1123 مجمع اللاتران الأول
1139 مجمع اللاتران الثاني
1179 مجمع اللاتران الثالث
١٢١٥ مجمع اللاتران الرابع
1245 مجمع ليون الأول
1274 مجمع ليون الثاني
1311 مجمع فينا
1414 ـ 1418 مجمع كونستانس
1431 مجمع بازل (متمم لسابقه)
1438 ـ 1442 مجمع فرارا ـ فلورنسا
1512 ـ 1517 مجمع اللاتران الخامس
1545 ـ 1563 مجمع ترنت
1870 مجمع الفاتيكان

والملاحظ في هذه المجامع السابقة أنها كانت تجمع بين أعضاء

(1) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1976، ص 224 ـ 225.

الكنيسة في الشرق والغرب، حتى كان الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، وهو الانشقاق الذي بدأت حوادثه في القرن التاسع والذي انتهت ذيوله في القرن الحادي عشر (1054) بالانفصال التام بين الكنيستين. ولم تعترف الكنيسة الشرقية سوى بالمجامع السبعة الأولى فقط على أنها مسكونية.

الخـرائـط

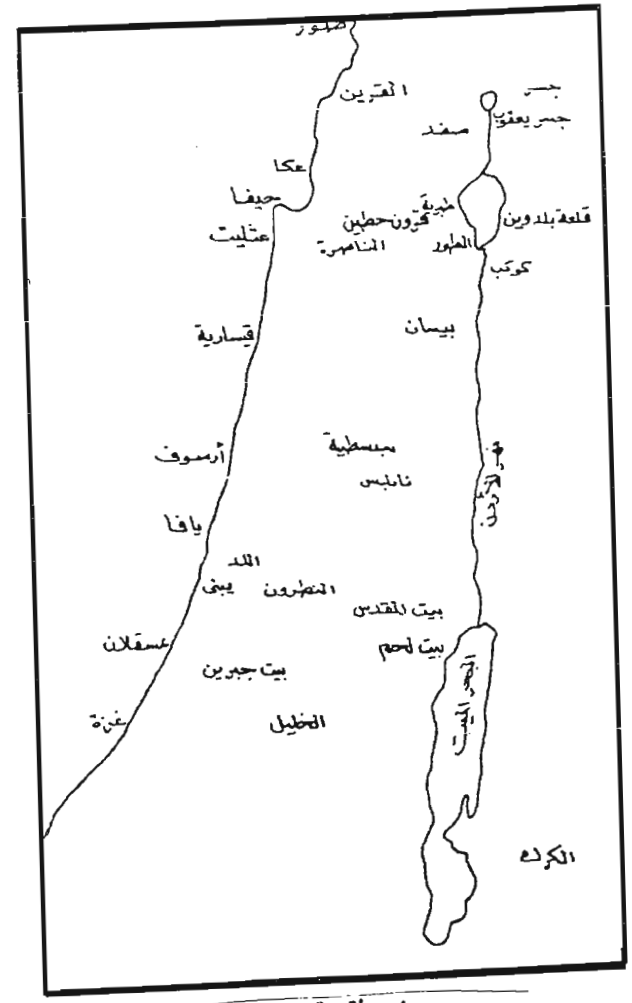

خريطة رقم (1)

فلسطين في عصر الحروب الصليبية

محمود محمد الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، ط 1، دار المعارف، القاهرة 1992، ص 217.

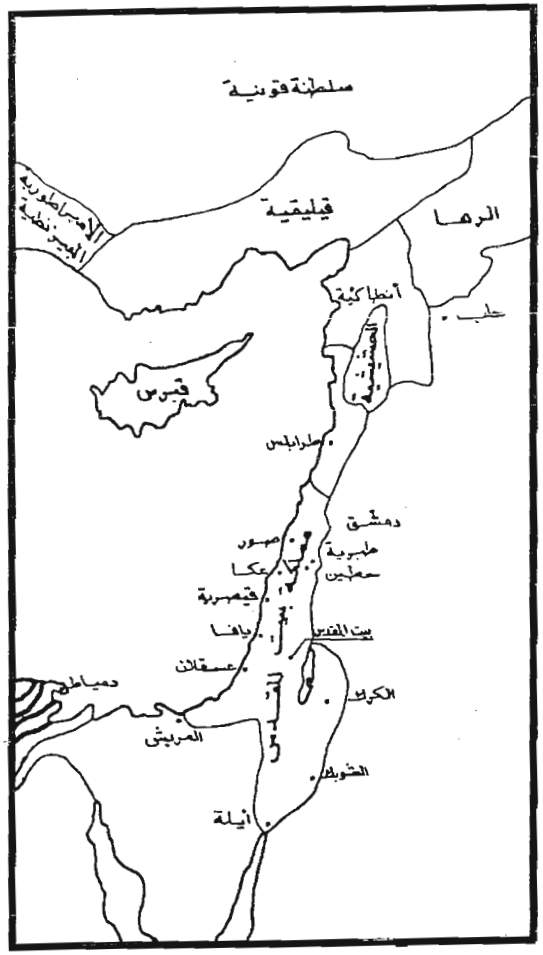

خريطة رقم (2)

الإمارات الصليبية ببلاد الشام

محمود محمد الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، ص 218.

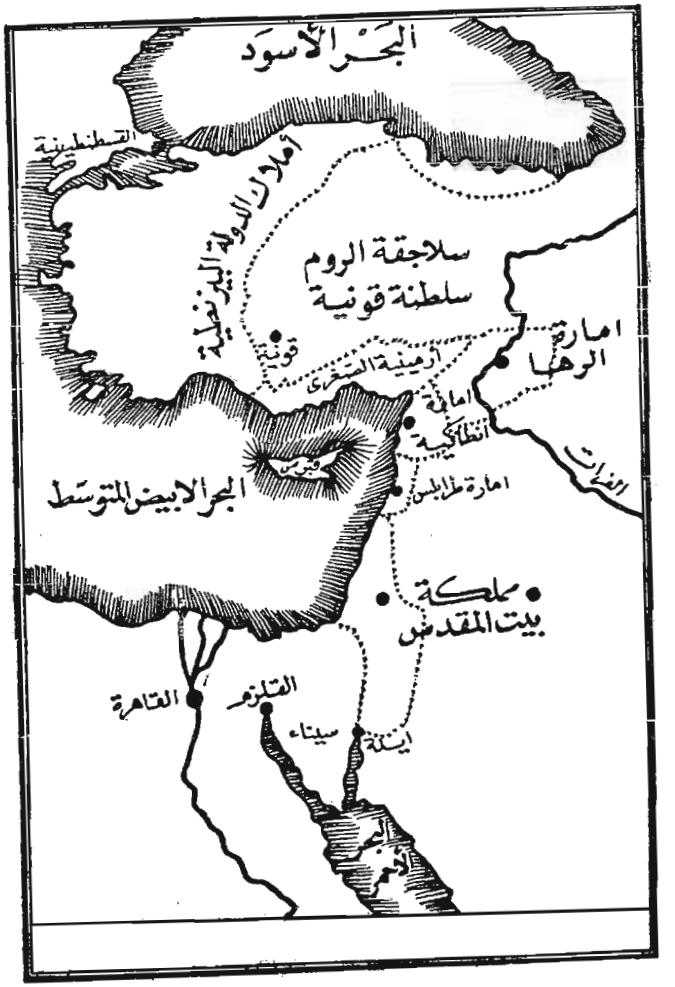

خريطة رقم (3)

الإمارات الصليبية بعد الحرب الصليبية الأولى

سعيد أحمد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ط 1، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1984، ص 670.

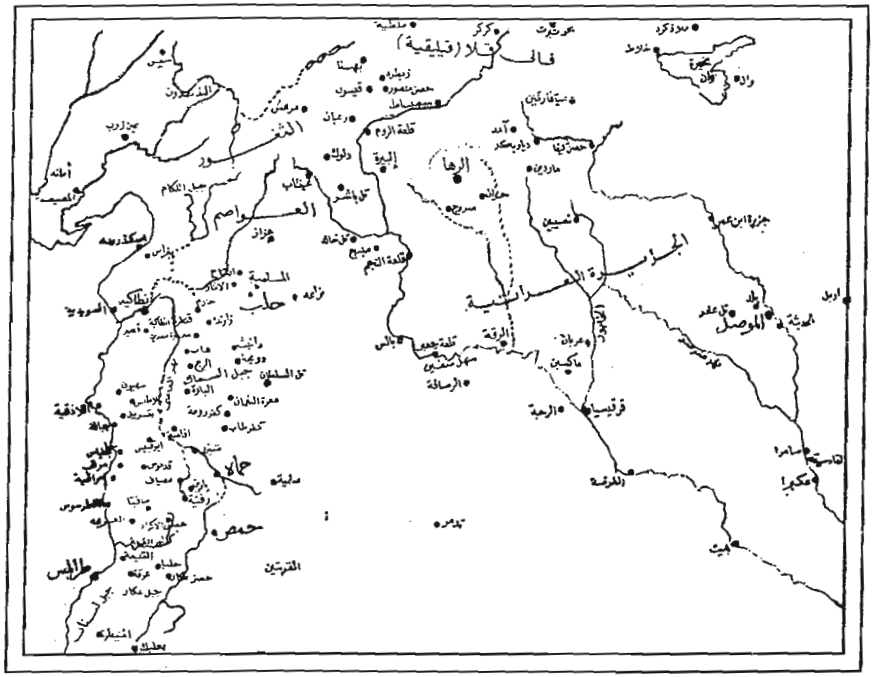

خريطة رقم (4)

الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام

عبدالقادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب، ص 302.

خريطة رقم (5)

الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية

سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية، جـ 1، ط 3، ص 101.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المطبوعة

- **القرآن الكريم**.
- **الإنجيل**.
- **ابن تغري بردي**: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتاب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1939.
- **ابن الأثير**: الكامل في التاريخ 10 أجزاء، دار صادر، بيروت 1979.
- **ابن جبير**: رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة، القاهرة 1955.
- **ابن حوقل**: صورة الأرض، طبع بريل، ليدن 1967. المسالك والممالك، ليدن 1870.
- **ابن خلدون**: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب، بيروت 1957.
- **ابن خلكان**: وفيات الأعيان، تحقيق محمد عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1948.
- **ابن شداد**: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. بدون
- **ابن عبد الحكم**: فتوح مصر وأخبارها، ليدن 1920.
- **ابن عذارى المراكشي**: البيان المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، جـ 1، بيروت 1948.
- **ابن الجوزي**: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، حيدر آباد 1359 هـ.

- **ابن القلانسي**: ذيل تاريخ دمشق، بيروت 1908.
- **ابن العبري**: تاريخ مختصر الدول، بيروت 1958.
- **ابن العديم**: زبدة الحلب في تاريخ حلب، (جزءان) نشرها محمد سامي الدهان، دمشق 1951.

زبدة الحلب في تاريخ حلب، (٣ أجزاء)، مكتبة الإسكندرية.
- **ابن كثير**: البداية والنهاية، ط 5، مكتبة المعارف، بيروت 1983.
- **ابن الوردي**: تتمة المختصر في أخبار البشر، 2 جزء، المطبعة الوهبية، 1868 م.
- **ابن واصل**: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، الإسكندرية 1960.
- **ابن أيبك**: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ 7، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1972.
- **ابن أياس**: بدائع الزهور في وقائع الدهور، بولاق القاهرة 1311 هـ.
- **أبو شامة**: الروضتين في أخبار الدولتين، جزءان، مطبعة وادي النيل، القاهرة 1288 هـ. ذيل الروضتين، القاهرة 1947.
- **أبو الفدا**: المختصر في أخبار البشر، 11 جزء، القاهرة 1325 هـ.
- **أبو اليمن القاضي**: الأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل، جـ 1، القاهرة 1283 هـ.
- **البلوي**: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد علي كرد، دمشق 1358 هـ.
- **سبط ابن الجوزي**: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد 1951.
- **صدر الدين أبو الحسن**: زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ط 1، تحقيق محمد نور الدين ، دار إقرأ، بيروت 1985.
- **عبد الله بن بلكين**: التبيان (مذكرات عبد الله) تحقيق بروفنسال، دار المعارف، القاهرة 1955.

- **عماد الدين الأصفهاني**: الفتح القسي في الفتح القدسي، ط 1، المطبعة الخيرية، 1322 هـ.

تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسعات مصر، 1813 هـ/ 1900 م.
- **البلاذري**: كتاب فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد، القاهرة 056
- **البنداري**: تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة 1900.
- **الحسيني**: أخبار الدولة السلجوقية، لاهور 1933.
- **الروندي**: راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم الشواربي وآخرون، القاهرة 1960.
- **الزركلي**: الأعلام، 8 أجزاء، بيروت 1979.
- **السيوطي**: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1959.
- **الطبري**: تاريخ الطبري، طبعة دي خويه، طبعة القاهرة 1939.
- **العماد الحنبلي (أبو الفلاح)**: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبع مكتبة القدس، 8 أجزاء، القاهرة 1350 هـ.
- **المقريزي**: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ 1 القسم الثالث، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1939.
- **الهمداني**: تكملة تاريخ الطبري، دار المعارف، القاهرة 1977.
- **الواقدي**: فتوح الشام، جـ 1، القاهرة 1302 هـ.

كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس، القاهرة ـ ليدن 1966.
- **ياقوت الحموي**: معجم البلدان، 5 أجزاء، بيروت 1955.

ثانياً: المراجع العربية

- **إبراهيم العدوي**: الأمويون والبيزنطيون، مكتبة الأنجلو المصرية، 1953.
- **أحمد سعد الدين البساطي**: التبشير وأثره في البلاد العربية الإسلامية، مكتبة الإيمان 1989.
- **إسمت غنيم**: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1987.

  الحملة الصليبية الرابعة، دار المجمع العلمي، جدة 1978.
- **توفيق الطويل**: قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، ط 1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1991.
- **جوزيف نسيم**: في تاريخ الحركة الصليبية، دار المعارف، 1989.

  العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط 3، دار النهضة العربية، بيروت 1981.

  الإسلام والمسيحية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية 1986.
- **حسن أحمد محمود**: قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957.
- **حسن حبشي**: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، دار الفكر العربي، القاهرة 1958.

  الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، 1958.

  نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، بغداد 1948.
- **حسن عبد الوهاب حسنين**: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي

المقدسة، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية 1989.
- **حسنين ربيع**: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة القاهرة 1986.
- **حسين مؤنس**: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ط 2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993.
- **زبيدة عطا**: بلاد الترك في العصور الوسطى، دار الفكر العربي.
- **سعيد عبد الله جبريل البشاوي**: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، مصر 1989.
- **سعيد عبد الفتاح عاشور**: الحركة الصليبية، ط 3، جـ 1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1975.

  الحركة الصليبية ط 3، جـ 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1982.

  أوربا العصور الوسطى، ط 5، جـ 1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1972.

  أوربا العصور الوسطى، جـ 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1976.

  أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف، 1964.

  قبرس والحروب الصليبية، القاهرة 1957.

  تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت 1976.

  الناصر صلاح الدين، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة 1965.

  العصر المماليكي في مصر والشام، ط 1، دار النهضة العربية، القاهرة 1965.
- **سهيل زكار**: الحروب الصليبية، جـ 1، ط 1، دار حسان، دمشق 1984.

- **السيد الباز العريني**: مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة 1960، الدولة البيزنطية، القاهرة 1960.
- **السيد عبد العزيز سالم**: المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، الإسكندرية 1966.
  تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1961.
- **سيد علي الحريري**: الحروب الصليبية، ط 1، تحقيق عصام محمد شبارو، دار التضامن للنشر، بيروت 1988.
- **صابر محمد دياب**: المسلمون وجهادهم ضد الروم، مكتبة السلام العالمية، 1984.
- **عادل زيتون**: العلاقات السياسية والكنيسية بين الشرق والغرب اللاتيني، ط 1، دار دمشق 1980.
- **عبد الحفيظ محمد علي**: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على نتائج الحركة الصليبية، ط 1 دار النهضة العربية، القاهرة 1984.
- **عبد الرحمن زكي**: حواضر العالم الإسلامي، القاهرة منارة الحضارة الإسلامية، الأنجلو المصرية، 1979.
- **عبد العزيز الشناوي**: أوربا في مطلع العصور الحديثة، الأنجلو المصرية، 1977.
- **عبد القادر أحمد اليوسف**: الإمبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1966.
  علاقات بين الشرق والغرب، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 1969.
  العصور الوسطى الأوربية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 1967.
- **عبد الوهاب زيتون**: الحروب الصليبية هل انتهت؟ دار المعرفة، دمشق 1992.

- **عبد الله برّي**: الإسلام والإنسان، مؤسسة نوفل، بيروت 1987.
- **عمر عبد السلام تدمري**: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، دار الإيمان، 1978.
- **عمر كمال توفيق**: مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية 1958.
  الإمبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الأراضي المقدسة، القاهرة 1979.
- **عليه عبد السميع الجنزوري**: إمارة الرها الصليبية، القاهرة 1975.
  الثغور البرية الإسلامية على الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، القاهرة 1979 م.
  الإمبراطورة ايرين، القاهرة 1981 م.
  العلاقات البيزنطية الروسية في عهد الأسرة المقدونية.
- **فاروق عثمان أباظة**: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، الإسكندرية 1988.
- **فائز نجيب اسكندر**: البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد، دار الثقافة، الإسكندرية 1984.
- **فتحي عثمان**: الحدود الإسلامية البيزنطية، 3 أجزاء، 1966.
- **فيليب حتي**: تاريخ العرب المطول، 3 أجزاء، دار الكشاف للنشر، 1949.
- **فيصل السامر**: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، جامعة بغداد، الموصل 1973.
- **قاسم عبده قاسم**: ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 1993.
- **محمد عبد الله عنان**: تاريخ العرب في أسبانيا، ط 1، مطبعة السعادة، القاهرة 1949.

دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة 1969.
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط 1، مطبعة مصر، القاهرة 1949.

- **محمد العروسي المطوي**: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية، تونس 1954.
- **محمد محمد الشيخ**: الجهاد المقدس ضد الصليبيين، الإسكندرية 1972.
- **محمد ياسين الحموي**: تاريخ الأسطول العربي، دمشق 1945.
- **محمد مورو**: المواجهة بين الإسلام والغرب، الدار المصرية للنشر، 1993.
- **محمود اسماعيل عبد الرازق**: الأغالبة، سياستهم الخارجية، القاهرة 1972.
- **محمود سعيد عمران**: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت 1986.
  تاريخ الحروب الصليبية، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت 1990.
- **محمود محمد الحويري**: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ط 1، دار المعارف، 1992.
- **مصطفى حسن محمد**: حملة لويس التاسع الصليبية على تونس، دار الصحوة، 1985.
- **مكسيموس مونروند**: تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليبية، جزءان، دير الرهبان الفرنسيسكان، أورشليم 1865، 1965.
- **نقولا زيادة**: دراسات إسلامية، لبنان 1960.
- **وسام عبد العزيز فرج**: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981.

ثالثاً: المراجع المترجمة

- **ادورد بروي**: القرون الوسطى، ط 1، ترجمة يوسف أسعد وفريد داغر، عويدات، بيروت 1965.
- **ارشيبالد. ر. لويس**: القوى البحرية والتجارية، النهضة المصرية، 1960.
- **أرنست باركر**: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت 1967.
- **أرنولد**: الدعوة إلى الإسلام، ط 2، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، النهضة المصرية، القاهرة 1957.
- **انتوني بروج**: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان، دار قتيبة، بيروت 1958.
- **اندرو هيس**: افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، 1986.
- **بارتولد**: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد، القاهرة 1958.
- **برتراند راسل**: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة 1956.
- **جوانفيل**: القديس لويس، ط 1 ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة 1968.
- **جوناثان رايلي سميث**: ما هي الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مصر 1990.

- **ديفز (هـ.و)**: أوربا في العصور الوسطى، ط 1، ترجمة عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، الإسكندرية 1911.
- **ريموناجيل**: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، مصر 1989.
- **زامباور**: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ترجمة زكي حسن وحسن محمود، القاهرة 1951.
- **ستيفن رنسيمان**: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1، 3، ط 1، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت 1967، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق، دار النهضة 1961.
- **سميل (ر.س)**: الحروب الصليبية، ط 1، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1982.
- **عزيز سريال عطية**: العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة، 1972.
- **فازيليف**: العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، بروكسل 1934.
- **فشر (هـ.أ.ل)**: تاريخ أوربا، ط 6، ترجمة محمد مصطفى زيادة، دار المعارف، القاهرة 1976.
- **فينوجرادوف**: الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا، ط 3، ترجمة محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1958.
- **كولتون (ج.ج)**: عالم العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1981.
- **كارل بروكلمان**: تاريخ الشعوب الإسلامية، ط 5، ترجمة نبيه أحمد فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1968.
- **لين بول**: العرب في اسبانيا، ترجمة علي الجارم، القاهرة 1944.
- **نورمان بينز**: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1950.

- **نورمان كانتور**: العصور الوسطى المبكرة، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 1993.
- **هارتمان (ل.م)**: الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، بيروت 1981.
- **هانس إبراهاردماير**: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس 1990.
  تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، 1967.
- **هلستر (س.ورن)**: أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1988.

رابعاً: رسائل

غير مطبوعة

- **أحمد عبد الكريم سليمان**: العلاقات بين الدولة البيزنطية والقوى الإسلامية، (رسالة، القاهرة 1980).
- **عبد الحفيظ محمد علي**: الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين في الشرق، (رسالة، 1975).
- **عبد الغني إبراهيم رمضان**: السلاجقة والصليبيون من موقعة ملاذكرد حتى سقوط الرها، (رسالة، القاهرة 1957).
- **عبد الناصر جبار**: بنو حفص والقوى الصليبية، (رسالة، القاهرة 1990).
- **ليلى محمد القاسمي**: إقليم الجليل فترة الحرب الصليبية، (رسالة، القاهرة 1986).
- **مصطفى محمد عبد الخالق**: علاقات القوى الصليبية في غرب البحر المتوسط، (رسالة، القاهرة 1987).
- **نبيلة إبراهيم**: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، (رسالة، القاهرة 1975).

خامساً: دوريات

- **أحداث العالم الإسلامي**: الجزء الثاني وكالة الأنباء الإسلامية، دار الاعتصام، القاهرة (1993) م.
- **حسين مؤنس**: «أثر الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر المتوسط» المجلة التاريخية، المجلد الرابع، العدد الثاني (1952).
- **سعيد عاشور**: «ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام» مجلة المستقبل العربي، العدد 102 (أغسطس 1987).
- **محمد أحمد الأنصاري**: «الحملات الأسبانية على الشرق الأندلسي» مجلة الأبحاث، الجامعة الأميركية، بيروت، السنة 39 (1991).

سادساً: المصادر والمراجع الأجنبية

- **Archer (T.A):** The Crusades, 5Th. T. Fisher unwin, London, 1919.
- **Atiya (A.S):** The Crusades in Later Middle Ages, London, 1938.
- **Baldwin (M.W):** The First Hundred Years, UNIV. of Pennsylvania Press, 1969, in Setton: AHistory, Vol. 1.
- **Barraclough (G.):** The Medieval papacy, Harcourt, Brace and world, INC. 2 ed Brition, 1972.
- **Browne (L.E):** The Eclipse of christianity in Asia, CAM,1933.
- **Brundage (J.A):** The Crusades, D.C. HE. and co. Boston, 1964.
- **Boase (T.S.R0:** Kingdoms and Strongholds of The Crusaders, Thames, and Hudson, London, 1971.
- **Bury (J.B):** The Cambridge Medieval History, 8 vols, (Cambridge UNIV Press, London, 1963-1981).
- **Cahen (C.):** La Syrie Du Nord A L'Epoque Des Croisades, Paris, 1940.
- **Calmette (J.):** Le Moyen Age, Librairie Arthéme Fayard, Paris.
- **Chaladon (F):**Chaladon (F): Histoire De La Premiére Croisade, Auguste Picard Editeur paris, 1925.
- **Chamich (M):** History of Armenia, Trans, J.Avdall Calcutta, 1827.
- **Corpus. Scriptorun Byzantionae, Bann, 1828.**
- **Dozy (R):** Spanish Islam: Ahistory of The Moslem in Spain, Trans Francis G. Stakes, London, 1972.
- **Duggan (A):** The Story of The Crusades, London, 1963.
- **Duruy (V):** Histoire du Moyen Age, Paris, 1880.
- **Edbury (P.W):** William of Tyre, CAM. UNIV. Press, 1988.
- **Enlart (C):** Les Monument des croises dans le Royaume de Jerusalem, Paris, 1925-1928.
- **Gagnol (P):** Histoire du Moyen Age, Paris, 1918.

- **Gibbon (E):** The Decline and Fall of The Roman Empire, vol. 1, W.S. press, New York, 1960.
- **Godgrey (J):** The unholy crusade, oxford UNIV. Press, 1980.
- **Grousset (R): L'Empire Du Levant, Payot, Paris, 1949, L'Epopée Des Croisades, LIB. Plon, Paris, 1949& Hitoire de L'Armenie des Origines, Paris, 1947.**
- **Hollister (C.W):** Medieval Europe, 3 Rd Edition, John wiley, London, 1974.
- **Iorga (N):** Hitoire des Croisades, librairie UNIV.J. Gamber, Paris, 1924.
- **Jien (P):** Hitoire de L'Armenie, Depuis les Origines Jusgu, Unau Traite de lausanne, 2éme E, Paris, 1963.
- **Joinville:** Memoirs of The Crusades, Translated F.T. Morzials E.P. dutton and co. INC., Ney York, 1958.
- **Jullian (M):** Histoire De La France Et Des Francais, Tome 2 librairie larousse Plon, 1970.
- **Kerr (A.J):** The cursades, New York, 1966.
- **Lamb (H):** The Crusades: The Flame of Islam, vol.2, London, 1931, The Crusades: Iron Men and Saints, New York, 1930.
- **Longnon (J):** L'Empire Latin De Constantinople, Payot, Paris, 1949
- **Iugol (J):** Le panarabisme, Editions du scribe Egyptien S.A.E.
- **Mayer (H.E):** The Crusades, Translated j. Gillingham, Oxford UNIV. Press, 1972.
- **Michaud (M):** Hitoire Des croisades, 6 vols. A.J. Ducollet, Libraire éditeur, Paris, 1838.
- **Murphy (T.P):** The Holy war, Ohio state UNIV. Press, 1974.
- **Pernoud (R):** The Crusades, tran. E. McL Eod. Secker and warburg, London, 1962. Les Hommes de Croisade, librairi Jules Tauoudin paris, 1977.
- **Pirenne (H):** Mohamet et Charlomagne, Paris, 1937. Mohammed and Charlemgne, London, 1954.
- **Queller (D.E):** The Fourth crusade, UNIV. of Pennsylvania Press, 1977.
- **Richard (J):** Le Royoume latin de Jerusalem, Paris, 1953.
- Recueil Des Historiens Des Croisades, Historiens Occidentaux, IMprimerie Nationale, paris, 1967.

- Recueil des Historiens des croisades, Historiens Occidentaux Pub Academie des Inscriptions et Belles lettres.
- **Schlumberger (G):** Récits De Byzance Et Des Croisades, librairie Plon, Paris, 1922.
- **Setton (K.M):** AHistory of The Crusades, 5 volumes. The UNIV. of Wiscons Press, Madison, Milwaukee, and London, 1969-1985.
- **Sirarpie, Narssessian:** The Armenians, Norwich, 1972.
- **Smith (J.R):** The Crusades, Ashort History, Yale UNIV. Press, London, 1987. What were The Crusades, New Jersey, 1977.
- **Stevenson (W.B):** The Crusaders in The East, Cambridge UNIV. Press, 1968.
- **Synan (E.A):** The Papes and The Jews in The Middle Ages, New York, 1965.
- **Thompson (J.W):** Economic and Social History of The Middle Ages, vol. 1, Frederick Ungar Publishing CO., New York, 1959.
- **Tierney (B):** Western Europe in The Middle Ages, 3rd. ed Alfred A.K., New York, 1978.
- **Valentin (F):** ABrégé De L'Histoire Des Croisades, Tours Alfred Mame et Fils, Editeurs MDCCC LXXV III.
- **Vasiliev (A.A):** Histoire De L'Empire Byzantin, Tome 2, Pairs, 1932. History of The Byzantina Empire, vol. 1. 3rd edition, Madison, 1961.
- **Zacour (N):** An Introduction to Medieval Institutions, 2ed. St. M. Press, 1976.

سابعاً: «قائمة الدوريات الأجنبية»

- **The American Historical Review**, vol. 93, NO.2, April 1988.
- **La Grande Encyclopedie:** 4. lip (Larousse, Paris, 1972).
- **Hitory:** vol., 65, NO. 214, June 1980.
- **History:** vol., 55, NO. 184, June 1970.
- **Speculum: vol., XXIX, No. 1, January 1954.**
- **Speculum: vol., XXV 11, NO 3, July 1952.**